

مداخل فهم القرآن الكريم

أ.د/ طه جابر العلواني

تجديد الخطاب والمنطق القرآني

كثيرون من الأئمة حين كانوا يشعرون بأنَّ هناك انحرافاً قد حصل في الفكر أو المعرفة أو الخطاب أو فيها كلها يلجأون إلى القرآن الكريم يلتمسون فيه إحياء علوم الدين، وتجديد الخطاب، وإعادة بناء الفكر والمعرفة والثقافة، فعل ذلك أول من فعله عمر بن عبد العزيز، وسلك إلى ذلك سبيلين: سبيلاً نستطيع وصفه بأنَّه نظريّ ومعرفيّ، وسبيلاً آخر نستطيع وصفه بأنَّه عمليّ، أمّا النظريّ فإنَّه -رضي الله عنه- حين رأى حجم الاختلافات الفقهيَّة ونظر في المستقبل وما ينذر ذلك الاختلاف في حدوثه فيه؛ كانت دعوته الشهيرة إلى جمع السنن، فقد جمع عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- السنن لا لتكون مصدراً موازياً للقرآن الكريم ولا مكماً له، فمعاذ الله أن يظن رجل مثل عمر بن عبد العزيز أنَّ القرآن يحتاج إلى ما يكمله، والله (تبارك وتعالى) يقول للناس: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: 51)، وقال لهم: ﴿.. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89)، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: 33)، وقال ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: 64).

لكنَّه أراد بجمع السنن أن يجعلها بديلاً عن الفقه، ومخرجاً من السقوط في الاختلافات الفقهيَّة، وتفرق كلمة الأئمة، وتشتت ثقافتها، فهو يعلم أكثر من غيره أنَّ كل حكم فقهيّ يبدأ من الفقه ليصب في عالم الثقافة، وصناعة العقول، لكن الرجل عوجل قبل أن ينهي مهمته، ورغبت الدولة في أن تجعل من السنن نصّاً موازياً للقرآن الكريم، وبديلاً عنه في بعض الأحيان، مع أنَّ من المستحيل أن يأتي الناس بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً:

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: 88)، لكنهم وجدوا أنَّ وضع السنَّة إلى جانب القرآن أصلاً ودليلاً موازياً ومصدراً للتشريع مع عدم العصمة عن التغير والتبديل سوف يعطي مرونة لصنَّاع القرار والفتيا بتمرير بعض القضايا التي قد يكون من الصعب تمريرها مع تفرد القرآن المجيد بالحاكميَّة، وجاءت المقولات الغثيثة بعد ذلك من جواز نسخ القرآن بالسنَّة، وتخصيص عامه، وبيان مجمله، وتقييد مطلقه، وتأويله وتفسيره، فلا غرابة بعد ذلك أن تصبح السنَّة لدى بعض هؤلاء هي المهيمن على القرآن الكريم، فيقول مثل الأوزاعي: إنَّ الكتاب يحتاج السنَّة بأكثر ما تحتاج السنَّة الكتاب، وإنَّ السنَّة قاضية على الكتاب. إلى غير ذلك من مقولات جريئة من الصعب جدًّا أن تمر في تلك العصور لولا التهيئة والمقدمات التي أوجدت أرضيَّة صالحة لذلك؛ ولذلك بدأت حركة الوضع، وأكثر منها بدأ التساهل في الرواية، وإباحة الرواية بالمعنى، وذلك يعني أنَّ ما صار يروى من سنن هو عبارة عن أفهام الرواة، وكذلك جرى التساهل بتفسير الآحاد، فخير الآحاد في عهد الشيخين أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- أقل رواته اثنان، ولم يكن الشيخان ولا علي ولا عثمان يقبلون رواية الفرد إلا إذا أتى براو آخر يعضد روايته، في حين تساهل المحدثون وقبلوا رواية الفرد، وبدأنا ندخل إلى أصول فقهن مسائل كثيرة زادت في إرباك العلاقة بين كتاب الله وسنَّة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وبدأت القلوب تقسوا، والنفوس تتغير، والجفاف والجمود يسيطر على الفقه وأصوله حتى آل الأمر إلى أن يقال: الفتوى في الأمر الفلاني كذا، والتقوى كذا. مما اقتضى أن يكتب الإمام الغزالي وكثير من معاصريه وسابقيه كتبًا في تصحيح المسار، ومنها الكتاب الصريح في عنوانه "إحياء علوم الدين"، فإذا اعتبرنا أنَّ علومنا الإسلاميَّة تكاملت أبوابها ومسائلها في بداية القرن الرابع فمعنى ذلك أنَّ الشكوى كانت مبكرة، فالإمام الغزالي توفي عام 505 هجريًا، وبعد الغزالي جاء أبو شامة وهو مؤرخ شهير، وعالم كبير، فكتب كتابه الذي عنوانه بـ"الرد إلى

الأمر الأول"، يريد الرد إلى القرآن المجيد، وفي ذلك إشارة أيضًا إلى الإضطراب في تحديد المصادر، ومستوياتها في المرجعية.

وتأثرت معارفنا كلها المقاصدية والوسائلية بذلك الاضطراب، ولكن لم تقتحم العقبة، ولم يحدث التغيير، بل ساد التقليد كل جوانب الحياة المعرفية؛ لينتهي بالتقليد، والتقليد ما كان له أن يسود لولا استعدادات نفسية بلغت مداها، جعلت الأمة تزهد في معرفة الدليل، وتعمل على تجاوز مبدأ معرفة المصدر، فقبلت التقليد وهي تعلم مناقضته لتوجه القرآن الأساس، القائم على البرهان والدليل والعلم وسلطان الدليل، فالسلطة للدليل لا للمدلول، لكن التقليد يتجاوز الدليل، ويهمله، ولا يلق له بالاً.

ومنذ أن فتح باب التقليد والأمة في تراجع مستمر، وصحواتها سلكت مسالك عديدة إلا مسلك الرد إلى الأمر الأول بالرجوع إلى القرآن الكريم، والتصديق به والهيمنة على كل شيء، نحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري، وهو قرن فاصل، إذ يفترض أن سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - قد بعث في القرن الخامس عشر من وفاة سيدنا موسى، وفي القرن السابع من وفاة ورفع السيد المسيح، والمعنيون بالحقب الزمانية يعتبرون أن هذا القرن الهجري هو القرن الذي يمكن أن يكون قرن نهوض للأمة المسلمة، وخروج من حالة التيه التي هي فيها، وأنه لو فاتها هذا القرن من أوله إلى آخره دون أن ترسي دعائم تجديدها وبعثها وإحيائها فقد تتأخر لقرون كثيرة قادمة، إلى أن تأتي سنة التداول بلحظة فارقة، تبدأ الأمة فيها مرحلة نهوض، وما يجري في عالمنا المعاصر فيه مؤشرات كثيرة إلى أن عالمية الإسلام الأولى التي بدأت بالوحي لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - موشكة على الانتهاء خلال هذه السنوات، ولعل ما يجري من تدمير وخراب على مستوى الأمة والشعب العربي بمثابة القلب منها مؤذن بأننا في اللحظة الحاسمة اليوم، لحظة الاستبدال والتغيير، فإما أن تكون هذه المرحلة لنا أو علينا، مرحلة إحياء وبعث أو مرحلة ثبات مستأنف، والأمر بأيدينا، فإن جعلنا القرآن منطلقنا لبناء عالميتنا الجديدة فلن نخيب، إذ ذلك هو الأمر الأول، والمنطلق الأساس، وإن تواكلنا وانصرفنا عنه إلى سواه فإن اليأس سوف يؤدي بشبابنا وأجيالنا الطالعة

إلى الدخول في حالة السُّبات الجديد، وهو سُبات لا ندري كم سيطول فيما يفصل بيننا وبين معرفة النتيجة، سننهض في هذا القرن أو سندخل في حالة سبات جديدة هذه الأعوام القادمة، التي لا تزيد عن خمس وستين عامًا؟.

إنَّ علامة ذلك قد تَفُطَّن لها الإمام الشافعي في مقدمة رسالته، فقال: "... أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله.

بعثه والناس صنفان:

أحدهما: أهل كتاب بدَّلوا من أحكامه، وكفروا بالله، فافتعلوا كذبًا صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم.

فذكر (تبارك وتعالى) لنبيه من كفرهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 78).

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: 79).

وقال (تبارك وتعالى): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتَّلهُمْ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 30-31).

وقال (تبارك وتعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء: 51-52).

وصنف كفروا بالله، فابتدعوا ما لم يأذن به الله، ونصبوا بأيديهم حجارة وَخُشُبًا، وَصُورًا استحسنوا، ونبزوا أسماء افتعلوا، ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها، ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره، فعبدوه: فأولئك العرب"¹.

نحن إذن اليوم في المرحلة التي ندخل فيها معركة التصديق والهيمنة على الأديان كلها، وظهور الدين على الدين كله، وقيام العالمية الثانية في أهل الكتاب، فمرحلة عالمية الأميين هذه نهايتها، ومرحلة العالمية في احتواء أهل الكتاب والتصديق على كتبهم والهيمنة عليها وظهور الدين على الدين كله هي العالمية التي نعيش مرحلة مخاضها، قد تكون الولادة قيصرية وقد تكون الولادة أيسر من ذلك، لكنّها في سائر الأحوال ولادة عسرة، محوطة بالمفاجآت، لكن الأساس ينبغي أن يكون متيناً.

إنَّ أهل الكتاب اليوم معهم العلم، والخبرات، والتجارب، والمال، والقوة، وبيننا وبينهم على مستوى التقدم الحضاريّ والتخلُّف ما لا يقل عن ستمائة سنة، فلسنا بلا حقيهم في تلك الأمور، لكن القرآن الكريم قادر على تحديهم والإتيان بالتي هي أحسن في كل ما تعانيه البشرية اليوم من تصحر، واحتباس حراريّ وتلوث بيئيّ، وانتشار للجريمة، وتفكك في الأسرة، واتجاهات متمرّدة لدى البشر، وفساد يعم الجو والبر والبحر، واضطراب في القيم، واختلال في موازين العدل، وسائر الانحرافات التي تعاني البشرية منها.

فما المخرج من ذلك كله؟

وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب في أماليه، والحافظ المحدث أبو عيسى الترمذي⁽²⁾ في جامعه، من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب علي -عليه السلام- ينقل لنا

¹ راجع مقدمة الرسالة للشافعي.

(2) أخرجه الترمذي في جامعه: (172/5) وفي الطبقات التي رقت فيها الأحاديث رقمه (2908) في باب "فضل القرآن" وقد استدلل به صاحب "إثبات الحق..." في كتابه "ترجيح

أساليب القرآن على أساليب اليونان" ص 15 ط. دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

الإمام علي -كرم الله وجهه- أنه قد حاك في صدره ما يحيك في صدورنا اليوم، فذهب إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فسمعه يقول: ستكون فتنة الأحاديث، قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي -عليه السلام- فأخبرته، فقال: أَوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: "ألا إنها ستكون فتنة"، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، وَمَنْ ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن -إذ سمعته- حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: 1-2). مَنْ قال به صدق، وَمَنْ عمل به أُجِرَ، وَمَنْ حكم به عدل، وَمَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم".

إنَّ هذا الحديث معناه صحيح كل الصحة، يؤيده القرآن المجيد، وسائر آياته، وكثير مما صح عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فإذا نظرنا في عالمنا اليوم نجده محكومًا بقواعد تفكير مشتركة تعم العالم كله، يرجع الجميع إليها، وتحتكم البشرية كلها إليها، فهي قواعد تفكير مشتركة، عامّة شاملة، من يرفضها تعزله البشرية، وتكاد تخرجه من جنسها، ومن يتبناها يخضع لها، وهي قواعد انبثقت عن علم أو خبرات وتجارب، اكتسبت منها علمويّتها، وصدقها، وأيدت بها سلطاتها، والمسلمون بين أيديهم في كتاب الله (جل شأنه) إذا أحسنوا قراءته أن يكشفوا زيف الزائف من هذه القواعد، وخلوص ونقاء النقي الخالص منها، وكتاب الله وحده القادر على التدخل في هذه القواعد المشتركة، والإضافة إليها والحذف منها، واستبدال الثالف، إذ هو الكتاب الوحيد المتحدي، المعجز، الذي لا يأتيه الناس بمثل أو قاعدة تفكير أو مبدأ أو فكرة إلا جاء بالحق وأحسن تفسيرًا.

فسبيلنا اليوم لظهور الدين على الدين كله هو سبيل القدرة العلميّة والمعرفيّة، والفكريّة والعقليّة على صياغة قواعد تفكير إنسانيّة مشتركة، وتقديمها إلى بشريّة حائرة موشكة على الانتحار، وأهم ما نحتاجه اليوم الوعي بهذه الحقيقة، حقيقة أنّ القرآن وحده يخوض اليوم معركته، بعد أن انتقل حامله -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الرفيق الأعلى، فإنّما أن ترشح الأمة نفسها لقبول المهمة التي رشحها الله لها، مهمة الشهادة على الناس بالقرآن، وإنّما أن تسقط في الاختبار، وتفشل ويفارقها النجاح في تبوء الموقع الذي أراد الله منها أن تبوءه، وتستمر في البعد عن القرآن والانشغال بأمور أخرى.

فالحلطة الفارقة هي هذه، نريد حملة للقرآن يعون هذه الحقيقة، ويحسنون إدراكها، ويعملون على استخلاص قواعد تفكير إنسانيّة مشتركة، هادية، تقوم على الحق، وهي أحسن تفسيراً من كل ما عداها، وأقدر على إقناع البشريّة بأنّ الحل حلها، وأنّ ما تجده عند هذه الأمة لن تجده عند أحد آخر، وبعد الوعي لا بد من الدراسة، والتعامل مع البشريّة في مستوى سقفاها المعرفي، وتحديد هذا الكتاب، وتقديم القواعد الأمثل والأكمل، والأتم والأصح للبشريّة كلها. إنّ القرآن الكريم حفل بالكليّات، وعني بها، وهذه الكليّات هي الكفيلة بمعالجة المشكلات الكونيّة، والحلول محل قواعد التفكير المشتركة في هذه المعالجة، هناك مشكلات مياه وتسحر وفقر وغنى، واستطاعت البشريّة بعقولها القاصرة أن تبتكر بعض الحلول، فقدمت مثلاً فكرة الأمم المتحدة؛ لأنّها رأت فيها بديلاً عن وحدة البشريّة، لا يلغ خصوصيّاتها وكياناتها وفي الوقت نفسه يخفف من نسبة الغرور بتلك الخصوصيّات؛ لأنّها لم تجد من يلفتها إلى أنّ مشكلاتها اليوم من جهل ومرض وفقر وفتن وحروب وأسلحة دمار وهبوط في مقاييس القيم تحتاج إلى إعادة النظر في الرؤية الإنسانيّة، فكيف نستطيع أن نوجد وعياً بأنّ الأزمات العالميّة تحتاج إلى كتاب كوني.

وأولى خطوات تدبّر القرآن الكريم وحسن فهمه هي الولوج إليه من داخله وتفسيره بعضه ببعض.

تفسير القرآن بالقرآن

إنَّ القرآن العظيم كتاب الله، أنزله على قلب محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- عبده ورسوله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فضَّله الله على علمه الذي أحاط بكل شيء وهيمن على كل شأن، وجعله الكتاب الخاتم لكل ما سبق، وأنزله على خاتم النبيين والمرسلين ليُحيط بكل جوانب رسالاتهم وما جاءوا به من معتقدات، وليكون الحافظ الأمين للأساسيات المشتركة بين النبيين، بحيث نجد فيه حنيفية إبراهيم، وصحف وتوراة موسى وألواح، وإنجيل عيسى وما أنزل الله فيه.

وقد وصف الله (سبحانه وتعالى) كتابه الكريم بأوصاف كثيرة تقارب الأربعين وصفًا، فهو «نور مبين» و«كتاب حكيم» و«صراط مستقيم»، يهدي للتي هي أقوم، ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد. وما أكثر الأحاديث التي وصفت القرآن ودارت حول الآيات التي وصف القرآن الكريم نفسه بها، كحديث ستكون فتنة الحديث السابق الذكر. وهذا الحديث الجليل قد رواه السيد الإمام أبو طالب في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه-⁽³⁾، عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-⁽⁴⁾. قال: ولم يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في

(3) ما رواه معاذ عن عليّ جاء في (مجمع الزوائد: 164/7).

(4) والمروي بطريق عمر بن الخطاب في "جامع الأصول: الحديث رقم (6232)، لكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر ٧٢ وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناؤوط معلقاً "كذا في الأصل - أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب" ولم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذي، حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر: "...نزل جبريل ٥ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبره: أنها ستكون فتنة، قال (أي: رسول الله لجبريل): "فما المخرج منها يا جبريل؟" قال: كتاب الله... الخ وقد أخرجه رزين وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه "فضائل القرآن" وقال: هذا غريب من هذا الوجه.

وفي سنن الدارمي أورد الحديث في (523/2) برقم (3315) عن عبد الله وبدأه بقوله: "إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..." وختمه بقوله: فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته..." وأما باللفظ الذي معنا فقد أورد الدارمي في الحديث رقم (3331) و(3332). وقد علق المحققان عليه بقولهما: "رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب (14) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (2906) 172/5-173. وأحمد في المسند (91/1). وأبو داود الطاليسي وأبو بكر الأثيري في كتاب "الرد" له عن الحارث عن علي. كما في التذكرة للقرطبي ص48 بتحقيقي. قال ابن كثير في فضائل القرآن، ص11-12: "لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فريء حمزة في عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أي: لا من جهة روايته وصدقه)، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ؑ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود ؓ أ.هـ. والآية رقم2 من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت "فتنة الحديث أو الأحاديث" بأنها الافتتان برواية "الأحاديث" أو "السنن" عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقاً، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النبي عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن. (قال طه): ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجة اشتمالها أو تضمنها للقرآن أو بأية حجة أخرى.

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كل إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، ففي عصر الصحابة خاصة — عصر الشيخين — لم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها.

وحين كان عبد العزيز والد عمر واليًا سنة (83 هـ) فكر في جمع السنن، وهو مشروع استكماله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهًا بديلاً عن الفقه الخلافي يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهية، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتمالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرغون عليها حتى بدا وكأن الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرخي الحنفي لنفسه أن يقول: "كل آية تحالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة".

"أصل: واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ"!! ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جرئ يدل على أن التعصّب للمذاهب قد بلغ مستوى مَرَضِيًّا بحيث صار الأصل تابعاً للفرع، بل محكوماً به. ولذلك فإن إعادة بناء الأئمة واستئناف شهودها الحضاري وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدرًا منشأً وكاشفًا عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به أنزله الرحمن الرحيم (يُنَبِّئُكَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَيُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: 88). وما اختلف فيه أو عليه لابد فيه من الرجوع إلى السنة النبوية التي صدرت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (يُنَبِّئُكَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَرُحْمَةً وَيُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: 88). وما اختلف فيه أو عليه لابد فيه من الرجوع إلى السنة النبوية التي صدرت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (يُنَبِّئُكَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَرُحْمَةً وَيُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: 88).

(64).

وعلى هذا فاللعن الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنى صحيح يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنة. والله أعلم.

شرط أهل الحديث متلقًى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول.

وقد أودع الله (سبحانه وتعالى) كتابه الشرعة والمنهاج فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسُبل هدايته، فحمدًا له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا (سبحانه وتعالى) بكتابه عمّا سواه، وكفانا به عمّا عداه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: 51)، فنسأله (سبحانه وتعالى) كما أنعم علينا بالقرآن العظيم، والرسول الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، ويذكرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا لا علينا، وقائدًا لنا إلى الجنة، إنه سميع مجيب.

هذا القرآن المجيد قد يسّره الله (سبحانه وتعالى) بفضله ورحمته للذكر، وجعله في متناول العقول والقلوب عندما تتطهّر، بحيث تمس عقول وقلوب أولئك المتطهّرين. وفي الوقت نفسه تحدّى البشر به، وثبت عجزهم وعجز الجنّ معهم وسائر مَنْ خلق الله عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. ومع التحدي والتيسير جعل الله له حافظًا من داخله، يحرسه من أيّ تغيير أو تبديل أو تحريف، وذلك نظمه الداخلي. فنظم القرآن هو حافظه وحارسه الأمين و«نظم القرآن» يقوم على دعائم كثيرة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها -كلّها- في وقت واحد. نذكر دعامة من هذه الدعائم، هي وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة وتنوّعها مع وجازة الآية واشتمالها على أدق وجوه البيان، وأجمل أنواع البديع، يقول الإمام الرازي: "إنّ القرآن كما أنّه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، هو أيضًا معجز بسبب ترتيبه ونظم معانيه". ولعل الذين قالوا: "إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"⁽⁵⁾. فآيات القرآن الكريم المكنون والعبارات والجمل التي يشتمل عليها لها مستويات متعدّدة من

(5) في كتابه البلاغي المطبوع عدة طبعات: "نهایة الإيجاز في درایة الإعجاز" القاهرة: الآداب والمؤید.

الدلالة⁽⁶⁾. فلها دلالة بحسب الوضع اللغوي وتركيب الجمل، وهي مستوى من الدلالة يشاركها فيه الكلام العربي كله، ولها دلالة صيغ بلاغية، وهي على مستويات عُليا ووجوه كثيرة، فكلام سيّد البلغاء المتقين رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو «أفصح مَنْ نطق بالضاد»- ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته- نحو الإمام علي -عليه السلام- قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنية وفصاحتها، لكنّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد المعجز، ولو على مستوى الجملة، كما في «الدلالات المكنونة» أو المطوية. فالقرآن الكريم وصفه المتكلم به ومنزله سبحانه بأنّه: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (الواقعة: 78). ففي ثنايا النصّ وفضاء الآية يعثر المتدبرون الغوّاصون على الآلئ والجواهر عديمة النظير، وتكشف مكنوناته كذلك عبر العصور، بحيث تبدو كأنّها لم تنزل إلا في تلك الفترة، وعلى أهل ذلك العصر، وهذه الدلالة ذات مستويات متعددة كذلك، فمنها: دلالة ما يذكر على ما يقدر، مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة، وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير. ومنها: دلالة السياق⁽⁷⁾، وذلك مستوى يدرك من التدبر في مواقع الجمل من الآيات، والآيات من السور، والسور من مجمل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها

(6) لعل عدم إلمام غالبية المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم في الأخطاء التي قد يقع فيها من يعتبرون حسني النية منهم. لأن اللغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربية، خاصة في هذا المجال. أما سيئو النية فأولئك لهم حديث آخر.

(7) السياق أمر ذو أهمية بالغة، حيث يعد "السياق" في القرآن المجيد هو المنتج للدلالة، والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفًا جامعيًا مانعًا، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتمامًا شديدًا بدلالة السياق فالسياق -عندهم- يرشد إلى تبين الجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف. و"الإضافية" تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجوده فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين في ذلك..". راجع بدائع الفوائد لابن القيم (914-10) وإعلام الموقعين (350/1-351) وقد أوردت ابتنا د. رقية العلواني تفاصيل هامة في "دلالة السياق" وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته فراجع ذلك في رسالتها القيمة "أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة نموذجًا" رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزع دار الفكر في دمشق عام 1424هـ/2003م، ص 260-265. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان "دلالة السياق في القرآن" لم تطبع طبعه عامة بعد. أما السياق: فهو لصيق جدًا بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

لتظهر المناسبة، وتتحدّد صفة الجملة وهويّتها في معرفة ما إذا كانت جوابًا عن سؤال، أو تعليقًا لمضمون كلام سابق، أو أنّها وردت في موقع الاستدراك، أو في موقع الدليل لما سبق. وفي سائر الأحوال، فإنّ هناك وفرة في الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أي مستوى من مستويات دلالاتها الوفيرة على أنواع من المعاني لا تقع تحت حصر؛ وذلك هو الإطلاق الذي يتفرّد لسان القرآن به عن كل ما سواه، فكلّ ما عداه داخل في دوائر النسبيّة، أمّا هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون.

وقد تكفّل الله (سبحانه) بحفظ القرآن لفظاً ومعنى. قال (تعالى): ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: 42). وقد دلّت الآيات المحكمات بسائر أنواع الدلالة على حفظ القرآن لفظاً. وقد تضافر النظم مع الوحدة البنائيّة للقرآن، بالإضافة إلى وسائل أخرى ظاهرة وكامنة فيه على نفي الباطل عن القرآن، وعصمته في لفظه وحفظه في معانيه.

والقرآن الكريم يستوعب الوجود وعلاقاته وسائر عناصره. وهذا ما يجعل عمليّة استجلاء معاني القرآن باستقراء تام أمرًا قد تنوّع به العصبه من العلماء. فالقرآن — مع مزاياه وخصائصه وصفات الكمال فيه وحسن نظمه، وسموّ بلاغته، وعلوّ فصاحته، وتيسير الله (سبحانه وتعالى) له — يبقى في حالة من السموّ تجعل عمليّة استجلاء معانيه بشكل قريب من الكمال عمليّة تحتاج — أول ما تحتاج — إلى إدامة الصلة بهذا القرآن الكريم، وبناء اللاحقين من أبناء الأُمَّة على ما أسّس السابقون، واعتبار عمليّات تفسيره وتأويله واستجلاء معانيه، والتطهر للوصول إليها، شغل المسلمين الشاغل عبر العصور في مختلف الأجيال. ولا يُنكر أنّ علماء المسلمين قد بذلوا الكثير في هذا الصدد، وشمّر الكثيرون منهم عن سواعد الجدّ، وبذلوا جهودًا متتابعة في التفسير والتأويل، وبيان أوجه بلاغة القرآن وفصاحته وتحديده وإعجازه، ولم تبذل أُمَّة أخرى جهودًا في دراسة ما أنزل الله إليها من كتب أو صحف. ولكن هذا القرآن كتاب مطلق كوني معادل للكون وحركته مستوعب لهما، لا يُحيط به تفسير ولا تأويل — ولو تضافرت عليهما الجهود — بل يُحيط الله وحده (سبحانه وتعالى) به، فهو الذي

فَصَّلَهُ عَلَى عِلْمِهِ، وَبَيَّنَ فِي مُحْكَم آيَاتِهِ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، وَأَخْرَجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

لقد ورثنا -نحن المسلمين- كتابات في التفسير تجاوزت كل ما ورثناه في العلوم الأخرى من حيث العدد والاتجاهات، واتخذت اتجاهات التفسير لدى أممتنا -بدءًا من جيل التلقي ثم الأجيال التي جاءت بعد ذلك الجيل المبارك- اتجاهات عديدة، فكان منها «التفسير اللغوي»، ثم «التفسير الآثاري» القائم على روايات آثار عملية وقولية ذات علاقة بالآيات المفسرة، ثم «التفسير الفقهي» الذي يركّز المفسر فيه على معرفة أحكام القرآن أو الأحكام التي وردت في آيات القرآن الكريم. برزت بعد ذلك أنواع أخرى من التفسير، مثل «التفسير الإشاري» الذي عني به بعض الصوفية، و«التفسير العقلي»، و«التفسير البلاغي»، ثم «البياني»، ثم برز في عصرنا هذا ما سُمّي بـ«التفسير العلمي»، وربما أضاف بعضهم «التفسير العددي»، و«التفسير الفلسفي» وما إلى ذلك. وحين حاولنا إستجلاء هذا التراث التفسيري المتنوع بمعرفة ما قدّمه للقرآن الكريم وللمخاطبين به -وهم البشرية كلّها- وجدنا أنّ هذا التراث -على اتساعه وتنوّعه وكثرة فوائده- لم ينجح في استجلاء معاني القرآن الكريم، وبقي في هذا الكتاب الخالد كثير من العوالم التي قد يشعر الإنسان بأنّه لو خُلي بينه وبين القرآن، يراجع ويسأله ويتدبّر فيه ويتدكّر ويتعقّل لاستفاد من معانيه وتحليلاته وما فيه من نور وهداية أكثر بكثير مما استفاده من تدخّلات المفسّرين، ولا نتردد في أن نقول: إنّ بعض التفاسير قد وقفت حاجزًا بين القرآن والقراء، وربما حرمت بعض التفاسير القراء من حسن استجلاء معاني القرآن العظيم ومحاولة التدبّر فيها وتعقّلها وتدكّرها.

من هنا بدأت رحلتنا مع تدبّر القرآن، ومحاولة فهمه من داخله واستجلاء أنواره من ثنايا آياته، والتعرّض لأنواره ونفحاته من داخله، فوجدنا في ذلك خيرًا كثيرًا، ونعمًا لا تُحصى، تجعل القارئ المتدبّر -إذا أحسن التدبّر ومرن عليه- أكثر وعيًا بالقرآن وفهمًا لسياقاته وإدراكًا لمعانيه واعتبارًا بقصصه وأمثاله، وأقرب إلى الصواب في إدراك مقاصده وغاياته؛ ولذلك فقد رأينا تخصيص هذه المقدمة لمعالجة هذا النوع من التفسير، وشرح وبيان المنهج

النبيّ القويم في الأخذ به والنسج على منواله، سائلين العليّ القدير أن يُوفّقنا ويُعيننا على بلوغ هذه الغايات السامية الشريفة، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن يُنير به بصائرنا، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

إنّ القرآن الكريم قد بدأ اتّصاله برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وبالأرض بالأمر بالقراءة، فكانت أوّل كلماته أمرًا بالقراءة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-5)، ففي هذه الآيات الخمس -الأولى نزولاً من الكتاب الكريم- أمرٌ بقراءتين وفي هذا تنبيهٌ إلى أنّ تنزيله سوف يتكامل ليصبح كتاباً كاملاً تامّاً، مصدّقاً لما بين يديه، ومهيماً عليه، ومشتملاً على تراث النبوّات كلها، وحاملاً لهدايات الأنبياء والمرسلين جميعاً.

إنّ كل قراءةٍ من القراءتين لها خصائصها التي تستمدّها من صلة الموصول. فالقراءة الأولى في قول الله (تبارك وتعالى): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، قراءةٌ يستعين الإنسان في ممارستها باسم الله «الخالق»، والخلق بالنسبة لهذا الإنسان المتلقّي لهذا القول الثقيل يبدأ من علق: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، والعلق قطعة من الدم ثم تطوّرت. أمّا القراءة الثانية فهي قراءة بالقلم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: 3-4). وذكر «القلم» هنا في صلة الموصول «الذي علّم بالقلم* علّم الإنسان ما لم يعلم» تربط بين القراءة -قراءة القرآن الكريم والقلم- وجميع القراءات التي تراكمت بواسطته منذ بداية الخلق حتى بداية عصر التنزيل، فهي قراءة بالخلق وقراءة بمتراكم المعرفة، وقراءة بالوحي النازل، ممّا يُشير إلى أنّ القرآن يُعلّم منذ البداية الجمع بين قراءتين أو أكثر من قراءتين؛ لكي يحقق أهدافه أهداف التنزيل.

ثم تتالت وتتابع أنواع القراءات بعد ذلك. فهناك: قراءةٌ يعمد المتعبّدون الذين يبتغون ثواب الله (تبارك وتعالى) بالقراءة إلى القيام بها. هذا الثواب الذي وعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- به: "اتلوه فإنّ الله يأجركم بكل حرفٍ عشرة، لا أقول ﴿آلَمْ﴾ حرف،

ولكن «ألف» حرف و«لام» حرف و«ميم» حرف⁸. وهناك قراءة أخرى: هي قراءة الذين يريدون معرفة الحلال والحرام وشريعة القرآن الكريم، فهي قراءة تتسم بالبحث عن الشريعة وعن الآيات التي تحمل تشريعات إلهية من أمر ونهي ووصية وما إلى ذلك. وهناك قراءة ثالثة، هي قراءة أولئك الذين يريدون أن يعرفوا تاريخ البشرية وتطورها ومسيرة البشرية عبر التاريخ، منذ بدء الخليقة حتى أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ رغبة في معرفة ذلك التاريخ والاعتبار به، واستنباط دروسه وعبره. وهناك قراءة رابعة، هي قراءة من يقرأ ليستمتع بدقة اللفظ وجمال الأسلوب وبلاغة القرآن الكريم؛ ولكي يرى جوانب تحديه ووجوه إعجازه للبشرية عن أن تأتي بمثله. وهناك قراءة خامسة هي قراءة من يحاول أن يطلع على قصص الأنبياء، ومعرفة أقوامهم وأحداث أزمانهم ومضامين رسالاتهم. وهناك قراءة سادسة، تحاول أن ترى ما إذا كان هذا القرآن يستشرف المستقبل، ويُعطي مؤشرات له، ويوضح مصير الإنسان ومصير البشرية، إلى غير ذلك من قراءات كثيرة تكاد تشمل جوانب القرآن الكريم المختلفة. وهناك أناس درجوا على إثارة أسئلة؛ بعضها في الفلك، وبعضها في التاريخ، وبعضها عن الحاضر والمستقبل، وغير ذلك من أجل أن ينزل الجواب على أسئلتهم تلك وحيًا، بحيث يكون لديهم جواب تطمئن إليه النفوس، وينشرح له القلب.

هذه القراءات المتعددة المتنوعة هي التي بدأ الفكر الإسلامي يتكون في بداياته بها وحوها. فلم يكن للعرب قبل القرآن علوم ومعارف متطورة، فقد كان العرب أمة من الأميين، والأميون كلمة لها معنيان؛ فالمعنى الأول: أي الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وهذا ليس مرادًا هنا؛ لأنه من المعروف أنَّ بيئة قريش بيئة تجارية، وكان فيها شيء من القراءة وشيء من

⁸ نص الحديث كما ورد في صحيح الترمذي وغيره: «عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا م حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».

محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي (دار إحياء التراث العربي: بيروت) (5/175) تحقيق أحمد محمود شاكر وآخرون.

الكتابة، شأنها شأن البيئات التجارية، كما أنَّ هناك ما يدل على أنَّ العرب كانت لهم كتابات في تلك المرحلة⁹. أمَّا المعنى الثاني للأمِّيِّ أو الأميين: هم الذين لم ينزل عليهم كتاب من قبل، وانقطعت الصلة أو لم تقم صلة بينهم وبين الوحي الإلهي في وقت منظور. والعرب -وإن كان هناك تاريخ لبعض الأنبياء في جزيرتهم مثل هود وصالح- قد بُعِثت الشُّقَّة بينهم وبين هؤلاء الأنبياء والمرسلين، فعادوا إلى أميَّتهم؛ ولذلك سموا بالغافلين في بعض الآيات: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (السجدة: 3)، وقد نُسيِت كل تلك الرسالات، وفُصِلت بينهم وبينها دهور. كأثَّهم لم يأتهم نبي أو رسول من قبل، فهم من الشعوب الأميَّة بهذا المعنى؛ أي التي لم تتلقَ رسالةً سماويَّة. ومن هنا تطلَّعت وتشوَّقت نفوسهم إلى رسالة: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام: 157)، أي وهم ينظرون إلى اليهود والنصارى من حولهم وكانوا يتشوقون إلى نزول شيء أو خطابٍ إليهم.

وبسبب كون العرب أميين، لم ينزل عليهم وحي قبل القرآن، فقط لما أنزل القرآن الكريم بدأت تتكون أفكارهم ومعارفهم وعلومهم من تفاعلهم مع القرآن. ممَّا جعل ابن عبد البر أو سواه يقولون: "العلم: قال الله، قال رسوله"، فالعرب قبل نزول القرآن، كأثَّهم لم يمارسوا أيَّة عمليَّات تعليميَّة أو معرفيَّة؛ ولذلك كان القرآن بالنسبة لهم هو المصدر المنشئ لأفكارهم ولآرائهم ولتصوراتهم ولعارفهم وعلومهم، وحوله تكوَّنت تلك المعارف التي عرفت فيما بعد بـ«العلوم الإسلاميَّة»، وعليه نشأ «الفكر الإسلامي» أو «العلوم النقليَّة»، أو التي سُمِّيت في بعض المراحل بـ«العلوم الشرعيَّة»، فهذه العلوم تكوَّنت في دوائر تلك القراءات المتعدِّدة والمقاربات المتنوِّعة للقرآن الكريم حتى أصبحت مجموعةً من المعارف التي بدأ تدوينها الرسمي

⁹ ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التي تعرَّضت لوضع الأعراب وعرب الجاهليَّة وقبائلهم المختلفة في عصر التنزيل، منها «المفصل في أحوال العرب» لابن يعيش، ومنها «بلوغ الأرب في أحوال العرب» للآلوسي، ومنها «عصر النبي وبعثته قبل البعثة» لمحمد عزة دُرُوزة، إلى مصادر أخرى كثيرة تحدثت عن تلك الفترة.

عام 143هـ¹⁰ الذي صار هو تاريخ التدوين الرسمي لتلك المعارف أو لذلك الفكر الذي انبثق عن قراءات المسلمين للقرآن الكريم؛ فهناك تفسير، وعلم عقيدة أو توحيد، وعلم فقه وأصول، وحديث، وعلوم عربية. وهذه كلها تقريبًا جرت مقارنتها أو عملية الوصول إليها بالقراءات أو بالمقاربات الإسلامية للقرآن الكريم التي تنوعت وتعددت - كما ذكرت - بتعدد أنواع القراءة، إضافة إلى أنواعها القديمة منها والحديثة. وكلها كانت ذات ارتباط وثيق بالقارئ نفسه، فللقارئ رؤيته الكلية وتصوره ودوافعه ودواعيه ومؤثرات أخرى كثيرة من بيئته وثقافته وحضارته وقدراته ونواياه وغاياته وسائر المؤثرات الأخرى، وللقارئ دور كبير في تحديد نوعية القراءة التي يقرأ القرآن الكريم بها.

والقراءة ذات علاقة وثيقة بالزمان والمكان، فالزمان الذي يقرأ القارئ القرآن فيه، والمكان الذي يقرأ القارئ القرآن به كلاهما له أثره في عملية القراءة، واختيار نوعها وكيفيتها، والحصول على النتائج المتوخاة منها. وهناك البعد الغيبي الإلهي الذي يُحيط بالقارئ وبالقراءة وبمنهجها، فإذا صادف القارئ لطفًا من الله (تعالى) وعنايته وتوفيقه فقد يوفق في قراءته، وقد يصل بهذه القراءة إلى كثير من مكنون القرآن الكريم؛ ولذلك، فإنَّ الله (تبارك وتعالى) قال: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: 79)، وهنا الآية تُشير إلى عملية الوصول إلى المعنى، وليس اللمس الحسي كما ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء. وإنما مَسَّ المعنى المكنون والوصول إليه. وقد وضع الله (تبارك وتعالى) كلمة: ﴿المُطَهَّرُونَ﴾ بصيغة اسم المفعول لكي ينبّه إلى أنَّ عملية التطهير تجري من الخارج، يعني المطهّر هو من طهره غيره. ذلك يعني أنَّ المُطَهَّرِينَ هم أولئك الذين طهرهم الله (تبارك وتعالى) وهبًا عقولهم وقلوبهم ووجدانهم للمس معاني القرآن الكريم والوصول إليها. ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: "إنَّ لربكم في دهركم لنفحات، فتعرّضوا لها"¹¹، فحينما يقوم القارئ للقرآن الكريم متعرّضًا لنفحات الله

¹⁰ على ما أكّد الذهبي وتبعه بعد ذلك السيوطي.

11 جلال الدين السيوطي، جامع الأحاديث (9/ 153) نقلًا عن: الطبراني في الكبير (19/ 233)، رقم 519، والأوسط (3/ 180)، رقم 2856.

(تبارك وتعالى) فَإِنَّ استفادته بقراءته سوف تكون أكثر بكثير من ذلك الذي حُرِمَ هذه الجوانب أو لم يصادفها.

وقد وصف الله (تبارك وتعالى) القرآن الكريم بأنه هُدى لقوم، ونور وبيان لأقوام، وقد وصفه كذلك بأنه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا. وينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: 82). فهذا الخطاب يتنوع دوره في التأثير بتنوع القارئ وما يتصف به وما يتعرض له من نفحات الله (تبارك وتعالى).

وهناك معوقات تحول بين القارئ وبين القراءة، يجب أن يحرص القارئ على تلافيها ومنها:

أولاً: «الاختلاف»: فإذا وقع اختلاف بين القارئ للقرآن الكريم وتنازعوا أمرهم، وحاول كلٌّ منهم أن يتخذ موقفًا ما يستدل عليه. هنا ينصح رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هؤلاء بأن يتركوا القرآن، وأن يقوموا عنه، حيث إنَّ القرآن في هذه الحالة -حالة الاختلاف والشقاق النفسي- سوف يحمل القارئ على أن يجعلوا من القرآن مجرد شواهد ووسائل معبرة عن آرائهم التي اختلفوا فيها وحوّلها. وسيؤدي ذلك إلى أن يضرّبوا القرآن بعضه ببعض بدلاً من أن يقرؤوه في تكامل تام، وفي إطار وحدته البنائية؛ ليتعرّضوا لنفحات الله (تبارك وتعالى) فيه.

ثانياً: «البحث عن شواهد»: من المعوقات أن يمارس القارئ القراءة في القرآن الكريم طلباً لشاهد أو دليل معضد لموقف يقفه أو رأي يراه. ففي هذه الحالة كذلك، سوف يكون القارئ محجوباً عن جوانب هامة من أنوار القرآن وأضوائه ووسائل هدايته ومعانيه.

ثالثاً: «الدخول بأحكام مسبقة»: كذلك الدخول بأحكام مسبقة إلى القرآن الكريم يُعَدُّ من المعوقات التي إن دخل القارئ بها فإنه لن يكون قادراً على استجلاء معاني القرآن بشكل سليم. فالقرآن إنما يفتح على قارئٍ هو في حاجة إليه، يريد أن يستنطقه ويستثيره لكي ينال من هدايته ومن معانيه ما يسدّد طريقه ويصوّب خطاه، ويعينه على معالجة أزمته. يقول الله

(تبارك وتعالى): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى:7)، فالتائه سوف يجد هدايته فيه، ولكن الداخل إليه بأحكام مسبقة سوف يجد نفسه يقرأ بطريقة مَنْ يفرض على القرآن معاني قد لا يحتملها نصُّه ولا يُشير إليها أو يدل عليها خطابه بأيّ وجهٍ من أوجه الدلالة. وهنا يتحوّل القارئ من قارئٍ تالٍ مفتقرٍ إلى ما في القرآن الكريم إلى إنسانٍ يحاول تحميل القرآن ما لا يحتمل.

وهناك مقدمات يجب على القارئ أن يعيها في ولوجه للقرآن الكريم، منها:

أولاً: «موقع القارئ من الخطاب»: يجب أن يحدد القارئ موقعه من الخطاب، ما موقعي أنا؟ هل جئت إلى القرآن الكريم طالبَ هدايةٍ، أم طالب تعبُّدٍ أم طالب معرفة حكم أم طالب معرفة سُنَنِ إلهية أم سُنَنِ اجتماعية أم تاريخ أقوامٍ أم استنباط هداية..، أم ماذا؟ هذا التحديد مهم جداً، ولا بد للقارئ أن يُحدّد موقعه من القرآن الكريم وهو يلج إلى رحابه، ولا بد من أن يُحدّد موقع الخطاب منه؛ ما علاقة القرآن به؟ وهنا يُبيّن إيمانه واحترامه للقرآن ورؤيته له، أُلْفته معه، علاقته به، تصوّره له، مع إيمان تام ويقين كامل بقدره القرآن المجيد على تزويد القارئ -بكرمه- بما هو بحاجة إليه. فلا بد أن يحدّد القارئ هدفه من القراءة بدقة تامّة، وهو ما نسمّيه بالنية: "إنّما الأعمال بالنيّات". والقراءة عمل، فلا بد من بناء النية والتعرّض للتطهير الإلهي. لعلّ القارئ يصبح واحداً من أولئك المطهّرين الذين يستطيعون العروج إلى مسّ معاني القرآن الكريم.

ثانياً: «تنزيل القراءة على القلب»: تنزيل قراءتنا للقرآن على قلوبنا أمر في غاية الأهمية؛ لكي نحصل على ثمرة القراءة، ولنحني فوائدها، فالقراءة بالعينين وتحريك اللسان دون إشراك فعليّ للقلب لا تؤدي ما تؤدّيه القراءة عندما ينزل القارئ قراءته على قلبه مباشرة. وهذا النوع من القراءة يقتضي تيقُّظ قوى الوعي الإنسانيّ -كلّها- عند القراءة، وتحتاج إلى تدريب على ذلك، بحيث تفيض القراءة من القلب إلى الجوارح، فيكون القلب هو المستقبل الأول لآيات الكتاب الكريم.

فالقُرآن الكريم ليس كتابًا عاديًّا ينزل على السمع أو يوضع أمام العين لكي يقلب الإنسان الطرف في كلماته، أو يتصفحه تصفحًا، أو يستمع بقلب لاهٍ أو ساهٍ له، بل لابد أن ينزل على القلب قبل أن ينزل على اللسان أو ينزل على الأذن في حالة الاستماع، قال (تبارك وتعالى): ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ*نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (الشعراء: 221، 222)، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 102). فالتنزيل على القلب إذاً ليس بالأمر السهل؛ لأنَّه يحتاج إلى تدبُّر وتطهُّر، فليس كل كلامٍ يمكن للإنسان أن ينزله على قلبه؛ ولذلك هُي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يحرك به لسانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: 16، 17)، وأمر -في الوقت نفسه- ونَبَّه إلى أنَّ التنزيل إمَّا يتم على القلب، فالقارئ للقُرآن الكريم محتاج أن يُنزل القرآن على قلبه، والتنزيل على القلب يستلزم أولاً تطهير القلب وتنقيته من كل ما قد يحول بين القرآن وبين النزول على قلبٍ ممَّهَّدٍ لِيْن، إذا نزل عليه زاده إيمانًا وزاده إخبارًا وخشوعًا، قلبًا محبَّتًا لا تعرف القسوة إليه سبيلاً، والقرآن يزيد ذلك القلب لينًا، كما يلين له الجلد: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: 23). وفي الوقت نفسه لابد من تزكية القلب وتطهيره وإعدادهِ وتهيئته، فكما تُمهَّد الأرض لإنزال طائفةٍ عليها مثلاً لابد لك من تمهيد القلب لكي تنزل عليه آيات القرآن الكريم وتوجد بين القلب وبين الكتاب الكريم رابطةٌ وثيقة لتذكر مُنزَّله والمتكلم به (سبحانه وتعالى) وتذكر متلقيه الأول (عليه الصلاة والسلام) الذي تلقاه وحمله إلى البشرية.

ثالثًا: «حضارة كلمة وحضارة الصورة»: أمر آخر لابد للقارئ أن يتنبَّه له ألا وهو أنَّ هذا القرآن كلمات الله، فيحتاج القارئ أن يدرك أنَّ القرآن كلام الله، يقوم على الكلمة. وأنَّ الحضارة التي أقامها القرآن الكريم هي حضارة كلمة وهي مقابل حضارة الصورة والتمثال، والكلمة يستحيل توثينها، وإن وثَّنها بعض الناس، ولكن لا يعني هذا كذلك، أن يتعامل معها تعاملًا عاديًّا كأَيَّة كلمةٍ أخرى. فهذه الكلمة الموجودة في القرآن كلمة إلهية تقابل الكلمات الإلهية الموجودة في الكون التي بها تشيُّ الكون حين قال الله (تبارك وتعالى): ﴿إِنَّمَا

قَوْلُنَا لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (النحل:40). وحضارة الكلمة غير حضارة الصورة أو المثال؛ فلحضارة الكلمة خصائصها، وللعقل المنتمي إلى حضارة الكلمة سماتٌ وصفات لا بد للقارئ أن يكون على وعيٍ بها ليحسن التعامل مع تلك الكلمات، وكلمات القرآن الكريم ليست كَأَيَّةِ كلمات عربيَّة. وإِنَّمَا هي كلمات على مستوى عالٍ يرتقي إلى مستوى المفاهيم. وذلك للفرق الكبير بين الاستعمال الإلهي للغة والاستعمال البشري لها. فالاستعمال البشري للغة قد لا يحمل من ثراء المعاني ما يحمله الاستعمال الإلهي الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، والذي فصل هذا الكتاب على علمه (سبحانه وتعالى). فالكلمة القرآنيَّة إِذَا كلمةٌ ترتقي لمستوى المفهوم. وبالتالي فالقرآن الكريم هو أَوَّلَى المصادر بتعريف كلمات القرآن الكريم نفسه، فالقرآن يجعل من الكلمة الواحدة غرفةً في بناء أو لبنةً في بناء تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت نفسه تعطي جملةً من الفوائد وهي في داخل البناء. فَوَعْيُ القارئ بهذا الأمر وعيٌّ له أهميَّته، وتظهر أهميَّته في عمليَّة الفهم وفي التعامل مع مفردات القرآن الكريم بوصفها «مفاهيم»، ومع القرآن الكريم في «وحدته البنائيَّة» وفي «كليَّاته» و«مقاصده» و«غاياته». أمَّا الصورة فلها تناولٌ آخر، ولها طرائق مختلفة في النظر إليها، والتكوين العقلي للمنتمي لحضارة الصورة والتوجُّه النفسي مختلفٌ تمامًا عن توجُّه المنتمي لحضارة الكلمة.

رابعًا: «لسان القرآن»: نقطةٌ أخرى لا بد من التنبيه لها، ألا وهي اختلاف «لسان القرآن» جملةً عن أيِّ لسان آخر بما فيه اللسان العربي، وتمتُّع هذا اللسان -لسان القرآن- بمزايا مختلفة. فلسان القرآن الكريم من الصعب جدًّا إخضاعه لأحكام الألسنيَّات، خاصةً المعاصرة التي تنطلق من عمليَّات دراسة النصوص وتفكيكها وإعادة تمثيلها إلى كلمات مفكَّكة لتيسير تحليلها! وعدم ملاحظة سائر الجوانب التي أشرنا إليها من مزايا كلمات القرآن الكريم ونظِّمِه وأسلوبه وتحديده وإعجازه، وأثر الاستعمال الإلهي للغة، والفرق بينه وبين الاستعمال البشري لهذه الألسنيَّات، يصعب أن ترتقي إلى هذا المستوى، ويصعب أن تتعامل مع النص القرآنيّ التعامل اللائق به والقادر على العروج إلى علياء الألسنيَّات القديمة. وقد قام البلاغيُّون المسلمون؛ مثل عبد القادر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»، والزمخشري في «أساس البلاغة»، وابن جني في «الخصائص»، وسيبويه في «الكتاب» والخليل في «العين» بدراسات لغويَّة،

وجدت وولدت في البيئة المسلمة، وبتأثير قرآنيّ. لقد كان من الممكن لو أنّ المسلمين جاوزوا تحلّفهم الذي هم فيه، أن يبنوا على تلك الدراسات ليكون لديهم علم ألسنيّات ملائم للتعامل مع القرآن الكريم بمزاياه وبخصائصه كلها، وأن يضيفوا على هذه الألسنيّات وعلومها ومناهجها معارف ومناهج أخرى يمكن أن تجعل اللسانيّات الإسلاميّة والعربيّة لسانيّات متميّزة صالحة لخدمة الخطاب القرآنيّ، ولحمايته من تطفل الذين لا يعرفون عنه الكثير، ولا يستطيعون أن يتذوّقوه، ولا يستطيعون أن يلموا بكثير من الأبعاد الأساسيّة لقراءته، ولأغنوا أنفسهم عن التطفل على موائد علماء الألسنيّات والبحث الفونولوجي وما إلى ذلك، وأغنوا الكتاب المجيد أن يتعرّض لما تعرض له وما يزال من تلك الدراسات الفجّة التي لم تستطع أن تخدمه ولا أن تُقدّم له الكثير.

القرآن الكريم نفسه قد هدى الناس إلى مناهج قراءته. فكأنّه قد أخذ بأيديهم، وقال لهم إن شئتم أن تقرؤوني فاقروني بهذه المناهج أو بهذه الطرق، فهو قد أوضح الفروق بين تدبّره في حالة الاستماع وتدبّره في حالة القراءة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: 204)، فالقارئ نفسه مطلوب منه أن يقرأ بكل الشروط والمواصفات التي تقدّمت الإشارة إليها، والمستمع بحاجة إلى أن يُنصت إلى هذا القرآن بجوارحه كلّها؛ لأنّ للخطاب القرآنيّ طرقاً مختلفة تستدرج القارئ والسامع إلى التفكير فيها إذا ظهرت للقارئ أو السامع المسالك، وأعدّها لاستقباله، فالخطاب القرآنيّ ليس من النوع الذي يمكن للقارئ به أو للسامع أن يضع عوازل بينه وبين تأثيره فيه إذا ما استقبله بقلبه وأنزله على قلبه واستقبله وهو مدركٌ لعظمته ولأهمّيّته ولمزاياه. فقد تضافرت الروايات الدالّة على أنّ القرآن الكريم حين استمع إليه أو قرأه بعض المشركين تأثروا به، ومنّ منّا يجهل قصة إسلام عمر بعد قراءته لشيءٍ من سورة طه؟ وقصة الوليد بن المغيرة، وقصة الثلاثة الأخنس ابن شريق وأبي جهل وأبي سفيان واستراقهم السمع إلى قراءة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- للقرآن. وفي الجانب السلبيّ نجد أنّ المشركين لمعرفتهم بذلك التأثير سارعوا إلى أن قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: 26)، فقد دعوا إلى

عدم السماع أصلاً منذ البداية؛ لأنهم يعرفون من قوة الخطاب وصدق تأثيره وتنوع مصادر قوته الشيء الكثير عن تأثيره فيمن يقرؤه أو يسمعه؛ ولذلك فلم يكونوا يستطيعون أن يعطوا أحدًا فرصة للاستماع إليه. وفي الوقت نفسه، يقول البارئ (سبحانه وتعالى) لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة:6). فلا بد إذا سمع بنوع من الانفتاح أن يحدث الخطاب نوعاً من التأثير فيه، ويشق طريقه إلى قلبه وعقله ووجدانه. فيكون من الصعب جداً أن يتلافى ذلك التأثير إذا كان مدرّكاً لقيمة هذا القرآن وكيفية التفاعل معه وكيفية استقباله قراءةً أو استماعاً.

إنَّ القرآن الكريم بدأ أول ما بدأ بأمر بالقراءة نزلت به: ﴿اقْرَأْ﴾ ليرشد الناس إلى ضرورة قراءته ويبيّن أنّه قد يسّر الله (سبحانه وتعالى) للقارئ فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (القمر:17)، ويبيّن لنا أنّ هناك آثاراً سلبيةً وأخرى إيجابيةً لهذا الخطاب: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال:2) ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:28). وهذا كله للذي يؤمن بهذا القرآن ويدرك عظمة وجلالة قدره.

خامساً: «أسماء القرآن» ومن أهم الأمور التي تساعد القارئ على معرفة القرآن معرفةً جيدةً وبناء ألفةٍ معه معرفة أسماء القرآن الكريم بمعانيها، ومعرفة صفاته بدلالاتها، وللقرآن الكريم ما يزيد عن أربعة وثلاثين اسماً. وله مجموعة من الصفات، أحصاها أو أحصى بعضها الإمام الرازي وآخرون من علماء القرآن الكريم. هذه الأسماء وهذه الصفات زادت على الخمسين. ومن شأنها أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهمية القرآن وإدراك عظيمته، وبالتالي تهية النفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال مُحكم آياته قراءةً أو استماعاً. وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كريمة كثيرة تُبيّن لنا طرائق استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوتهم له، وطرائق استعمال غيرهم واستقبالهم له، فهو كما قلنا شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة، وهو موعظةٌ للمتقين، وهو بشرى وذكرى ونذارة في الوقت نفسه. لا يمكن إطلاقاً أن يتجاهل القارئ ذلك كله ويصل من دونه إلى المستوى الذي نبّه القرآن الكريم إلى ضرورة الوصول إليه بقارئه وبسامعه وبتاليه. فالتلاوة يجب أن تكون «حقّ التلاوة»، لا يكون فيها

لَيَّ بالسنتهم، ولا يكون فيها طعنٌ في الدين، ولا يكون فيها فسادٌ في النية إلى غير ذلك من آداب ووصايا قد اشتمل القرآن الكريم عليها؛ لِيُبَيِّنَ لنا المنهج الذي نقارنه به ونقرأه به، وذلك هو منهج القراءة ومنهج الاستماع. وهذه كلها تحتاج إلى نوع من الاستقصاء في آيات القرآن الكريم؛ لتبيّن هذه الآيات، ونضعها في نوع من الترتاب والتلازم يسمح للقارئ الوصول به إلى ما يتمي الوصول إليه بقراءته للقرآن الكريم. والله (تبارك وتعالى) ما أنزل القرآن منجّماً وما فرّقه وقراه على الناس على مكث إلا من أجل تثبيت القلوب والعقول به، فقال (سبحانه): ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الاسراء: 106) ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: 32)، وسمي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بعض القراءات بقراءة «الهدزمة»، وسمي القرآن الكريم بعض القراءات بقراءة «العضين»: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر: 91)، أي قرؤوه باعتباره أعضاء مجزأة مقطّعة مفرقة عن بعضها، فكل هذه الأمور حينما نضمها إلى بعضها سوف تخرج بمنهج دقيق لقراءة القرآن رسمه القرآن نفسه ليهدينا به إلى المنهج الذي علينا أن ننبه في قراءته وتلاوته وفي الاستماع إليه.

فلا بد من معرفة أسماء القرآن وصفاته، لكي يستصحب القارئ ذلك كله وهو يتلو آيات القرآن الكريم، ويتلوه متدبراً متفكراً متعقلاً متذكراً نظمته، ويتدبر فيه وفي تفرد أسلوبه، وكيف تحدّى البشرية كلها، بل العالمين كافة، وكيف عجزت البشرية كلها عن الاستجابة لذلك التحدي، وأنّه خطاب يختص بضرورة أخذه بقوة وتلقّيه بقلبٍ منفتح وعقلٍ منفتح وعزيمة صادقة.

فهذه بعض معالم وملاحظات وجيزة لعلّها تبين لنا نوعيّة القراءة التي علينا أن نمارسها ونحن نقرأ القرآن الكريم ونقاربه. خاصّةً في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا، والتي لا نجد فيها بين أيدينا إلا كتاب الله الكوني، فهو القادر على إخراجنا من الحيرة وتخليصنا من هذه الفتن، كتاب الله الذي يرسم لنا طريق الخلاص كما يشير إلى ذلك الخبر المروي عن أمير المؤمنين علي -كرم الله وجهه ورضى عنه- الذي ذكرناه آنفاً في فتنة الحديث.

فهل استطاعت أمتنا -عبر تاريخها، وباستعمالها لمختلف العلوم والمعارف التي وضعتها من أجل استجلاء معاني القرآن- أن تكتشف القرآن، ثم تقدّم ذلك القرآن الكريم للبشريّة باعتبارها كتاب استخلاف ومنشأ عمران؟ ودليل استقامته وهداية في هذا الوجود؟!

لا شك أنّ أمتنا قد حاولت، وقد قدّمت خدمات كثيرة في كتابة القرآن وفي قراءته وفي تجويده وزخرفته وأوراقه، وفي طرق تناقله، وفي إحصاء كثيرٍ من الأمور الدقيقة الدائرة حوله. ولكن لم تستطع بالرغم من إعداد وكتابة ما يقرب من مليون دراسة وكتاب ورسالة -ما بين مطبوع ومخطوط في قضايا القرآن وتاريخه وجمعه وعلومه المختلفة- أن تقدّم لنا القرآن كما ينبغي أن يُقدّم باعتباره كتاب خلافةٍ ودليل عمران، ومصدر تحقيق للشهود الحضاريّ في هذه الحياة الدنيا. فدراساتنا في «علوم القرآن» قد اتّسمت بكثير من القصور، ودخلت في بعضها قضايا خطيرة مثل دعوى «النسخ»، و«تعدّد الأحرف»، و«القراءات» خاصّة ما سُمّي بـ«القراءة الشاذّة»، وعن هذه العلوم انتقلت تلك الإصابات إلى بعض معارفنا الأخرى، مثل «أصول الفقه»، ومجموعة من الإصابات الخطيرة التي أشرنا إليها بوصفها علمًا نتداولها باعتبارها من علوم القرآن. لقد حمّلت تلك المقولات القرآن الكريم مجموعةً من التساؤلات الشاغلة عن تدبّره، والأمور التي ما كان ينبغي لهذه الأمة أن تغفل عنها، وما كان ينبغي أن تسمح لها أن تمر إلى «علوم القرآن»، فضلًا عن أن تعيش وتتداول حتى أيامنا هذه. وهناك أخبار منها خبر يُنسبُ إلى أمّنا عائشة -رضوان الله عليها- ولا أشك في أنّها بريئة من ذلك، يقول الخبر إنّها قالت: "أتدرون كم هي سورة الأحزاب اليوم؟ قالوا: يا أم المؤمنين إنّها (73) آية، قالت: والله لقد كنّا نقرأها على عهد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وإنّها تعدل سورة البقرة، تجاوز المئين". فهذا القول كيف يمكن أن يُقبل؟ وكيف يمكن أن نستمر بتداوله؟ ونحن نعرف أنّ الله (سبحانه وتعالى) هو الذي تكفّل بنفسه بحفظ هذا القرآن والحيلولة دون نسيان أو تجاهل أو تحريف أي شيءٍ منه مهما كان، حتى لو كان كلمةً أو حرفًا.

فالقُرآن المجيد هُوَ منبع كل خير في هذه العلوم أو المعارف، وكل ما يؤخذ عليها أو يُنتقد من تفاصيلها أو كليّاتها راجع بشكل أو بآخر إلى مدى قربها واتصالها وانفصالها عن القرآن الكريم. وقد حاول الإمام الرازي، وهو مَنْ هُوَ في علمه وجلال قدره وتفسيره الَّذِي يُعدّ موسوعة معرفيّة في هذا المجال، أن يربط بين تلك العلوم وبين كتاب الله، فأعدّ تفسيراً؛ وضع فيه كثيراً من قواعد أصول الفقه - وإن لم نقل وضعها كلها- وربطها بالقرآن الكريم، وكذلك فعل مع كثير من الأحكام الفقهيّة والكلاميّة، والبلاغة واللغة والنحو والتصريف والحديث وما إلى ذلك. فكأنّ الإمام أراد أن يستدلّ على نفسه وعلى غيره من الفقهاء الذين إنّما تشغلهم في فترة التكوين والتعلم والتعليم التفاصيل والجزئيات، ويستغرقون فيها دون التفات لربطها بالقرآن الكريم؛ لأنّ هناك أمراً مستبطناً في قرارة كل نفس من تلك الأنفس، أنّ قواعد الأصول والفقه والحديث النبويّ وما جاء به المفسرون وما جاء من علوم الكلام والعقائد، ذلك كلّهُ - وإن رُد إلى القرآن الكريم بشكل أو بآخر- ولكنّه في الفترات الأولى من تكوينه كان الرد إلى القرآن الكريم على سبيل الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم وتعزّيد ما توصل إليه أهل العلم خارجه، أو على الأقلّ مما صاغوه خارج القرآن الكريم ثم حاولوا تعزيده وإضفاء الشرعيّة عليه وربطه بالقرآن الكريم من خلال عمليّة استشهاد.

فكأنّه -رحمه الله- حينما كتب تفسيره أراد أن يستدرك -ولو لم يصحّ بذلك- بأن يجعل القرآن الكريم منطلقاً لتلك العلوم. ولا شك أنّ الإمام الرازي قد كتب تفسيره في وقت متأخّر من عمره، وبعد أن نضجت خبراته واستوت علومه. فكأنّه كان يقول: إذا كنا في بدء حياتنا العلميّة وانشغالنا بالتعليم والتأليف اتخذنا من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة شواهد لما كنا نصوغه من قواعد علميّة في أصول الفقه، أو الفقه، أو التفسير، أو الكلام، أو ما إلى ذلك؛ فالآن سأعيد هذه العلوم من طريق التفسير أو بطريق التفسير إلى القرآن الكريم، ولعلّي بذلك أجعل القرآن الكريم لا مجرد شواهد معدودة أو أدلة سائدة، ولكن منبعاً ومنطلقاً وأساساً؛ ولذلك جاء في وصيته أنّه قال: "ولقد اخترت الطرق الكلاميّة والمناهج الفلسفيّة، فلم أجد

فيها مثل ما وجدت في كتاب الله، أقول في الإثبات كذا وأقول كذا ... إلخ"، والمتأمل في وصية الرجل يمكن أن يدرك هذا المعنى بوضوح شديد.

وبالنسبة لي، فبعد تلك الجولة الطويلة مع التراث، وبعد أن تكوّنت لدي حاسة نقدية مقلقة، لم تعد تسمح لي بأخذ شيء من ذلك التراث على أنه شيء من المسلّمات، وكما نعلم فالقرآن المجيد والسنة النبوية لا تعد تراثاً، بل هي منبع ومنطلق وأصل للتراث. وقد وجدت الكتاب الكريم مما يمكن على الإطلاق أن يوجه نقداً معتبراً إلى ما بني عليه. ولكن إذا كنا نجد ميدان النقد متسعاً؛ فإنّ ما نجده في التراث لم يأخذ حظه من الارتباط بالقرآن المجيد والبناء عليه.

لذلك، فقد أخذتُ الدرس والعبرة من موقف الإمام الرازي، وقلت: إنّه يجب عليّ أن أعود للقرآن الكريم قبل أن أبلغ المرحلة التي بلغها الإمام الرازي -رحمة الله عليه-. ومن هنا بدأت أعمل على تكريس جميع دراستي في القرآن المجيد. والمزايا والدوافع كبيرة جداً. فهو الكتاب الكونيّ، ولا كتاب كونيّ في الوجود سواه؛ الآن بعد ختم النبؤات بمحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وختم الكتب السماوية بالقرآن المجيد، وهو الكتاب المطلق، المعجز، المتحدي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تعبير عن مراد الله (تبارك وتعالى) سواه. وحينما بدأت الفكرة تلحّ عليّ وجدت في التفسير ذلك الركام الهائل من الإسرائيليات والقصص وما نحوها، والفزلكات اللغوية والصرفية والنحوية والبلاغية والأحكام الفقهية، وما سوى ذلك مما اعتبرته قد تحوّل إلى حاجز وحائل بين الناس وبين القرآن الكريم، أو على الأقل بين الناس وبين التدبّر في القرن الكريم؛ لأنّهم وجدوا من تلك المعارف التي أدرجت في التفسير مثلاً يعدّ بمثابة التفسير الفقهيّ أو تفسير آيات الأحكام، وأصول الفقه أصّلت وقعّدت ورُبطت ببعض آيات الكتاب الكريم، لأدنى مناسبة، ولأقوى مناسبة، بحسب ما كان يراه المؤصّلون. كذلك كثيرٌ من القضايا التاريخية والسنن وغيرها، ووجدتُ علومًا كثيرة من علوم القرآن الكريم ومعارفه لم يُلتفت إليها بقدر كافٍ لانشغال الناس بقضية الأحكام. فإذن، لابد من العودة إلى القرآن الكريم، فهو كتاب الاستخلاف وكتاب التوحيد والعمران

والتزكية والأمة والدعوة، وهو الذي يعطي كل ذي حق حقه فيما يتعلق بالله (تبارك وتعالى) من توحيد وسواه وفاء حقه وزاد، وهو منبع لأصح ألوان الاعتقاد وأنواعه ومراتبه، وهو أصح المصادر فيما يتعلق ببيان الحقوق والواجبات وما إلى ذلك، وهو - قبل وبعد - الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وهو الكتاب الذي فصله الله (تعالى) على علمه، الذي لا يضيق بشيء، بل أحاط بكل شيء علماً.

إذن، لا بد لنا من الارتباط بالقرآن الكريم، وربط مشاريعنا التجديدية والحضارية به بشكل وثيق، وإلا فقد تستمر حالة التيه هذه التي نعيشها إلى فترات طويلة. وسوف نستمر ننطلق ونعود إلى النقطة التي انطلقنا منها أو بدأنا منها في عملية تيه متصلة لا تتوقف؛ لذلك وجدت أن في مراجعات التراث ونقده في نور هداية القرآن الكريم وسيلة من وسائل التجديد والاجتهاد وإعادة البناء الذي ننادي به جميعاً. وعجزت كل الدعوات المنادية به عن تحقيقه أو الوصول إليه، والقرآن الكريم يحدد لنا مجموعة من السنن والقوانين الاجتماعية التي وصلت البشرية - بعد جهد جهيد - إلى ما يقرب منها، وما يزال كثير منها بعيداً عن تناول البشرية التي اتخذت هذا القرآن مهجوراً.

والقرآن المجيد - قبل هذا وبعده - صرّف الله (تعالى) فيه من كل مثل، وفصله على علمه المحيط الشامل، وراجع فيه تراث النبوات، وصدق عليه وهيمن، وتناول فيه مستقبل البشرية، ورغب ورهب. رغب في السبل المنتجة القادرة على إعانة الإنسان على تحقيق الغاية من العهد الذي أبرم بينه وبين الله (تعالى)، وفي الوقت نفسه تحقيق غاية الحق (جل شأنه) من الخلق، وإقامة هذه الحياة على قواعد ثابتة تجعل منها حياة طيبة، وتجعل من مرحلة الجزاء مرحلة تجعل مآل الإنسان إلى رضوان الله (تبارك وتعالى) وإلى جنته.

ووجدت أن اللجوء للقرآن الكريم وتفسير القرآن بالقرآن، واستنباط المشاريع الحضارية والاستخلافيّة والعمرانيّة، ومشاريع تزكية الإنسان وتزكية الحياة، أو ما يمكن تسميته بالتزكية الشاملة التي تشمل العقل والتصور والرؤية والفكر والاعتقاد والسلوك وأنظمة التعامل

والعلاقات. كل ذلك تستطيع أن تحصل عليه وتجده واضحًا في القرآن الكريم. وإذا عرفنا المداخل التي نقاربه بها ونلج إلى رحابه بواسطتها؛ فالقرآن الكريم هو أولى أن يُفصح عن نفسه ويبيّن مكنون آياته ويعرّف بما جاء فيه، فالقرآن الكريم يأتي في سياق ما على الإيجاز، وفي سياق آخر على الإطناب، ويأتي في سياق آخر على الإجمال، وفي سياق على التبيين، ويأتي في سياق مطلقًا، وفي سياق آخر مقيّدًا، وفي سياق يكون عامًا، وفي سياق آخر ينتهي إلى الخصوص وما توجزه آيات الكتاب الكريم في سياق نجم من نجوم القرآن الكريم أو في سورة تجده مبسوطًا في مكان آخر مضافًا دون تكرار. وما يُجمله في موضع يُبينه في موضع آخر، وهكذا يُطلق ويُخصّص ويُقيّد ويُعمّم. وكل ذلك تجده في الكتاب الكريم.

من هنا، فإنّ مَنْ رُزق مداخل التدبّر ومداخل الولوج إلى رحاب القرآن المجيد يجد نفسه قادرًا على الوصول إلى ما لا يمكن أن توصّله إليه المعارف الأخرى، ومنها المعارف التي سُمّيت المعارف أو العلوم الشرعيّة.

للتفسير أنواع كثيرة كما ذكرنا؛ فمنها التفسير بالآثار المنقولة عن السلف، والتفسير اللغويّ والبيانيّ، والتفسير الإشاريّ، والتفسير الفقهيّ، والتفسير العقليّ، والتفسير العلميّ، والموضوعيّ. ويُطرح الآن توجه نحو التفسير الفلسفيّ. لقد سنّ لنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- «تفسير القرآن بالقرآن»، فجُلّ ما ورد في صحيح المنقول عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- في التفسير كان من نوع «تفسير القرآن بالقرآن» حين تظهر الحاجة إلى التفسير اللفظي؛ أمّا التفسير العمليّ والتطبيقيّ فسنتّه وسيرته -كلّها- عبارة عن تفسير للقرآن المجيد، فسنتّه هي القرآن، وسيرته هي القرآن، وخلقه هو القرآن (صلى الله عليه وآله وسلم)، وسائر أنواع التفسير التي ذكرناها تطرح تساؤلًا خطيرًا، هو: إنّ القرآن المجيد قد وُصف بأنه بيان ومبين ونور وميسر للذكر... إلى غير ذلك، مما يدل على وضوحه وعدم حاجته إلى وسيط يقوم ببيانه وتوضيحه، بحيث يفترض ألاّ يحتاج هذا النور والكتاب المبين إلى مَنْ يفسره ليعرف الآخرون معانيه، والمراد به. فلم يُعنى بهذا الوسيط: «التفسير» أيّا كان نوعه؟! ما دامت غاياته في النهاية تقريب معاني القرآن إلى أفهام المخاطبين به الذين يفترض القرآن أنّهم مهيوّن للانفعال به والاهتداء بهدايته إذا تلاوه حق تلاوته وتدبّروه، وتفكّروا فيه، وتعقّلوا

آياته، وتذكروا مضامينه وأهدافه ومقاصده، وأنهم مطالبون باتباعه، وبناء حياتهم وعمرانهم وحضاراتهم وفقاً لما نزل به من هداية. كما أنهم مكلفون بمعالجة اختلافاتهم، وردّ خصوصياتهم إليه، والرضا بحكمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: 23). ولم يعلل إعراضهم بعدم فهم الخطاب، بل علل بعلّة أخرى خاصّة بهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (آل عمران: 24). فالإعراض وعدم الفقه يأتي من انعدام استعدادات المخاطبين. أمّا الخطاب القرآني فلا اختلاف فيه؛ لأنّه من عند الله (سبحانه وتعالى). والاختلاف آفة يمكن أن تعتري الخطاب النسبي، أمّا خطاب العزيز العليم، الذي أحاط بكل شيء علماً، والكتاب الذي فضّله الله (تبارك وتعالى) على علمه وبعلمه فلن يكون عرضةً لأيّة آفة من تلك الآفات. فالتفسير الإنساني -أيّاً كان علم المفسر وجلالة قدره- لا يمكن أن يكون أبين من القرآن الكريم ولا أوضح. و«تنوير النور» أو «إضاءة الضوء ومصدره» أمر يتجاوز بعثيته تحصيل الحاصل؛ ولذلك فإنّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يفسّر من القرآن بـ«المعنى المعرفي» للتفسير إلّا آيات معدودات علّمن إياه جبريل -عليه السلام-؛ أي: نقل جبريل إليه -صلى الله عليه وآله وسلم- تفسيرهن لحكمة أرادها (سبحانه وتعالى). ولعلّ هذه الحكمة من بعض جوانبها تعليم الله (تبارك وتعالى) لنبّيه كيف يعلم الناس الكتاب والحكمة، وجلّ ذلك يمكن أن يندرج في مجالات تفسير القرآن بالقرآن⁽¹²⁾.

(12) إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ترك للناس مع كتاب الله سنته وسيرته، وللسنة والسيرة مفهومها وللتفسير مفهومه، ولو أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسر آيات الكتاب الكريم كلّها، بالمفهوم الاصطلاحي للتفسير لما جاز لأحد أن يفسر القرآن العظيم بما لم يفسره به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولوقع كل أولئك المفسرين ومنهم الصحابة والتابعون الذين أثرت عنهم مآثورات كثيرة في التفسير تحت طائلة الوعيد النبوي، وما فائدة الأمر بالتدبر إذا كان من أنزل عليه القرآن العظيم قد فسر كلّ؟ وكيف سطر الفقهاء من أهل الحديث وأهل الرأي كل تلك الفهم بأحاديث تفسير؛ أي: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد ذكر كل تلك المسائل في تفسيره.

لقد ذكر فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره بأنّه لو شاء أن يضع في تفسير الفاتحة وحدها وقر بعير لفعل دون أن يفرغ من معانيها؛ فهل قصد هو وأمثاله أن يرووا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ وما حكم هؤلاء وتقاسيرهم التي بلغت الآلاف إذا كان هناك تفسير نبويّ يتجاوزوه بما في ذلك أولئك الذين جمعوا أقوال الصحابة والتابعين في التفسير؟! إنّ الفرق كبير جداً بين السنة والسيرة والتفسير، فإنّ سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مجموع أقواله وأفعاله وتقريراته وهي قطعاً بيان القرآن، لكنّها لا تسمى تفسيراً بمعناه الاصطلاحي، ولذلك فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يترك تفسيراً. في ضوء ذلك ينبغي أن يراجع موضوع «التفسير المأثور».

وذلك يعني أنَّ التفسير بمفهومه الاصطلاحيّ -فيما عدا ما فسره رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إن هو إلّا جهد بشريّ يستخدم المفسرون فيه جهودهم وأدواتهم ومعارفهم المختلفة ليتكوّن لهم فهم، يُؤخذ منه ويُترك. فالحكم في قبوله أو رده إلى الله (تبارك وتعالى). فالقرآن المجيد يفسر بعضه بعضًا. فما هو «تفسير القرآن بالقرآن»؟ أحببنا أن نقربه إلى الأذهان في هذا التعبير، وإلّا فهو أكثر من أن يكون تفسيرًا، ولا نريد أن يغلب عليه مفهوم التفسير أو معنى التفسير الاصطلاحيّ الذي درج المفسرون على استخدامه؛ ألا وهو معرفة ألفاظ القرآن أو التعريف بألفاظ القرآن، ولكن وجدنا هذه العبارة أو هذا العنوان مناسبًا.

يقوم «تفسير القرآن بالقرآن» لا على الناحية الموضوعيّة كما ذهب إلى ذلك بعض المشتغلين بالتفسير. وقد ظنّوا أنَّ «تفسير القرآن بالقرآن» هو أن تجمع الآيات التي تتعلق بموضوع ما في موضع واحد، وتربط بينها وتنظر في تواريخ نزولها وأسباب النزول وما إلى ذلك حتى تتضح لك معاني الموضوع. و«التفسير الموضوعيّ» نوعٌ من أنواع التفاسير المهمة ولا شك، والمقرّبة إلى ما نحن بصددّه ولا شك كذلك. ولكن «تفسير القرآن بالقرآن» -الذي نريده- فيه مزايا التفسير الموضوعيّ، ولكنّه يستوعبها ويتجاوزها. فمرحلة النظر الموضوعيّ مرحلة يصعب أن يتخطّاها معنى تدبّر القرآن الكريم وتأمله. لكن «تفسير القرآن بالقرآن» كما قلنا يتجاوز ذلك كلّهُ، فهو تفسير وتدبّر وتأمل وتفكّر وتعقّل وتذكير وترتيل في القرآن المجيد، يستخدم كل تلك المداخل ويتوسل بكل تلك الوسائل ليكون القرآن الكريم المرجع الأساس في فهم القرآن المجيد ذاته، وفي فهم كل ما جاء ليعلم البشرية إياه، سواء تعلّق بالأحكام أو العبر أو السنن أو القوانين أو بناء الحضارات أو بناء العمران، وتحقيق التزكية، وتحقيق التوحيد، وبناء تصوّر السليم، وبناء المعتقد الصحيح، كل ذلك تجده في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم قد يسّره الله (تبارك وتعالى) للذكر. ولو بذل الناس في تدبّر القرآن المجيد ومحاولة فهمه جزءًا مما بذلوه في تعلّم العلوم الأخرى -التي وضعوها بأنفسهم بتصور أو بحجة أنّها هي التي ستمهد إليهم السبيل لفهم القرآن- لو بذلوا جزءًا من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبّره، وفي ترتيله، وفي حسن تلاوته، وتلاوته حق التلاوة، أو في التفكّر فيه والتعقّل والتدبّر والتدكّر

والعمل على الوصول إلى مكنونه من داخله وبأدواته ومنهجته؛ لأنهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنبوا كثيرًا من السليبيات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب.

لذلك نود أن نقول: إننا حينما كنا نحاول تعلّم هذا النوع من الممارسة رجعنا أيضًا إلى تراثنا، وحاولنا أن نرى كيف كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يُفسّر ما يشعر بالحاجة إلى تفسيره لأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم. فإذا به (صلوات الله وسلامه عليه) لا يستخدم في تفسير القرآن إلا القرآن ذاته. فحينما يهرع إليه الصحابة خائفين بعد أن نزل قوله (تعالى): ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 284)، فيقولون: يا رسول الله؛ ومن منا الذي يستطيع أن يهيمن على خواطره وأفكاره. إنَّ أحدنا في بعض الأحيان يخطر على باله خواطر يتمنى لو كان أُلقي من شاهق قبل أن تمر تلك الخواطر في خاطره. فإذا برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يبتسم ويقول لهم: "وأين منكم قول الله (تبارك وتعالى): ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)"، فردّهم إلى آية أخرى من آيات الكتاب الكريم يُجيهم بها على تساؤلهم. ترفع عن صدورهم ذلك الحرج الذي أحسّوه حينما سمعوا الآية الأولى.

ويأتي الصحابة إلى رسول الله ذات يوم يسألونه (صلوات الله وسلامه عليه): مَنْ مِنَّا يا رسول الله يستطيع أن يتّقي الله حقّ تقاته؟ بعد أن نزل قوله (جلّ شأنه) في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)، فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بأيديهم إلى آية سورة التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: 15). إذن هناك مناط مبدئي ومنهجي. ألا وهو استطاعة الإنسان: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: 7)، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: 16)، وما إلى ذلك. وهذا من «تفسير القرآن بالقرآن». وكان في مقدور رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-

وسلم-أن يقول شيئاً من عنده أو بألفاظه، ولكن أراد أن يسنّ لهم هذه السنّة، سنّة «تفسير القرآن بالقرآن».

وحينما يأتي إلى رسول الله مَنْ يشعر بشيء من شبهة وهو يسمع آية سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53)، فـ«جميعاً» هنا للتأكيد، وقد أفادت الشمول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. ونأتي إلى آية في سورة النساء إذا بها تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: 48). إذن استثنى الشرك هنا من الذنوب القابلة للغفران. وكأنّ الشرك في هذه الآية الكريمة مما لا يغتفر، أو من الذنوب التي لا تغتفر. وذلك مفهوم كذلك؛ لأنّ الشرك ظلم عظيم. وهو ظلم لذات الإنسان ونفسه قبل أن يكون ظمناً لشيء آخر. فهو ظلم لخالق الإنسان والكون والحياة ونقض للعهد الذي أبرم بين الله (تعالى) وبين عباده وهم في «عالم الدّر». والشرك انقلاب على رسالات النبيّن كافّة الذين جاءوا بالتوحيد. وتأتي آية ثالثة في سورة طه وتقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82). إذن نحن هنا أمام آيات ثلاث: واحدة أطلقت تماماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم تستثن، وأخرى استثنت الشرك، وثالثة بيّنت لنا شروط التوبة، وهي تنسجم مع قوله (تعالى) في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾* وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: 17-18). فهنا تبين هذه الآيات بوضوح شديد أنّ قبول التوبة حق للعبد على ربّه (جلّ شأنه)، ولكن بشروط. ومن هذه الشروط: أن يكون الذنب قد وقع بجهالة، إذا كان قد وقع عن علم ومعرفة وتعمّد -مثل معصية إبليس- فالأمر يختلف. فالله (تبارك وتعالى) قد طرد إبليس من رحمته، لا لمجرد أنّه عصي، ولم يلقنه التوبة كما لقّن آدم. ولكن على العكس، طرده من رحمته بشكل أبدي لأنّه كان عالمًا بقضيّة الطاعة والمعصية، وعالمًا بأنّه لا ينبغي أن يعصي

عبد حقيقي الله (تعالى) لأي سبب من الأسباب. ولكن كبره وغروره حملاه على أن يعصي الله (تعالى) وهو ينكر حكمته (جلّ شأنه) في أمره له بالسجود لآدم، وفي اصطفاء آدم. فبقية الملائكة سلّمت لله (تبارك وتعالى) بعد أن علّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، سلّمت أنّه هو المؤهل لأن يكون خليفة في هذه الأرض، وأمست عن التساؤل، وسجد الملائكة كلهم أجمعون حينما أمروا، مع أنّهم كانوا قد أبدوا اعتراضاً - وإن لم يزد - ففيه تفاصيل أنّهم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ (البقرة: 30)، فتم تسليمهم. أمّا إبليس فقال: ﴿أَسْجُدْ لِمَن خَلَقْتَ طِينًا﴾ (الإسراء: 61)، فكان عنده نوع من الشعور بالغرور والاستعلاء والاستكبار حتى على ربه (جلّ شأنه)، ونفى عن الله (تعالى) الحكمة في الأمر وفي الاصطفاء، كأنّه (تعالى جلّ شأنه)، حينما أمره بالسجود، لم يلتفت أو لم يكن (جل شأنه) -وله المثل الأعلى - قد التفت إلى أصل الخلقة بين النار والطين، فهذه الجريمة النكراء الشاملة النافية لكل معاني الربوبية والإلهية، النافية لحكمة الإلهية والربوبية، المتطرسة المتكبرة المغرورة، لم يكن لها علاج إلا الطرد. وإلا لو كان هناك مجال قد تركه إبليس في معصيته كمجال آدم، بأن يكون قد عصى عن جهل، لرّبما لقنه الله (تبارك وتعالى) التوبة، كما لقّن آدم: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37). ولكن جرمته لم تكن تتقبّل أو تحمل بأي شكل من الأشكال أن يُلقّن التوبة. كما أنّه لم يُفكّر فيها بنفسه، على العكس كان يحاول أن يحصل على فسحة من الأجل والعمر يعبر بها عن غروره وطغيانه وتمرّده، قال: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: 36-37)، قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: 39). إذن هناك معاندة مع سبق الإصرار دون أي تردد، مع وضوح كامل لطبيعة الجريمة التي يرتكبها. ولكنّه يرتكبها عنادًا وصلفاً وغرورًا واستكبارًا واستعلاءً على أوامر الله (تبارك وتعالى).

فهنا نعود إلى الآيات الثلاث. نجد أنَّ آيات الزمر سقت لاستئصال القنوط من نفس الإنسان؛ فقد رأينا ماذا حدث حين قنط إبليس. حدث أن صمَّ على الاستمرار في المعصية والتمرد وعمل السوء إلى يوم الدين. فالقنوط حالة نفسية خطيرة، قد تدفع الإنسان إلى ارتكاب الشرور. فإذا كان الإنسان قد وقع في شر، فقد يقع بعد القنوط في عشرة. وإذا كان قد وقع في معصية فقد يمارس بعد القنوط مائة. وهكذا، فاقترضى السياق أن يُزال القنوط من نفس الإنسان: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53). إنَّ له (جلَّ شأنه) القدرة على غفران الذنوب جميعاً، فإذا لا تقنطوا ولا تيأسوا. فإذا عرفت كيف تتوب وكيف تمارس التوبة كما أمرك الله (تبارك وتعالى) فهناك أمل أن يتوب الله (تعالى) عليك ويجعلك كمن لا ذنب له. فالسياق إذن متَّجه إلى قضية القنوط، وليس لقضية بيان أنواع الذنوب ومحاربتها، وما يغفر منها وما لا يغفر. أمَّا آية سورة النساء، فهي تتحدث في جوِّ فيه أناس آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً، أولئك لن تقبل توبتهم؛ لأنَّ الله لا يقبل أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فكل ذنوبهم عدا الشرك، وهو الذنب الأساسي الذي أصروا عليه وكرروه ومارسوه عدة مرات؛ يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، ثم يزدادون كفراً، هؤلاء لن تُقبل توبتهم بعد ذلك، وبعد تكرار هذا الذنب مع وعي وسبق إصرار وإدراك لمعنى ما يقومون به: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 48). فعلى الإنسان أن يكون حذراً من الوقوع في الشرك؛ لأنَّ الشرك ظلم عظيم، وعلى الإنسان -حينما يوفِّقه الله (تعالى) ويكشف له عن مضار الشرك وينتقل إلى صفوف الإيمان- فعليه ألا يخرج منها مرة أخرى؛ لأنَّه يخشى أن يقع في الشرك مرة ثانية، فلا يستطيع أن يخرج منه، وبالتالي لن تُقبل له توبة بعد الاستغراق في الشرك، وتكراره مرة بعد مرة، والاستهانة به كذنب عظيم. أمَّا الآية الثالثة، فهي آية سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه: 82)، أراد أن يُبين لنا التوبة من حيث الشروط التي لابد من توافرها في التائب لكي تُقبل توبته، فهي مبيّنة ومنسجمة مع قوله (تعالى) في سورة

النساء: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 17). فحينما يقول الله (تعالى) في سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82)، فالكلام هنا عن التائب، والشروط التي لا بد أن يوفِّرها في نفسه، والأمور التي لا بد أن يلتزمها من أجل أن تُقبل توبته: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82). إذن تاب ورجع إلى الله وأناب، ولتكون التوبة نصوحاً لِمَن تاب وآمن. لا شك أنَّ الذي يتوب لا بد أن يكون له إيمان. فكأنَّ إعادة ذكر الإيمان بعد التوبة للتنبيه على أنَّ هذه التوبة تقتضي إيماناً لا يشوبه ولا يُخالطه شرك ولا انحراف في المعتقد لِمَن تاب وآمن وعمل صالحاً واستقام. أمَّا مَنْ أناب فقط ولم تحصل له التوبة العقديَّة أو التصحيح العقدي فلا تُقبل التوبة منه. وإِنَّمَا لا بد من تصحيح عقدي: ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82). لا بد أن يصدق الاعتقاد والإيمان، ويُبرهن على صدق التوبة وكونها توبة نصوحاً بالعمل الصالح والاستقامة عليه والاستمرار فيه وعدم الرجوع عنه بعد التوبة؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى نوع من العبث واللعب الَّذي لا يقبله الله (تعالى): ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82). وهذا كلُّه من «تفسير القرآن الكريم بالقرآن»، وهو أرقى أنواع التفسير كما قلنا. وأنت ترى أنَّك حين تمارس هذا ترفع عن نفسك سائر الشبهات وتزيل سائر الاعتراضات إن كان ثمة ما يستحق الاعتراض، كأن يكون مشتبهاً لم أطلق هنا، ولما فُيِّد هناك... إلى غير ذلك. هذا لا يمكن أن يرد ولا يمكن أن يوجد؛ لأنَّ القرآن الكريم شفاء لما في الصدور، فحينما نفسر القرآن بالقرآن، أو حين يُفسر القرآن نفسه فإنَّما يشفى بذلك صدور الناس، وليس كمثله ذلك أي تفسير آخر، أو الاعتماد على أيِّ تأويل آخر.

والأمثلة السابقة في مقارنة رسول الله للقرآن، توضح أنَّ تفسير القرآن بالقرآن، أمر أصَّلَه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وبدأ به وعَلَّمه الناس. كما توضح أهمية اعتبار مبدأ الوحدة البنائيَّة، والتي تقوم على مبدأ أنَّ في القرآن مداخل لا بد أن تستعمل للولوج إلى رحابه والوصول إلى دقائقه، فهو -أي القرآن- ميسَّر للذكر، ومستوعب مكنون. يقوم مقام

النبوّات كلّها ومقام النّبیین كافّة، وهو في البشريّة الآن بمثابة النبي المقيم بين ظهرائي الناس، يستطيعون العودة إليه والرجوع إليه في كل حين. فإذاً لابد من الالتفات إلى أنّ هذا التفسير يقوم على مبدأ أنّ القرآن الكريم مبين. وأعلى درجات بيانه هي بيانه لنفسه. والقرآن تبيان لكل شيء؛ بما في ذلك السنّة النبويّة المطهرة، وكما قلنا فقد مارس رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا، وعلمه لأصحابه.

ولذلك فقد وجدنا أنّ علينا واجباً عينياً وهو أن نقوم بما لم يقم به الآخرون فنجتهد في تقديم القرآن للبشريّة كما أنزله الله على رسوله الكريم الذي حفظه بنظمه الداخلي وأسلوبه وفصاحته وإعجازه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ورأينا أن نحمي العقول المؤمنة من أن تذهب نهباً للإسرائيليات والأكاذيب والموضوعات والمعلقات والمراسيل وما أحاط بما دون مما سمّي بعلوم القرآن مثل الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه... وما إلى ذلك. فأردنا أن نقدّم للناس كتاب الله كما أجمعت الأمة عليه في عهد الإمام الشهيد أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- الذي وضع حدّاً لتلك الاختلافات والمنازعات وتجاوز تلك الآثار والأحاديث التي أدت إلى اختلاف الناس في أحرفٍ وكلمات، وذلك جزءً من الحفظ الإلهي للقرآن الكريم بحيث انضبطت بنائيّة القرآن كما انضبطت بنائيّة النجوم في مواقعها ولم يعد هناك مجالٌ لزيادة حرف أو نقصان نبرة.

وإنّ الميسور لا يسقط بالمعسور، ولذلك فقد رأينا أن نصدر سلسلة كتب لتفسير القرآن بالقرآن، تُعنى بالرد إلى الأمر الأول، وإلى ما كان عليه جيل التلقي الذي تلقى القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن جبريل عن رب العالمين غضّاً طريّاً. إنّ محاولتنا هذه لتفسير القرآن بالقرآن هي دعوة للمسلمين، بل إلى البشريّة كافّة أن ترتبط بالقرآن الكريم وحده وتعتمد عليه بمفرده، وأن تعلم يقيناً أنّه محفوظ بحفظ الله بنظمه وأسلوبه وبلاغته وفصاحته وإعجازه. وإنّ أملنا كبير أنّ كل من يقرأ هذه المحاولة بتدبُّر وإمعان نظر أن يصل إلى القناعة بأنّ القرآن وحده كافٍ ومغنٍ عن التفاسير التي شابت الكثير منها الإسرائيليات

والآثار التي لم تصح سندًا ولا متناً وتجاوزت المسند الصحيح الذي قدّم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) به منهج التفسير المقبول شرعاً ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن.

لقد حاولنا أن نتجاوز ما قام به بعض فضلاء المعنيين بالتفسير من العلماء المحدثين من تقسيم السور إلى أقسام موضوعيّة. وآثرنا أن نستعمل بدل كلمة الأقسام أو الأبعاد أو غيرها كلمة النجوم تيمُّناً بنزول القرآن منجّماً. لكننا لا نعني بها المعنى الاصطلاحي الذي يُقصد به نجوم التنزيل، ولكن نعني به تقسيم السورة تقسيمًا موضوعيًا مترابطًا يعين على الفهم والاستيعاب لسور القرآن الكريم وترابط أجزائها ونجومها وآياتها.

عصمة القرآن:

لقد بيّن القرآن المجيد كل ما يتعلق بكونه خطاباً إلهياً محفوظاً معصوماً يستحيل ضياع شيء منه أو تحريفه أو تغييره، أو أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، أو يقترب منه الرب والشك والاختلاف ولو على مستوى الكلمة والحرف، ولقد أتاح الله (جلّ شأنه) لكتابه كل وسائل العصمة والحفظ وعدم إمكان النيل منه بأيّ شكل من الأشكال، ولو اجتمعت الجن والإنس على ذلك، ومن هنا فقد تكفّل (سبحانه وتعالى) بحفظه، فقال (جلّ شأنه): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، وما يعلم وسائل حفظ كلمات الله (تعالى) على وجه الاستقراء والاستقصاء إلا هو (جلّ شأنه).

لقد اتخذ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- اثنين وستين كاتباً للوحي، وكان أهل الصُّفّة -وعددهم لا يكن يقل عن خمس وسبعين- إذا غاب أحد منهم أو فُقد حلّ محله سواه من فقراء الصحابة، كان هؤلاء بمثابة مكتب لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يدوّن كل ما يُنزل عليه، وكل ما يوحيه الله له في ليل أو نهار، إضافة إلى نسائه -صلى الله عليه وآله وسلم- ولعل أهم حكمة في تعدّدهن أن يكنّ قادات على التلقّي عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أثناء وجوده في منزله وفي الأوقات التي لا يكون فيها معه أحد من قُرّاء الصحابة من أهل الصُّفّة أو غيرهم؛ ولذلك أمر الله نساء النبي بأن يذكرن ما يتلى في بيوتهنّ

من آيات الله والحكمة وقد فعلن، كما أنَّ تحريم أمهات المؤمنين على المسلمين كافَّةً واعتبارهن أمهات لهم لكي يأخذ المسلمون عن نساء النبي كل ما يتلقينه منه (صلوات الله وسلامه عليه) دون حرج ودون أيَّة إثارة من إشكال خاصَّة بعد فرض الحجاب، فالصحابة حين يلجأون إلى نساء النبي ليأخذوا عنهن ما ينزل من الكتاب والحكمة في بيت النبوة في ساعات يخلو بها النبي إلى نفسه وأهل بيته، إنَّما يلجأون إلى أمهاتهم اللواتي لا يمكن لمؤمن أن ينظر إلى أيٍّ منهن نظرة مشوبة بالغرائز أو المشاعر المغايرة لمشاعر الأمومة.

والله (تبارك وتعالى) قد طمأن نبيّه بأنَّه بعد أن يتلقى القرآن فإنَّه لن ينساه ولن ينسى شيئاً منه: ﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى* إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (الأعلى: 6-7). وهذا الاستثناء (إلا ما شاء الله) لم يرد فيه الإشارة إلى جواز أو وقوع كما ذهبت إلى ذلك أوهام بعض المفسرين، بل إنَّ استثناء ما شاءه الله هو لبيان القدرة المطلقة التي لا تحدها حدود، ولئلا يذهب وهم السامع إلى أنَّ هناك شيئاً يمكن أن يخرج عن نطاق القدرة المطلقة لله (تبارك وتعالى). ولذلك، فلم يكن هناك كبير معنى للجدل الكثير الذي أثاره البعض حول الإمكان والوقوع وما إلى ذلك، فلم يخبرنا القرآن مرة واحدة بأنَّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قد نسي من القرآن شيئاً أو أنسيه، فالله (تبارك وتعالى) هو من أقرّه في ذهنه وقلبه وعقله ووجدانه ولم يعد القرآن في مجال إمكان النسيان منه (عليه الصلاة والسلام). وفي الوقت نفسه، تكفل الله ذاته بجمعه وقراءته حق القراءة كما تكفل من قبل بحفظه وعدم إنسائه وجعل نسيان رسول الله لشيء منه ضرباً من المحال، فصار الجمع كذلك للقرآن في الصدور وفي السطور مهمة إلهية هيأ الله (تبارك وتعالى) لها أسبابها، والذي قال (جل شأنه): ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: 17) أي قراءته، وفيها إشارة إلى أنَّ القراءة الصحيحة السليمة التامة لهذا الكتاب الكريم هي قراءة إلهية. فحفظ القرآن واستحالة نسيان رسول الله لشيء منه وتولي الباري (جل شأنه) جمعه وقراءته القراءة المستقيمة الواحدة، وضمن صحة انتقاله من جيل إلى جيل إلى يوم الدين من غير تبديل لكلماته: ﴿لَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنعام: 115) ومن غير أن تشوبه شائبة ريب: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

(البقرة:2) ومن دون أن يصدر حرف واحد من حروفه عن غير الله (جل شأنه): ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:82) وأنَّ الله (تعالى) قد أقرَّاه نبيَّه، وقرأه عليه، وأمر نبيَّه أن يقرأه على الناس على مكث وأن يرتله ترتيلاً وأن يطمئن إلى أنَّه لا يمكن أن تدخل هذا القرآن نبرة أو حرف أو صوت من خارجه، فالحافظ (جل شأنه) أمين والمتلقي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمين معصوم، مراقب مراقبة دقيقة من الله (تبارك وتعالى) يستحيل عليه التقول خطأ أم عمداً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:44-47). وفي الوقت نفسه، بقيت عناية الله بهذا القرآن تقيض له كل وسائل العصمة والحفظ والحيلولة بين الباطل وبينه وبين الرب والتغيير والتحريف وبين أحرفه وكلماته وآياته وسوره؛ لأنَّ الله يعلم أنَّ محمداً -صلى الله عليه وآله وسلم- خاتم النبيين لا نبي بعده، وحين قضى الله (جل شأنه) أن يكون النبي بشراً فذلك يعني أنَّه لا بد له أن يموت في يوم من الأيام: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر:30)، وما دام قد قضى عليه الموت كما ألزم نفسه (جل شأنه) بأن لا يعذب حتى يبعث رسولاً، فقد كان القرآن النبي والرسول المقيم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، لتلجأ البشرية إلى هذا الكتاب الكريم يهديها السبيل لا تأتي بمثل إلا جاءها هذا القرآن بالحق وأحسن تفسيراً.

وحين أقبلت أمتنا على الرواية بعد سنة ثلاث وثمانين هجرياً، وعلى شأنها لقلة الكتابة، وبدأت تتبلور قواعدها وضوابطها؛ عد البعض الرواية منهجاً علمياً يمنح الثقة بالمروى ويعطيه أعلى درجات الوثوق بحسب علو السند وقوته، وحدث نوع من الإشادة بالرواية في كثير من المجالات المتعلقة بالقرآن المجيد، وبدأ المعنيون بالكتابة في تاريخ القرآن يروون روايات كثيرة بعضها تعلّق بآماكن النزول وتاريخ النزول وما عرف فيما بعد بقراءات سبع وعشر أو أكثر، وشيئاً مما عرف بأسباب النزول ... فكل تلك الأمور ارتبطت بحجّة الرواية واتخاذها طريقاً علمياً لتناقل النصوص وروايتها.

والقرآن المجيد كتاب تحدى الله به الخلق كافة الجن والإنس من بدء نزوله إلى يوم الدين، تحداهم أن يأتوا بمثل ما كان قد نزل أو بعشر سور مثله مفتريات كما زعموا أو بسورة واحدة، وأن يدعوا من استطاعوا من دون الله، فالله وحده الذي استثنى من ذلك التحدي، فعجز البشر والجن والشياطين وسائر المخلوقات أن يأتوا بسورة واحدة -ولو على مستوى سورة الكوثر- من مثل سوره لقصرها، وإذ ثبت عجز الخلق كافة عن الإتيان بمثل سورة من سوره، فقد ثبتت ألوهية المصدر، وأنَّ مصدر هذا الكتاب إنما هو الله (جل شأنه) فهو صاحبه وهو المتكلم فيه وكل ما فيه كلماته وآياته، هو من حفظها وهو من جعل اختراق الباطل له من بين يديه أو خلفه أمرًا مستحيلًا، وهو الذي تكفل بحفظه إلى يوم الدين وجمعه، حتى لو أنه لو فرّق كما فرقت طيور إبراهيم -عليه السلام- لجمعه الله مرة أخرى. قد تكون الرواية إحدى الوسائل للحفظ والجمع والصيانة من النسيان، ولكن الرواية ليست كل شيء، فما يعلم وسائل ربك لحفظ كتابه العزيز وجمعه وعدم نسيان أو ضياع شيء منه إلا هو (جل شأنه).

هذا الذي قلناه هو جزء من عقيدتنا في القرآن. وما ينبغي لمسلم أن يتجاهل ذلك، وما ينبغي لأحد أن يندفع وراء نسبة الفضل إلى بعض الصحابة أو القراء ليجعل منه السبب الأساس في حفظ القرآن أو جمعه، أو استحالة نسيان شيء منه أو استحالة تبديل كلماته، وإحلال كلمة بدلًا من أخرى، أو اقتراب الريب منه أو وقوع الاختلاف فيه، فكل هذه العيوب الكلامية محالة على الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذه العقيدة في القرآن. وقد كان جيل التلقي على إدراك تام بأنَّ الله قد حفظ هذا الكتاب من داخله بنظمه وأسلوبه وسياقاته، وما أودع الله فيه مما يستحيل على الخلق أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، لكن روايات أحاديثة وردت عن بعض القراء ربما فهم البعض منها أنَّ القرآن نص مروي، وأنَّ تواتر الرواية له أثر في إعجازه والتحدي به، وليس الأمر كذلك، وبالتالي فلا بد أن نعطي لكل وسيلة من الوسائل حفظها وبالجم الذي يناسبها، فلا تطغى فكرة الرواية ولا الرغبة في نسبة بعض الفضائل إلى بعض الصحابة وآل البيت على

مبدأ الحفظ الإلهي والجمع الإلهي لهذا القرآن الكريم، ونحن بهذا نود أن نقول للناس الذين يقرؤون في كتب تاريخ القرآن وما عرف بعلوم القرآن: إنَّ القرآن محفوظ معصوم بحفظ الله وبمعصمته وبوسائل كثيرة يعلمها البعض ويجهلها كثيرون، وإنَّ من نسبت إليهم فضائل في خدمة هذا الكتاب الكريم كان ينبغي أن ينظر إليها في ضوء حديث القرآن الكريم عن نفسه وحفظه وجمعه وإقراره في قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وإستحالة نسيانه.

وفي ضوء هذا الذي قدمنا، سوف نذكر بعض ما ورد في كتب ما يعرف بعلوم القرآن لنؤكد الحقيقة التي ذهبنا إليها، ولنضع الرواية موضعها المناسب في خدمة جانب التوثيق القرآني بين ملايين الوسائل التي خلقها الله وهياها لعصمة هذا القرآن وحفظه.

فمما ورد في الإتيان - وقد اخترناه لكونه كتاباً وسطاً بين ما كتبه المتقدمون على السيوطي مثل الزركشي في البرهان، وما كتبه المتأخرون مثل الزرقاني في كتابه مناهل العرفان - على سبيل المثال: كَيْفِيَّاتُ نَزُولِ الْوَحْيِ فقال:

وقد ذكر العلماء للوحي كَيْفِيَّاتُ:

(1) أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس.
(2) أن ينفث في روعه الكلام نفثاً كما قال: "إنَّ روح القدس نفث في روعي"، أخرجه الحاكم.

(3) أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمه.

(4) أن يأتيه الملك في النوم، وعد من هذا قوم سورة الكوثر، وهذا مردود، فالوحي لا يأتي إلا في يقظة.

(5) أن يكلمه الله إمّا في اليقظة كما في ليلة الإسراء، أو في النوم كما في حديث معاذ: "أتاني ربي فقال فيم يختصم الملائة الأعلى . . ." الحديث.

فانظر كيف ذهب الإمام السيوطي متأثرًا بروايات لم تحظَ منه بفحص ولا تحقيق ولا تخرج دقيق إلى القول: بأنَّ هناك سورة هي الكوثر نزلت عليه (صلوات الله وسلامه عليه) وهو نائم، والقرآن المجيد حين ذكر أنواع الوحي اقتصر على ثلاثة لم يزد عليها شيئًا، حيث قال (جل شأنه): ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: 51)، وكل هذه الأنواع الثلاثة تأتي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- باليقظة لا في المنام، فلم ينزل عليه شيء في المنام استقلالًا وكتب في القرآن على أنه قرآن. وكيف يمكن أن يتصور ذلك والقرآن حين ينزل عليه في حالة اليقظة يكون قولًا ثقیلاً لا يُطاق لولا أنَّ الله (جل شأنه) قضت حكمته بتيسير تنزيله على قلب رسوله، وإعداد هذا القلب الشريف لتلقيه، وأتى يتأتى هذا وقد نظرت إلى قول الله (تعالى): [لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...] (الحشر: 21). لكن الله قد مَنَّ على روح رسوله بطاقة لا يملكها غيره تسمح له بتلقي ذلك القول الثقيل وهو بكامل قواه ووعيه ويقظته وانتباهه؛ ولذلك نهاه أن يتعجل في حفظ ما يوحى إليه في نحو قوله (تعالى): [فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا] (طه: 114)، [لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ] (القيامة: 16). وهذا كله يوضح لنا أنه ما من آية في آيات الكتاب الكريم وضعت في كتاب الله وعلمها رسول الله أصحابه وأمر كتاب الوحي بكتابتها وتلاها (عليه الصلاة والسلام) وعارضها مع جبريل منذ بدء نزول القرآن وحتى اختتامه ... إلا وهي منزلة عليه في كمال يقظته (عليه الصلاة والسلام) ووعيه. ولا يقوم معارض لتلك النصوص القطعية بما روي عن أن رؤيا الأنبياء وحياً، فتمت كلمت ربك صدقاً وعدلاً نزولاً في حال اليقظة التامة والإدراك الكامل على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والوحي لا يندرج فيه المنام بأي حال من الأحوال، فالوحي يأتي الأنبياء دائماً وهم بكامل يقظتهم وسلامة قواهم ويقظة قوي الوعي فيهم.

فالوحي قول ثقيل يُعَدّ النبي والرسول لاستقباله إعدادًا وتصنع قوى وعيه للقيام به تصنيفًا، والمنام حالة ضعف تفارق النفس المميّزة فيه الإنسان وتبقى نفس الحياة وحدها: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر: 42). وبالتالي، فليس هناك مجال للقول بالإحياء أو نزول الوحي على نبي من الأنبياء وهو في حالة نوم، لكن ما دامت قد وردت رواية في ذلك الأمر فإنّ الكاتبين في هذا المجالات يشعرون بأنّ عليهم قبولها والأخذ بمدلولها بقطع النظر عن دلالات ذلك، خاصّةً إذا قرنوا تلك الرواية برواية أخرى لم تحظَ بتحقيق حديثي دقيق وهي: "رؤيا الأنبياء وحي"، وذلك يتصل بظاهرة أخرى هي ظاهرة عدم التدقيق في هذه الروايات وعرضها على القرآن المجيد لمعرفة هل القرآن الكريم يتقبلها أو يتقبل أثارها أو أنّها في موقف تعارض مع القرآن المجيد يفرض تجاوزها أو تأويلها وعدم الأخذ بها، خاصّةً في مثل هذا الموضوع الشائك الذي ضل بسببه كثيرون من أهل الكتاب؛ فخلطوا بين منامات أنبياءهم والصالحين من حواريتهم.

وأما رؤيا سيدنا إبراهيم -عليه السلام- أنّه يذبح ابنه إسماعيل فهي مجرد رؤيا، لولا أنّ إبراهيم أواه أواب منيب لكان من الممكن أن يغفلها؛ لأنّه يعلم أنّ الوحي لا يأتيه إلا باليقظة، خاصّةً في المجالات التشريعيّة، والأمر والنهي؛ ولذلك فحين أخبر إسماعيل -عليه السلام- قال له: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: 102)، ولو كان سيدنا إبراهيم يرى أنّ ما رآه في المنام وحي ملزم له وواجب التنفيذ لما خيّر إسماعيل، ولما قال له: فانظر ماذا ترى، إذ ليس من عادة إبراهيم -عليه السلام- أن يُخيّر أو يُخيّر في موضوع يرى أنّ الله قد قضى فيه؛ ولذلك تشاور مع إسماعيل، ولو أنّه اعتبره وحيًا ملزمًا لكان تصرفه وعرضه لهذا الأمر مختلفًا تمامًا.

والله (تبارك وتعالى) حين يأمر أنبياءه بتغيير ظاهرة من الظواهر الشائعة في مجتمعاتهم فكثيراً ما تأتي بمثل هذا الشكل، فتكون بمثابة قصة أحد أطرافها الأساسيين يكون النبي نفسه، وكأنَّ التطبيق يبدأ به؛ وظاهرة القربان البشري في عهد سيدنا إبراهيم كانت من الظواهر الشائعة، واقتضت حكمة الله (جل شأنه) أن يبطل هذه الظاهرة، وينقذ البشرية منها، فجرت حكمته في أن يتم ذلك على أيدي أبي الأنبياء إبراهيم، وخَلَّد القرآن المجيد قصته وقصة ولده إسماعيل بذلك الشكل؛ ولأنَّ تقدم وقتل القربان البشرية على أيدي من كانوا يقربون البشر فاحشة كبرى وجريمة عظمى، الأنبياء معصومون من السقوط فيها أو الأمر بها، فإنَّه (سبحانه وتعالى) قد نبَّه إبراهيم لتمثيلها، ولتتحول إلى قصة تذكرها وتنقلها البشرية كلها، فجاءت بالرؤية المناميَّة، وإلا فإنَّ الله (تبارك وتعالى) قد ذكر لنا قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: 137)، وقوله (تعالى): ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: 140)، وقوله (تعالى): ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 28-30)، فلذلك جاء هذا الأمر الذي أريد به استئصال هذه الظاهر الشركيَّة السيئة في المنام لا في اليقظة؛ لئلا يشبه هذا الفعل ما كان يفعله الشياطين والشركاء الذين يضلون الناس بغير علم، فجاءت في مستوى رؤيا مناميَّة فقط.

القرآن أولاً

لماذا نؤكد على ضرورة البدء بالقرآن وإسكانه القلب وتسليمه قيادَ العقل والوجدان وقوى الوعي الإنساني كلها؟

إننا نؤكد على ذلك لأنَّ ما يحتل قلب الإنسان أولاً يكون هو الميزان وهو المقياس الذي إليه يقاس كل ما بعده وكل ما يتلوه في الوصول إلى القلب، وبذلك يكون لدى الإنسان نور يمشى به في الناس يستطيعون أن يميزوا به الحق من الباطل والصواب من الخطأ والخير من الشر، فإذا جاءت الواردات والمعارف والأفكار المختلفة بعد ذلك فإنَّ ميزان القلب القرآني سوف يهدي صاحبه لما هو الحق وأحسن تفسيراً، ويكون له فرقاناً يفرق به بين الهدى والضلال والنور والظلمات فلا يخشى عليه من الانحراف أو التيه.

أمَّا حين تحتل مصادر ومراجع معرفيَّة أخرى القلب الإنساني، فإنَّ القرآن يصبح هو الطارئ على ذلك القلب، فيبدأ القلب وقوى الوعي الإنساني بتأويل آياته لتنسجم بعد التأويل مع المسلمات والمستقرات في القلب والوجدان، وذلك خطر عظيم لأنَّه سوف يحمل آيات الكتاب الكريم على معاني تلك المسلمات ويحكمها فيه، وحين نستعرض أقوال كثير من المفسرين فسوف نجد مصداق ذلك ظاهراً في تفسيراته، فمن احتلت الفلسفة قلبه قبل القرآن كثيراً ما يحكم منطلقاته الفلسفيَّة في معاني الكتاب الكريم، ويمكن أن يراجع مثل تفسير الكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للفخر الرازي للحصول على أمثلة كثيرة جاءت في تفسير كثير من السور انطلاقاً من ذلك الجانب من جوانب المعرفة، فأعطت للآيات المفسرة معاني قد لا يحتملها نظمها ولا سياقها ولا ألفاظها، وتستطيع أن تجد مثل ذلك في تفسير ابن كثير مثلاً، في قوله (تعالى): ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

عَظِيمًا * وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿النساء: 114-115﴾.

يقول (تعالى): (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ) يعني: كلام الناس (إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) أي: إلا نجوى من قال ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس قال: دخلنا على سفيان الثوري نعوذه -وأومأ إلى دار العطارين- فدخل عليه سعيد بن حسان المخزومي، فقال له سفيان الثوري: الحديث الذي كنت حدثني به عن أم صالح أرؤده عليّ. فقال: حدثني أم صالح، عن صفية بنت شيبة، عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "كلام ابن آدم كله عليه لا له ما خلا أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو ذكر الله (عز وجل)"، قال سفيان: فناشدته، فقال محمد بن يزيد: ما أشد هذا الحديث؟ فقال سفيان: وما شدة هذا الحديث؟ إنما جاءت به امرأة عن امرأة، هذا في كتاب الله الذي أرسل به نبيكم -صلى الله عليه وآله وسلم- أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا: 38)، فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: 8)، فهو هذا بعينه.

وقد أدرك كثير من علمائنا المتقدمين هذا الأمر فحرصوا أن يكون أول ما يدرسه الناشئة كتاب الله، والعالم الإسلامي -إلى وقت قريب- كانت الكتابات تنتشر فيه ليتعلم الناس فيها القرآن أولاً ثم بعد ذلك ينتقلون إلى المدارس الأخرى، ولكن لم يدرك كثيرون مغزى ذلك

ولم يحاولوا إدراك الحكم فيه للتوسع فيها وتعميقها. ومن بين أعلام المتقدمين الذين عنوا بإبراز أهمية استقرار القرآن، الإمام الشافعي، يقول في مقدمة رسالته: فليس تنزل بأحدٍ من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على وجه الحق فيها.

كما أنه أُلّف في اختلاف الحديث وجاء بكلام نفيس عندما تناول اختلاف الحديث فبيّن أنه إذا اختلفت الأحاديث عنده فيأخذ الأقرب منها إلى القرآن الكريم، وهو السنّة التي لها في القرآن أصلٌ وردت لتبيّن كيفية تطبيقه وتأويله في الواقع وأفضل سبل اتباعه، فالقرآن عنده مقدّم على كل شيء وكل ما جاء بعده فإنه ينظر فيه بنور القرآن وهدايته، يقول -رحمه الله- في معرض تقرير مذهبه في عدم نسخ السنّة للكتاب أو الكتاب للسنّة: (أبان الله لهم... أنّ السنّة لا ناسخة للكتاب وإنما هي تبع للكتاب نصّاً، ومفسرة معنى ما أنزله الله منه جملاً، والأحاديث إذا اختلفت لم نذهب إلى واحد منها دون غيره إلا لسبب يدل على أنّ الذي ذهبنا إليه أقوى من الذي تركنا... بأن يكون أحد الحديثين أشبه بكتاب الله، فإذا أشبه بكتاب الله كانت فيه الحجة). ولم يقتصر على ذلك بل أكّد على تقديم ما يكون معناه أشبه بمعنى الكتاب على سواه، فكأنّه -رضى الله عنه- هنا يؤصل لتصحيح الحديث والأخذ به ما يشبه كتاب الله ويتصل، وكأنّه فرع بأصل في الكتاب.

القرآن المجيد يتكلّم

لو سألنا القرآن المجيد عن وصف لأحوالنا؟

فقد يجيب القرآن المجيد: إنَّكم -اليوم- قد بلغت مستوى من التفرُّق والضعف والتراجع والاختلاف، والاعتماد على الآخرين في كل شيء؛ طعامكم وشرابكم ولباسكم ودوائكم وسلاحكم ومبانيكم. فلو رأى خصومكم من منافقين ومشركين وملحدين وكفّار ووثنيين الذين يزودونكم بهذه الضروريات والاحتياجات حرمانكم من الطعام والشراب والملابس والسلاح ومعدّات البناء لعجزتم عن إطعام أنفسكم وستر عوراتكم، وانتعال أحذيتكم،

وتوفير أدوية لأمراضكم ومرضاكم، وأدوات بناء لبيوتكم، وأسلحة لجنودكم ومن تطلقون عليهم شرطتكم وقوات أمنكم.

فأنتم في وضع هُوَ في غاية السوء. فأنا كتاب هداية أمرتكم أن لا تسمحوا للجوع أو العطش أو العري أو المرض أن يتغلغل في مجتمعاتكم؛ لقد اشتملت آياتي -لو أنكم اهتديتم بها واستضأتم بأنوارها- على إيجاب السير في مناكب الأرض واستثمار خيراتها، واستخراج كنوزها وإعمارها، وأنطت بكم مسئولية إطعام جيعائها وسقاية عطاشها وإكساء عراها، وإيواء مشرّديها بها، ومعالجة مرضاها، وحماية المستضعفين فيها.

مهمتكم «الوسطية والشهادة على الناس»، فتنكّبت صراطي السوي، وأعرضتم عني وعن هدايتي. لقد ملأ الله (تعالى) أراضيك من الخيرات والكنوز ما كان يمكن أن يضعكم في الموقع الذي كان ينبغي أن تكونوا فيه، موقع الشهادة على الناس. فحرمكم جهلكم من استثمار ذلك -كله- وتلك خطيئة أخرى؛ فلقد أمرتكم بالعلم والتعلم، وأوضحت لكم: أن هناك «علوم تسخير» و«علوم تدير» و«علوم هداية» و«علوم تنوير» وفي الآيات الأولى مني نزولاً على قلب محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- أمرتكم بقراءة الخلق والأنفس والآفاق، وقراءة التاريخ، وكل ما تعلمته الأمم قبلكم، وجعلت العلم ديناً وعبادة وأرشدتكم إلى ما تميزون به العلم النافع من العلم الضار، وأمرتكم «بالجمع بين القرائتين»: قراءة في آياتي لتتهدوا بها في واجباتكم من الوفاء بالعهد الإلهي، والقيام بمهام الاستخلاف وحفظ الأمانة، والقيام بحق الابتلاء لتفوزوا إذا اهتديتم بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالجنة في الآخرة. وقراءة في الكون تتعلموا كيف تتعاملون مع المسخرات التي سخرها الله (تعالى) لكم، ولتقوموا بحق الاستخلاف وفريضة العمران. فأبيتم إلا إن تنتكّبوا الصراط السوي، وتهجروا المحجة البيضاء، فأبدلكم الله (تعالى) بالحياة الطيبة «معيشة ضنكاً»، وصارت أيديكم سفلى تستجدي ما عند الآخرين من بعد أن كانت عليا تمنح الآخرين وتغنيهم وتحميمهم.

ولن تفارقوا هذه الحالة، ولن تفارقكم إلا إذا رجعتم إليّ وتدبرتم آياتي، وتلوتموني حق التلاوة، وتمسكتم بي واعتصمتم بآياتي، فلعلّ الله (تعالى) يبدلكم من بعد خوفكم أمناً، ومن بعد حيرتكم وانحرافاتكم استقامة وهدى، ومن بعد فقركم رزقاً حسناً، ومن بعد تفرقكم واختلافاتكم ألفة وتآخياً ووحدة واتحاداً يجعلكم كالبنين المرصوصين.

آيات القتال

نموذج لتفسير القرآن بالقرآن

يتعرّض الإسلام في أيامنا هذه إلى هجوم كبير يتناول مصدره المنشئ؛ ألا وهو القرآن المجيد، بعد أن ظلَّ أعداء الإسلام والمسلمين أُنهم قد كسبوا معركتهم ضدَّ التراث الإسلامي والثقافة الإسلامية والسنة النبوية والشريعة الإسلامية بصفة عامة، وكعادة الأعداء الجاهلين فإنهم كثيراً ما يختارون أو ينتقون أجزاء من آيات الكتاب الكريم، يقتطعونها من سياقاتها، ويُعطونها معاني يتخيّلونها، وتفسيراتٍ وتأويلاتٍ يبتدعونها، وبذلك يُوهمون أنفسهم أنهم قد أصابوا مصادر الإسلام وشريعته في مقتل، على طريقة مَنْ قال:

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِلْأُولَى سَكِرُوا	بَلْ قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِّلْمُصْلِينَ
--	--

وبعد 11 سبتمبر، حين تغيّرت نظرة الأمريكيين والأوروبيين إلى الإسلام والمسلمين، وسادت اتجاهات العداء والكراهية ضدَّ الإسلام والمسلمين وضد الوجود الإسلامي في الغرب خاصّة، وساد ما عُرف بـ«الإسلاموفوبيا»، تحوّلت تلك الهجمات الشرسة إلى القرآن المجيد، وتعلّلت أصوات مختلفة في العالم تُطالب بمنع دخول المصحف إلى الغرب، ومنع طباعته وتوزيعه في البلاد الأمريكيّة والأوروبيّة، واعتباره كتاباً يحثّ على الكراهية، ويشجع ثقافة الموت ويقدمها على ثقافة الحياة، ويشكّل منبعاً من منابع ثقافة الإرهاب والاعتداء على الآخرين، واعتباره عقبةً بين المسلمين وبين قبول الحداثة وقيم الديمقراطية وما إليها. وقد خرجت بعض مراكز البحوث في البلدان الغربيّة بقوائم من آيات كريمة من آي الكتاب الحكيم، قُدّمت للقارئ الغربي على أنّها نماذج لتلك التوجهات المرفوضة المنافية لقيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، فتعرّض نظام المواريث -الذي أرسى القرآن دعائمه- وآيات الجهاد، وبعض الآيات

المتعلقة بقضايا النكاح لإسقاطات ثقافيّة غربيّة، لم يلتفت إليها الذين أشعلوا نيران الحروب الصليبيّة في الماضي.

إنَّ من أهم الآيات الكريمة التي تعرّضت مؤخرًا إلى سهام الهجمات الغربيّة الآية (29) من سورة التوبة، التي قال الله فيها: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: 29)، حيث زعم هؤلاء أنَّ المسلمين أعداء للإنسانيّة كلها، وأنَّ ما قالوه من كونهم يحترمون أهل الكتب السماويّة تُكذِّبه هذه الآية؛ لأنَّها نصّت على الأمر بقتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعلى ذلك فما يدّعيه المسلمون في الغرب من أنَّ الإسلام واحد من الأديان الإبراهيميّة الثلاثة؛ اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، وأنَّه في حالة إخاء معهم إنّما هو محض افتراء ونفاق يكذِّبه القرآن نفسه، وهذا التصوُّر المريض قد أقاموه على اقتطاع هذه الآية من سياقها، وإخراجها من بيئتها، بمثل الطريقة التي ذكرناها حول اقتطاع من اقتطع «ويل للمصلين» من سياقها، وبني عليها فكرة مريضة مماثلة.

نحن -في هذه الصفحات القليلة- سوف نبين السياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، والتي جعلها مكملّة لما تقدّمها من آيات نزلت في النّاكثين لعهودهم والنّاقضين لمواثيقهم والخارجين على قيم الأديان كلها؛ اليهوديّة والنّصرانيّة وسواها، مما جعلهم حلفاء للمشرّكين وأعوانًا لهم على دين التّوحيد الذي جاء به الأنبياء كافّة، فمثل هؤلاء يتسترون -بانتماء شكليّ صوري- إلى أهل الكتاب، وما هم من أهل الكتاب، فلم يؤمنوا في حياتهم كلها بكتاب موحى من الله إلى رسول من رسله أو نبي من أنبيائه، مثل هؤلاء ينبغي أن يُوضعوا - في التعامل في السلم والحرب - إلى جانب أوليائهم وحلفائهم ومن فضّلوه من أعداء التّوحيد والإيمان على أهل التّوحيد والإيمان، فهم ليسوا بإخوان للمؤمنين ولا بأوليائهم، وليسوا بأولياء لله ولا أنصار لرسله ولا أولياء للمؤمنين، وحينما نقرأ هذه الآية الكريمة في سياقها الذي

وردت فيه وننظر في المعاني التي جاءت لتقديمها سوف نكتشف مدى غباء أولئك الذين حَرَفُوا كتب الله وكلماته عن مواضعها وأبعدوها عن معانيها والمراد بها، وحملوها ما شاء الشيطان وشاءوا من معان أخرى مخالفة مغايرة.

نفي وقوع النسخ في القرآن المجيد:

إنَّ القول بعدم وجود نسخ في القرآن تترتب عليه قضايا كثيرة، بعضها يندرج تحت علم الأصول، وبعضها يندرج في العلوم الفقهيَّة، إضافة إلى علوم القرآن. كما أنَّ الأخذ بقاعدة هيمنة القرآن على كل ما عداه، وضرورة تصديقه عليه، وعدم دخول النسخ على آيات حرِّيَّة التدين سوف يؤدي إلى بطلان نسبة سائر الأخبار والآثار التي وردت في دعوة المسلمين إلى مقاتلة غيرهم حتى يدخلوا في الإسلام، وعلى ذلك، وانطلاقاً من تفسير القرآن بالقرآن فلا بد من إبطال سائر الأخبار والآثار التي تُسبب إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وإلى كبار أصحابه، ومنها قوله: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله..."، وأمثال ذلك مما لا يصلح أن يكون ناسخاً أو معارضاً لآيات الكتاب الكريم خاصة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256)، وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)، وقوله: ﴿أَنْلِزْكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود: 28)، وقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ (الغاشية: 22)، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ (ق: 45)، إلى ما يقرب من مئتي آية كلها أكَّدت على حرِّيَّة الإنسان في اختيار دينه وما يتدبَّن به ويتعبَّد الله به. ولكي نتبيَّن مدى أهميَّة تفسير القرآن بالقرآن -للتخلص من سائر التناقضات التي تظهر عندما نذهب مع المفسرين وأضرابهم إلى ما يذهبون إليه- نتدبَّر هذه الآيات الكريمات:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ*فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ*وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ

وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ* كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ* اشْتَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ* فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ* أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتَحِشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿التوبة: 1-13﴾.

نجد حين تدبرها أنَّ القتال الذي يقع بين المسلمين وغيرهم لم تكن علته حمل الآخرين على قبول الإسلام والإيمان به، بل حمل الآخرين على احترام المعاهدات والاتفاقات الدولية، وعدم نقض العهود والمواثيق؛ لأنَّ السلام لا يمكن تحقيقه دون أن تأمن الشعوب ويثق بعضها ببعض، وتقوم بينها علاقات تعاون وتعارف لا تسمح بأن يغدر شعب بآخر أو يهدده في نفسه أو أرضه أو كيانه أو مصالحه، وهذه الآيات حينما نتدبرها في سياقها نجد أنها قد وجهت واجب البراءة -براءة الله ورسوله- من الالتزام بمعاهدات أبرمت مع قوم

لا يحترمون أي معاهدة أو اتفاق، فهم ينكثون أيمانهم وينقضون عهودهم ويظاهرون على المؤمنين أعداءهم، فتصبح الاتفاقات كأنها اتفاق من جانب واحد هو الجانب المسلم. وأما الجانب الآخر فإنه يتخذ من تلك الاتفاقيات والمعاهدات وسائل لتخدير المؤمنين واغتنام أية فرصة لمهاجمتهم وهم غافلون.

إن الذين يتصورون أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والمؤمنين قد اتخذوا هذا الموقف بعد أن قويت شوكتهم وأصبحوا القوة العظمى في الجزيرة العربية - كلها - القادرة على فرض إرادتها على خصومها وأعدائها، هذه الآيات عند تدبرها تنفي كل هذه التصورات، فقلوه (تعالى): ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: 1)؛ أي: عاهدتموهم ثم نكثوا أيمانهم مرة بعد أخرى، ونقضوا عهودهم في كل مرة، وكلما وجدوا فرصة للنيل من المسلمين ناصروا وظاهروا أعداء المسلمين، وتخصيص هذه البراءة وحصرها في هذا النوع من الناكثين لعهودهم دلّ عليه الاستثناء الذي جاء في السياق بقوله (تعالى): ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: 4)¹³. وحتى أولئك - الذين تكرر منهم نقض العهود - لم يؤمر المسلمون بمفاجأتهم

¹³ قال أبو جعفر الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياسة فيه بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ونقضوا عهودهم قبل انقضاء مدته فأما الذين لم ينقضوا عهودهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله (جلّ ثناؤه) أمر نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. وبعد: ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه حين بعث عليًا - رضي الله عنه - ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادي به فيهم، ومن كان بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عهد، فعهدته إلى مدته أوضح الدليل على صحة ما قلنا وذلك أن الله لم يأمر نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) بنقض عهد قوم كان عاهدتهم إلى أجل فاستقاموا على عهده بترك نقضه.

بنقض العهود وإنهائها والشروع الفوري في مقاتلتهم، بل أعطوا مهلة كافية جدًا ليراجعوا أنفسهم ويدركوا أخطاءهم في تكرار نقضهم لمعاهداتهم ومواثيقهم مع المسلمين، فقال (تعالى): ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:2)، ففي هذه الآية دليل واضح على مدى حرص القرآن والإسلام على السلام وعدم مبادرة أحد بالحرب، وفي قوله (تعالى): ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ (التوبة:3) فرض على المسلمين أن يعلنوا آجال إنهاء تلك المعاهدات بأهم وسائل الإعلان المتاحة في ذلك العصر؛ لئلا تكون هناك مباغتة، فليس الهدف - كما قلنا - الإكراه على الدين ولا الانتصار في الحروب ولا إبادة الآخرين، بل حملهم على احترام المعاهدات والمواثيق الدولية، والتوبة عن نقض أية مواثيق؛ كي تستطيع البشرية أن تحقّق أمنًا وسلامًا عالميين قائمين على احترام المواثيق والعهود وعدم التفريط بشيء منها؛ ولذلك جاء الاستثناء بقوله (تعالى): ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة:4) كما تقدم. فإذا انسلخ الأشهر الحرم دون أن يراجع أولئك - الناكثون للعهود - أنفسهم ويلتزموا بالوفاء بمواثيقهم، يجب مقاتلة قوَّات هؤلاء أينما وجدوا، وأخذهم بجرائم نقض العهود ومحاصرتهم في كل موقع، فهؤلاء يمثلون - والحالة هذه - إرهابًا أمنيًا عامًّا شاملاً يجعل العالم كله يعيش حالة من أزمة الثقة وعدم الاطمئنان إلى أية وسيلة سلمية، ومثل هؤلاء لا يؤمن أذاهم ولا يدفع ضررهم إلا إذا تابوا وأنابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وتحلَّوا بالتزكية التي تتحول إلى قاعدة أخلاقية تحول بينهم وبين نقض العهود والمواثيق. وتُشير الآية التالية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:6) إلى مستوى الأفراد الذين قد يرفضون سلوكيات أممهم وشعوبهم وحكوماتهم، فيحاولون أن يعرفوا حقيقة ما يدعوا المسلمون إليه ويطلَّعوا على رسالتهم، فهؤلاء تصبح الأمة المسلمة كلها مسؤولة عن حماية حقهم الذي يصبح من أهم حقوق الإنسان في معرفة الحقيقة والاطلاع عليها وحماية مَنْ يطلبها من أية تهديدات قد لا تسمح له بالاطلاع عليها. في الوقت نفسه يأتي

الاستفهام في قوله (تعالى): ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: 7) باستبعاد أن يحترم المشركون -الذين نقضوا عهودهم أكثر من مرة- أيَّ عهد يرمونه، فهم كاذبون يتظاهرون بذلك لإرضاء المؤمنين حتى تحين لهم فرصة للهجوم عليهم أو الانضمام إلى أعدائهم، يقولون بأفواههم ما يرضون به المؤمنين وتأبى قلوبهم، ومن بين هؤلاء قوم لم يعلنوا نقض أو نكث عهودهم مع المؤمنين، بحيث لا يمكن تصنيفهم في الناكثين الذين جاهرُوا بذلك ولا بالملتزمين الموفين بمعاهداتهم، وفي الوقت نفسه تُنبّه الآية التالية المؤمنين إلى أنَّ هؤلاء الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم لو انتصروا عليكم أو تفوّقوا بالقوة عليكم فإنَّهم لن يدّخروا أي وسع لإيذائكم ومحاربتكم، فلا تنخدعوا بمعسول الكلام الذي يقولونه بأفواههم فقط؛ لأنَّهم فاسقون، ولأنَّهم اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا. ولذلك، فإنَّ الثقة بهم لا ينبغي أن تحدث إلا إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآثروا أخوتكم على عداوتكم، وفضّلوا أن يكونوا منكم بشكل كامل، بحيث ينتمون إلى أمّتكم وينضمُّون إلى صفوفكم، فهؤلاء لا ينبغي أن يأخذوا على ما قد سلف منهم من نقض للعهد وأذى أصابكم نتيجة لذلك؛ لأنَّهم -والحالة هذه- قد صاروا إخوانًا لكم في الدين، أمّا إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فذلك يعني أنَّهم قد اختاروا حربكم وعدم مسالمتكم وعدم الاعتراف لكم بحريّة الدين ولا بحريّة الدعوة إلى الدين: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ (التوبة: 12)، لا لكفرهم ولكن لأنَّهم لا أيمان لهم لعلمهم ينتهون، ثم تؤكد الآية التالية ذلك بالاستفهام: ﴿أَلَا تُفَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُوُّكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 13). وحين نتدبّر هذه الآيات على التفصيل نستطيع أن نقول: إنَّ البراءة المذكورة في أول السورة ليست بسبب الشرك، وإنَّما هي بسبب نقض العهد والنكث في المعاهدات وبشكل متكرر، بدليل أنَّ الله (تبارك وتعالى) قد استثنى من تلك البراءة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة:4﴾، ولآيات الكثيرة الواردة في حرية التدئين وعدم الإكراه على الدين، وعلى ذلك فيمكننا أن نحرر الموضوع بالشكل التالي:

- 1- من المشركين مَنْ بلغتهم الدعوة وَمَنْ لم تبلغهم.
- 2- مَنْ لم تبلغهم الدعوة فريقان: فريق منهم اعتدوا، وفريق لم يعتدوا.
- 3- والذين بلغتهم الدعوة فريقان؛ منهم مَنْ عاهدوا المسلمين وأنشأوا معهم موثائق، ومنهم مَنْ لم يُعاهدوا.
- 4- والذين بلغتهم الدعوة وعاهدوا؛ منهم مَنْ أوفوا بعهودهم والتزموا بها، ومنهم مَنْ نقضوها.
- 5- الذين نقضوا عهودهم؛ منهم مَنْ نقضوها مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ومنهم مَنْ نقضوها مع المؤمنين بعد وفاته (صَلَّى الله عليه وآله وسلم).

فصار لدينا عدَّة أنواع:

أولاً: مشركون لم يُعاهدوا ولم يعتدوا.

ثانياً: مشركون عاهدوا فوقوا.

ثالثاً: مشركون لم يعاهدوا واعتدوا.

رابعاً: مشركون عاهدوا ثم نقضوا عهدهم مع النَّبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

خامساً: مشركون عاهدوا فلم ينقضوا ولم يُوفوا، وكانوا يحاولون أن يُرضوا المؤمنين بأفواههم وتأبى قلوبهم.

سادساً: مشركون عاهدوا ثم نقضوا عهدهم مع المؤمنين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

أَمَّا أَوَّلًا: وهم مَنْ لم يعاهدوا ولم يعتدوا ففيهم جاءت سائر الآيات التي ضمنت حرّية الاعتقاد وحرّية التدّين، مثل قوله (تعالى): ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:256)، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:99)، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ (ق:45)، ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ (الغاشية:22)، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف:29)، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:190).

وفي ثانيًا: وأمّا مَنْ عاهدوا فوفّوا ففيهم ما في مَنْ لم يعاهدوا ولم يعتدوا، وفيهم أيضًا قوله (تعالى): ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:4)، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:7)، ولم يكن في حياة النَّبي من هؤلاء إلا الذين عاهدهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عند المسجد الحرام، بدليل اختصاصهم بالاستثناء من كل الأوصاف البشعة في الناقضين من المشركين المعاهدين في قوله (تعالى): ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾* اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (التوبة:7-10)، فسائر المشركين الذين عاهدوا النَّبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا بين ناقضين عهدهم معلنين نقضهم وبين مستخفين متظاهرين بإرضاء المؤمنين، وتأبى قلوبهم.

وفي ثالثًا: وأمّا مَنْ لم يعاهدوا واعتدوا، ففيهم قوله (تعالى): ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾* وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ* فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ¹⁴* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: 190-193﴾.

وقد كان أول الأمر أمرًا بالصفح والعفو والصبر على الأذى، ثم كان الإذن في الدفاع حتى يكفّ المعتدون عن محض العدوان في قوله (تعالى): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 39)، ثم كانت براءة والأمر فيها بقتل مَنْ نقضوا عهدهم مع النَّبي عقوبة على نقضهم، وبعدم العفو عنهم، حتى وإن تظاهروا بالكف عن العدوان، إلا إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة كما يلي.

وفي رابعًا: وأَمَّا مَنْ عاهدوا ثم نقضوا عهدهم مع النَّبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد كان فيهم قوله (تعالى): ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 5).

وفي خامسًا: وأَمَّا مَنْ لم ينقضوا ولم يوفوا، يرضون المؤمنين بأفواههم وتأبى قلوبهم، ففيهم قوله (تعالى): ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ وقوله (تعالى):

(14) الرحمة قد تكون للكافر لكن في الدنيا فقط بركة في صحته وماله وأهله أو تهيئة ظروف كريمة قبل أن يهتدي تسهل عليه سبيل الهداية قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)، وقال (تعالى): ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: 154) وقال: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَّالْجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (المؤمنون 75) وقال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (يونس 21) وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: 33) وقال: ﴿وَلَكِنِ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: 50).

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾، وقوله (تعالى): ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ* وَلَا يَخْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ* وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾؛ أي: لا لتعتدوا به عليهم، وإنما: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، وقوله (تعالى): ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، وقوله (تعالى): ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي سادسًا: وَأَمَّا مَنْ عَاهَدُوا ثُمَّ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ بَعْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)؛ أي بعد التخفيف، ففيهم قوله (تعالى): ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾؛ أي: وإن لم يتوبوا ولم ينكثوا فعلى ما أنتم عليه؛ أي: ﴿أَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

مداخل تدبر القرآن المجيد

مداخل للتدبر:

إنَّ العودة إلى القرآن الكريم تعني أن نتجاوز كل الحُجُب التي قد تحجبنا عنه وتحول بيننا وبينه، من أجل ذلك توصلنا إلى عدد من المداخل يمكن أن نتناول كل سورة أو كل نجم من نجوم القرآن بمقتضى تلك المداخل التالية بحيث نقرأ السورة أو الآية بعدد هذه المداخل، كل مرة بمدخلٍ مغايرٍ للمدخل الذي سبقه، ومن هذه المداخل:

1. مدخل تفسير القرآن بالقرآن.
2. مدخل تفسير القرآن بالسنة النبوية المطهرة وبالسيرة والهدي النبوي.
3. مدخل الغيب والشهادة.
4. مدخل عمود السورة.
5. مدخل الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، بحيث يساعد كل منهما على فهم الآخر.
6. مدخل العقيدة والشرعة، والحلال والحرام.
7. مدخل الوحدة البنائية للكتاب الكريم.
8. مدخل القراءة بالقلم وبالخلق، وهذا المدخل عائد إلى المدخل الخامس.
9. مدخل الأزمات وطلب الحلول القرآنية.
10. مدخل النبوات وقصص الأنبياء وبناء الأمم.
11. مدخل السنن الكونية والاجتماعية.
12. مدخل الأخلاق والسلوك، وآثارها في حياة الأفراد والأمم.
13. مدخل الاستخلاف.

14. مدخل القيم والمقاصد العليا الحاكمة؛ "التوحيد والتزكية والعمران والأمة والدعوة".
15. مدخل البحث في الأمثال والقصص، واستخلاص الدروس والعبر.
16. مدخل الإصلاح والصالح والفساد، والأمم التي تحدت مصائرهما وفقاً لممارساتها.
17. مدخل تصنيف البشر وفقاً لمواقفهم من قضية الإيمان والكفر، والاستقامة، والانحراف.
18. مدخل العلاقات بين الإنسان والطبيعة والحياة.
19. مدخل الأحكام والتفصيل.
20. مدخل المحكم والمتشابه.
21. المدخل الموضوعي دون غفلة عن "الوحدة البنائية".
22. مدخل الكشف عن السياقات.
23. مدخل التصديق والهيمنة.
24. مدخل الاستيعاب والتجاوز.
25. مدخل البحث عن الكلّي والجزئيّ.
26. مدخل نفي النسخ والتعارض بين الآيات.
27. مدخل الاستنباط.
28. مدخل البحث عن تأثير القرآن في الإنسان.
29. مدخل الكشف عن بلاغة القرآن وفصاحته.
30. مدخل البحث في المحذوف والمقدّر والمكنون.

تفسير القرآن المجيد هو: تفسير القرآن بالقرآن.

كيفية الاستفادة بهذا المدخل: هو قراءة السورة كما هي في كتاب الله (تعالى) والكشف عن علاقاتها مع السور والآيات الأخرى.

فحين نقرأ سورة الفاتحة ثم البقرة نجد للفاتحة شرحًا بشكل واضح وتفصيلًا لإحكامها في الثلاثين آية الأولى من سورة البقرة، ومن يقرأ تلك الآيات بتدبر مع الآيات السبعة في سورة الفاتحة يستطيع أن يدرك ذلك بوضوح فقد بينت السورة لنا مصدر الهداية ومصدر الحمد والذكر والنور والعبادة والاستعانة وما يتعلق بيوم الدين، وصاحب الكلمة الوحيد فيه ألا وهو الله (جل شأنه)، ثم بينت لنا أوصاف الأصناف الثلاثة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهم الذين ألزمهم الله كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها، ثم بيّن لنا صفات المغضوب عليهم، الذين يؤسوا من الآخرة كما يؤس الكفار من أصحاب القبور، فضل سعيهم في الحياة الدنيا، وغضب عليهم ربهم ولعنهم، فلن يغني عنهم من الله شيء في الأرض ولا في السماء. ثم بين صفات الضالّين، وضرب لهم المثل بثلاث عشرة آية، وفي الآية العشرين من السورة نادى في الناس ليعبدوا الله، ويحتنبوا الطاعات، وذكر (جل شأنه) بعض النعم التي تجعله (سبحانه) وحده لا شريك له الجدير بالعبادة والاستعانة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 21) لتكونوا من المفلحين، فهو الذي برؤيته وبنعمته وفضله عليكم جعل لكم الأرض فراشًا، والسماء بناءً، وسقفًا محفوظًا، وأنزل من السماء ماءً، وأخرج لكم من الثمرات، والأغذية ما لا تستقيم حياتكم بدونه.

ثم عاد السياق لتحدي الخلق بمصدر هذه الرسالة، المنشئ ألا وهو القرآن، الذي بدأت السورة ببيان أنه لا ريب فيه، أمّا من في قلبه ريب من سلامة هذا المصدر والوثوق به فليستجب لهذا التحدي، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ..﴾ (البقرة: 23)، إلى آخر الآيات.

ثم تأتي قصة الخلق وما حدث وكأها بيان لربوبية الله للعالمين، التي وردت في آية سورة الفاتحة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: 2)، فكأها بيان لهذه الربوبية التي بدأت بالإعداد للخلق، ثم خلق آدم وزوجه، ثم بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وقصة العدو المبين من بدايتها، ثم تأتي قصة بني إسرائيل عبر تاريخهم كله، لتبيّن خطورة هذا العدو المبين، الذي

جعلهم أي جعل بني إسرائيل رغم كثرة الأنبياء والمرسلين الذين أرسلوا إليهم ينحرفون ويعبدون العجل الذهبي الذي له حوار. وتستمر السورة لتتحدث لنا عن قصة البقرة التي أمروا بذبحها، وكأنه دليل خفي على سفاهة بني إسرائيل، وقلة عقولهم، وطيش أحلامهم حين عبدوا العجل الذهبي، فيؤمروا بذبح بقرة صفراء فاقع لونها، لتكون في لونها الأصفر مذكرة بانحرافهم وعبادتهم العجل الذهبي الذي لو كان يسمع أو يعقل أو ينطق لما سمح بذبح أنثاه، الصفراء الفاقعة اللون التي يلمع جلدها لمعان الذهب، وتستمر السورة بذكر انحرافاتهم، إلى أن تفتح بابًا للتفكير في عملية "الاستبدال"، استبدال هؤلاء الميئوس منهم الذين غضب الله عليهم ولعنهم بأمة أخرى من سلالة إسماعيل ومن أبناء إبراهيم أيضًا، لكنهم لن يكونوا أمثال أمة يهود العاصية المتمردة، أهل القلوب القاسية والضمائر الخاوية .

وفتحت صفحة التشريعات التي طولبت هذه الأمة بها، من تحديد القبلة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت والعمرة، وأحكام النكاح والطلاق، وتفصيل أحكام أدق التفاصيل بما فيها أحكام الرضاع والخطبة، وعدد النساء، وضرورة المحافظة على الصلوات، وعدم مشاهدة بني إسرائيل في سلوكهم مع الأنبياء والرسل والشرائع، وبقيت السورة تنتقل بنا من فريضة لأخرى، وتشريع لآخر، ودرس وعبرة حتى خاتمتها، فنخرج بالنتائج والدروس الهامة جدًا جدًا، التي تشمل سائر مناحي الحياة، فنجد الفاتحة قد أحكم بناؤها، وجعلت في داخلها ومكنونها كل تلك التفاصيل التي يصعب على غير المتدبر أن يكتشف سائرها، تلك التفاصيل التي جاءت في سورة "الاستبدال"، استبدال بني إسرائيل بالأمة المسلمة.

فهنا يتضح كيف يمكننا أن نتعلم تدبر القرآن بشكل يجعلنا نصل إلى أهم المعاني به، وبتفسيره الذاتي وحمل بعض آياته على البعض الآخر، دون حاجة إلى تفاسير من خارجه، نسقطها عليه، وهذا أرقى أنواع التفسير وأهمها وأفضلها، وهو التفسير النبوي، المنهجي، الذي علمه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لجيل التلقي من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين بذلك بشر الله بهم، أو استحقوا أن يبشر الله بهم في التوراة

والإنجيل، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:29).

ومثال آخر وهو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وردت في بداية سورة الفاتحة لتبين هذه الآية الأولى من السبع المثاني أهمية الحمد، ووردت في القرآن الكريم كله في ثمانٍ وثلاثين (38) موضعًا، في أول بعض السور، وفي أواسط بعض السور، وفي ختام بعض السور.

وفي هذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة:2) وردت في مقدمة السورة؛ لتؤكد على أَنَّ الحمد عبادة من أهم العبادات، ولكونها كذلك فلا بد أن تحصر بالله (جل شأنه)، فلا يحمد أحد سواه، والعلة أَنَّهُ رب العالمين، لا رب للعالمين غيره، ولا مصدر للنعم سواه، وهو في الوقت نفسه الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء وشملت كل الخلق، ولم يحجبها (جل شأنه) عن أحد من خلقه، ولأنَّهُ مالك يوم الدين؛ فلذلك ينبغي حصر الحمد والاستعانة والعبادة به (جل شأنه).

وسوف نشرح ذلك في موضعه في مفهوم الحمد وحصره بالله (تعالى).

ومثال ثالث: لتطبيقات هذا المدخل هو في نحو قوله (تعالى): ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)، فالآية لو قرأت وحدها فإنها تفيد أَنَّ كل ذنب قد يرتكبه الإنسان ومنه الشرك والظلم يغفره الله (جل شأنه)، ولكن لا بد لنا حين نفسر القرآن بالقرآن أن نتلو بتدبر سائر آيات الكتاب الكريم، ونستحضرها، وأنذاك نجد في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:48)، وذلك لأنَّ العلماء قد نبهوا إلى أَنَّ من يقتصر على نوع من

الآيات كما حدث للفقهاء من الاختصار على آيات الأحكام أنه لا بد له أن يفوته الكثير من الأحكام التي جاءت في آيات قد لا يكون فيها صيغ الأمر، والنهي، مثل افعل ولا تفعل وما إلى ذلك، ومع هذا تكون فيها أحكام لا بد من ملاحظتها، (فالأمثال القرآنية أحكام، وتشريعات، وإن جاءت على غير ما عهد أن تجيء عليه التشريعات والأحكام من أساليب، والقرآن لا يرى الأمثال وسيلة هداية فحسب، وإنما يراها من أجدى وسائلها، وأقوى ما يمكن أن تعالج به النفوس، ولولا ما جبلت عليه كثير من النفوس من شغف بالجدل وتشبث بالجمود والجمود، لكانت الأمثال القرآنية كفيلاً بهداية الناس، وإنقاذهم مما يتخبطون فيه من ضلالات وجهالات)¹⁵.

فعلما بقراءة الآيتين أنَّ الشرك مستثنى من الذنوب التي تغفر، وأنَّ الشرك ظلم عظيم لا يغفر إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13)، وهو ما جاء في آية سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82).

فإذاً لا يحق لأحد أن يفسر آية من القرآن المجيد دون قراءة القرآن كله، والكشف عن الروابط بين هذه الآيات كلها، وبعد ذلك يستطيع أن يصل إلى الكشف عن معاني الآيات بعضها ببعض، ويستطيع أن يحقق بذلك تفسير القرآن بالقرآن.

المدخل الثاني: تفسير القرآن بالسنة النبوية المطهرة وبالسيرة والهدي النبوي:

وحيث نأتي إلى السنن ذات العلاقة بسورة الفاتحة نجد سنة قولية وفعلية، تتعلق بالبسملة، أهي جزء من كل سورة أم لا؟ فهي آية توضع في بداية كل سورة فيما عدا سورة براءة، ويفترض أن لا يكتب في القرآن ما ليس منه، وحين نذهب إلى السنة النبوية المطهرة نجد حوالي تسعة عشر حديثاً وردت في هذا الموضوع، وكانت مثار اختلاف العلماء، والمفسرين، ومن المهم

¹⁵ الأمثال في القرآن الكريم، محمد جابر الفيض، (القاهرة، دار السلام، 1433 هـ - 2012م) ص 209.

التفريق بين السنن القولية والسنن الفعلية، فالسنن الفعلية مقدمة في هذا المجال على السنن القولية، إلا إذا اقترن القول بالفعل؛ وذلك لأنَّ السَّنة الفعلية لها أصل في القرآن ثابت تنطلق منه، فإذا نزل قول الله (تعالى): ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ..﴾ (النور: 56) وجاءت آيات متفرقة في أركان الصلاة وشروطها، وما لا تتم الصلاة وإقامتها إلا به، وجدنا السنن الجامعة في كل ما تفرق في القرآن الكريم، مثل: ﴿.. وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: 238)، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: 77)، ﴿.. فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ..﴾ (المزمل: 20) إلى غير ذلك، فحين ينفذ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك، ويصلي كما علمه الله أن يصلي، ثم يقول: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، فذلك يعد من تفسير القرآن بالسنة، أو قراءة القرآن الكريم بمدخل من السنة.

وحين نزل قول الله (جل شأنه): ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ * ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي

الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿البقرة: 196-202﴾.

فحج رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حجة الوداع وقال للناس: "خذوا عني مناسِككم فإنني لا أدري لعلي لا أحجُّ بعد عامي هذا"¹⁶، فذلك يعني أننا ملزمون بكل منسك فعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ليس لنا أن نخيد عنه، ولا يستطيع أحد أن يقول: إنما قاله أو فعله المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- زيادة على القرآن؛ لأنَّ مهمته -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحقيقة تطبيق للقرآن المجيد، وتفصيل لما جاء به، وبيان عملي لما أمر به، فهو يتلو علينا الآيات، ويعلمنا الكتاب والحكمة، ويركنا بذلك، فليس في شيء من ذلك تجاوز للقرآن، أو زيادة عليه، أو تجاهل لأحكامه، ولا مجال في هذه الحالة لأية اجتهادات تغيّر في الزمان أو المكان.

وهكذا نجد السنّة تتضافر منهجياً مع القرآن في التطبيق العملي وإزالة أية إشكال، وهي في الوقت نفسه تؤكد على أنَّ ما قد يثار من إشكالات نتيجة القراءات المعضّاة أو المجزئة علاجه بأن يقرأ القرآن بكلّيته.

فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وضع لنا المنهج وتركنا على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك، فالذي يريد تفسير القرآن بالقرآن لا يسعه تجاهل السنّة أو تجاوزها وهو يفسر القرآن بالقرآن، بل على العكس فإنَّ هذا المدخل مدخل السنّة وتفسير القرآن الكريم به يصبح منهجاً نبوياً ملزماً في عمليّات تفسير القرآن بالقرآن، ويصبح الأصل القرآني هو المدار الذي تدور السنّة عليه، وفي الوقت نفسه يصبح من آتاه الله القدرة والمران على استعمال هذا المدخل بشكل علمي دقيق وسيلة لقراءة السنّة قراءة دقيقة، والجمع بين قراءتها وقراءة القرآن المجيد، وإزالة كل ضروب التناقض المفتعل بين ما صح عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من سنن، وما نزل على قلبه من كتاب، وفي هذه الحالة فيتصدر الفعل

¹⁶ الراوي: المحدث: الألباني، المصدر: حجة النبي، الصفحة أو الرقم: 33، خلاصة حكم المحدث: صح عن عمر.

النبويّ المقرون بالقول ليكون أقوى وأعلى أنواع السنن، يليه في المرتبة الفعل النبويّ الذي لم يقترن بسنة قولية، ثم القول النبويّ الذي له في القرآن أصل يستند إليه وينطلق منه.

وفي سورة التحريم: ﴿.. فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (الطلاق:10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (الطلاق:11)، وهنا بهذا المنهج للتفسير يتضح التلاحم التام بين كتاب الله ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلا ينفك أي منهما عن الآخر، ولا يمكن أن يختلف أي منهما عن الآخر، ويبقى الكتاب بعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- الحجة البالغة، والآية الدامغة، والبرهان، فيحمل القرآن المجيد إضافة إلى كل ما حمل مهام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من الشهادة، والهداية، وإقامة الحجة، وهذه نقطة منهجية في غاية الأهمية، فكل من يفتعل اختلافًا بين القرآن الكريم والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فكأنه ينسب إلى القرآن الاختلاف، ويفرق بين الله ورسوله، وذلك قمة الضلال.

من هنا يتبين كيف تركنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وهذان المدخلان أهم مداخل تفسير القرآن بالقرآن.

المدخل الثالث: مدخل الغيب والشهادة:

وذلك بأن نقرأ السورة بعد تقسيم آياتها بحسب ما تناولته من زاويتي الغيب والشهادة، فيحدد الآيات التي تتناول الغيب بشقيه المطلق والنسبي، والآيات التي تتناول عالم الشهادة بمستوياته فيصبح لديه تصور إجمالي من هذه الزاوية بأنه سيجد في هذه السورة ما له علاقة بعالم الغيب، وما له علاقة بعالم الشهادة. والغيب نعني به ما استتر وغاب، يقال غابت الشمس، وقال سليمان عن الهدهد أم كان من الغائبين: ﴿وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا

أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿النمل:20﴾، والغيب يطلق على ما غاب عن الناس، أمّا الله (تبارك وتعالى) فقد قال عن نفسه (جل شأنه): عالم الغيب والشهادة: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد:9)، وقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .. ﴿هود:123﴾، وقال (جل شأنه): ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل:65)، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ﴾ (سبأ:48)، وامتدح الذين يؤمنون بالغيب إيمانهم برهم، وبأنه: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:75) عنده، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ:3)، وامتدح (جل شأنه): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك:12).

وينقسم الغيب إلى غيب مطلق لا يعلمه ولا يطلع عليه إلا الله (جل شأنه)، وغيب نسبي يتكشف عبر الزمان، فتجده في مرحلة من مراحل الزمن غيباً أو يمكن أن يندرج فيه، ويصبح شهادة في زمن آخر، لأنه انكشف.

وأما الشهادة فهي ما يشهده الناس ويرونه أو يطلعون عليه بحواسهم. ويمثل الغيب والشهادة ثنائية يعلمها ويعلم دقائقها وبداياها ومآلاتها الله (تبارك وتعالى)، وهو الذي لا يطلع على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول، أو نبي، أو ما إلى ذلك (جل شأنه وتبارك اسمه): ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن:26-27).

وبذلك يستطيع المتدبر أن يكشف عن بعض المعاني الإجمالية في القرآن التي تمكنه من التفكير في سائر آيات السورة والتدبر فيها بعمق ليصل إلى كريم عطاء القرآن الكريم للمتدبرين في آياته؛ ليتمكن بعد ذلك من تصور ما فيها، ومعرفتها بدقة، ويسهل عليه — آنذاك — أن يتدبر كيف جمع الله (جل شأنه) بين الغيب والشهادة، وكيف يستطيع أن يلحظ ببصيرته التفاعل بين العالمين، ويرى أثر الغيب في عالم الشهادة، وتأثر الشهادة وانفعالها بعالم

الغيب، وكلاهما -الغيب والشهادة- محكومان بأمر الله (جل شأنه)، وهي من خطوات الجمع بين القراءتين، وتدريب قوى الوعي على إدراكهما، وكيفية التفاعل بينهما.

المدخل الرابع: مدخل عمود السورة:

عمود السورة مبني -عندنا- على أنَّ كل سورة من سور القرآن المائة وأربعة عشر سورة تعتبر بمثابة بيت مكتمل البناء، له سور يحيط به، ويحول بين المتطفلين ودخوله أو الوصول إلى ما بداخله، إلا إذا كانت لديهم صفة شرعية للدخول، ولا يلج رحاب أية سورة بشكل شرعي إلا من آمن بهذا الكتاب، وبأنَّه لا ريب فيه، ولا اختلاف، ولا باطل، ولا اضطراب، وهذا البيت له عمود أساس يقوم عليه بنيانه، تحيط به أعمدة أخرى تقويه، وتدعمه، ومنهج البحث عن العمود يقتضي تطوفاً مستمراً في السورة وتدبراً واعياً لسائر آياتها وكلماتها، وسياقاتها، ورد أولها على آخرها وآخرها على أولها، والتأمل في أسمائها، ومعرفة تلاوة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لها، والآثار التي رويت عنه بذلك، لكي نكتشف العمود.

فسورة مثل سورة البقرة عدد آياتها مائتان وست وثمانون آية كل آية منها حافلة بالدلالات، وقد يصعب على القارئ المتدبر أن يكتشف لها عموداً معيناً، يجمع ما ورد فيها، ويصلح أن يكون عنواناً لها، لكننا حين نتدبرها متعرضين لنفحات الله ولكرم الكتاب الكريم سنجد أنها تدور حول عمود أساس، سميناه "الاستبدال"، وأردنا به الإشارة إلى أنَّ الله (سبحانه وتعالى) منهجاً وسنناً وقوانين وجنذاً شاملة للزمان والمكان والإنسان يسيّرهما ويسخرهما ويهيمن عليهما، ويوجهها إذا جاء أمره باستبدال أمة بأمة، أمة تكون قد عتت عن أمر ربها، وعصت رسله، وقتلت بعضهم، بأمة أخرى ينتظر منها أن تستقي الدروس والعبر من الأمة التي ستكون بديلاً عنها، وستحل محلها، فتأتي السورة في البداية لتوضح لنا ما بناه الله (جل شأنه) في سورة الفاتحة وأحكم بناءه وتعطينا التفاصيل، وتبين قصة الخلق، والغاية والهدف، ثم تبدأ السورة بتناول بني إسرائيل نموذجاً للانحراف رغم كل إمكانيات الاستقامة والهداية، والفرص التي ضيعوها وأهدروها: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا

يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: 102﴾ وتبدأ الآيات من تسعة وثلاثين إلى بداية الجزء الثاني تذكر بتفاصيل خطوط انحراف بني إسرائيل، وضلالهم عن الصراط، وتيهيمهم، ودخولهم في إطار المغضوب عليهم، ثم يأتي الإعلان الأول للاستبدال في نهاية الربع الثالث وبداية الربع الرابع من الجزء وهي الآية مائة وستة: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 106)، لتكون إعلاناً لفشل بني إسرائيل وسخط الله عليهم، وقسوة قلوبهم وتحجر أذهانهم ومشاققتهم لله، وظلمهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، إلى آخر ما سطره القرآن الكريم، ثم يبيّن (جل شأنه) قصة سيدنا إبراهيم وانتماء أجدادهم له، ثم قول الله (جل شأنه): ﴿.. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124)، فكأن هؤلاء الظالمين من اليهود محكوم عليهم بأنهم لن ينالوا عهد الله، وأن سائر الدلائل كما في علم الله (جل شأنه) تدل على أنهم لن يرجعوا عن غيهم، ولن تستقيم أحوالهم، ولن تخشع قلوبهم رغم كل الآيات، فلم يعد ينفعهم مجرد انتساب إسحاق ويعقوب إلى سيدنا إبراهيم (عليهما السلام) فلا بد من استبدالهم، وتبدأ عملية الاستبدال ببعثة سيدنا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- التي كانت الفرصة الأخيرة لهم، فلو أنهم آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لاستمر دورهم ولا انضموا إلى أمة المسلمين -أمة الإجابة- من جديد، أمة إبراهيم، وانتسبوا إلى ملته، وأنداك حين يتم استبدالهم فإنهم سيكونون جزءاً من الأمة التي جاءت خلقاً لهم، وبديلاً عنهم، ولكنهم أصروا على الكفر به، كما كفروا بعبسى من قبل، وانحرفوا عن شريعة موسى، وارتدوا وعبدوا العجل، إلى آخر ما ذكر، ولما وصل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى المدينة احترمهم وعدهم جزءاً من الكيان الاجتماعي للمجتمع المدني، وأدخلهم فيما واثق به الآخرين، لكن ذلك ما زادهم إلا استكباراً وعناداً، وحسداً وبغياً بل بلغ من سفاهتهم أنهم نصروا المشركين على الموحدين، وقالوا: ﴿.. هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء: 51)، ثم جاء الإعلان عن الاستبدال التفصيلي لهم، بتغيير القبلة، وبيان أنهم سفهاء، وأنهم لن يستقبلوا ذلك بما يليق بأهل كتاب سابق أن يفعلوه، بل

سيستقبلونه بسفاهة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 142)، وتبدأ تفاصيل الشريعة البديل عن شرعتهم، والمناهج المغايرة لمنهاجهم، إلى تمام السورة.

وعندما تنتهي من آخر آية من السورة نجد أنَّ أشمل عنوان يمكن أن يطلق على عمودها أنَّها "سورة الاستبدال"، استبدال بني إسرائيل بأمة تكون نواتها من بني إسماعيل، لكنها ستكون الأمة العالمية الممتدة، التي بدأت بالأميين الذين تنكَّر لهم بنو إسرائيل وقالوا: ﴿.. قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 75)، وكنتموا ما أنزل عليهم من آيات التوراة عن الأميين، ودفعهم الحسد والبغض إلى أن يقولوا لبعض من كانوا يبلغون بعض الأميين ببعض ما جاء في التوراة: ﴿.. قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 76)، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (البقرة: 77).

ولم نصل إلى تحديد هذا العمود إلا بعد معايشة السورة والتدبُّر فيها، والبحث عن عمود يقف عليها بناؤها كله، فألهمنا الله (جل شأنه) هذا العمود، وكل سورة من سور القرآن الكريم لها عمود مثل هذا، على القارئ المتدبُّر أن يبحث عنه ويعمل على الوصول إليه، والله أعلم.

المدخل الخامس: مدخل الجمع بين القراءتين:

إنَّ القرآن المجيد كلام الله (تبارك وتعالى) أنزله على قلب رسوله الأمين، ونبِيِّه الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- ليكون للعالمين نذيرًا.

فهو النور المبين، والذكر الحكيم، والكتاب العزيز. يُخْرِجُ مِنَ الْفِتَنِ، وَيَشْفِي الصُّدُورَ، وينقذ من الخن: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: 16).

فهو الهادي إلى الرشـد، والمنقذ من الضلالة، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد. قال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت: 840هـ) وهو يؤكد على ضرورة الرجوع إلى القرآن المجيد، وحث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على ذلك وتقديمه على كل ما عداه: قال "... فلنقتصر على حديث مشهور يذكر بأمثاله:

وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب في أماليه، والحافظ المحدث أبو عيسى الترمذي في جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب علي -كرم الله وجهه- من حديث فتنة الأحاديث الذي سبق ذكره.

فنسأله (تعالى) كما أنعم علينا بالقرآن العظيم، والرسول الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، ويذكرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا، لا علينا، وقائدًا لنا إلى الجنة. إنَّه سميع مجيب.

الأمر بالقراءتين:

لقد أمر الله (تعالى) نبيّه -صلى الله عليه وآله وسلم- في مفتتح نزول القرآن وبداية إعلامه بنبوّته ورسالته بقراءتين بدأ نزول الوحي على قلبه بهما فقال (جلّ شأنه): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-5)، فكان ذلك إبلاغاً له -صلى الله عليه وآله وسلم- برسالته ونبوّته فالخطاب موجه له، وفي القراءة تنبيه إلى أنّ اختياره للنبوّة والرسالة الخاتمة قد تم لأنّ في الأمر بالقراءة إنباء وإخبار وإيماء إلى أنّه سيقراءه على آخرين بعد أن يستقر في قلبه وضميره ووجدانه، وهذا الإيماء بإشارة قوله (تبارك وتعالى) فيما بعد: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (الأعلى: 6) ونستطيع أن نلاحظ الفرق بين بدء نبوّة موسى -عليه السلام- ونبوّة سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونلاحظ الفرق بين بدء الوحي إلى كل منهما، فبدأ الوحي إلى رسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بأمر بقراءة الخلق وباسمه (تعالى)، وثنى ذلك بأمر آخر بقراءة ما سطرّت الأفلام وعلمه الله الخلق، وهو: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ من وحيه والعلوم التي أنزل وبثها في الأرض، وجعلها متاحة للإنسان، وكلا الأمرين بالقراءتين بدأ بتنبيه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- للقراءة الأولى بأنّه سيقراء باسم ربه الذي خلق، سيقراء في الإنسان وخلقته وتكليفه، فهي المنطلق وهي البداية، وفي الأمر بالقراءة الثانية التي تراكمت بالأفلام والكتب وتراث البشرية، وفيها ما أوحى إلى أنبياء ورسول، وفيها ما بث في الكون والطبيعة إذ إنّ كل شيء في الكون أصله كلمة بما في ذلك الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: 1) فكلّمة "كن" جعلت منه شيئاً مذكوراً، يذكره الله ويذكره الخلق، والأمر المباشر بالقراءة ينبّه إلى أنّه لم يكن بحاجة إلى أن يعرف الله رسوله بنفسه كما حدث بالنسبة لموسى، فقد أمره بالقراءة وذكر نفسه (جلّ شأنه) بأنّ المخاطب سيقراء باسم ربه في الأولى، وستصحبه معونة الله (جلّ شأنه) وعنايته في الثانية، أمّا في حالة سيدنا موسى فقد كان هناك نوع من التمهيد، فكأنّ موسى أدخل البلاط أولاً: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿طه:12﴾ ثم نبيء باختياره، فكان بمثابة من يقدم اختباراً أو طلباً في ذلك البلاط وينتظر النتيجة، فأعلم بها، وقال له (جلّ شأنه): ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه:13) ولم يقل له أقرأ، فهو يستمع ويرفع صوته بما يسمع ليسمع الشعب وبعد إعلانه بالاختيار وأنّ الوحي سوف ينزل عليه وعليه أن يستمع له أعلن بأنّ ما يوحى إليه وما يستمع إليه إنّما هو من الله (جلّ شأنه).

والفرق بين الأمر بالاستماع والأمر بالقراءة: أنّ الاستماع ينبّه إلى عدد محصور أو جهة مختصة محدودة هي المقصودة بتلك الرسالة؛ وذلك لانحصار ومحدودية ما يسمعه، فيكون فيها إشارة إلى انحصار الرسالة في شعب أو قبيل من الناس، فليست بعامة ولا عالميّة، فهي كما أوضحت النصوص بعد ذلك رسالة إلى بني إسرائيل؛ لجعلهم نموذجاً للعباد الذين يحررهم الله (جلّ شأنه) بوحيه وأنبيائه من استعباد البشر إلى الدخول في عبوديّته، فتحريرهم من فرعون وملاؤه تحرير لبني إسرائيل، واختبار لفرعون وقومه في عمليّة الاستجابة لله، ولرسوله، فإذا استجاب فرعون بالتسليم بحق بني إسرائيل في البقاء والرحيل فذلك يعني أنّه سيسلم بعبوديّته لله (تعالى)، ويخرج وقومه من العبوديّة للبشر، ولكنّه لم يفعل وأنكر على موسى وهارون ما جاء به من الوحي والرسالة.

أمّا في الأمر بالقراءة التي أمر بها محمد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ففيها إيماء إلى عالميّة الرسالة، فهي رسالة مقروءة، كل من يقرأها أو يطلع عليها أو تُقرأ عليه أو يستمع إليها مخاطب بها، ومطالب بالإيمان بها، والمقروء قد يستمر مدى الحياة؛ لاتساع المقروء من الظواهر الكونيّة وتجددها، وما يسطّر بالأقلام، ففيها معنى الدوام والاستمرار والعالميّة، وعدم الانحصار في قوم أو عصر أو محيط جغرافيّ.

ويقول الله (جلّ شأنه) لموسى -عليه السلام- معرفاً بنفسه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:14)، ثم يأتي دور أول آية من الآيات التسع التي أوتيتها فيقول له: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿النمل: 7-12﴾، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (طه: 17-23) وفي سورة أخرى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (طه: 67-68) ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (طه: 21-22) وتلك آيته الثانية التي أوتيتها ووعد بآيات أخرى: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (طه: 23-24).

وفي حالة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كأن ربنا (جل شأنه) قد عرفه الأمر بالقراءتين وأنه اختاره خاتماً للنبيين وإماماً للمرسلين، وأنه سيقراً على البشرية باسم ربه وبمعنيته وعنايته ما أمر بقراءته عليهم، بإعلان النبي والرسول بأنه وقع عليه الاختيار ليكون نبياً رسولاً يبدأ مع أو قبل نزول أي حرف من الوحي على قلبه، فيعلم أنه قد تم اختياره، لكن بدء نزول الوحي للمرة الأولى على بشر رسول لم تفارقه صفات بشريته ولم ينفصل أو ينفك عن إنسانيته يجعله عند المفاجأة الأولى يخاف ويتهيأ إلى أن تهدأ نفسه ويستقر خاطره، ويدرك أن هناك مرحلة جديدة في حياته قد بدأت لا تخرجه عن بشريته ولا تفصله عنها، لكنه سيتلقى قولاً ثقيلاً. وفي مثال موسى -عليه السلام- خاف أول مرة من تحول العصا إلى ثعبان ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ

إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ (النمل:10)، وخاف بعد علمه بنبوته مرة أخرى عند اختبار سحرة فرعون: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (طه:67-68) فخوفه لا يؤثر على مدى إيمانه وصدقه فيما هو عليه من حق وإنما هو عارض بشري.

ولمّا يغتر أحدًا بنبوّات الأنبياء فيتخذهم آلهة، فإنَّ الله (سبحانه وتعالى) لا ينزع عنهم عوارض الصفات البشريّة بشكل كامل، فتبقى هذه العوارض مصاحبة لهم والوحي ينزل عليهم، وقد يفتن بعض البشر بذلك إذا زاد عندهم إحساسهم ببشريّة النبي ليستنكر نزول الرسالة عليه فيطالبهم بالخوارق الكثيرة، ويستعجب ويقول: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان:7-8)، وقوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (الإسراء:90-95) فما كانت البشريّة لهم إلا لتسهيل الطريق للتواصل مع أمثالهم من البشر، وما كانت النبوة إلا إضافة على بشريّتهم التي تبقى بعد النبوة، فالعقدة لدى منكري النبوات في كيفة الجمع بين البشريّة والرسالة، فهي الأمر الذي يستغربونه، ويأنفون من تصديق الأنبياء، وقبل ما يأتونهم به من آيات، والتصديق بأنهم رسل الله وأنبياءه.

ولذلك فإنَّ لدينا تحفظًا على قصة بحيرة الراهب، وقصة ورقة بن نوفل، فالاستشراق المعاصر طرح فرية وصدقها تلك هي: أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حين بدأ نزول القرآن عليه ونزلت الآيات الخمس الأولى، وفيها الأمر بقراءتين لم يكن يدرك أنَّه رسول إلى أن زار ورقة بن نوفل بصحبة خديجة.

فالقصة أن أراد الاستشراق القديم والحديث أن يكرّس فيها الأكذوبة القائلة: بأنَّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان من الكردالة، وكان كردينال لكنيسة الجزيرة العريّة، وتمرد عليها، وأسّس دينًا جديدًا بما كان، وقد جازت هذه الفرية على بعض الكاتبين من المسلمين ولم يلتفتوا إلى أنَّهم بذلك يسقطون في مأزق نفي قرآنيّة الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهذه التهمة اتهم بها أبوه إبراهيم (عليه السلام) ونفاه الله عنه فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 67-68).

وبما أنَّ القرآن ليس فيه تكرار ولا ترادف. ولا تحتاج آياته الكريمة إلى استعمال المؤكّدات فإنَّ كل كلمة من كلماته - وإن بدت مرادفة أو مماثلة لأختها - فإنَّها تشتمل على معنى آخر إن لم تدل عليه بلفظها وبلاستعمال القرآنيّ لها فإنَّها تدل عليه في سياقها وسباقها وموقعها. وذلك من دلائل إعجازه الذي (تعالى) به على كلام المخلوقين. ولذلك فإنَّ صيغة الأمر بالقراءة الذي جاء مرتين في هذه الآيات الخمس لا تعني التوكيد أو الترادف أو التكرار كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، بل تدل على أمرين بقراءتين، لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلّقها، ومناهجها وكيفيّاتها وميادينها. يعضّد هذا ويعزّزه. أنَّ الأمر بالقراءة في الآية الأولى اقترن "باسم ربِّك" وكانت صلة الموصول "الذي" هي الخلق في: ﴿... الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: 1-2) فهي أمر بتحصيل فعل القراءة وممارسته مع الاستعانة بالله (تعالى) فهو ربك الذي يعلم أنَّك "ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك"، ولذلك فإنَّه "سيقروك فلا تنسى" خلافاً لأي قارئ آخر

معَرَّض للنسيان والخطأ. فأقرأ باسمه هو، واستعذ به من الشيطان الرجيم. ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: 68) والذي خلقك من علق، وخلق النوع الإنساني - كله - منه قادر على أن يخلق فيك فعل القراءة، ولو لم تكن قارئاً من قبل. وكل ما عليك أن تقرأ ما سنوحيه إليك وهو القرآن والذي خلقك ورعاً وأنشأك من علق، وخلق كل شيء فقدره تقديراً قادر على أن يعلمك القراءة، كما علم آدم الأسماء كلها، وكما علم أباك إبراهيم وسواه من الأنبياء والرسل. فأقرأ باسمه وعلى اسمه ومعه وفي ذلك تنبيه من بداية الأمر على انفصاله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن قومه الذين كانوا يبدؤون أفعالهم مستعينين باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وكلها أوثان يصنعونها بأنفسهم، ولا تصنعهم، ويخلقونها ولا تخلقهم.

كما أن في قوله (تعالى): ﴿... الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: 1-2) تنبيهاً إلى وجوب قراءة الخلق قراءة تبدأ بقراءة الذات الإنسانية من بداية الخلق إلى نهاية الحياة بأطوارها كلها. فمنهج القراءة في الخلق ينطلق من قراءة النفس باتجاه الكون والآفاق. فتلك هي القراءة السليمة المنهجية. والبدء بتوحيد الربوبية، لا بتوحيد الألوهية، فيه تنبيه إلى خطوة منهجية أخرى، هي الانطلاق من المحسوس باتجاه المجرد، لأن الإنسان أقدر على ملاحظة المحسوس منه على ملاحظة المجرد وإدراكه. فالخلق، وبدائع صنعه، ونظمه وسننه وقوانينه هي المحسوس المشاهد أو المدرك بأية وسيلة من وسائل الإدراك. والمجرد هو "التوحيد" بأنواعه، فهو ما يتوصل بصحيح النظر في ذلك المحسوس إليه. فإدراك المحسوس ليس نهاية المطاف، بل هو المقدمة لإدراك المجرد. وهنا يمكن أن يدرك الإنسان "فعل الغيب" في الواقع: فيصل إلى الربط الضروري بين الغيب بكل مكوناته، والإنسان والكون.

القراءة الأولى:

الأمر الأول بالقراءة -إذاً-: هو أمر بقراءة باسم الله أو على اسمه (تعالى) ومعه، لهذا الوحي النازل الذي سيتتابع نزوله حتى يتم قرأناً كريماً جيّداً مكنوناً مفصّل الآيات، محكمًا مترابطاً متماسكاً متناسباً متشابهاً تتلوه يا محمد على الناس، وتبيّنه لهم ليتعلّموا منه الحكمة والهداية

والرشد فتزكو نفوسهم، وتطهر حياتهم، ويهتدوا به في أداء مهام الاستخلاف والقيام بواجب الائتمان، وحق العمران وحين رد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه ليس بقارئ لا شك أنه فهم المطلوب، وهو قراءة ما سيملى عليه وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وليس له من العلم ما يقرؤه؛ ولذلك فإنه (تعالى) قد ربط القراءة "باسم ربك"، فكأنه قال له: إنك لن تكون وحدك في أداء هذا الفعل الذي لا تعرفه، بل سيكون معك ربك الذي أعطاك الكثير وهو قادر على أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به، ويزيد على ذلك: كما علم آدم الأسماء كلها، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل -عليهم السلام- من قبلك، فاقراً باسمه واستعن به في القراءة يعنك ويصحبك ويكن معك فيها، وفي بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس.

وذكر الرب (جل شأنه) الإنسان، وذكر خلق الإنسان بالذات فيه طمأنة لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربه الذي خلق كل شيء، وخلق الإنسان من علق. "بل هو عليه هين" كما أن في ذكر الخلق تهيئة لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة -صلى الله عليه وآله وسلم- لبيان النوع الثاني من القراءة.

القراءة الثانية:

ألا وهي قراءة الكون والنظر في الخلق، ومعرفة ما دونته البشرية من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها، فهذه القراءة هي التي صاغ القرآن المجيد بحسبها "دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقلي في الوجود، والنظر في آثار الأمم السابقة، ومعرفة ما حدث لها". فبذلك تكون القراءة المأمور بها قراءتين: قراءة في الكون المخلوق، وكل ما يتعلق به من عالم الخلق، والتشيؤ بما في ذلك تراث الأمم الذي دونته وآثارها، فبالقراءتين تدرك الفروق بين الأمم التي استفادت بالوحي واتبعته، واستنارت به، وبين الأمم التي تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون -وحده- دون استنارة بهداية الوحي. أو أهملت الكون والتجارب البشرية وعبر التاريخ ودروسه، وقراءة الوحي المنزل على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم وآله وسلم). بحجة الاكتفاء بالوحي والاستغراق فيه. فمن أراد أن يقرأ الوحي بدقة وتدبر فإنه لا

غنى له عن قراءة الكون وما فيه بالنظر في خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت. فلقد اعتنى القرآن به عناية فائقة، ولفت الأنظار إلى ذلك في سور عديدة، وآيات كثيرة، لما في ذلك من عبر ودروس وعظات تجعل السالف قادراً على إفادة الخالف مهما طال الأمد فيما بينهما. وتجعل الخالف يرى نتائج أفعال من سبقوه فيدرك أنَّ أفعاله —أيضاً— سيكون لها من الآثار مثل ما لأفعال من سبقوه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وفي ذلك تكريس لمبدأ "المسؤولية الفردية، والأثر الجماعي أو المجتمعي" فيتعلّم الإنسان بذلك كيفية الانضباط في أفعاله وتصرفاته، ويتهيأ عقله ونفسه لقبول "مبدأ الجزاء والعقاب والثواب"، ويتعلّم النظر فيما يرث عن الآباء نظر الفاحص الناقد المعتبر فيتخلّص من هيمنة مبدأ "الآبائية" وتقليدها ومتابعتها على الحق وعلى الباطل، ويدرك كذلك أنَّ للأمم التي خلت ما كسبت، ولنا ما نكسب ولا يغني أحد عن أحد من الله شيئاً.

قراءة الكتابين:

فهما —إذاً— كتابان تجب قراءتهما —معاً— للخروج من إसार الأمية بكل أشكالها ومعانيها: كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشرية فيه، ومنه التعامل مع الإنسان نفسه، فهو جزء من الخلق وابن شرعي للطبيعة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: 55).

القراءة إنسانية:

وهذه القراءة تكون ابتداءً من الإنسان، فهو الذي لا بد له من قراءتهما —معاً— لتوجد لديه المعرفة العمرانية الكاملة التي تمكّن الإنسان من الوفاء بالعهد والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران. والنجاح في اختبار البلاء. وهي معرفة لا تقوم على التلقي والتلقين وحدهما، بل على الأخذ عن الغير —أيضاً— من سابقين ولاحقين بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر وعدم الزهد في المعرفة من أي وعاء خرجت، والتعامل المنهجي معها .

وحدة البشريّة:

وفي ذلك تنبيه على "وحدة البشريّة" وضرورة استفادة اللاحق بميزات السابق من المعرفة والخبرات والتجارب، والتواصل معها، واستعمال القلم الذي علّم الله به، وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنائها وتناقلها، ثم ما يمن الله (تعالى) به من معارف تنقذ بها العقول من مستنبطات ومخترعات وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله (تعالى): ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فهناك -إدّا- مصدران للمعرفة الإنسانيّة -لن نخل التأكيد على ترابطهما- يتضافران في توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضاريّ، والقيام بمهام العمران والاستخلاف في هذا الكون، ولا بد للإنسان من الجمع بينهما، وعدم الغفلة عن أي منهما، فيفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق وبالوجود والسنن والقوانين الضابطة لحركته وحركة ما فيه، ويفهم الكون ويهتدى في أداء مهام الخلافة فيه والعمران، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد ونور هدايته. ولا بد من قراءة المصدرين -معًا-، وتنفيذ الأمر بالقراءتين سوياً: قراءة الوحي النازل المتمثّل في الكتاب الكريم الذي حدّد غاية الحق من الخلق وبين تلك السنن والقوانين الضابطة لحركة الوجود. إضافة إلى ما اشتمل عليه من الشرعة والمنهاج. والحقائق الأساسيّة التي تحتاجها البشريّة. وقراءة في الكون وآفاقه والنفس البشريّة وما يصلحها أو يفسدها. والفطرة، وما ينميها، وما يطمس عليها.

أخطاء القراءات المنفردة وسليبيّاتها:

إذا تبينّ هذا يتضح أنّ القراءتين في الوحي وفي الكون فريضتان، لأتّهما أمران إلهيّان فيهما كل ما في الأمر الملزم من شروط وصفات، والجمع بينهما ضروريّ، إذ بدونه يقع الخلل.

إهمال القراءة الأولى:

فمن تجاوز القراءة الأولى في الوحي النازل إلى النبيّين، واستغرق استغراقاً كلياً في القراءة الثانية التي تمثّل علم الكون أو معارف الطبيعة، منقطعة عن الله (تعالى) فقد العلاقة بالله،

وتجاهل الغيب، وانطلق بفلسفة إنسانية مستقلة وضعيّة منبته عن الله، عوراء قاصرة في مصادرها، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة بإطلاق. وتعتبر الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيات أو ميتافيزيقا يمكن تجاهلها أو تجاوزها. وإذا كانت -هناك- قوة غيبية قد مارست خلقاً أو إيجاداً، فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى، ثم تناسته أو نسيتها ليستمر الكون بعد ذلك فاعلاً ومنفعلاً بشكل آليّ كما ذهب إلى ذلك أرسطو في القديم، ونيوتن وغيره في الحديث، وحين يحلو لبعض هؤلاء المتفلسفين أن يتذكروا الباري (جل شأنه) فإنهم قد يتذكرونه بشكل حلويّ يزعم أصحابه أنّ الله (تعالى) قد حل في قوى الطبيعة ذاتها، وذاب فيها ليتحوّل إلى جزء حالّ فيها لينتهوا بعد ذلك إلى "المادية الجدلية" التي أنكرت الخالق تماماً، وطرحت بدائل له من اتجاهات النمو عبر خصائص التطوّر الماديّ المعقّد لشعر الإنسان باندماجه الكامل بالطبيعة باعتبارها كائناً طبيعياً وهنا يبدأ الإنسان الشعور بالغنى أو الاستغناء عن خالقه (جل شأنه)، لأنّه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه فهي كل شيء وهي وراء كل شيء وهو في ظاهر الأمر قادر على قهرها بالعلم: فلا يراها وهي مسخرة مقهورة بسنن الله (تعالى)، بل يراها كوناً مستقلاً أي امتداداً غيبياً، وأنّ ذلك لا يشعر أنّ الله (تعالى) قد سخرها له، وأنّه الخالق له ولها، بل يرى الإنسان أنّه الفاعل المبدع، المتعدّد القدرات، المسيطر على الطبيعة، المفجّر لكوامن ما فيها: وفي ذلك انحراف في الرؤية والتصور خطير فالكون مهياً مسخر للإنسان، والإنسان مزود بالقدرات التمكينية الذهنية والعقلية والعلمية التي تمكّنه من تسخير الكون، ليقوم بأمانة الاستخلاف، وحين يغفل الإنسان أو يعيش عن ذكر الرحمن، ولا يرى القدرة الإلهية في ذلك كله ظاهرة بهداية الوحي يشده الشعور بالاستغناء، والإحساس بالقدرة والإبداع إلى أن يجعل من علاقته بالكون علاقة تسلّط وقهر وصراع واستعلاء، لا استخلاف. ويفقد بوصلة الاهتداء، وتفقد عناصر الطبيعة علاقتها الودية بالإنسان، ويفقد الإنسان بدوره شعوره بأنّه المخلوق المستخلف المؤمن على الكون كلّ، وأنّ كل هذه الأشياء المخلوقة مسخرة لهذا المؤمن والمستخلف، وكلاهما في المخلوقيّة والعبوديّة لله (تعالى) سواء، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات: 96)، فإذا فقد هذا التصور فقد يتخذ الوجود -في نظره- شكل القوى المتصارعة المتنازعة، ويتخذ الإنسان الغافل -من نفسه وهواه- شكل المتألّه المسيطر بالعلم على كل شيء، فيمجد ذاته

ويتخذ إلهه هواه، ويتوهم أنَّ له أن يستمد قيمه من ذاته ومن الطبيعة. والدين والإيمان - نفسه - قد يتحوَّل في إطار هذه القراءة المنفردة العوراء إلى شيء يوظفه من شاء ساعة يشاء لتلبية رغبة، أو لأداء خدمة. وهنا يحق عليه القول: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: 6-7)، فيقع في الاستبداد والطغيان على أخيه الإنسان. وتحدث كوارث البيئة، ويظهر التلوث والفساد في البر والبحر والجو بما كسبت أيدي الناس، ويختل التوازن وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ في المعمورة، فقارَّات يعمها الجوع والخراب، وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها، والجرائم بكل أنواعها، وتسود المعيشة الضنكة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: 124).

وقد يُقنع الغافلون عن ذكر الرحمن أنفسهم بأنَّ ما يحدث ضريبة طبيعية لازمة لا مناص للراغبين في التمتع بالمعطيات الحضارية من احتمالها ودفع قيمتها الفادحة. لكنَّ ذلك خداع للنفس، وزخرف من القول فالعمران الربائيَّ تحكمه قيم الحق والخير والجمال معاً، فإن وقعت بعض الأعراض الجانبية أمكن احتوائها وتلافي آثارها بتوفيق الله وهدايته؛ لأنَّ العمران المهتدي لا ينفك عن "المرجعية الإلهية للكون".

إهمال القراءة الثانية:

أمَّا إهمال القراءة الثانية في الكون والطبيعة المسخرة، أي إهمال قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعاً منبثاً عن الوجود، فإنَّه يؤدي إلى نفور من الدنيا، واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير. ويعطل فكره، وينقص من قيمة فعله، بل قد يلغي إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلاً في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنى عمرانياً، وكل هذه الأفكار منافية تماماً لمنهج القرآن العظيم.

كما أنَّ تجاوز القراءة الثانية في الكون وإهمالها، أو عدم جمعها مع الأولى يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني الحضاري، وتعطل طاقات الإنسان، وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة كما تقدم.

وقد يتوهم المقتضرون على القراءة الأولى -قراءة الوحي منفردًا- أن تنزيه الباري (جل شأنه) لا يتم إلا إذا ألغيت قيمة الفعل الإنساني. ونفيت إرادة الإنسان واختياره. واستلب استلاباً لاهوتياً كهنوياً من دوره، واقتنع بأنه مسير في كل شيء. وبذلك ينتهي دوره الاستخلافي العمري، وتستحيل قدراته إلى عجز مطلق. وقد يستغرق في المحرمات معتذراً عن ذلك بأنه مسير. وتلك صفة من صفات أهل الشرك.

والناظر في مقالات الإسلاميين في الماضي، وكتب الفرق الإسلامية يجد في مقالاتهم العجب العجاب في قضايا الخلط بين الفعل الإنساني والفعل الإلهي والإرادة الإنسانية وقضايا الاختيار والعلل والأسباب وسواها، ذلك الخلط الذي أدى إلى كثير من الغبش والاضطراب في النظام المعرفي الإسلامي.

إذاً لا بد من الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي، وقراءة الوجود، وبناء العقل الإنساني بهما معاً لئلا يقع الإنسان في أي من ذينك الطرفين الذميين .

منهجية القرآن المعرفية:

من هنا كان ما سميناه بـ"منهجية القرآن المعرفية"، دعامة أساسية للجمع بين القراءتين، وضرورة معرفية وحضارية لا على المستوى الإسلامي وحده، بل على المستوى العالمي - كله - للخروج من المأزق المعرفي المعاصر والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة: فبعد تكريس البعد المنهجي في التفكير واجه الفكر الغربي والحضارة الغربية مشكلة تحديد الصياغة المنهجية لذاتها ومعرفتها صياغة تستند إلى تطوّر الغرب العلمي بكل جوانبه فلم تصل في ذلك إلى ما يشفي العليل، ويروي الغليل. ولقد قامت الماركسية في محاولة إيجاد هذه الصياغة في إطار "المادية الجدلية"، وقد انهارت الماركسية باختيار الاتحاد السوفيتي قبل أن يجد الغرب البديل المعرفي والمنهجي لها لتبقى الحضارة الغربية دون صياغة فلسفية بديلة، تضبط حركتها، وتستوعب مشكلات تطورها. وتجعلها قادرة على تقديم إجابات عن "الأسئلة النهائية" المعلقة، التي يشيخ علماء اليوم بوجوههم عن مراجعتها. فبدأت الحضارة الغربية تلجأ إلى خلق الأزمات لتحافظ على توترها، لأنه - أي: هذا التوتر - صار من أهم وسائل حمايتها

من التفكك. أمّا أزمنا نحن العرب والمسلمين فهي أشد وأنكى، فنحن شركاء في الأزمة العالمية من ناحية، لأنّ علاقتنا بها لم تعد علاقة برّانية أو هامشيّة - كما قد يتوهم البعض - فالحضارة المعاصرة قد نجحت من خلال غزوها الفكري والثقافي والمؤسسي أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعيتها العلمي والمفاهيمي للوجود وللحركة الكونيّة. كما فرضت على الجميع رؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم والتخلّف وغيرها، فما هي حقيقة "المنهجية القرآنيّة" التي نقترحها حلّاً لأزمنا المعرفيّة والفكريّة وأزمة العالم معنا؟

محددات ومعالم:

تبرز محددات "منهجية القرآن المعرفيّة" وتحقق من قراءة الكتابين: القرآن والكون، وتؤسّس على مقابليتهما والكشف عن التكامل والتفاعل بينهما، وإبراز المنهجية في البحث والاكتشاف انطلاقاً منهما:

الكتاب الأول: هو كتاب الوحي المقروء، ونعني به "القرآن"، لأنّه وحده الكتاب الكونيّ، الذي يعادل الوجود الكونيّ وحركته ويستوعبهما بأبعاده الكونيّة.

والكتاب الثاني: هو كتاب الكون المتحرك الذي يتضمن ظواهر الوجود كافّة. فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر، ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره في الهداية فيه، ويوظفه بوجوه عديدة، لتسخير مكوناته، ولتوضيح قضاياها، وتأييد دعاواه، والكون أيضاً يقود إلى القرآن ليسقط أسئلته عليه، ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل معه، واستثمار تسخير، ومعرفة هذا وإدراكه والعمل بمقتضاه هو ما أطلقنا عليه "الجمع بين القراءتين": قراءة تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه الكون. وقراءة موضوعيّة تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي. فقراءة الوحي بمثابة تنزّل من الكلّي إلى الجزئيّ، فتدرك بقدر ما تتيحه القدرات البشريّة النسبيّة من الفهم لتنزلات الكلّي وكيفيةّها. وقراءة الكون تقدم القضايا والمسائل، والأسئلة الجزئية وترفعها إلى سُدّة الوحي ليهتدي الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم. وتبدو للإنسان القارئ - آنذاك - جدليّة العلاقة بين

المصدرين: الوحي والكون أو علاقة "الفهم التكاملي المتبادل والجدل والتفاعل" بينهما بأوضح ما تكون.

دور قراءة السنّة:

هنا يبدو دور قراءة السنّة والسيرة في كليّتهما ضروريًا، وتكون قراءة الكون بمثابة تطّلع وعروج من الجزئيّ باتجاه الكلّي المتمثّل بالوحي، وتطبيقات رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- له فيقرأ ذلك كله وفق قدرات البشر النسبيّة على فهم الظواهر، فلا يقع الفصام المزعوم بين معطيات الوحي ونتائج المعرفة الموضوعيّة، إذا فهمت السنّة والسيرة فهماً دقيقاً في هذا الإطار.

وإضافة إلى فهم السنّة والسيرة في كليّتهما، وجمعهما مع القرآن الكريم في الطريق إلى "الجمع بين القراءتين". نحتاج إلى أن ندرك أنّ "... القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿... وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: 192 - 195) فنزوله كان على القلب.

ولذلك نهى -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يحرك لسانه به بادئ ذي بدء: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: 16 - 18) وما ينزل على القلب فإنّه ينزل ويراد له الفهم والتدبّر والاستيعاب والاستقرار في القلب؛ ولذلك فإنّ التالي للقرآن المجيد إذا أراد فهم ما يقرأ، وإدراك معانيه، ومس مراد الحق منه فعليه أن ينزّله على قلبه، ويدرك معانيه ببصيرته.

وعلى التالي الذي يريد أن يبلغ في تلاوته مستوى "حق التلاوة": أن يدخل إلى رحاب القرآن، وهو على يقين من أنّه سوف يجد فيه كل ما يريد إذا نزّله على قلبه وتلاه حق التلاوة، ورتّله ترتيلاً، وتدبّره وتعقّله وتفكّر بما فيه وتذكّره.

ومن قرأ سورة من القرآن، أو نجمًا من نجومه أو آية من آياته فقد فتح لبصيرته نافذة الفرقان على آفاقه الرحبة الواسعة.

أمّا من قرأه، ووقف معه بكلّيته وفي إطار وحدته البنائية من حيث هو واحد كل أو مجموع كان في حقه فرقانًا. والفرقان معنى جليل واسع يفرق الإنسان به بين الخير والشر والحق والباطل والصواب والخطأ، فتكون لدى القارئ التالي المتدبّر قدرة أو ملكة أو حاسة تمكّنه من التمييز في ذلك -كله- وتقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجل تصرفاته بذلك الفرقان. وعندما يحدث للإنسان ذلك يقال له: "استفت قلبك وإن افتاك المفتون وأفتوك" فالقرآن يكون بمثابة "النموذج المعرفي الكلي" للإنسان القارئ التالي المتدبّر للقرآن في كليّته. وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم تشديد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على أصحابه بأن لا يكتبوا عنه شيئًا إلا القرآن. وتأكيدهم عليه: بأن من كتب شيئًا غير القرآن فعليه أن يمحوه .

كيفية الجمع بين القراءتين:

إنّ المدخل الأساسي للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجي لآيات القرآن الذي أعطى القرآن "وحدته البنائية" وإعجاز "نظمه"، وبين السنن والقوانين المبثوثة في الوجود والمهيمنة على حركته للكشف عن الناظم المنهجي الذي يربط بينهما. فالقرآن وحي إلهي نتعلّق به ونتفهم به هذا الوجود انطلاقًا من أنّ القرآن مطلق ومحيط وشامل، وبقدر ما تتسع معرفتنا للآيتين معًا بقدر ما تتكوّن لدينا القدرة على "الجمع بين القراءتين"، واكتشاف التداخل المنهجي بين منهجي الوحي والكون، فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود، ولا ينبغي الاقتصار على قول ذلك نظريًا أو إدراجه في دائرة "فضائل القرآن"، ولكن ينبغي اكتشاف ذلك تطبيقياً. فالقول النظري قد لا يتجاوز حالة تبشير بفرضية قد تكون غير صحيحة أو مما يمكن الطعن فيه، ولهذا يكون التحدي الأول والأهم للمسلم المعاصر هو الكشف عن التداخل المنهجي بالجمع بين القراءتين: أي بين الوحي الإلهي والعلوم الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان. أمّا

الحديث عن عظمة القرآن وفضائله، فإنَّ القرآنَ عظيم حقًا ومعجز فعلاً وذو فضائل تجل عن الحصر، وقد كتب الناس عن عظمتِه وإعجازه وفضائله آلاف الصفحات، بل ملايينها، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيَّة المستوعبة للكون وحركته، والمتجاوزة لها، والقادرة على إقامته على قواعد الهدى ودين الحق. كما لم تؤد إلى الكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن في وحدته البنائيَّة، وقراءة الكون في وحدته القائمة على سننه وقوانينه. فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات دينيَّة عديدة عرضة لتأويلات شتى. وفي كثير من تلك التأويلات تبدو الإسقاطات الإسرائيليَّة ونحوها واضحة. كذلك بقيت في المعارف الإنسانيَّة والاجتماعيَّة الحديثة، بل وفي العلوم الطبيعيَّة المعاصرة كذلك أبعاد غائبة، وأسئلة كثيرة حيرى لا تجد من مدارس تلك العلوم المختلفة إجابات شافية، لأنَّها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا في حدود جزئيَّة تمثَّلت في محاولات انتقائيَّة يغلب على بعضها التلفيق الذي يجعلها تبدو مفتعلة إلى حد كبير كتلك المحاولات التي تبدو فيما عرف مؤخرًا بـ "الإعجاز العلمي".

فتأكيدنا الدائم على ضرورة وجوب "الجمع بين القراءتين"، واعتبار ذلك شرطًا مسبقًا للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في مستوياتها العالميَّة والمحليَّة يحمل تأكيدًا على وجوب الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسان: فالقرآن ضم قواعد "الوحي الإلهي" الذي جاء به المرسلون كافَّة. والكون مجال كلمات الله ومظهر إرادته ومشيبته. والإنسان مستخلف للاهتداء بالوحي في إعمار الكون. وبذلك تكتمل حلقات التصور الإنساني، وتظهر سائر مقوماته، وتبرز علاقة الغيب بالطبيعة والإنسان. ويتخلَّص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت والناسوت والملكوت أو بين الدنيا والآخرة، أو بين التنزيل الإلهي والفلسفات الوضعيَّة البشريَّة، وما جره ويجره ذلك الفصام النكد من مشكلات.

المدخل المنهجي:

إنَّ هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتي القرآن وحظًا من العلوم والمعارف كافيًا لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان؛ ولذلك أرسيت قواعد "المنهج القرآني" على الدعائم التالية:

1. إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على أركان العقيدة المحددة المحصورة كما جاء بها القرآن، ومقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم المنبثق عنها، ليتضح ما يمكن اعتباره "النظام المعرفي الإسلامي" القادر على الإجابة عن "الأسئلة الكلية النهائية" ومعالجة ما أسماه الفلاسفة المتقدمون "بالعقدة الكبرى" دون تجاوز شيء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط، في الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي والمنهجي وبه يتحقق الإبداع. والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة.

2. إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية في مجالاتها المختلفة، وذلك بعرضها على "المنهجية المعرفية القرآنية" وتعديلها بنورها وعلى هدى منها. فإنَّ أضرارًا بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزئية التي جعلت القرآن عضين، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديمًا وحديثًا. وليتمكن العقل المسلم من تجاوز تلك الأمراض الفكرية التي شلَّت فاعليته كالاضطراب في فهم علاقة الغيب بالشهادة، وعلاقة النقل والعقل، وعلاقة الأسباب بالمسببات وغير ذلك من أمور.

3. بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد ومعرفة مداخل قراءته من خلال هذه الرؤية المنهجية التحليلية، باعتبار القرآن مصدرًا منشئًا للمنهج والعقيدة والشرعة والمعرفة، ومحددًا لمقومات الشهود الحضاري والعمراني، وقد يقتضي ذلك إعادة بناء

وتركيب نظريّات علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض، وتجاوز بعض الموروث في هذا المجال من تلك المعارف التي أدت دورها في خدمة النصّ القرآنيّ، واستفاد بها العلماء في مراحل تأسيسها التاريخيّة، وبدأت الحاجة تبرز إلى البناء عليها تلبية لحاجات الأُمّة في حاضرها ومستقبلها. فالإنسان العربيّ قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوينه الأولى عقليّاً ونفسيّاً ولغويّاً، وكانت تلك الخصائص التكوينيّة بسيطة في بداياتها ومحدودة اجتماعيّاً وفكريّاً يغلب أن تتم في إطار لغويّ ومعطيات ثقليّة شفويّة تجعل الاهتمام ينصبّ على صحة النقل، وتوثيق الرواية بالطرق المتعارف عليها لديه التي كانت تمثّل أرقى المعارف في طرق التوثيق في عصره، وحين بدأ التدوين الرسمي للعلوم والمعارف الثقليّة الإسلاميّة التي دارت حول النصّ القرآنيّ والحديث النبويّ في القرن الهجري الثاني برزت تلك الخصائص فيما كان قد دوّن من علوم ومعارف. كما ظهرت إلى جانبها خصائص العقليّة البلاغيّة واللّغويّة العربيّة في تلك المرحلة وما تقتضيه من اتجاه نحو التجزئة باتجاه دراسة الجمل والتراكيب مع ملاحظة المفردات ابتداءً، فلا غرابة أن يعرف "التفسير" وهو أهم علوم الفهم: بأنّه "معرفة أحوال كلمات القرآن وألفاظه"، فتلك كانت هي المنهجيّة السائدة، ولذلك اعتبر الفهم الذي تولّد عنها مقبولاً وكافيّاً في تلك المرحلة والمراحل التي تلتها.

أمّا في المرحلة العالميّة الإنسانيّة الراهنة حيث تسيطر "عقليّة الإدراك الإنسانيّ المنهجيّ" للأُمور، والبحث عن العلاقات النازمة لها بطرق تحليليّة ونقدية توظف الأطر والقواعد العلميّة المختلفة، وتربطها بموضوعات حضاريّة متشعبة وعلاقات متنوّعة، فلا بد من إعادة النظر في كفيّة إنماء وتحديد علوم وسائل فهم النصّ وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون، وإدراك أبعاد التداخل المنهجيّ بين القرآن والكون، وتنقية كثير من جوانب التفسير والتأويل والتراث المتعلّق بتلك المراحل، لإزالة آثار الربط الوثيق بالنسبيّ من خلال الإسقاطات الإسرائيليّة وغيرها، والربط التام بأسباب النزول والمناسبات. ولكي تظهر وجوه التحدي بالقرآن العظيم، وجوانب إعجازه المؤثرة في هذا العصر ينبغي أن يضاف إليها -الآن- البعد الاجتماعيّ والمنهجيّ ليتحقق التحدي الدائم به، ويبرز إعجازه الذي يعتبر الدليل

المنهج الأول على إطلاقيته، وعدم نسبته وبطبيعة الحال فإننا نتجاوز "الإعجاز العلمي"، لأنه لا يعدو أن يكون إسقاطاً لثقافة العصر على القرآن، وذلك ليس من مقصودنا.

4. بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة -أيضاً- من خلال تلك الرؤية المنهجية، وباعتبار السنة النبوية المطهرة مصدراً مبيناً للقرآن المجيد وتطبيقاً لما جاء القرآن به، يحمل تفاصيل وتطبيقات المنهج والشرعة، وقواعد المعرفة ودعائم ومقومات الشهود الحضاري والعمري، فقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ومتابعته والتأسي به فيما يقول أو يفعل: "خذوا عني مناسككم"، "صلوا كما رأيتموني أصلي"، والإتيان والتأسي يعتمدان على ملاحظة التحرك العملي والتطبيقي لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وسيرته في الواقع. فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يجسد بسلوكه القرآن في الواقع، ليحقق الربط بين النص والحياة. فالتطبيق النبوي والبيان الحمدي كانا يضيئان الشقة تماماً بين مكونات ومكونات المنهج الإلهي القرآني، وبين الواقع بمستوى ثقافة أهله وعقلياتهم وقدراتهم الفكرية والمعرفية، وتصوراتهم السائدة آنذاك، وبشروط ذلك الواقع الاجتماعية والفكرية في إطار ذلك السقف المعرفي والعلمي واللغوي السائد فيه، ولذلك كان الرواة من الصحابة -رضوان الله عليهم- حريصين على أن لا تفوتهم أية جزئية تتعلق بحياة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن ذلك هو البديل الوحيد عن الوعي بالمنهج الناطم للقضايا المختلفة في عصرهم، واستخلاص منهج التطبيق منها لمن يأتي بعدهم، ولذلك اشتملت المرويات على ذلك الكم الهائل من أقوال وأفعال وتقريرات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتلقينا كل تلك التفاصيل التي تجعل سائر الأجيال التالية لجيل التلقي قادرة على أن تتأسي به، وتستخلص من ذلك منهجاً لاتباع القرآن وهي تتابع حركته اليومية (عليه الصلاة والسلام) في غدوه ورواحه وسلمه وحره وتعليمه وقضائه وقيادته وفتواه، وممارساته الإنسانية بطريقة تكشف عن أسلوبه أو سنته (عليه الصلاة والسلام) أو منهجه في التعامل مع الواقع، وتكشف -إضافة إلى ذلك- عن

خصائص الواقع الذي كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يتعامل معه، ويمارس حياته فيه، ويتحرك في مجالاته. وهذا الواقع -لا شك- مغاير للواقع الذي نحياه في تركيبته وقضاياه ومشكلاته، وعلاقات أهله، مغايرة نوعيَّة. إضافة إلى المعايير الكميَّة التي نسلَّمها جميعًا.

لقد كان (عليه الصلاة والسلام) في سيرته وسنته يمثل تجسيدًا للربط بين المنهج القرآني والواقع المعيش؛ ولذلك فإنَّ من الصعب فهم الكثير من القضايا في معزل عن فهم ذلك الواقع الذي كان (عليه الصلاة والسلام) يتحرك فيه، ويجاهد ويجتهد لتغييره وإصلاحه، ويكون ذلك الفهم بدراسة واقع عصر النبوة وما فيه إضافة إلى أسباب ورود الأحاديث. والأحداث التي ترتبط بها.

وهذه الأحاديث قد يحولها المختلفون إلى أقوال جزئية قد تدل على الشيء ونقيضه، وكأنَّها أقوال أئمة المذاهب المختلفة. إذا لم يلاحظ الرابط المنهجي بينها. لقد ارتبط المسلمون في مرحلة نزول القرآن بمفهوم التأسّي والاهتداء والاتباع والاقتداء ولم يؤمروا بالتقليد أبدًا. وهذه المفاهيم الأربعة تشترك في أن تحقيقها يقتضي معرفة منهج المتأسّي به (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بالإهتداء بهدي من سبقه من الأنبياء والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ۖ﴾ (الأنعام: 90) أي بمنهجهم في الطاعة والدعوة والتبليغ والبيان والتطبيق، ولم يؤمر بتقليدهم. وقد مكَّن ذلك من اتخاذ الصحابة من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قدوة عملية جسدت لهم "المنهج" طبقًا لشروطهم الواقعيَّة الحيَّاتيَّة ويمكن ملاحظة ذلك في مواقف الشيخين -رضي الله عنهما- من السنن، وأم المؤمنين عائشة وبقية كبار قراء وفقهاء الصحابة. ومن الاتباع والاقتداء والاهتداء نشأت اتجاهات التعامل مع "المأثور والمنقول"، فاهتدى بذلك من اهتدى، وزاغ عنه من زاغ، وأصاب الفهم الدقيق لذلك المأثور من وفقه الله، وجانبه من خذل. فبرزت لدى بعض من جاء بعدهم الحاجة للتخفيف من الآثار التي نجمت عن التعامل الجزئي مع القرآن المجيد، ورواية الأحاديث والسنن مجزأة وبعيدة عن سياقها. فلجأ -بعد ذلك- من لجأ إلى

التأويل الباطني والتفسير الرمزي والإشاري باعتباره مخرجًا من التقيّد بحرفيّة المأثور أو بجزئياته. واستسهل البعض رد الأحاديث، ولكن بعض التأويلات ما زادت ذلك الأمر إلا اضطرابًا. وثار بعد ذلك مشكلات "حجيّة السنّة" جملة أو حجيّة بعض أنواعها وغير ذلك من قضايا لا نزال نعاني منها، ومن الآثار الفكرية التي تخلّفت عنها ولو أنّه تم الكشف عن المنهج القرآنيّ للتعامل مع ما قاله أو فعله أو أقره الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لأمكن أن ينضبط التعامل مع ذلك المنقول - كله - ولردت الجزئيات إلى الكليات، ولفهمت في إطار المنهج سائر القضايا الجزئية، لأنّ المنهج كفيل بتبني المقاصد، واتضاح الغايات.

إنّ العقلية المعاصرة عقلية تبحث - باستمرار - عن النظم الموضوعي للأمر، وتحاول النفاذ إلى المنهجية الكاملة في الأبعاد المختلفة، هذه المنهجية تعتمد على التحليل المنهجي والتفكيك والنقد والتفسير وتجعلها الوسائل الأساسية والإطار الموضوعي للحركة الفكرية في تعاملها مع النصوص والقضايا الكونية والمحلية. وبهذه المنهجية يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد ومحاوره وقيمه العليا وكلياته، وتفهم السنن النبوية فهمًا منهجيًا يحمي من الوقوع في إطار ماضوية سكونية أو تأويلات باطنية، أو محاولات تجديدية تعمل على إحداث تعديلات أو تأويلات لتطبيقات الماضي لتعيد إنتاجها في الحاضر، فكأنّها تعبير عن الماضي في ثوب جديد.

5. إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية، ومقايسته إلى منهج التصديق والهيمنة القرآنيين لنخرج من الدوائر الثلاث السائدة التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا - في الوقت الحاضر - : دائرة الرفض المطلق له، ودائرة القبول المطلق، ودائرة الانتقاء اللامنهجي. فهذه الدوائر الثلاث لا تمكّننا من التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا تساعدنا في تحقيق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك.

6. بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر -أيضًا- أو ما يعرف بـ "التراث الغربي" أو "الفكر الغربي" يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التي تخلّفت عن أطر ومحاولات المقاربات، ثم المقارنات، ثم المقابلات

والمعارضات لتنتهي بالرفض المطلق بروح مستعلية متجاهلة، أو القبول المطلق بروح مستلبة تمامًا أو الانتقاء العشوائي المتحيز له أو عليه.

فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الستة هي التي يمكن أن نطلق عليها خطوات باتجاه بناء "المنهج التوحيدي للمعرفة". وذلك لأننا نجد أنفسنا لأول مرة أمام وضعيّة عالميّة تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها توظيفًا يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان، وذلك بطرح تصورات حول الوجود يبدو بعضها نقيضًا للتصور الدينيّ عامّة ولرؤيتنا المعرفيّة الإسلاميّة خاصّة، وسواء أكان ذلك حقيقة واقعة أم لم يكن فإنّ تجاوزه لن يكون بأن ننتقي من مقولاتنا التراثيّة ونقارنها مع ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول: إنّها لدينا من قبل أو نرفضها وندمغها بالكفر، فمنطلقنا ومنذ الأساس تجاه العلوم الكونيّة ليس منطلقًا لاهوتيًّا أو كهنوتيًّا، وليس مطلوبًا منّا تقليد غيرنا، فإنّ تجربتهم في مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا، فلو كان القرآن لاهوتيًّا لما جازت فيه إلا قراءة البعد الواحد، أي القراءة الأولى فقط، وقد أمرنا بقراءتين، فنحن لم نصارع العلم، ولم نقابله بالرفض وقتل العلماء، لأننا ندرك أنّ الوحي في الكون الكتابي هو الوحي الذي في الكون الطبيعيّ، ولكل منهما أسلوب ومنهج قراءة يخصه، فإذا ظهرت انحرافات أسندت إلى العلم، فالمطلوب منا هو: تطهير العلم منها، وإذا ظهرت انحرافات في التفسير والتأويل، فيجب حماية النص منها. وهذا أساس "الجمع بين القراءتين". إذ لم يكن الدين من قبل يواجه سوى فكر عقليّ وضعيّ مجرد ولم يكن مسلحًا بالعلم التطبيقي المعاصر ونتائجه التي أدت إلى قيام مذهبيات تجاوزت الوضعيّة التقليديّة، فالمطلوب منّا - كما أمرنا - استرجاع أو استرداد العلم من هذه المذهبيات وتطهيره وإعادة توظيفه، وتنقية علوم ومعارف خدمة النص مما ألحق بها أو أضيف إليها، لتستقيم القراءة وتتحقق إمكانات "الجمع بين القراءتين".

* * *

المهمة قرآنية وكذلك عالمية:

هذه المهمة المتمثلة في بيان وإبراز منهجية القرآن المعرفية مهمة عالمية: تهم العالم كله، ويحتاجها العالم كله، وإن تصورها البعض مهمة في إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية الإسلامية، فنحن -في عصرنا هذا- جزء متفاعل مع عالم اليوم، لا بغزوه الثقافي، فذاك أمر كان سائدًا في القرنين الثامن والتاسع عشر، ولكن تفاعلنا مع عالم اليوم يتم بغزو العلم التجريبي التطبيقي الذي يتطلب منا جهدًا في بيان "منهجية القرآن المعرفية" يعادل جهد أسلافنا الكرام في مواجهة الغزو الفكري الذي دق أبوابنا مع الثورة الفرنسية، إذ كنا نواجه وقتها حالة عقلية مجردة، وبإمكانات الوضعيّة العقلية المحدودة، أمّا الآن فإنّ المواجهة مع عقل علمي تجريبي فرض نفسه، وأعاد صياغة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية كلها بمرجعية تجريبية، فإمّا أن نتحول إلى موقف الدفاع اللاهوتي العاجز -ومنا من يفعل ذلك- وإمّا أن نتحوّل إلى العمل على اختراق النسق الحضاري والثقافي المعاصر برؤية قرآنية كونية وجامعة!! فهذه العلوم التجريبية -كافة- لا زالت تتعثر في انطلاقتها، مقيدة إلى الجزئي ولم تأخذ بعدًا كونيًا كليًا يحتويها، والبعد الكوني كامن في وحي القرآن (سبحانه وتعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُودْرِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 56-57).

ومع كون المهمة عالمية يتأكّد -أيضًا- كونها قرآنية محضة، فأمام التدافع الديني، وإفلاس الأنساق الحضارية العالمية، وختم النبوة وبروز الأزمات الفكرية والمعرفية عالميًا ومحليًا، يتصدى القرآن وحده لخوض معركة شاملة باعتباره كتاب وحي مطلق، ليستمر في عطائه وكرمه بعد أن لم يعد لدى الآخرين ما يقدمونه، فهي معركة اختبار لنا في مدى فهمنا لمنهجية القرآن وقدرتنا على إصلاح وتسديد المسيرة الحضارية به، وإخراج مختلف مناهج العلوم من أزمتها عبر "الجمع بين القراءتين"، فالعلوم المعاصرة قد بلغت اليوم مراحل متقدمة جدًا في معرفة

وإدراك الظواهر، فلم تعد الظواهر كما فهمها جمهرة المتقدمين أو تمثلها العالم القديم، تلك الظواهر الشاخصة والمجسدة أمام العين الناضرة، فالحواس التي كانت هي وسيلة التعقل أفسحت المجال الآن لحواس مجهرية والكترونية أعطت مفاهيم جديدة للظاهرة، فإذا فهم الأقدمون الذرة باعتبارها حبة رمل أو تراب مرئية فإن الذرة اليوم ذرة مجهرية قد تحول معناها مما يبصر إلى ما لا يبصر: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الحاقة: 38-39). وصارت تفجر وتحوّل إلى طاقة، وهنا نفهم دقة القرآن المجيد وحكمته في قوله (تعالى): ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ (لقمان: 16).

وحيث فهم الأقدمون الأطوار التاريخية فهمًا تعاقبيًا تكراريًا قائمًا على "كر الجديدين" الليل والنهار، فإن الأطوار اليوم تتمثل في صيرورة وتغيّرات كيفية لا مجرد تغيّرات كمية فقط، وهذا هو الذي يوضح المراد بالسببية العلمية المعاصرة التي تقوم على صيرورة وتحولات كيفية بالدرجة الأولى.

* * *

منهجية القرآن والمصير الإنساني:

ليست قضية "منهجية القرآن" -إذًا- مجرد ضرورة أو حاجة فلسفية مجردة، لأنها وهي تقدم "الجمع بين القراءتين" تقدم دليل انقاذ الفكر البشري من أزمة اللاهوت المستلب للإنسان والطبيعة، وهي في ذات الوقت تخرج من الإطار الوضعي كل ما يفصم العلم عن خالقه، فلكل من المنهجين آثاره وإسقاطاته على حياة الإنسان ونسقه الحضاري ومبادئه وتشريعاته، فمنهجية القرآن -عند التأمل الجاد لها- تعد أهم مقدمة "البديل حضاري عالمي" لا يستهدف إصلاح أوضاع المسلمين فقط، بل يستهدف إصلاح العالم كله، وهذه مهمة تتطلب الكثير من البحوث المميّزة الجادة في القرآن العظيم نفسه بفهم تحليلي جيّد ومن منظور علمي وعالمي منهجي، وهذه هي غاية "منهجية القرآن" الأساسية أن تجعل من القرآن كتاب هداية، ودليل استخلاف، وسبيل خلاص، ومنطلق عمران. إنّه بدون فهم القرآن فهمًا منهجيًا في إطار وحدته وبنائيته الكاملة فهمًا يتصل وينعكس على فهمنا

المنهج المعاصر للظواهر الكونية، وسنن حركتها في "وحدتها البنائية" أيضًا، يستحيل تأسيس عمران سليم، فمنهجية العالم المعاصرة من شأنها أن ترد الكثرة إلى الوحدة، وتحلل الظاهرة بحثًا عن العلاقات والسنن الكامنة فيها وفيما وراءها، ولا يكتفي بتفسيرها، والقرآن (المكنون المجيد الكريم) قابل في وحدته البنائية الكلية لهذا الفهم المنهجي، بحيث ندرس الكتاب الكريم بمثل المنهجية التي يدرس بها العلماء الكون العظيم، وكما ذكرت بعقلية علمية عالمية قادرة فاعلة تستطيع إدراك التداخل المنهجي بين "منهجية القرآن" و "سنن ومنهجية الكون".

لا شك أنَّ هناك أزمة لا بد للعالم من تجاوزها والتغلب عليها، وتبدو هذه الأزمة -بوضوح- في أنَّ العقل العلمي العالمي المعاصر يرفض كل الكتب الدينية، وإذ يتسامح مع بعض موضوعاتها فإنه يصمم على رفض منهجية أي منها، ولا يدرك وحدة بنائية لأي منها، ولا يفهم إطارها الغائي مؤكدًا على أنَّ اختصاص أي كتاب ديني يجب أن يتوقف عند القناعات الإيمانية وغيبيات ما وراء الطبيعة. وبالتالي فإنَّ "الجمع بين القراءتين" -الغيبية والموضوعية - يبدو في نظر هؤلاء العلمويين مستحيلًا طالما أنَّ هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيب الذي لا يمكن إدخاله المختبر والتجريب عليه، فإنه لا مجال لاتخاذ أي منها مصدرًا من مصادر العلم، وإلا تم تزييف العلم أو هدم نظرياته فكل ما تشير إليه الكتب السماوية من كائنات غير مرئية أو بعض القصص التاريخي الذي لا يخضع لاختبارات العلم الوضعي المعاصر لا يملك أحد -في نظرهم- إعطائه الصفة العلمية؛ ولذلك خرجت اليونسكو على العالم بتعريف للمعرفة ينص على أنَّها: "كل معلوم خضع للحس والتجربة".

إنَّ هذا المنطلق يصدر عن فهم خاطئ لم يلاحظ قضية "الجمع بين القراءتين"، فغاية "الجمع بين القراءتين" أن تنتهي إلى "فهم كوني" للوجود لا يقتصر على القراءة الثانية بمفردها، فلو اكتفينا بالقراءة الثانية فقط لبقينا في حدود الإطار الوضعي للفكر الإنساني ومقولاته حول الوجود، ولمارسنا مفهومًا يعتمد على تفكيك الظاهرة وتجزئتها انطلاقًا من "الجدلية العلمية المعاصرة واحتمالياتها ونسبيتها"، وهنا تبرز محاذير القراءة الثانية المنفردة، إذ إنها تنتهي بنا إلى فكر وضعي جزئي لا إلى فكر كوني. أمَّا حين نجمع القراءة الثانية مع الأولى، فإننا نخرج من

الجزئيّ الموضوعيّ المحدود إلى الكلّي في إطلاقه الكونيّ بما فيه من ظواهر مرئيّة وغير مرئيّة، فكل رفض لما يسمونه بالغيبيّات والماورائيّات هو رفض للقراءة الأولى، القراءة الكونيّة -في الوحي- باسم الله خالقًا، فالوحي كليّ يستوعب الجزئيّ، والقراءة الأولى تأخذ بعين الاعتبار كل الغيبيّات والماورائيّات كجزء أساسيّ في المنهج، لا باعتبارها مجرد مسلمات يجب الإيمان بها فقط، ولكن باعتبارها دليلاً على وجود كونيّ أكبر من معطيّات القراءة الثانية، وهذا ما يعطي الخلق حقيقته الكونيّة المتكاملة، فاستبعاد الغيبيّات هو استبعاد للقراءة الأولى التي نجد دلالاتها على مستوى الوجود والخلق الكونيّ فهي ليست أساطير أولين كما يتوهم البعض، بل هي أمور ثابتة بأدلة كافية للتدليل على وجودها، وإذا لم نأخذ بدلالاتها فذلك قد يردنا إلى القراءة الثانية الوضعيّة المتفردة، فلا يسمح لنا ذلك بمعرفة التاريخ الكونيّ في معناه الحقيقيّ. فالقراءة الأولى لا تطلب فقط منّا الإيمان بوجود الله، ولكنّها توجه إلى ألوهيّة الله وهيمنة كلماته على التكوين الكونيّ وارتباط المصير الإنسانيّ بالخلق الكونيّ كله، أي منهجيّة الخلق المستوعبة لمنهجيّة الأشياء الموضوعيّة التي نتعلمها بالقلم.

فنجتمع بين منهجيّة الخلق (بالله خالقًا) ومنهجيّة الشيئيّة التي يرصدها ويسطرها (القلم) في قراءة كونيّة واحدة، فيتحقق الإطار الإيمانيّ الشامل وإلا صارت المنهجيّة قراطيس انتقائيّة تميل بتحيز ذاتيّ إلى القراءة الثانية دون الأولى.

إنّ العالم ليخرج من أزمتة الفكريّة والحضاريّة يحتاج لإدراك البعد الكونيّ بمعناه الغيبيّ في تركيب الوجود ومصيره، وتلك هي مهمة القراءة الأولى التي تبدو للبعض قراءة يجب استبعادها من الدائرة العلميّة، لأنّها قراءة في الوحي الذي استبعدوه. وعلينا أن نرد الإنسانيّة إليه ردًا جميلًا.

المهمة كبيرة، والتحدّي ضخم، متسع باتساع هذه الكونيّة، وبدايتها "الجمع بين القراءتين" وغايتها إنقاذ البشريّة ليعم الخير، ويسود الحق وينتشر الهدى، ويدخل الناس في السلم كأفّة، طريق القرآن. وتشرق الأرض بنور الإيمان والقرآن. واستمرارنا في الحوارات العلميّة الهادفة والتطبيقات المنهجيّة سوف يؤدي إلى إزالة هذه العقبة وغيرها من العقبات من طريق القرآن.

وتعامل أصحاب التخصصات المختلفة مع "منهجية القرآن المعرفية" سوف يؤدي إلى الكشف عن جوانبها العديدة، وإقناع العلماء والباحثين بدقتها وسلامتها، وضرورة تفعيلها، والبناء عليها.

﴿.. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21).

* * *

خاتمة

وبعد: فهذه قضية "الجمع بين القراءتين" قضية تعرض إليها بإيجاز بعض كبار علمائنا أمثال الحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي وإمام الحرمين والفارابي والغزالي والرازي وابن حزم والقاضي عبد الجبار الهمداني. كما تجد شذرات تنبّه إليها في الموسوعات الأصولية. وتنادى لها الإصلاحيون في إطار اتجاهات "المقاربات الفكرية" للفكر الوافد: الشيخ محمد عبده ومحمد إقبال ومصطفى صبري وغيرهم. فلم تأخذ حظها من التداول بين أهل العلم لتنضج، وتستوي على سوقها، وتبرز جوانبها. وزاد في وضع الحواجز بين العقل المسلم، وإبرازها منهاجاً، أو محدداً منهاجياً ما عرف "بالإعجاز العلمي" وقد رأيت أنّ الشقة بين الجمع بين القراءتين والإعجاز العلمي بعيدة جداً.

ولعل من أهم معاصرنا الذين تناولوها الأخ محمد أبو القاسم حاج حمد المفكر السوداني - يرحمه الله - الذي قدمها في إطار فلسفي شيق، ونحن إذ نقدمها لأمة القرآن اليوم - بهذه الحلة - مترسمين خطى من سبقنا فإنّ لنا كبير الأمل في أنّنا قد أبرزنا أهميتها في محور "المنهجية القرآنية"، وأظهرنا كونها موضوعاً شديداً الأهمية عظيم الخطر.

وهذه الدراسة على ما بذلنا فيها من جهد نحتسبه عند الله، فإنّها دراسة مختصرة وجيزة استهدفت تنبيه الباحثين من تخصصات مختلفة إلى هذا الموضوع المعرفي الهام، ليتناول الأكفاء منهم جوانبه المختلفة، وتفصيله المتعددة، كل من زاوية تخصّصه واهتمامه. فذلك ما سوف يبلور هذا الموضوع، وينضج قضاياه، ويساعد على تقديمه للباحثين باعتباره محدداً منهاجياً

سوف يساعد بعد ذلك إبرازه وإنضاجه على معالجة كثير من الإشكاليات في مجالات معرفية متنوعة: في فلسفة العلوم الطبيعية، وفي الدراسات الدينية - إن صح التعبير - إضافة إلى المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية. وبعض القضايا الفكرية. ولذلك فإننا نحب بالباحثين الأكفاء أن يعملوا على إنضاج هذا الموضوع الهام، وينووا عليه ليستوى على سوقه - إن شاء الله (تعالى) - ولو بعد حين. والله ولي التوفيق .

المدخل السادس: مدخل العقيدة والشريعة، والحلال والحرام:

استعملنا لكلمة العقيدة هنا بناءً على ما هو شائع وإلا فإننا لا نستبدل بمفهوم القرآن أي مفهوم، والقرآن المجيد قد أطلق مفهوم الإيمان على أركان الإيمان وقواعده، أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان ﴿.. أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ..﴾ (المجادلة:22)، وجرت عادة المعاصرين من مستشرقين وإسلاميين أن يطلقوا كلمتي العقيدة والشريعة يريدون بالعقيدة ما يؤمن الإنسان المؤمن به، ويربط قلبه على أركانه، وهو في القرآن المجيد لا يجاوز الأركان الخمسة، التي وردت في قوله (جل شأنه): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء:136) وهذه هي الأركان التي جاء القرآن المجيد بها، ولم يزد عليها ولم ينقص، ونجد آيات القرآن المجيد تؤكد على هذه الأركان، وتدعو الخلق إلى الإيمان بها، واليقين بكل منها، ولا يقبل في أي منها ريب أو شك أو نزول عن درجة اليقين، وقد أكد عليها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلمنا كيف نربط قلوبنا على كل ركن من هذه الأركان في الحديث المعروف بحديث جبريل، وهو حديث تعليمي، صح واشتهر عند كثير من المحدثين¹⁷.

¹⁷ "بينما نحن عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم، إذ طلع رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا نعرفه، حتى جلس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذه، ثم قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، ما الإسلام؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان،

وأما الشريعة فإنها تشمل جوانب الإسلام كلها، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: 13)، وهذا هو الأصل القرآني في إطلاقها، وقد ألف الناس من عهد جيل التلقي إلى يومنا هذا أن يطلقوا كلمة الشريعة على ما فيه تشريع، وتقنين، وتنظيم لشئون وشجون الحياة كلها، فتشريع العبادات والمعاملات والجنايات والسلوكيات، والأسرة وتنظيم المجتمع كله يندرج تحت مفهوم الشريعة، فكل شئون الحياة وشجونها التي تتعلق بالإنسان من أول ولادته حتى وفاته دائرة بين الإيمان والشريعة، حتى المباحات إنما هي جزء من الشريعة من حيث كونها لم يأت بها تحريم ولا إيجاب ولا نذب ولا كراهة، فكانت على الإباحة.

فإذا دخلنا إلى السورة من مدخل الإيمان والشريعة فإننا سنضع أنفسنا على أول طريق الفهم، فنصف آيات السورة تندرج تحت مفهوم الإيمان، وآيات تندرج تحت مفهوم الشريعة، وعند ذاك يصبح القارئ المتدبر على وعي بما هو مقبل عليه، وقدرة على الكشف عن العلاقات بين الآيات الكريمة، وفهمها فهمًا عامًا، فما يتعلق بالإيمان عليه أن يربط قلبه عليه برباط وثيق، ويتفقد على الدوام تلك اليقينيّات، ويتعلم استدلالات القرآن الكريم عليها، ومناهجه في الاستدلال، وسيجد أنّ القرآن المجيد في بعض السور يذكر هذه الأركان كأن يذكر شيء من صفات الله (جل شأنه)، ويستدل على وجوده ووحدانيّته، وألوهيّته، وربوبيّته،

وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، فقال الرجل: صدقت، قال عمر: عجبنا له يسأله ويصدقه، ثم قال: يا محمد أخبرني عن الإيمان، ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فقال: صدقت، فقال: أخبرني عن الإحسان، فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فحدثني عن الساعة متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البناء، ثم انطلق، فقال عمر -رضي الله عنه- فلبثت ثلاثا، ثم قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عمر ما تدري من السائل، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ذاك جبريل -عليه السلام- أتاكم يعلمكم دينكم" الراوي: عمر بن الخطاب، المحدث: البيهقي، المصدر، السنن الكبرى للبيهقي، الصفحة أو رقم الحديث (203/10)، خلاصة حكم المحدث: ثابت وله شواهد كثيرة.

بأدلة الخلق والإيجاد، والجعل والإحياء، والإماتة، والبعث والنشور، ويبين للعبد ربوبيته، وهو يستدل بدليل العناية، به وكيف جعل له الأرض مهادًا ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ (النبا:6)، والسماء بناءً، وسقفًا محفوظًا ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:32)، وأنزل به من السماء ماءً، فأخرج به من كل الثمرات ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:3)، وخلق الأرض وما فيها وما عليها لتكون ميدان استخلاف له، ومجالاً بحيث يمشي في مناكبها، ويأكل من أرزاق الله (جل شأنه) والأقوات التي قدرها فيها، ويستدل بأدلة الإبداع التي ذكرها القرآن الكريم على وحدانيّة المبدع الإله الرب، المتفرد بالعظمة والجلال، آنذاك تبين له آيات الكتاب، وتبرز مفاهيمها، ويعطيه القرآن من كرمه بمقدار ما يتعمق بتدبره، فإذا جاء إلى التشريعات أدرك أنّ الحكم لله (جل شأنه)، وأنّ الكتاب الكريم هو المصدر الأوحد المنشئ للأحكام، فالحكم لله لا شريك له، والإيمان به، والشرع شرعه، والأمر أمره، وهو الذي حدد لكل فلك مداره، فالنبوة والرسالة تدور حول التلقي والبلاغ، والتأسي، وضرب المثل، وتقديم نماذج الاقتداء، وألوهيته (سبحانه وتعالى) تجعل الحاكميّة المطلقة له (جل شأنه)، لكن من رحمته أودعها في كتابه، وأمر البشر بتلاوة هذا الكتاب وتدبره، وقراءته، ومعرفة ما فيه من أحكام، وتشريعات، والله (تبارك وتعالى) لا تقيد كلماته قواعد اللغويين والنحويين والأصوليين، ومن إليهم، فللقرآن المجيد أساليبه في بيان التشريعات، وتفصيل الشرائع، ومن فضل الله (جل شأنه) أن فصلّ لنا في هذا الكتاب ما أمرنا به، وما نهانا عنه، وما حرم علينا، وما أباح، ورسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) قد وضع لنا السنن والقواعد التي تعلّمنا كيف نتلو الكتاب، وتعلّمنا كيف نفهمه، وتعلّمنا كيف نعمل به، ونجعل من آياته وتشريعاته واقعًا عمليًا نحياه ونعيشه.

فالإيجاب قد يأتي بصيغة الأمر افعَل، وقد يسبق بحرم، وقد يأتي في إطار المثل، أو القصة، فإنّ في الأمثال أحكام كثيرة، وفي القصص عبر ودروس، والقارئ المتدبّر مطالب بأن يتدرب على ذلك ويتعلمه، لكي يتمكن من إدراك معاني القرآن المجيد، وكذلك التحريم قد يأتي بصيغة النهي لا تفعل وقد يأتي مسبوقًا بالتنفير وقد يظهر في قصة أو مثل وإنّ في الأمثال

لحكم كثيرة، وأحكامًا كثيرة، ولذلك فإنَّ التدبُّر لابد أن يكون مقترنًا بالوسائل والأدوات التي تسمح للإنسان أن يأخذ الدرس وأن يتعظ، وأن يتعلَّم منهج القرآن في تناول، وهذا مدخل في غاية الأهمية، وادِّعاء آية تشريعات إضافية تحرم ما أحل القرآن، أو توجب، أو تندب إليه، أمر مرفوض، وأي تشريع يوجب أو يأمر بما لم يأذن به الله فإنَّه تشريع مرفوض، لا يقبل، ولا يؤبه به، وعلى مستوى التدبُّر فإنَّ الإنسان إذا ما ارتقى إلى مجال القدرة على التمييز بين الآيات الكريمة وميِّز آيات الكتاب الكريم على أساس ما يتعلَّق بالإيمان وما يتعلَّق بالشرعية، فإنَّ بصيرته ستنمو، وفهمه سيتسع، وعلمه سيمتد، وفوق كل ذي علم عليم.

وهذا المدخل إذا حدث الوعي به فلن يكون الناس ألعوبة بأيدي أصحاب الدعاوى الكاذبة، ولن تجتالهم الشياطين، ولن يتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، يحلون لهم الحرام أو يحرمون عليهم الحلال، فذلك كلُّه سيحصنهم مستوى وعيهم بالقرآن الكريم من الانخداع به، ويحول بينهم وبين اجتيال الشياطين لهم، والله أعلم.

والشرعية والإيمان من المداخل المرتبطة بالإخلاص المطلق لله (جل شأنه)، فيجب أن تخرج من دائرة الشعارات والمزايدات، ومحاولات إحراج الناس بعضهم لبعض، لتكون خالصة لله (جل شأنه)، فلا يلج إلى رحاب القرآن من هذا المدخل أو بهذا المدخل من لم يجد لذة الإخلاص في قلبه وعقله ونفسه ووجدانه، فقد هلك المراءون، وهلك الذين يشركون بعبادة ربهم أحدًا، وهذا المدخل من المداخل التي تفتح باب المقارنة، بين ما أرسى القرآن دعائمه من قواعد الإيمان، وبين ما زاده وأضافه المضيفون، وبين أحكام الشريعة التي جاء القرآن بها وعمل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على تنفيذها كما أنزلت وبين ما أضافه المتعاملون، والذين لم يكتفوا بالكتاب العزيز، كما أنَّ هذا المدخل يوجد حدًا فاصلاً بين شريعتنا وشرائع من قبلنا، وتظهر فيه خصائص هذه الشريعة، من تخفيف ورحمة ووضع للأصغر والأغلال، وتحريم للخبائث، وإباحة للطيبات.

المدخل السابع: مدخل الوحدة البنائية:

قراءة القرآن المجيد ليست قراءة عادية، فهي لا تشبه قراءة أي نصّ منظوم أو منثور، كما لا يرقى لمشاهدة القرآن أيّ نصّ آخر. فقراءة القرآن هي قراءة خاصّة تقتضي من القارئ أن

يكون قد هيأ نفسه وعقله وذهنه وقلبه ووجدانه تهيئة تامة لتلقيه وتلاوته تلاوة تلائم مقام القرآن وتناسبه، بحيث يكون القارئ مدرّكاً تماماً أنّه يقرأ كلمات الله ووحيه إلى الإنسان الرسول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي قام بدوره بتلقي هذا الوحي ونقله إلينا قرآنًا عربيًا غير ذي عوج ولا ريب فيه، وصرنا حين نقرؤه نقرؤه دون وسائط خطابًا إلهيًا موجّهًا إلينا بشكل مباشر. فكأنّك وأنت ترتّله تطوي الوحي الإلهي في ثنايا قلبك وعقلك ووجدانك. فلكي نرقى إلى مستواه، ونعرج إلى عليائه فإنّ علينا أن نتدبر آياته، ونتلوها تلاوة، ونرتلها ترتيلًا، ونفكر فيها، ونتعقلها، فإنّه لولا تيسير الله له للذكر، لما أمكن للبشر المخلوق أن يمسه، ويدرك شيئًا من آفاقه. إذ إنّ من شأن هذا القرآن أن لا يمسه إلا المطهّرون. من هنا أمرنا أن نعطي تلاوته "حق التلاوة". وحق التلاوة أمر عظيم لا يتيسر إلا بتوفيق الله (تبارك وتعالى)، والتواضع لجنابه، والاطراح على اعتابه.

وقد حدّر القرآن المجيد من كثير من أنواع القراءات التي تكون حجة على القارئ، لا حجة له. ومن أبرز أنواع القراءات التي شدّد النكير على أصحابها "القراءة الحماريّة" وهي التي جاء التنبيه إليها والتحذير منها في الآية الخامسة من سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: 5)، وليس هناك شيء أبلغ في نفي حقيقة القراءة وعدم الاستفادة بها من هذا المثل. فالحمار لا يقرأ ولا يكتب ولا يفكر ولا يتعظ ولا يتذكر. جوهر العلاقة بين الحمار والكتاب أن يوضع الكتاب على ظهره، ويسيره صاحبه - بعد ذلك - بمنة أو يسرة كما يشاء، بل الحمار لا يدرك ما الذي يحمل، فضلاً عن أن يدرك أهميته إنّما يدرك منه ثقله أو خفته على ظهره. ولذلك فإنّ هذا النوع من حمل الأمانة -أمانة الكتاب- لم يؤد بهم إلى فقه في الدين، اللهم إلا ذلك "الفقه البقري" إن صح تسمية ما بدا منهم في تعاملهم مع الأمر بذبح "بقرة" فقهاً.

ومن المؤسف أنّ الأمة المسلمة قد سقطت -رغم النذر كلها- بعد الصدر الأول فيما سقطت فيه أمم من قبل؛ فقد حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه إلا بتلك الطريقة "الحماريّة"، فلم يحسنوا قراءته، ولم يرتّلوه ترتيلًا كما أمروا، ولم يتلوه حق التلاوة، ولم يدبروا آياته، بل هجروه

﴿هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ (الأنعام: 26) فأصاب فقهم للدين عامة، وللقرآن خاصة ما أصاب فقه أصحاب البقرة في تنفيذ واجب ذبح البقرة، وتناسوا خصائص شريعتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحل الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الإصر والأغلال، والقيود والأثقال التي حفلت بها شرائع من قبلهم، وتجاهلوا المقاصد القرآنيّة العليا¹⁸، والمستويات الأخرى من المقاصد¹⁹ لتشبّث بعضهم بشرائع من قبلنا²⁰، وتبنّى كثير مما فيها من إصر وأغلال. بل قد حدث ممّا هو أخطر من ذلك حين شابها (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) (الحجر: 91، 90) فـ "المقتسمون" وإن تعددت أقوال المفسرين فيهم²¹، فإنّنا نرجح أن يكون المراد أولئك الذين جعلوا القرآن مقسّمًا، فما وافق ما لديهم قالوا بصحته مع دعوى اقتباسهم منه، وما خالف ما عندهم من تراث قالوا فيه ما يشاؤون: (أساطير الأولين أو سحر أو كهانة أو شعر). فقسّموه وقالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض ليتدعوا البسطاء "بموضوعيّتهم" أو علميّة مواقفهم المضطربة التي لا دليل عليها. وليسهل عليهم ذلك الاقتسام جعلوه أعضاء: من "التعضية" بمعنى التفريق والتجزأة، يقال: عضّيتُ الجزور والشاة تعضية إذا جعلتها أعضاء وقسمتها. ومثل ما نهيينا عن حمل القرآن بطريقة "حماريّة" نهيينا عن مشابهة سائر أولئك الذين عضّوه تعضية، وفرّقوه، واتخذوا آياته شواهد لما يذهبون إليه بدلًا من أن ينطلقوا منه كلّ في كل ما يأخذون ويدعون، ويقرؤونه باعتباره قرآنًا واحدًا لا يقبل التعضية ولا التفريق ولا التجزئة.

¹⁸ التوحيد والتزكية وال عمران، والأمة، والدعوة.

¹⁹ هي: المقاصد التي تؤدي إلى حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات، من عدل وحرية، وأداء للأمانات، ومساواة، وما إليها.

²⁰ قاعدة أصوليّة من القواعد المختلف فيها.

²¹ انظر اختلافهم الشديد في تحديد المراد بهم في التفسير الكبير للفخر الرازي (211/19) والتحرير والتنوير لابن عاشور (84/14).

إنَّ المسلمين حين قرؤوا القرآن بطريقة التجزئة متشبهين بأولئك المقتسمين بوجه من الوجوه قد فقدوا الكثير من أنوار القرآن، وآثار آياته الموحدة التي أحكمت فصار كالكلمة الواحدة - كما قال أبو علي الفارسي (ت: 377 هـ). وقراءة التعضية هي التي أورثتنا كثيرًا من المقولات الغثّة التي لا يتقبلها الإحكام القرآنيّ، بل يترفع عنها؛ مثل القول "بالنسخ" لبعض الآيات و"التعارض بين بعضها" والاشتباه في بعض آخر، وما إلى ذلك مما سوف نبثّه تفصيلًا - إن شاء الله - في دراساتنا هذه في "علوم القرآن". من هنا يصبح تناول "الوحدة البنائيّة للقرآن المجيد" أمرًا في غاية الأهميّة. لأنّ إدراك هذه الوحدة سوف يساعد الباحث المسلم على حسن القراءة والترتيل، ودقّة التلاوة، ثم استقامة الفهم - إن شاء الله. فهي ركن منهاجيّ، وليست مجرد فضيلة تضاف إلى فضائل الأسلوب القرآنيّ التي لا تحصى. فإن وجد قارئنا في ذلك خيرًا فرجوا ألا نحرم من صالح دعائهم، وإن وجدوا غير ذلك فليبحثوا لنا عن عذر، ونستغفر الله لنا ولهم.

بيان المراد بالوحدة البنائيّة:

أمّا "الوحدة" فهي مقابل للكثرة والتعدد أيّا كان نوع الكثرة، وأيّا كان إطار التعدّد. فكون الشيء واحدًا يعنى به: أنّه ليس متعدّدًا، ولا قابلاً للكثرة أو التكرار. وفي "الوحدة" معنى الثناء، فإن قيل: "فلان واحد الدنيا"، أو "وحيد عصره". أريد به ذاك، فكأنّه رغم انتمائه إلى البشر، وكونه واحدًا منهم فإنّ له من الخصال والمزايا الحسنة ما يجعله كأنّه انفصل عن جنسه الذي لا يتمتع بتلك الخصال منه غيره، فصار واحدًا. وقد قال الشاعر مادحًا:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإنّ المسك بعض دم الغزال

والقرآن المجيد منفصل عن سائر الكتب المنزلة وغير المنزلة متفوق عليها - جميعًا - بخصائصه ومزاياه، ونظمه وبلاغته وفصاحته، وهو في الوقت ذاته واحد في داخله بهذه المزايا والخصائص، ينتظم حروفه وكلماته وآياته وسوره سلك واحد. والقرآن واحد في كونه متفرّدًا من تلك الحيثيّة، ومن حيث الأهداف والمقاصد والغايات والآثار حتى ليبدو في ذلك - كلّ - كما لو كان كلمة واحدة، أو جملة واحدة. لأنّ الواحد - في الحقيقة - ما لا جزء له

البتة؛ فلا يقبل "العضية" أي: التقسيم إلى أعضاء، ولا يقبل التحويل والتغيير والتبديل فيما يتألف منه.

والواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه:

فيستعمل لما كان واحدًا في الجنس أو النوع مثل أن يقال: "الإنسان أفضل من الحيوان". أو فيما هو أهم بحيث يراد به جنس الإنسان وجنس الحيوان، فإذا قلت: زيد وعمرو واحد، أردت بذلك وحدتهما من حيث الانتماء إلى نوع واحد هو "الإنسان".
ويطلق على ما كان واحدًا من حيث الخلقة، كأن تقول: "شخص واحد" أو من حيث الصناعة، كأن تقول: "حزمة واحدة".

ويطلق على ما كان واحدًا لعدم نظيره، إمّا في الخلقة، كأن يقال: "الشمس واحدة". وإمّا في نسبة الفضائل إليه، كأن يقال: "فلان وحيد دهره، ونسيح وحده". ويقال لما كان واحدًا لامتناع تجزؤه، أو امتناع تعضيته لصغره، أو لصلابته، أو لأنّه غير قابل للتجزئة بطبيعة تكوينه.

ويقال لبداية العدد (واحد) وهو ما فوق الصفر ودون الاثنين.

وإذ وُصف الله (تبارك وتعالى) به أريد أنّه لا يصح عليه التعدّد والتجزئ والتكثّر؛ فهو واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وفي ألوهيّته وربوبيّته.

والقرآن واحد في جنسه ونوعه ونظمه وتحديه، وفرادته وإعجازه. لا يقبل التكثّر ولا التعدّد ولا العضية ولا التجزؤ. لا يشاركه في خصائصه وصفاته ومنهجه كتاب آخر؛ لا منزل ولا موضوع. وذلك هو مرادنا بـ "وحدته" من هذه الحيثيّة.

أمّا "وحدته البنائيّة" فقد أردنا بها أنّه بكلّ سورة وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته يعتبر كأنّه جملة واحدة.

وأما وصفنا لهذه "الوحدة" بـ "البنائية" أو إضافة هذه "الوحدة" إلى "البنائية" فقد أردنا به الإشارة إلى ما يدل عليه قوله تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود:1) فالإحكام -هنا- من إحكام البناء بحيث يمتنع أي اختراق له لمتانته وقوته، ويدل عليه أو يدل له قوله تعالى: (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) (الحج:52) بحيث يمتنع على الشيطان أن يبلغ شيئاً منها، فهي لتطمين البشرية أن هذا القرآن محفوظ ومغلق بإحكام أمام كل محاولات الاختراق. ومنها محاولات الشياطين الذين ووهم الجاهليون أنهم قادرون على اختراق أي مجال فزعموا أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ...) (الشعراء:121) ويعضد ذلك قوله تعالى: (مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ) (آل عمران:4) أي ما لا يمكن أن تعرض فيه شبهة أو يتطرق إليها عارض يتيح لأهل الفتنة والذين في قلوبهم مرض استثمار ذلك على وجه الحقيقة، لأن كل ما قيل أو يقال منهم ضد هذا القرآن إنما هو من قبيل الشغب واللغو، وعلى هذا يكون المراد بهذا المركب "الوحدة البنائية" للقرآن: أن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه أو التجزئة في آياته، أو التعضية بحيث يقبل بعضه، ويرفض بعضه الآخر، كما لا يقبل التناقض أو التعارض وغيرهما من عيوب الكلام. فهو بمثابة الكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره وأجزاؤه وأحزابه؛ فذلك التعدد ضرورة لا غنى عنها في التعليم والتعلم، والتنزيل لتغيير الواقع وإبداله. فلم يكن في مقدور الإنسان أن يستوعب قرآنًا يتصف بكل صفات القرآن جملة واحدة؛ بل عليه أن يأخذه أو يتبناه باعتباره ذا وحدة بنائية لا تختلف عن وحدة الكلمة في حروفها²²، ووحدة الجملة في كلماتها وأركانها، ووحدة الإنسان في أعضائه، ولو نزل مفرقًا. ولذلك فهو حين تعرض في أذهان بعضهم بعض آفات

²² يرجى أن لا يفهم من هذا أننا ندعي إعجازًا في الألفاظ المفردة، وهو ما سنأتي إلى توضيحه فيما سيأتي، بل نريد أن نؤكد أن تلاحم الكلمات في الآيات وتناسبها، وتلاحم الآيات مع نظيراتها، ثم السور مع أمثالها شبيه بتوافق الأحرف داخل الكلمة الواحدة، ولا فرق من حيث التناسب والتوافق والانسجام.

الخطاب ترتد عنه خاسئة حسيرة حتى لكأن آياته تتراص فتصبح كالكلمة الواحدة في بنائه. فإذا مارس دوره في الهداية تفتّح واتسع ليستوعب كل ما لا تتحقق أهدافه بدون استيعابه، ثم يتجاوزها. وهكذا يستوعب فضاؤه كل الحادثات وسائر المستجدات وجميع الثقافات والحضارات وحاجات وتطلعات وأشواق بني الإنسان كافة. وليس هناك أي كتاب أو خطاب عربي أو وارد بغير العربية وعلى أي مستوى كان يتمتع بهذه الصفة عدا القرآن الكريم. إذ يستحيل على كتاب حتى لو بني بشكل موسوعة تبلغ عشرات، بل مئات المجلدات أن يستوعب "نبأ من قبلنا"²³، وما نبأ من قبلنا إلا تاريخ البشرية -كلّها- وكل تفاصيل ذلك التاريخ؛ بشراً وأشياءً وأحداثاً وعبراً ودروساً.

ضرورة الإيمان بالوحدة البنائية:

ولولا هذه "الوحدة البنائية" لما استوعب القرآن "خبر ما بعدنا" حيث استوعب مستقبل البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ببيان السنن والقوانين التي تقود هذا المستقبل وتصوغه وتبنيه، فهو لا يحقق ذلك عليها بطريق التكهن والنبوءات والرؤى والمنامات كما زعمت أمم سابقة. ولا بطريق قياس المستقبل على الحاضر وقياسهما بعد ذلك على الماضي كما يتخيّل الماضويّون، بل بالكشف عن السنن والقوانين الحاكمة على البشرية وحركتها، والتاريخ وحركته، والغاية التي يتجه الخلق -كلّه- إليها وفقاً لتلك السنن والقوانين الصارمة. فهي قراءة علميّة دقيقة للمستقبل لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يتطرق إليها الشك، فالله لا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي بهم. والظلم لا يختص بالطغاة بحيث يقضي المنطق أن يختص أولئك الطغاة بالعذاب، بل هو شامل عام في الحياة الدنيا، وتناجيه لا تستثني أحداً (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الكهف: 59) ولا تختص بمن مارسوا الظلم الفعلي من الطغاة، بل تشمل أعوانهم ومؤيديهم، والمستسلمين لطغيانهم (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

²³ جزء من حديث عليّ -رضي الله عنه- الذي قمنا بتخريجه في بداية مدخل "الجمع بين القراءتين" فارجع إليه.

(الأنفال:25). ولا يختص الظلم بعدم العدل في الحكم، بل يتجاوز ذلك بحيث يكون دركات أعلاه الشرك (إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان:13). ولذلك أمر الله الجميع بالتزود بالتقوى والتحصن بها، فذلك يمكن أن يوقف الظلم ويردعه. يضاف إلى ذلك أن القرآن يحمل القيم العليا الحاكمة والقواعد الدستورية والقانونية التي تقدم للبشرية مصدرًا واحدًا موحدًا يشتمل على "حكم ما بينكم" بحيث يقضي على جذور وأسباب قيام النزاعات والاختلافات ليصبح "العدل" قاعدة والانحراف عنه شذوذًا. ولا ينتظر إلى أن تقع المظالم والانحرافات ليتقدم لمعاقبة أولئك الظالمين طمعًا في ردع سواهم — كما تفعل الأمم المعاصرة — فليست العبرة بذلك، بل بتزكية وتطهير الإنسان والأسرة والمجتمع والبيئة ونظم الحياة كلها، بحيث يتضافر الجميع على محاصرة الشر ومصادره والتخلص منها.

وذلك — كله — يجري بقول "فصل ليس بهزل" وما ينبغي أن يتطرق ذلك إليه. فهو ليس "حمال أوجه"²⁴ بحيث يستطيع كل المتنازعين أن يضموه إلى صفوفهم فيفسره المدعي ومحاموه على هواهم ليحققوا بذلك مصالحهم، ويفسره المدعى عليه ومحاموه كما يريدون، وتحمله النيابة على أن يستجيب لدعواها، ويفسره القضاة بما يرون، ثم تتسلسل جهات التفسير والتأويل من استئناف ونقض وإبرام وفي كل ذلك تبدد الجهود والأموال والأعمار، ويضيع العدل أو جزء منه في تلك المتاهات، وتدمر الطاقات لعدم وجود "القول الفصل"؛ ولذلك كان هذا القرآن مثابة المتقين، ومرجع الأبرار، ومنبع الهداية ومصدر النور، "لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة" ولا تتشعب به الآراء "ولا تنقضي عجائبه" وهو العدل كله والحق كله والهدى الكامل والنور الشامل والمنهج الواضح.

ضرورة الوحدة للتدبر:

²⁴ أشرنا إلى أن هذه الجملة قد شاع تناقلها عن الإمام علي-رضي الله عنه- وفي نقلها عنه نظر، وراجع هامش (رقم 5 ص 21) من مدخل "الجمع بين القراءتين".

إنَّه قرآن أراد قائله ومنزَّله (تبارك وتعالى) له أن يُقرأ ويُتدبَّر، ويتفكر فيه، ويعقله العالمون، ويرتِّله المرتلون، ويتلوه التالون، ويتبعه المهتدون؛ فأودع الله (تبارك وتعالى) فيه كل ما يجعله جاذبًا لأصناف الخلق كافَّة، مستدعيًا لهم لقراءته، قادرًا على صنع الدوافع والدواعي والإرادات لترتيبه وتلاوته .

و"وحدته" تمثِّل الركن الأساس في هذا -كله- ولذلك فإنَّه مهما اتخذنا من الأساليب في الرجوع إليه فلن نستطيع أن نَتهِم بجانب من جوانبه، ونحمل الجوانب الأخرى. فإذا قلت: أنا قاض أو فقيه تهمني آيات الأحكام -وحدها- فاجمعوا لي كل ما بدئ بأمر أو نهي من الآيات لأتدبَّره وأستخرج القوانين والأحكام منه، فإنَّك لن تلبث إلا يسيرًا لتدرك أنَّ ذلك -وحده- لن يلبي حاجتك ولن تكشف لك آيات الأحكام عن دقائقها وقد فصلت الغصن عن الشجرة، فمعاني الآيات لن تسفر لك عن وجهها حتى تقرأها في سياقها وموقعها وبيئتها، تقلب طرفك وعقلك ولبك وفؤادك، وتصيخ السمع إلى نبضات الحياة في قلبك في ذلك -كله- ولن تبلغ الغاية، ولن تدرك المراد حتى تلاحظ سائر العلاقات بين الآية وبين القرآن كله يقودك توفيق الله (تعالى) ويصاحبك اسمه في الرحلة التي حين تتذوقها فلن تستطيع التوقف عن مداومتها؛ لأنَّ القرآن بناء محكم واحد، ونظم متفرَّد واحد، تسري فيه -كله- روح واحدة تحوله إلى كائن حيٍّ يخاطبك كفاحًا، ويشتبك معك في جدل شامل يجيب به عن تساؤلاتك، ويسقط عنك إصر شبهاتك، ويعيد تصميم تصوراتك وبناء قواعد ومنطلقات أفكارك، وتصحيح معتقداتك حتى يضعك على الصراط المستقيم لتستقيم على الطريقة، وتبلغ شاطئ الحقيقة. ولذلك قال الإمام الشافعي -رحمه الله- وهو ينبه إلى خطأ من تصوَّر أنَّ آيات الأحكام هي ما صُدِّر بأمر ونهي قال: "ألا وإنَّ في الأمثال لأحكامًا كثيرة"²⁵.

****بعض ملامح الخطاب القرآني :**

²⁵ راجع هذا ونحوه في مدخل "الجمع بين القراءتين".

وهذا -كله- من الكلام أو الخطاب الذي لا يصعب فهم أبعاده وعلاقاته بين أطرافه وبيئتهم، وأساليب التخاطب المتعارف عليها بينهم، ولكن حين يتعلق الأمر بالأمور التجريدية كالأفكار والنظريات والمفاهيم التي يراد صياغة خطاب يوصلها إلى الآخرين لتغيير أفكارهم وقناعاتهم، وإعادة صياغة رؤاهم ومعتقداتهم، واستبدال مفاهيم مستقرة لديهم بمفاهيم أخرى، فإنَّ الشأن مختلف تمامًا. إذ إنَّ الخطاب هنا يتحوَّل إلى شيء يتوجَّه إلى وعي المخاطب لتغيير شأنه وحاله، فيشتبك خطاب المخاطب مع وعي المخاطب في حوار وجدل يشتد ويهدأ بحسب قوة وفاعلية الخطاب واستقرار وعي المخاطب وقناعاته وعاداته ومألوفاته السابقة على تلقيه للخطاب التغييري. وإذا كانت الآذان -آذان المخاطبين- تشتكي من طرقات ذبذبات الصوت على طبلة الأذن فتصف الصوت بالارتفاع أو الانخفاض، فإذا بلغ حد الاعتدال انتهت المشكلة الحسية. فإنَّ معركة الخطاب في جانب المعنى والمغزى والهدف تكون قد بدأت آنذاك لتستمر حتى يصل المعنى الذي اشتمل عليه الخطاب إلى وعي المخاطب، ويأخذ موقعه فيه لتبدأ مرحلة أخرى داخل وعي المخاطب يتدافع فيها القبول والرفض، والإيجاب والسلب، والسؤال والجواب. فإذا كان الخطاب قد وضع في اعتباره حالة المخاطب، وتضمن ما يجيب عن تساؤلاته، ويحسم تردده، ويتصل بواقعه، ويثير كوامنه، وينبه دوافعه، وجد معناه ومضمونه موقعيهما في وعي المخاطب، وإلا فإنَّ الخطاب قد يعود إلى منتجه ومرسله ليُعيد النظر فيه، ويستكمل نواقصه، ويعيد إرساله. فهناك يكون الخطاب عبارة عن وسيط يتردَّد بين طرفين بكل ما يحيط بهما في حركة دائبة حتى يحسم ما بينهما، وفي ذلك اختبار مستمر ومتدرج لقدرة كل منهما: المخاطب في قدرته على تضمين خطابه معاني وتأثيرًا ومنطقيًا مقنعًا يهيئ وجدان المخاطب ونفسه وسائر قوى وعيه الكامنة لقبول الخطاب وعدم إغلاق الأبواب دونه، ثم ملاحظة أهم الاعتراضات التي ثارت في نفس السامع -سواء صرَّح بها أم لم يصرِّح- عندما تلقى الخطاب في لحظة اتصاله الأولى به لتضمن الإصدارة الثانية للخطاب الجواب عنها. وأكثر ما تكون الأسئلة حول "الحجية" لتحقيق القناعة بالمضمون الجديد، و"الشرعية" لتجاوز عقبة شرعية الموروث واستقراره، والبدائل التي يقدمها الخطاب الجديد لتجاوز فكرة الخوف من الفراغ أو المجهول أو غيرهما، ثم التفوُّق في ذلك -كله- على المستقر، فإذا استوفى الخطاب ذلك -كله- فقد استوفى

مكوّناته ومقوّماته لخوض معركة يمكن كسبها على مستوى الوعي، وعلى مستوى الواقع.
هذا الذي نقوله - كلّه - يمكن أن ينطبق على خطاب من بشر إلى بشر مثله.

خطاب إلهي:

أمّا حين يكون الخطاب من إله الكون والإنسان والحياة، وخالق العالمين، ومرسل المرسلين فإنّ الأمر يختلف اختلافاً كبيراً. فالخطاب هنا يصبح شيئاً آخر، ويصبح مجرد اتّفاقه مع أشكال الخطاب البشريّ وصوره، وصيغته التعبيريّة وجهاً من وجوه تعاليه وإعجازه وتجاوزه، ويصير تنزله وإنزاله إلى البشر، وتنزيله إليهم شأنًا ربّانيًا ووحياً من أمره. فاللفظ -آنذاك- يصير قدسياً يتعبّد به حتى لو كان حرفاً منفرداً، نحو (أ، ل، م) فإنّها تصير ألفاً ولاماً وميمًا، يثاب على تلاوة كل منها. والخطاب آنذاك لا يعبر عن حاجات للمخاطب عند المخاطب يريدّها منه ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: 15)، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: 57-58). ولذلك قالها أبو الأنبياء إبراهيم بوضوح: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: 70-83).

فأنت أيّها المخاطب -هنا- إنّما تخاطب لتعطى وترزق ولتهدى، ولتلبّي احتياجاتك -كلّها- لا في حياتك الدنيا -وحدها- بل على امتداد حياتك كلها. ذلك الامتداد الذي لا تستطيع من دوننا أن تحيط بمجالاته، وكل المطلوب منك في هذا الخطاب -كلّه- أن تحسن تلقيه، والإصغاء إليه، ثم تتفكّر فيه. وكل فوائده عائدة لك ولأمّك الأرض، ولجالاتك الاجتماعيّة. هو لك في حياتك الممتدة ما بين عالم الذر، عالم الأمر، وعالم الإرادة، وعالم المشيئة، وعالم الطين، والحمأ المسنون، والبشر المستخلف المؤمن على الخلق -كلّه- حتى

عالم المآل والمصير والخلود الذي تتطلع إليه بكل أشواقك، هذا العالم الذي كان أهم نقاط ضعف أهلك حين نسي فاستجاب لغواية عدوِّي وعدوّه وعدوك - الشيطان. طالبًا للخلود.

إعجاز التنزل:

هذا الخطاب الذي يطوي كل هذه العوالم ويحيط بها ويهيمن عليها، وجه من أهم وجوه عظمته وتعالیه وإمكاناته المطلقة أن يتنزل بأحرف وكلمات وعبارات تشبه في بعض جوانبها ما تتخاطبون به. إنَّه يتنزل إليك تنزلاً من "رفيع الدرجات ذي العرش" الذي "يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق" ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (غافر: 15) - تلاقي ابن التراب مع ربّ الأرباب تنزلاً متعالياً يتجاوز حتى سماواتك الدنيا، يتنزل فقط ليكون في متناول فهمك ووعيك، يملكك من القيام بحق أمانتك، والنجاح في مرحلة ابتلائك واختبارك. وعلى ثقله الشديد ظل يتنزل إليك حتى اصطفينا له رسولا من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم رؤوف رحيم بكم، ليتلقاه في مرحلة تنزله الأخيرة ويجعله بين أيديكم، فينفع قبلكم به حتى يصير مرآة تعكس سائر قيمه، ويمثله في سلوكه وتعامله أمامكم، ويتلوه عليكم فتسمعه أذانكم على محدوديتها، وتفقهه قلوبكم على ضعفها، وتدركه أبصاركم على كلالها، وتحطه أيمانكم على سذاجتها. فغركم منه هذا فتوهم من توهم منكم أنه من جنس خطابكم، يأكل مما تأكلون منه، ويشرب مما تشربون، فحاولتم الهيمنة عليه بقوانين خطابكم، وقواعد لغاكم، وما تعارفت عليه في اشتقاقات ألفاظكم وتصاريف كلامكم ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (مريم: 89، 90) لقد غرركم منه تنزله فلم تدركوا حكمتنا في ذلك، وحال ذلك بينكم وبين الإحساس بعظمته وتعالیه وتجاوزه وهيمنته وإحاطته، فشددتموه إلى "مناسباتكم"²⁶، وظننتم أنه لم يتنزل إلا إليكم، ثم جعلتم منه ناسخاً ومنسوخاً، وعاملاً فاعلاً ومعطلاً، ومجماً ومبيّناً، ومطلقاً ومقيّداً، ومتشابهاً ومؤوَّلاً، ومتواطئاً ومشتركاً، وخاصاً وعاماً، وحقيقة

²⁶ نريد بذلك "أسباب النزول".

ومجازاً²⁷، وأطلقتم ذلك في سورة وآياته دون تحفظ أو تردد، أو تأكيد منكم على أن ذلك إنما هو بالنسبة لكم ولقدراتكم وأزمانكم ومحدودياتكم، وأنه لا يمثل حقيقة القرآن في ذاته بقدر ما يمثل زوايا النظر منكم إليه.

لقد قطعتموه بذلك أعضاء وأجزاء، ولم تنظروا إليه باعتباره يمثل نجومًا في سماء واحدة، فهي نجوم بها تهتدون، وليست نجومًا بها تتحكمون.

تعامل النسبي مع المطلق:

لقد كانت أكبر الأزمات الإنسانية مع ما أنزل الله من كتاب إلى البشر ليست في رفض تلك الكتب أو عدم الإيمان بأنها من عند الله، فذلك أمر لا تصعب معالجته. ولكنها تكمن في تعامل من أنزلت إليهم معها تعاملًا بشريًا محكومًا بما تعارفوا عليه فيما بينهم من مألوف لسانهم، وأنه ليس شيئًا سوى ذلك، وتجاهلهم للفرق الكبير بين اللغة حين يستعملها الإنسان للتعبير عن مكنوناته، واللغة حين يستعملها خالق الإنسان ليضمّن نوره وهداياته لخالقه.

آيات في كلمات:

إنّ الجمل والعبارات في هذه الحالة لا تكون مجرد جمل وعبارات، بل تصبح آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهية الأخرى. وتنطوي هذه الآيات في جوانحها ما تطويه من الهداية والنور والمعاني والإجابات التي تتكشف عبر العصور بتكشف وظهور حاجات الأمم والعصور وأسئلة ومسائل الحياة وأزماتها، فكأنّ المعاني تنزل مع بروز الأزمات والمشاكل والأسئلة. فإذا كانت الجاهلية العربية قد استحالت إلى إسلام خلال ثلاث وعشرين عامًا، فإنّ أي عصر تالٍ وأيّة بيئة أخرى يمكن أن تجعل من أسئلتها أسباب نزول للمعاني الجديدة التي تنطوي الآيات عليها، ولا تبخل بتقديمها لمن يحتاجها. كل ما في الأمر أنّ الجاهلية

²⁷ هذه كلها من المصطلحات الشائعة في كتب "علوم القرآن" و"أصول الفقه" ولكل منها رسمه وتعريفه فليرجع من أراد الإطلاع على تعريفات هذه المصطلحات إلى تلك المظان.

العربيّة كانت نجوم القرآن تنزل عليها لمعالجة أزماتها وتحويلها إلى الإسلام. فالنزل القرآني يأتي بعد أن تقوم الأزمة في البيئة، وتصوغ البيئة السؤال وتنتظر الوحي.

معالج الأزمات :

أمّا في العصور التالية لعصر التنزيل -على المتلقى الأول (عليه الصلاة والسلام)- فإنّ القرآن -كلّه- موجود، وعلى البيئة ذات الأزمة -أية بيئة- أن تصوغ أزماتها في شكل أسئلة محدّدة وتنتجه إلى القرآن المجيد بما ضارعة مفتقرة، وتطرح بين يديه وتثوره -كما يقول ابن عباس- مرّة بعد مرّة لتحصل منه على الجواب الشافي. فقد يقودها القرآن إلى الكامن فيه، والمضمّر في ثنايا نصّه، وقد يقودها باتجاه التاريخ تستنطقه، وإلى نماذج الأمم السابقة تسألها عن أخبارها، والأشباه والنظائر لتحلّلها وتستخرج دلالاتها، ويظلّ آخذًا بزمامها بهدى واستناره في رحاب الكون كله، طاوياً المسافات -كلّها- حتى يمنحها حلولها، وينهي مشاكلها، فهو رائد لا يكذب أهله، وقائد لا يخذل جنده، وهاد لا تلتبس عليه السبل.

كيف اكتشف العلماء "الوحدة البنائية" للقرآن؟

حين ننظر في تصنيف أجيال هذه الأمة فمن الممكن أن نعتبر الجيل الأول -الذي عاصر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وتلمذ على يديه "جيل التلقي المباشر". فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يتلقى القرآن من لدن حكيم خبير، وعنه -صلى الله عليه وآله وسلم- يتلقى الصحابة الكرام، ومنهم كتّاب الوحي وآل البيت وأمّهات المؤمنين وسائر المؤمنين.

أمّا الجيل الثاني فقد كان "جيل الرواية" حيث انتهى عصر النصّ بوفاته -صلى الله عليه وآله وسلم- وكمل الدين، وتمت كلمة ربك، وتوقف الوحي، وختمت النبوة، فكانت الروايات تنقل عن الجيل الأول للبناء عليها في الأجيال التالية، واستمرت كذلك ليتسلم الراية "جيل الفقه" من التابعين وأتباع التابعين والأجيال التالية لهم.

آيات الأحكام:

وفي هذا الجيل الثالث -جيل الفقه- انتشر تصوُّر بأنَّ أهم مقاصد القرآن وأغراضه هو بيان الأحكام الشرعيَّة. ومع صحة ذلك من بعض الوجوه إلَّا أنَّ الأحكام -وحدها- لا تمثِّل إلاَّ واحدًا من مقاصد القرآن وأهدافه، هناك مقاصد وأهداف أخرى خفت عنها الأضواء؛ لأنَّها سلَّطت -بجملتها- على الأحكام. فبرز جانب من الدراسات القرآنيَّة عرف بـ "أحكام القرآن" حيث كتب الإمام الشافعي في ذلك، وجمع البيهقي ما كتب في كتاب مطبوع عرف بـ "أحكام القرآن" للشافعي. ونحا نحوه الرازي الجصاص وابن العربي وابن فورك والقرطبي وغيرهم. وهؤلاء حصروا آيات الأحكام بعدد محدد تراوح بين أربعين ومائتي آية إلى خمسمائة آية تم توزيعها بين "العقيدة والشرعية من المعاملات والعبادات والعقوبات وأحكام النكاح والطلاق" وما إليها. فذكروا أنَّ آيات الأحكام تقرب من خمسمائة لا تتجاوزها، وبعضهم جعلها أقل من ذلك؛ ففي العبادات بأنواعها ذكروا "أربعين ومائة آية"، وفي قضايا الأسرة من نكاح وطلاق وإرث ووصية وحجر ذكروا "سبعين آية"، وفيما يتعلق بالقضايا المدنيَّة من بيع وإجارة ورهن وشراكة وتجارة ومدانة ذكروا "سبعين آية"، وفي الجنايات والعقوبات والحدود ذكروا "ثلاثين آية"، وفي القضاء والشهادة وما يتعلق بما يسمى -اليوم- بأصول المرافعات حصروا نحوًا من "عشرين آية"²⁸. وقد اتبعوا طرقًا ومناهج مختلفة في اعتبار الآيات من آيات الأحكام أو ليست كذلك، ولذلك اختلفت أرقام هذه الآيات قلة وكثرة -عندهم- لكن الجامع المشترك بينهم جميعًا هو النظر في الآيات التي يعدونها من آيات الأحكام نظرًا جزئيًّا ومباشرًا، فهي آية منفردة، وأحيانًا جزء من آية قد يقطع من سياقه ليؤخذ أو يستنبط منه الحكم وفقًا لقواعد ذلك القائم بالتفسير، أو قواعد إمامه إن كان من المجتهدين في المذهب أو المقلِّدين.

متى وكيف برزت بذور القول "بالوحدة البنائية"؟:

²⁸ راجع: علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الإسلامي، عبد الوهاب خلاف، ص293، 294. تاريخ الفقه الإسلامي، محمد يوسف موسى، ص11. وقارن: تاريخ التشريع، محمد الخضري، ص27 وما بعدها. ويمكن مراجعة كتب (أحكام القرآن) وكتب (أحاديث الأحكام) نحو: منتقى الأخبار، ابن تيمية الجد. بلوغ المرام، ابن حجر العسقلاني ونحوها. وهدفنا هنا الإشارة إلى بروز ذلك الاتجاه.

ولذلك فإنَّه من الصعب أن نجد مفهوم "الوحدة البنائية" في الإطار الذي نقدمه دائراً على ألسنة المتقدمين؛ فـ "جيل التلقي" من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شغل بالتلقي والتطبيق، وهيمن ذلك على مجمل نشاط ذلك الجيل. كما أنَّ إيمانهم بتحدي القرآن المجيد، وظهور استحالة الإتيان بمثله، أو بعشر سور مفتريات من مثل سوره، أو بسورة من مثله - كان من المسلّمات البديهية -، فلم تبرز الحاجة في ذلك الجيل إلى النظر العقلي والفلسفي الذي لم يكن قد ولد - بعد - في الساحة الفكرية الإسلامية في قضية "التحدي" وحقيقته وعلام يعكس، ولم يظهر البحث الفلسفي والبلاغي في الأوجه التي لم تعط للبشر فرصة الاستجابة لذلك التحدي، أو أوجدت فيهم العجز عن الاستجابة، فتلك أمور قد تأخر ظهورها والبحث فيها إلى القرن الثالث الهجري وما تلاه.

أمّا "جيل الرواية" الذي تسلّم الراية من "جيل التلقي" فقد استغرقه البحث عن الروايات وتتبّعها وجمعها، فذلك هو التحدي الأكبر الذي واجه ذلك الجيل، وهو تحدّ لم يكن أقل خطورة من تحدي جمع الأُمَّة - كلّها - على مصحف واحد إمام. ذلك لأنّ القرآن المجيد كان مدوّناً محفوظاً في الصدور والسطور وسائر الوسائل المتاحة التي سخرها منزل القرآن الذي تكفّل بحفظه من بين يديه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته. كما تكفل بإقراءه لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإقراره في صدره فلا يُنسى ولا يضيع ولا يُحترق. كما تكفّل بجمعه وقرآنه. وليس كذلك المرويات والسنن والآثار التي لم يدون منها في العهد النبويّ إلا القليل النادر، وكان تدويناً فرديّاً لم يخضع لمثل القواعد المنهجية التي خضع تدوين القرآن وجمعه لها، ذلك لأنّ المفروض فيها أن تدور حول القرآن دوران العلة والمعلول، والبيان والمبيّن، فيحفظ ما اتّصل بالقرآن منها، ويهيمن القرآن عليها، فلا تستقل عنه، ولا تنفصل عن مداره. ومع ذلك فقد استغرقت العمليّات المشار إليها ذلك الجيل "جيل الرواية" بحيث انصرفت جهوده إلى جمع الروايات وتدوينها وتمحيصها وتصنيفها وجعلها ميسرة لجيل الفقه وجيل النقد والميز والتحليل بعد ذلك.

أمّا "جيل الفقه" فقد انشغل بإنتاج الفقه، وتقييد أصوله للاستجابة لمستجدات الحياة المتسارعة، وإعطاء الأحكام المناسبة للنوازل والوقائع لئلا تبقى واقعة من الوقائع دون حكم فقهي مكتسب ومستفاد من الأدلة الشرعيّة التفصيليّة.

كما أنّ -هناك- من انشغل فيما عرف -آنذاك- بـ "الفقه الأكبر" الشامل لأصول الدين (علم الكلام) و(أصول الفقه) إضافة إلى (الفقه) ذاته.

لأنّ الفكر الفلسفيّ والمستجدات بدأت تفرض نفسها وتستدعي البحث والدراسة والتحديد، وجُلّ تلك البحوث كانت تستدعي النظر في الدليل الجزئيّ التفصيليّ، لا في القرآن -كلّه- باعتباره مصدرًا منشأً بكلّيته ودليلاً كلياً. ولم يكن خافياً أنّ أهم طرائق ووسائل النظر فيه هي تلك التي ترد الجزئيّ إلى الكلّي، وتنظر في الكلّي نظراً مفاهيمياً وتحليلياً لتحقيق الاستفادة القصوى منه. ثم تربط ذلك ببيان السنّة وتطبيقاتها، وبالكون وسننه انطلاقاً من منهجيّة "الجمع بين القراءتين"²⁹ لكنّ الوعي بهذا لم يأخذ حظه من التفعيل في تلك المرحلة، ثم تنبه العقل المسلم -بعد ذلك- إلى أنّ تفعيل هذه الرؤية أساس لا يستغنى عنه في فهم القرآن وحسن تفسيره، ودقة تأويله. ويتناول "الجمع بين القراءتين" الجمع بين القرآن والسنّة الثابتة من ناحية، ثم بينهما وبين الكون من ناحية أخرى. وأنّ هذه الوحدة البنائيّة خطوة منهجيّة ضروريّة وحلقة من سلسلة من المحدّدات والقواعد المنهجية -التي لو أهملت أو أهمل بعضها فليس من الممكن أن نتلو القرآن حق تلاوته، أو نرتله ترتيله المنشود.

وعن "النظر الفقهيّ" المحدّد شاع وانتشر النظر الجزئيّ في آيات الكتاب الكريم. و"النظر الجزئيّ" لا يمكن أن يؤدي إلى إدراك المناسبات والروابط وشبكات العلاقات بين الكلمات في إطار الآية، ولا بين الآيات في إطار السورة، ولا بين السور في إطار القرآن كلّّه. كما لا يساعد ذلك النوع من النظر على الكشف عن العلاقات بين السور في المحيط القرآنيّ -

²⁹ راجع مدخل "الجمع بين القراءتين".

كلّه- وبالتالي فقد غاب التفكير في "الوحدة البنائية" أو لم تسلط عليها أضواء كافية يمكن أن تلفت الأنظار إليها بمثل القوة التي تلتفت بها إلى الدليل الجزئي المباشر. ويمكن أن يضاف إلى ما تقدم من دوافع "النظر الجزئي" عجلة المفتي ورغبته في الإفتاء فيما يعرض عليه من أسئلة دون تأخير تجعله يسرع إلى الدليل الجزئي، أي الآية التي يراها كافية في تمكينه من الإجابة على السؤال. فإذا فعل فإنه قد لا يلتفت إلى ما لا علاقة مباشرة له بموضوع السؤال. لذلك فإنه حين جاء لبحث "الدلالات" فإنه لم يضع شيئاً يشير إلى ضرورة النظر في سائر آيات الكتاب الكريم، بل حصر ذلك في أحوال "النص المفرد" فبحث الخاص والعام، والمطلق والمقيد، واللفظ الموضوع لمعنى واحد أو متعدد، والأمر والنهي، وصيغ العموم وصيغ الخصوص، ومقتضى اللفظ والمفهوم، والمشارك والمؤول، والنص والظاهر والمفسر، والدال بالعبارة والدال بالإشارة، والدال باقتضاء النص، وكذلك المفاهيم - مفاهيم الموافقة والمخالفة، والشرط والغاية³⁰ وكل هذه مباحث تتعلق بالألفاظ المنفردة، أو دلالاتها وسائر العوارض الذاتية المتعلقة بها، وهي لا تنبه إلى ضرورة قراءة القرآن كله.

المنطق الأرسطي وآثاره:

ثم جاءت الحدود والتعريفات، ودخل المنطق الأرسطي سائر العلوم والمعارف الإسلامية، بل هيمن عليها إلى أن صار في نظر إمام مثل أبي حامد الغزالي (505 هـ) "معيار العلم" و"القسطاس المستقيم"³¹ وبذلك صار من يريد تصور شيء فإنه يكفيه "الحد المنطقي" المؤلف من جنس وفصل. ومن أعياء الوصول إلى ذلك الحد فيكفيه "الرسم" أي أن يعرف بالفصول أو بالجنس والفصل البعيد أو الخاص. وقد عدت الحدود المنطقية مفسرات للماهيات والأجناس، خصوصاً الأجناس العالية التي عرفت بـ "المقولات". أمّا من أراد التصديق وإقامة الدليل على صحة مدّعا فيكفيه "البرهان"، وما البرهان في نظرهم إلا قياس اقتراني، أو قياس تلازم. و"قياس العكس" عند بعضهم كاف. والقياس الاقتراني له أشكال

³⁰ كل هذه مصطلحات لمباحث أصولية، قد ترد في مباحث "علوم القرآن" في المطولات منها.

³¹ أسماء كتب ألفها أبو حامد في المنطق وبيان محاسنه.

أربعة كل منها منتج. ولقياس التلازم شكلان أو أكثر. وبذلك بدأ الأصوليون والفقهاء يتسابقون لتوظيف هذه الحدود والتعاريف والأقيسة لإثبات أو نفي ما يذهبون إليه، أو يذهب إليه أئمتهم من قضايا فقهية. فيكفي أن تبنى مقدمة شرعية واحدة وتضع بجانبها مقدمة أخرى عقلية أو لغوية أو غيرها لتصل إلى نتيجة تكون "نسبة خبرية" تامة -أي حكمًا فقهيًا ملزمًا. فإذا أردت التدليل على تحريم شراب مّا -مثلاً- فلك أن تقول: هذا شراب يخامر العقل -فهو خمر. وكل ما يخامر العقل فهو حرام - (أي: لأنه خمر). فهذا الشراب حرام.

فالعبرة الأولى مقدمة صغرى، والثانية مقدمة كبرى، والثالثة هي النتيجة، وهذه النتيجة "حكم فقهي" يلتزم به المجتهد ومقلدوه.

ولو عكست فقلت: هذا شراب لا يخامر العقل (مقدمة صغرى)، وكل شراب لا يخامر العقل فهو حلال (مقدمه كبرى)، فهذا الشراب حلال (النتيجة).

وهنا تدخل عمليات عقلية أخرى كالاستقراء والسير والتقسيم أو الحذف والإضافة.

وحين شاع القول بـ "القياس" وبقية الأدلة المختلف فيها كان الأخذ بهذا المنطق من أهم أسباب الاختلاف الفقهي وتكريسه. فأنت تجد في كل قضية فقهية اجتهادية (وهي تريد على 90 بالمئة) من القضايا الفقهية مجتهدًا مستدلًا وآخر معترضًا، مهمة المعارض أن يهدم أدلة المستدل، وعلى المستدل أن يدافع عن أدلته، فإذا لم يتمكن من هدم اعتراضات المعارض وفقًا للقواعد المنطقية وآداب البحث والمناظرة فعليه أن يبحث عن أدلة أخرى يستدل بها على مُدَّعاه. وهكذا، فأين ومتى يمكن الالتفات إلى "الوحدة البنائية" للقرآن المجيد، والناس مستغرقون في التصورات الجزئية، وهذه التصورات هي التي تتحكم في مناهجهم في قراءة القرآن واستنباط الأحكام منه؟!!

فإذا تجاوزنا هذا الفريق من العلماء إلى "المفسرين" الذين كان شغلهم الشاغل هو تفسير القرآن المجيد، فمع أنّ معظمهم يقولون بأنّ القرآن يفسر بعضه بعضًا، وكان من الممكن أن

يقود هذا الخيط الرفيع إلى الكشف عن "الوحدة البنائية" لو جرى الإمساك به، وتتبعه، وتعميق النظر فيه. لكن ما حدث جاوز ذلك، وصار الحديث فيه حديثًا يضاف إلى فضائل القرآن، لا إلى محدّداته المنهاجيّة.

والتفسير في اللغة مصدر "فسّر" مضعّف "فسّر" من باب نصر وضرب، ومصدره "الفسر" بمعنى الإبانة والكشف لمدلّول كلام أو لفظ لكلام آخر - هو أوضح عند السامع. أمّا في الاصطلاح فقد عرّفوا "التفسير" بأنّه "اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها باختصار أو توسع". ولذلك فقد اعتبروا موضوع التفسير "ألفاظ القرآن" من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه. وذلك - كلّ - تكريس للتصورات الجزئية لأنّ الأمر يدور على تفسير ألفاظ القرآن، وذلك يعد من قبيل "دلالة الالتزام" المنطقية العقلية. ولذلك اختلف العلماء في اعتبار التفسير علمًا، واعتبروا وضعه بين العلوم خاصّة "علوم المقاصد" تساهلاً. ليس هذا مما يهمنا هنا؛ لكن ما نوّد بيانه: أنّه وإن كان الانشغال بالتفسير قد يؤدي إلى تكوين ملكة لدى المفسّر يدرك صاحبها بها أساليب القرآن ودقائق نظمه، لكنّه رغم ذلك لم يؤد إلى الكشف عن "الوحدة البنائية" للقرآن المجيد؛ وذلك لتحديد موضوعه في تفسير الألفاظ، والبحث عن الأحكام.

علمًا بأنّ التفسير يعد أول العلوم الإسلامية ظهورًا؛ إذ ظهر الخوض فيه في عصر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ كان بعض الصحابة يسألون عن بعض معاني القرآن فيحییهم (عليه الصلاة والسلام). واشتهر من قراء الصحابة في تناول التفسير علي بن أبي طالب وابن عباس - رضي الله عنهم - وهما من المكثرين من التفسير، يليهم زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهم -. وحين دخل في الإسلام أقوام من غير العرب، ومن الذين لم تكن العريّة لسانهم الأصليّ اشتدت الحاجة إلى التفسير لبيان معاني القرآن لهؤلاء. ومع انتشار التفسير وكثرة المفسرين، وتنوّع التفسير بعد ذلك إلى أنواع ليكون تفسيرًا بالأثر، وتفسيرًا عقليًا، ثم ظهر التفسير الإشاري. إلا أنّنا لا نجد حديثًا يذكر عن "الوحدة البنائية" أو يتداول في مدارس التفسير. ومنها مدارس "التفسير الموضوعي" حيث عني الفقهاء بجمع وتحديد آيات الأحكام المتعلقة بقضية محدّدة أو موضوع

واحد، لكن لم يلفت ذلك الأنظار إلى الروابط المتينة بين ذلك الموضوع وآيات وسور الكتاب الكريم الأخرى. كما أنَّ تفسير القرآن بالقرآن لم يؤد إلى بروز "نظرية الوحدة البنائية" مع أنَّه منهج في التفسير الذي بدأه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في نحو ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: "لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾ (الأنعام: 82) شق ذلك على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وقالوا: أئنا لم يلبس إيمانه بظلم! فقال: ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13)³². وأخرج البخاري "أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فسَّر مفاتيح الغيب في قوله (تعالى): ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ (الأنعام: 59) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): "مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: 34)³³. ولو أنَّ هذا المنهج النبويَّ ساد وانتشر، وتبنَّاه جيل الرواية وجيل الفقه لبرزت «الوحدة البنائية»، وحظيت بالاهتمام اللازم منذ تلك العصور.

تأثير أهل الكتاب:

كما أنَّنا لا نستطيع أن نغفل دور بعض أهل الكتاب في ذلك حيث تواصلوا على إظهار الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ليقيموا الدليل على موضوعيتهم وعدم تحيزهم ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: 85)، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيَتْهُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا...﴾ (المائدة: 41)، وقد تجاوب معهم تلامذتهم المشركون الذين قال (تعالى) فيهم: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ *

³² رواه البخاري في استنباط المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين، رقم: 6538، ومسلم في الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم: 124.

³³ رواه البخاري في تفسير القرآن، باب ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، رقم: 4351.

فَوَرَّبَكَ لَسَّائِلَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿الحجر: 91-93﴾ فالمقتسمون هم الذين تقاسموا وتحالفوا على الصد عن سبيل الله، والصد عن تمكين الناس من الاستماع إلى القرآن واللغو فيه، وتقاسموا شعب مكة ليصدوا من يريد لقاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الوفود، وتحالفوا على الكيد لرسول الله، وجعلوا القرآن عضين أي مفرقًا، فقالوا عن بعضه: كهانة، وعن بعض آخر أساطير الأولين. إلى غير ذلك مما وصفوه به. وقيل: معنى "عضين" ما قاله (تعالى): ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: 85) خلاف من قال فيه ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ (آل عمران: 119). قال الراغب: وعِضُونَ: جمع عضة، كقولهم: ثُبُون وظيفون في جمع ثُبَّة وظيف. ومن هذا الأصل العُضْو، العِضْو، والتعضية: تجزئة الأعضاء. وقد عضَّيته قال الكسائي: هو من العضو أو من العضة، وهي شجر. قال: وأصل عِضَّة في لغة عِضَّة لقولهم: عُضِيهَة، وعِضْوَة في لغة: لقولهم: عضوان، وروى: "لا تعضية في الميراث" أي لا يفرق ما كان من تفريقه ضرر على الورثة: كسيف يكسر نصفين، ونحو ذلك³⁴. فهذا الذم الشديد للتعضية واعتبارها سلوكًا لبعض أهل الكتاب وللمشركين، أو منهجًا من مناهجهم في التعامل مع القرآن كان كافيًا في الدفع إلى اكتشاف منهج لقراءته واحدًا غير معضّى، واكتشاف أنه يتمتع بـ "وحدة بنائية" تشكّل منهجًا أساسًا لقراءته وفهمه، لكن طريقة المفسرين جعلت أنظار القارئ تتجه إلى فهم التعضية بتلك الصورة التي لم تساعد على الكشف عن "الوحدة البنائية" للقرآن المجيد.

البلاغيون وأصحاب التفسير البياني:

من الواضح أننا لم نجد ضالتنا في الكشف عن "الوحدة البنائية" لدى الفقهاء، ولا عند الأصوليين وعلماء الكلام، كما لم نجد شيئًا من ذلك عند جمهرة المفسرين بالرغم من وجود مؤشرات قرآنية، وموجهات نبوية إليها. ولكننا سنجد بذورها وبراعمها الأولى لدى

³⁴ انظر المفردات، مادة (عضة). راجع أيضا: لسان العرب وتهذيب اللغة (عضو). والحديث وارد في: النهاية، ابن الأثير الجزري 256/3. غريب الحديث، 7/2. رواه عن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا. وورد في: كنز العمال، التقي الهندي 9/11. وقارن: تفسير ابن كثير 558/2.

البلاغيين، وأصحاب البيان الذين التقطوا تلك الموجهات القرآنية، والأضواء النبوية، وإشارات وأفهام بعض الصحابة لينوا عليها "نظرية النظم" و"فلسفة التحدي" والعجز عن الاستجابة إليه. وستتبع تلك الولادة العسرة "النظرية الوحدة البنائية" والنشأة البطيئة المتثاقلة لها في كنف "نظرية النظم" و"فلسفة التحدي" والعجز عن الاستجابة إليه، و"النظر الموضوعي" و"فقه اللغة" و"فلسفة النحو" و"دلائل الإعجاز" وخواص القرآن ومزاياه. فتلك التخصصات أو الأقسام هي التي تحتضن بذور "الوحدة البنائية" وتأخذ بيد الباحث إليها³⁵.

أما كتب التفسير فهي ذات مشارب مختلفة – كما تقدّم، فمنها ما يشبع القول في مسائل الأحكام والقضايا الفقهية، ومنها ما ينشغل في الدقائق الكلامية، ومنها ما يفيض القول في شؤون البلاغة والبيان والبديع وقضايا النحو واللغات، ومنها الصوفي المنحي في فهم الدقائق وفهم الإشارات، ومنها التفاسير العقلية والتفاسير المذهبية... إلى غير ذلك من ألوان وأنواع. لكنّها – جميعاً – لا يجد الباحث – فيما اطلعنا عليه منها – ضالته في بيان "الوحدة البنائية" نظرية ومحدّداً منهاجياً أو يساعده على انعكاسات هذه الوحدة على الجوانب المعرفية المختلفة. لذلك وجدني مضطراً للتركيز على تفسير القرآن بالقرآن أتمسها فيه، ثم تفسير القرآن بالسنة – وهو قليل – لعلي أجد بعض بذورها فيه، ثم التفسير البياني والتفسير الموضوعي بحثاً عن أصول لنظرية "الوحدة البنائية".

لقد بحثت عن جذور هذه النظرية عند ابن عباس وأمير المؤمنين علي وغيرهما من قرّاء الصحابة فكنت أحس بها وأشعر بوجودها في العقول والقلوب، ولكن لم تجر بها الألسنة، ولم

³⁵ نظرية النظم "من أهم النظريات التي فسّر المتقدمون بها "عجز البشر وغيرهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن. وقد اختلفوا في بيان المراد بها بعد اتفاقهم – جميعاً – على أنّ "إعجاز النظم القرآني" من أهم وجوه الإعجاز أن لم يكن أهمها باطلاق. وهي نظرية تلتقي عندها علوم اللغة بسائر فروعها، وعلم الكلام كذلك. بحيث صار للأشاعرة ومن إليهم تصور خاص "النظرية النظم" يقابله تصور آخر للمعتزلة، ومن وافقهم. وسنبحث تفاصيل هذه النظرية، وما دار حولها في الحلقة الخاصة بالإعجاز من هذه السلسلة. ومن أراد أن يجعل معرفتها فليرجع إلى كتابي الجرحاني "دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة" وكتاب الباقلاني: "إعجاز القرآن" والجزء السادس عشر من كتاب القاضي عبد الجبار "المغني في أبواب العدل والتوحيد" وكتاب مصطفى صادق الرافعي "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" وكتاب شوقي ضيف "البلاغة تطور وتاريخ" كتاب أخينا محمد جابر العلواني "نظرية النظم"، وكتاب أحمد أبو زيد "مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن"، وكتابه الآخر "المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن".

تتحرك بها الأفلام. ثم تخلّيت عن المصطلح وقلت في نفسي: إنّ جيل التلقي جيل فطريّ مطبوع، كان يعرب سليقة قبل أن يُخلق النحاة ويؤسّسوا قواعد النحو، وأدركوا حجم التحدي الذي قام القرآن به، ولا بد أنّهم فكروا في كل ما يمكن افتراضه وقوله في تفرد القرآن وعجزهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور أو بسورة واحدة، وتحديه للإنس والجن معاً في أن يفعلوا فلم يفعلوا ولن يفعلوا، أفلا تصلح "الوحدة البنائية" أن تكون وجهًا من هذه الوجوه التي في القرآن، تنبئ عن تفردّه، وتندرج تحت ما جرى التحدي فيه؟! فلم لم تُذكر، ولم لم يتحدثوا عنها؟ لكن ذلك شأن المطبوعين الذين تنشأ القواعد والقوانين والنظريات بعد أجيالهم. فهم لا يشعرون بالحاجة إلى ذلك لوجود السليقة التي يغلب أن تجعل إدراك ذلك أقرب إلى الإدراك الوجدانيّ، تتذوقه، ولا تشعر بالدافع إلى شرحه لسواك، وإلا فإننا حين نحلل ما قاله الوليد بن المغيرة المخزومي في القرآن -وكان مشركًا- نستطيع أن ندرك بدون كبير جهد حسّه البلاغيّ بالقرآن، لكنّه لم يستخدم أي مصطلح من تلك المصطلحات التي أنشأها البلاغيّون فيما بعد.

قال المغيرة في القرآن وقد أَرادَهُ أبو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنّه منكر له، وأنّه كاره له، بعد أن علم أنّه تحرى استماعه من محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وأعجب به، قال له الوليد: "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه ولا بقصيده منّي، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنّه ليعلو وما يعلى". وفي رواية: "وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق" وقال لأبي جهل: دعني حتى أفكر. فلما فكر قال: "هذا سحر يؤثر، يآثره من غيره". فنزلت فيه الآيات: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهْدُتٌ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (المدثر: 11-30)³⁶ والتي لم يهنأ الوليد بعد نزولها بشيء حتى مات.

³⁶ من حديث ابن عباس، أخرجه الحاكم عنه بإسناد صحيح على شرط البخاري. وانظر: الوحي المحمدي، رشيد رضا، ص108.

فالوليد -هنا- كان ناقدًا أدبيًا وهو يقارن بين أسلوب القرآن وسائر أساليب الكلام الأخرى بما في ذلك "شعر الجن"!! كما قال، لكنّه حين قال: "إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ" بعد ضغط أبي جهل ووثنيته وتقاليده عليه كان إيديولوجيا -كما نقول اليوم- متطرفًا، وكان يدرك أنّه غير صادق فيما قال. فالعرب قد عرفت الكثير من أوصاف الكلام؛ نثرًا ونظمًا وشعرًا وسجعًا، وهو دليل على إدراكها لمزايا الكلام وعيوبه، و"الوحدة البنائية" من أهم محاسن الكلام ومزاياءه، فلا تغلق على وجدانهم ولا تغيب، وهي إن غابت عن البعض فلن تغيب عن الكل، وإن لم يصرحوا بها .

يقول الجاحظ: "وكلام الناس في طبقات، كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكلّه عربيّ، وبكل قد تكلموا وبكل قد تمارحوا وتعايوا. فإن زعم زاعم أنّه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلمّ ذكروا العي والبكيء، والخصر والمفحم، والخطل والمسهب، والمتشدد والمتفيهق، والمهماز والثرثار، والمكثار والهماء، ولمّ ذكروا الهجر والهذر، والهديان والتخليط، وقالوا: رجل تلفاعة وتلهاعة، وفلان يتلهيع في خطبه، وقالوا: يخطئ في جوابه، ويحيل في كلامه، ويناقض في خبره، ولولا أنّ هذه الأمور قد تكون في بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء".³⁷

ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أفصح من نطق بالضاد نهي عن بعض أنواع الكلام، وحذّر من بعض أساليبه، فروي عنه قوله: "وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون"³⁸ وروي عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- قوله لمن خاطبه

³⁷ راجع: البيان والتبيين، الجاحظ 1/133.

³⁸ رواه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم: 2018، وأحمد في مسند الشاميين من حديث أبي ثعلبة الخشني، رقم: 17278.

بسجع: "أسجع كسجع الجاهليّة"³⁹. وفي الوقت نفسه نرى عدي بن حاتم يظن أنه (تعالى) عنى بقوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: 187) أنها الخيوط المعروفة في صناعة الثياب وما إليها حتى بيّن له رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن المراد سواد الليل وبياض النهار⁴⁰. ولقد كانت وحدة المبنى أو "الوحدة البنائية" للكلام مع تعدّد الأغراض وتنوع المخاطبين واختلاف أزمנתهم وأماكنهم قمة مطمح البلغاء، وميدان تنافس الفصحاء. ولذلك كان تأكيد نحو ابن عباس وابن الخطاب وعلي -رضي الله عنهم- وغيرهم على اللجوء إلى لسان العرب ولغاتهم وشعرهم لفهم ألفاظ القرآن طلباً له وجاهته. لكنهم كانوا يدركون أن لسان العرب يقف عند تفسير اللفظ -وحده- أمّا المعاني والفوائد الجمّة التي تستفاد من تراكيب الألفاظ وسياقها فلعلها الفهم الذي عناه أمير المؤمنين عليّ -رضي الله عنه وأرضاه- بقوله: "أو فهمًا"⁴¹ ولذلك فإن من جاء بعد جيل التلقي من أهل جيل الرواية سرعان ما اكتشفوا قواعد "البيان" وما يتحلى القرآن المجيد به منها، وأدركوا البذور الأولى لـ "نظرية النظم" و"التفسير الموضوعي" الذي برز حين بدأ النظر فيه على أيدي الفقهاء الذين حدّدوا أعداد آيات الأحكام بخمسمائة أو نحوها وبأحاديث الأحكام نحو ذلك⁴²، فقال بعضهم: هي بعدد آيات الأحكام. وقال عبد

³⁹ رواه النسائي في القسام، باب صفة شبه العمدة وعلى من دية الأجنة وشبهه، رقم: 4823، ولفظ "سجع كسجع الأعراب" رواه مسلم في القسام والمخاريج والقصص والديات، باب دية الجنين ووجوب الدية في القتل الخطأ، رقم: 1682، وأحمد في مسند الكوفيين من حديث المغيرة بن شعبة، رقم: 17712.

⁴⁰ رواه البخاري في تفسير القرآن، باب قوله (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ)، رقم: 4240.

⁴¹ في إشارة إلى الحديث الوارد عند البخاري في الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم: 2882، ونصه: "عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر".

⁴² ينظر -مثلاً- كتاب عمدة الأحكام في أحاديث خير الأنام للإمام المقدسي حيث بلغ تعداد الأحاديث الواردة فيه أربعمئة وثلاثين حديثاً اقتصر فيها على الوارد في الصحيحين.

الله بن المبارك: هي تسعمائة. وقال بعضهم: هي ألف ومائة حديث⁴³. ومهما يكن فإننا لا نستهدف هنا تحديد العدد الدقيق، ولا مناقشة الفكرة ذاتها — وإن كان لنا عليها ملاحظات — لأنَّ هَمَّنا — هنا — منصرف إلى التدليل على ولادة فكرة "البحث الموضوعي" في القرآن تفسيراً أو أحكاماً. ولنا أن نتوقع ما يمكن أن يؤدي إليه ظهور هذه الفكرة من تداعيات. فإنَّ كثيراً من الأفكار الهامّة تبرز — في بعض الأحيان — في إطار أفكار أخرى وبذورها قد تنبت في غراس تلك الأفكار.

وأما "النظم" الذي تبلور حتى صار "نظريّة" هامّة فيما بعد فإنَّ بذوره الأولى تبدو في إطار البحث في تأثير القرآن بالذين آمنوا به، أو أولئك الذين صدّهم عن الإيمان به ما كانوا يدعون من دون الله. فقول الوليد بن المغيرة المخزومي آنف الذكر، وقصة إسلام عمر بعد استماعه وقراءته لبعض الآيات، وقصة أبي سفيان والأحنس بن شريق وأبي جهل وكيف كانوا يتسللون تحت جناح الظلام، وكل منهم يحسب أنَّه وحده، ليستمعوا إلى قراءة أبي بكر للقرآن. واتفاق قريش على الحيلولة بين الناس وبين الاستماع لآي القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 26) وتأثيره فيمن استمع إليه من الجن. كل تلك الأمور المستفيضة يمكن أن تملأ مجلدات حيث لم يخل عصر من العصور أو جيل من الأجيال من وقائع وأحداث ترتبط بتأثير القرآن في سامعيه وقارئيه تأثيراً لم تعرف البشريّة ما يقاربه منذ بدء الخليقة. ولا شك أنَّ هذا التأثير لم يحدث عن حروف مقطعة، أو كلمات مفردة منفصلة⁴⁴، بل عن آيات منتظمة كانت تنزل نجومًا بحيث يُضَمَّ النجم إلى النجم لتشكّل السورة. فالتأثير الحاصل يتأتى من ذلك التناسق والنظام الرابط للآيات الكريمة، فتبدو — آنذاك — فصاحة الكلمات، وبلاغة الآيات، ودقة المناسبات،

⁴³ بلغ تعداد أحاديث كتاب منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لابن تيمية الجد 3955 حديثاً، وقد شرح الإمام الشوكاني هذه المجموعة من الأحاديث في كتابه المشهور نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار.

⁴⁴ يقول عبد القاهر الجرجاني: "... فقد اتضح اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ، ولا من حيث هي كلم مفرد... دلائل الإعجاز، ص 50. ولم يوضح لنا ابن العربي من أراد بذلك العالم وربما أراد نفسه، ولم نطلع على ما كتبه حول سورة البقرة لنقارن بينه وبين جهد دراز.

وروعة النظم التي تبهر البلغاء وتحدى الفصحاء. لكن ذلك التأثير لم يعبر عنه جيل التلقي بما عرف -بعد ذلك- من أوصاف تتحدث عن النظم والتناسب ووحدّة الموضوع أو وحدة السورة وما إليها بحيث تشكل نظريّات علميّة في فهم القرآن، وحسن إدراك مقاصده ومغازيه أو تنتج على الفور علومًا بلاغيّة مثل المعاني والبيان والبديع ونحوها.

وحدة السورة:

يقول ابن العربي: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متّسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلمّا لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطّلة، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه".⁴⁵

ويقول الإمام الرازي: "...من تأمل في لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو -أيضًا- معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته..."⁴⁶ ويقول الإمام -أيضًا-: "...أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط..."

ومع ذلك فإنّ العقول تتفاوت في مواقفها واستنتاجاتها، وبعض الناس أشدّ إحساسًا بهذه الأمور الدقيقة من البعض الآخر، وأسرع في التفتُّن لها، والكشف عنها. كما أنّ الإنسان مخلوق تؤثر في حركته "الدواعي والصوارف" فحملات الطعن على القرآن والاعتراض عليه التي واجهه بعض أهل الشرك بما كانت من الدوافع للبحث الدقيق في دفاعات القرآن، عن نفسه، والكشف عن سائر مطاعن أهل الشرك فيه ودحضها وتقنيدها لإثبات سلامة النظم

⁴⁵ عن: أسرار ترتيب القرآن، ص39، 40. وراجع: إعجاز النظم القرآني، التناسب البياني، أحمد أبو زيد، ص6، منشورات كلية الآداب في الرباط، 1992. والإتقان، السيوطي 108/2.

⁴⁶ للإمام الرازي كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" تبّى فيه "نظرية النظم" ومع ذلك فإنه سار فيه على نهجه في كتبه الأخرى التي ألف أن يستعين فيها بالمنطق والطرق الفلسفية والتفريع على أصول المسائل والاستطراد الكثير. فلم يلتفت بقدر كاف إلى ما يتعلق بجمال النص وروعة النظم، وإعجاز أساليب التعبير، وهو جوهر قضية النظم. وكذلك فعل في تفسيره حيث رأيناه يتجه الوجهة ذاتها.

القرآني وتنزّهه عن الاختلاف والتناقض والخلل. ليثمر البحث في سلامة النظم، ودقة التناسب، ووحدة الموضوعات، واتجاهات الأفكار نحو "الوحدة البنائية" بحيث يقول ابن العربي في القرن الخامس: "...ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم..." كما ذكرنا آنفًا.

في الوقت نفسه نجد نماذج أخرى من العلماء تكونت لديهم الصوراف عن النظر في "وحدة القرآن" بل وحدة السورة الواحدة فنفوها عقلاً ووقوعاً... فالعز بن عبد السلام يتطرق لذلك ويتبنّى موقف النافين فيقول: "...علم حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد، مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك، يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه. فإنّ القرآن قد نزل في ثيِّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض".⁴⁷

ويأتي الدكتور محمد عبد الله دراز بعد العز بقرون كالمعتذر عنه ليعين: أنّ هناك ما قد يسوغ ما ذهب إليه نحو العز من نفي "الوحدة البنائية"، فيعرض -رحمه الله- الأسباب التي اجتمعت على القرآن بحيث كان يمكن أن تجعل نظم السورة القرآنية مفككاً أو غير مترابط بشكل يسمح بالقول "بوحدة السورة"، فضلاً عن القول "بالوحدة البنائية" على مستوى القرآن، فذكر ثلاثة أسباب هي:

1. أنّ القرآن بما امتاز به أسلوبه من اجتناب سبل الإطالة، والتزام جانب الإيجاز صار أسرع الكلام تنقلاً بين شؤون القول؛ فهو ينتقل من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل إلى ضروب شتى من فنون الكلام، وهذا أمر يجعل الحفاظ على تناسب المعاني وتلازمها أمراً عسيراً.
2. أنّ القرآن لم يكن ينزل بهذه المعاني جملة واحدة، بل كان ينزل بها آحاداً متفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة المتنوعة، وهذا الانفصال الزماني بينها،

⁴⁷ الإتيان، السيوطي، 108/2 ولابن عاشور تحفظ قريب من هذا راجعه في المقدمة الثانية (27/1).

والاختلاف الذاتي بين دواعيها كان بطبيعته مستتبعا لانفصال الحديث عنها على ضروب من الاستقلال لا يدع منزعا للترابط والوحدة.

3. هو تلك الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السورة من تلك النجوم.

ومع ذكره -رحمه الله- لهذه الأسباب الثلاثة المنافية للوحدة، أو المانعة من القول بها فإنه قد عقيب عليه بقوله: "... لو عمدنا إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد -وما أكثرها- وتتبعناها مرحلة مرحلة، وتدبرناها كيف بدئت وكيف ختمت، كيف تقابلت أوضاعها وتعادلت، وكيف تلاقت أركانها وتعانقت... لو تدبرنا ذلك لوجدنا ائتلافاً وتناسباً بين المعاني والمباني، ولبدت لنا السورة وكأنها نزلت في نجم واحد"⁴⁸. فأنت تراه مع ملاحظته لما يصلح اعتراضاً مستدلاً عليه من النافين إلا أن النتيجة التي بلغها كانت مغايرة. ثم بين لنا التناسب والترابط والائتلاف في أطول سور القرآن وأكثرها نجومًا، وأغناها تنوعاً في الموضوعات -وهي سورة البقرة.

ثم يعزز ما قرره في ذلك الفصل القيم من كتابه بما نقله عن الأئمة أبي بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن العربي، وأبي إسحاق الشاطبي، وبرهان الدين البقاعي بقوله: "إنَّ السورة وإن تعددت قضاياها في كلام واحد يتعلّق آخره بأوله وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنما لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية" - يريد القضية المنطقية، وهي عبارة عن جملة واحدة.

⁴⁸ راجع: النبأ العظيم، عبد الله دراز، فصل: القرآن في سورة سورة منه - الكثرة والوحدة، ص 142-163. وقد قدم -رحمه الله- في هذا الفصل منهجاً للكشف عن وحدة السورة قدم به لدراسته للوحدة البنائية في السورة التي اختارها نموذجاً تطبيقياً كشف به عن الوحدة في سورة البقرة. وراجع مقارناً: التناسب البياني في القرآن، د. أحمد أبو زيد، ص 49-51 لتجد قراءة د. أبو زيد لجهود د. دراز وتلخيصه لمنهجه التطبيقية كما برز في سورة البقرة.

ولنعد للتدليل على ما بدأناه من التوكيد على أنَّ "الوحدة البنائية" ليست مزية تتحلى بها كل سورة لوحدها وبحسبها فقط، بل هي قضية قائمة بالقرآن كله. فالقرآن -كله- كالكلمة الواحدة، والجملة الواحدة. في كل سورة وأجزائه، يتسع حتى يصبح كونًا يعادل الكون -كله- بل يستوعبه ويضمّه تحت جناحيه، ويدق حتى تراه كأنّه كلمة واحدة لكنّها عين جارية لا تتوقف ولا تغيض ولا تغور ولا تنضب في المعاني التي تشتمل عليها، والصور الرائعة المثيرة التي ترسمها في ذهن السامع، والآثار الهامة التي تتركها في نفسه.

لقد كان السلف الذين نزل فيهم القرآن الكريم عرب الألسن، يعرفون حق المعرفة الطاقات اللغوية للسانهم، ويعرفون حدودها معرفة سحرة فرعون لحدود سحرهم وطاقاتهم فيه، والمدى الذي يمكن أن يبلغوه، ولذلك كان السحرة أول المؤمنين لأنّهم أدركوا أنّ ما تحداهم موسى -عليه السلام- به يتجاوز كل مستويات السحر التي عرفوها، وبالتالي فليس هو بسحر وما ينبغي أن يكون سحرًا. وكذلك الحال بالنسبة للقرآن الكريم وبلاغته وفصاحته وسلامته نظمه.

لقد كان أبناء الجيل الأول -جيل التلقي- كثيرًا ما يرجعون إلى شعر العرب ونثرهم في الجاهلية وفي صدر الإسلام فيستأنسون به في فهم بعض الكلمات والأساليب القرآنية، ولكنّهم كانوا يدركون في الوقت نفسه الفروق الشاسعة بين لسان القرآن واللسان العربيّ، وهناك العديد من الشواهد البيانية التي أثرت عن أمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين علي وابن عباس -رضي الله عنهم- وغيرهم حفلت بها كتب كثيرة، منها (الكتاب) لسيبويه (180هـ)، و(الخصائص) لابن جني (392هـ)، و(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) للجرجاني (471هـ) ونحوها، وكلها تدلّ على مدى إدراكهم للبيان الشاسع بين أرقى ما في اللسان العربيّ من مستويات البلاغة والفصاحة والنظم وبين لسان القرآن.

عصر التدوين ونظرية النظم:

حتى إذا جاء عصر التدوين وبدأت المعارف والعلوم تتمايز إذا بنا نجد همًّا عالية كثيرة قد انصرفت إلى القرآن المجيد متجاوزة فنون التفسير، وضروب التأويل، وقضايا الأحكام،

ومسائل القراءات إلى بيان القضايا البيانية، والمحسّنات البديعية، وضروب المعاني، والقواعد اللغوية، والمسائل النحوية، فكانت هذه المعارف والعلوم من القرآن الكريم تصدر، وإليه تعود. وقد كتب أبو عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) كتابه الشهير (مجاز القرآن) في مجموعة مؤلفات أخرى هامة، لكن (المجاز) بقي أهمها وأشهرها. وأبو عبيدة لم يعن بالمجاز قسيم الحقيقة، بل عنى به الآية التي يجتاز أو يتجاوز ما دلت عليه بصريح لفظها فيغيّره إلى معنى لم يدل اللفظ عليه مباشرة ولأول وهلة، بل جرى العبور به أو منه إلى سواه بعد التأمل في العبارة، وربما دراستها وتحليلها - كما نقول اليوم- وبذلك وضع أبو عبيدة اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية القرآنية⁴⁹. وإذا كان مجاز أبي عبيدة لم يكن كافياً لولادة نظرية "الوحدة البنائية" فإنّ ما قدمه قد أثار قضايا بقيت تتطور حتى جاء عبد القاهر الجرجاني ليبلور "نظرية النظم". من منطلقات فكرية أشعرية.

صحيح أنّ الكاتبين في تاريخ العلوم القرآنية اعتبروا الجاحظ مؤسساً للدراسات الخاصة بنظم القرآن، لكن من بلورها وبنى عليها كان عبد القاهر الجرجاني. فالجاحظ (255هـ) قد خص القرآن المجيد بمؤلفات هامة أهمها كتاباه (نظم القرآن) و(آي القرآن) وكلا الكتابين مفقودان، لم يعثر عليهما، لكنّه لحفاوته بهما قد أورد كثيراً من نصوصهما المقتبسة في كتبه الباقية. وذكر الأول في رسالة منه إلى الفتح بن خاقان (528هـ) حيث قال: "فكتبت لك كتاباً أجهدت نفسي، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج بالقرآن، والرد على الطغيان. فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا حشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ولا لمن نجم بعد النظام ممن يزعم أنّ القرآن حق وليس تأليفه بحجة، وأنّه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة، فلما ظننت أنّي بلغت أقصى محبتك، وأتيت على معنى صفتك، أتاني كتابك يذكر أنّك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن... وكانت مسألتك مبهمة..."⁵⁰.

⁴⁹ انظر: خطوات التفسير البياني، د. محمد رجب البيومي.

⁵⁰ انظر: رسائل الجاحظ، ص148.

وقد عظم ابن الخياط في (الانتصار) للمعتزلة شأن كتب الجاحظ، وفي مقدمتها ذكر (نظم القرآن) فقال: "...ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في... نظم القرآن علم أن له في الإسلام غناءً عظيمًا لم يكن الله (عز وجل) ليضيعه عليه، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ". وإشارات ابن الخياط تنبه إلى أن الكتاب في الإعجاز القرآني، أو أن الإعجاز بعض متناولاته، وجزء من قضاياه. ولعل الجاحظ في هذا الكتاب قد ربط الإعجاز بالنظم وبخصائص بيانية أخرى يقف النظم في مقدمتها. وفي كتب الجاحظ المتداولة المطبوعة (البيان والتبيين) و(الحيوان) و(الرسائل) الكثير من النصوص المنقولة عن كتبه المفقودة أو المنبهة لبعض ما فيها من حديث عن نظم القرآن، وآي القرآن، وألفاظ القرآن، وفصاحة كلمات القرآن، وبلاغة الكلام، وأسرار أساليب التعبير القرآني من الحذف والذكر، والإيجاز والإطناب، وجمال التصوير، وحسن التشبيه، والكنيات، والاستعارات. وقد تحدث عن ألفاظ القرآن وثرأ معانيها ومناسبتها لتلك المعاني حديثًا يجعلك تتصور الكلمة كائنًا حيًا ذا نفس سائلة بحيث يمكن أن يوصف بالخفة والثقل، والسمو والهبوط، والرقى والنزول، فيقول: "...وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها؛ ألا ترى أن الله (تبارك وتعالى) لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موقع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ الغيث في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعًا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال...".⁵¹

الألفاظ والمعاني:

⁵¹ راجع: البيان والتبيين، الجاحظ، 33/1. ويعتبر الجاحظ مؤسس "نظرية النظم" وفقاً لأصول المعتزلة. ومذهبهم في صفة الكلام. والجمع بين مذهب الفريقين الأشاعرة والمعتزلة في "مآل النظرية"، وما يستفاد بها ليس بالأمر المتعذر.

وإذا كانت الكلمة تصلح في مكان فقد تفسد في مكان آخر. وقد تدل على معان مشتركة في موقع لتدل على معنى واحد في موقع آخر. وقد تكون في أصل الوضع اللغوي لا تدل على معنى مفرد، فيراد لها أن تدل على معان عديدة. والكلمة في تعبير ما تساعد في رسم صورة بياض معيّنة، وهي في تعبير آخر تشارك في رسم لوحة مغايرة، وهي في موضع تبدو غنيّة بالمعاني، وفي موضع آخر تبدو فقيرة متواضعة تعطي المعنى الواحد والمعنيين. ولذلك كانت العرب تتبارى في التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ المحدودة المعدودة، فكثرة معاني اللفظ وتنوع دلالاته في الميدان الواحد ميدان بلاغة وفصاحة تشرّب إليه أعناق البلغاء وعقول الفصحاء. فاختيار الخطيب أو الشاعر لألفاظ ذات دلالات واسعة بحيث تكون بمثابة دار عامرة فيها غرف مبنية وفضاء وفناء ومرافق ومنافع يتفيؤ القارئ ظلّالها، ويستمتع بكل جوانبها — هو أمر في غاية الأهمية لوصف الكلام "بالبلغ المحكم". وقابليّة الألفاظ لذلك تكون أحياناً بطبيعة الوضع اللغوي كما في الألفاظ التي عرفت بـ (المشتركة)، وأحياناً بطبيعة النظم والتركيب والسياق، أو الهيئة التي ركب الكلام عليها. فالمعاني أعم من أن تكون الدلالة عليها بالبناء اللفظي وحده، أو أن تكون مفهومة بالفحوى، والمفهوم بأنواعه، أو مما يستلزمه اللفظ ويستدعيه بطريقة عقلية، أو يرمز إليه رمزاً، ويشير إليه إشارة بلحن الخطاب وإشارته انطلاقاً من المفردات أو من التركيب أو السياق أو الأسلوب.

وأياً ما يكون الأمر فإنّ قدرة المتكلم على إثراء معاني أقواله يتوقف على قدرة فائقة على اختيار الألفاظ، ومهارة في تركيب الجمل، وبناء الأساليب، ودربة كبيرة على صياغة التراكيب، وحسن شفاف بالتناسب، وملكة في حسن التنسيق بين الجمل ونظمها، وعلم بما يريد إيصاله إلى المخاطب، ووعي بالأفكار التي يهدف إقرارها في نفسه، والصور التي يريد رسمها في ذهنه، والدواعي والدوافع التي يريد غرسها في عقله ووجدانه. فلا غرابة أن يقول (تبارك وتعالى) في كتابه العزيز: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1-2).

وقد خصّ ابن قتيبة ذلك في كتابه القيم (تأويل مشكل القرآن) بجملة فصول كرّسها لبيان مزايا مفردات القرآن؛ ففي (باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة) تناول ألفاظ: الأُمَّة،

والدين، والعهد، والهدى، والضلال، والظلم... ومفاهيم قرآنية كثيرة أخرى تناولها فيما يزيد عن خمسة وأربعين صفحة كانت بمثابة مشروع معجم لمفاهيم القرآن أو مصطلحاته أو مفرداته. وقد يكون الراغب الأصفهاني الذي جاء بعده بما يزيد عن قرنين من الزمن قد استفاد فكرة كتابه الفريد (المفردات) من فعل ابن قتيبة ذلك. ولكن ابن قتيبة وأستاذه الجاحظ، وأستاذ الجاحظ النظام كان قصارى جهودهم أن يثبتوا أن القرآن المجيد نزل بأساليب العرب، وحاكى أوجه كلامهم وإعرابهم عما يريدونه، وتفوق عليها وجاوزها بمراحل. ويمكننا القول بأننا إذ نسلم بأن القرآن جاء بأساليب العرب في كلامها، لكنه قد استوعب تلك الأساليب وتجاوزها - فالممؤه من المعادن بالذهب، أو بماء الذهب قد يبدو للجاهل بالصنعة ذهباً، لكنه لدى الفحص يتبين ما هو ذهب حقيقي، وما هو معدن آخر ممؤه بالذهب.

"ولقد كتب الجاحظ عن نظم القرآن ما جعله موضوعاً لقضية الإعجاز. واقتفاه أبو بكر بن أبي داود السجستاني، وأبو زيد المبلجي (322هـ) وأبو بكر بن الإخشيد (326هـ) وكل هؤلاء قد تحدثوا عن هذه القضية - قضية الإعجاز في كتب حملت عنوان "نظم القرآن"، وهو العنوان الذي أسس له الجاحظ. حتى جاء أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (306هـ) فعالج هذه المسألة تحت عنوان: "إعجاز القرآن" ومنذ ذلك الحين وأكثر المؤلفين في هذا الموضوع جعلوا عنوانهم المفضل "إعجاز القرآن" فقد ارتضاه الرماني (386هـ) والخطابي (388هـ) والباقلاني (403هـ) وكثير غيرهم⁵².

الوحدة البنائية ونظرية النظم عند الجرجاني:

عبد القاهر الجرجاني يعدّ المتربع على القمة في الدراسات البلاغية من غير منازع. ومنذ بدأنا دراساتنا النقليّة في مدارس المساجد واسما عبد القاهر الجرجاني والبلاغة يستدعي كل منهما الآخر، كما يستدعي المنطق اسم أرسطو، واسم أرسطو المنطق، وكما يستدعي اسم الإمام الشافعي أصول الفقه، واسم الأصول اسم الشافعي. ودراسات الجرجاني دراسات عالم

⁵² خطوات التفسير البياني، مصدر سابق، ص 124.

متكلم أشعري فيلسوف نحويّ، وبتلك العقلية اكتشف أنّ "علم النحو" قد انحرف المشتغلون به حين قصرُوا دوره على أواخر الكلام، وجعلوا موضوعه ذلك -وحده. في حين أنّ عبد القاهر كان يرى أنّ مهمة "علم النحو" الأولى أن يؤدي بمن يمهّر فيه إلى المعرفة الصحيحة بتركيب الجمل، وبناء أساليب الكلام، وترابط المعاني. وأنّ فائدته الأساس تبرز في تمكين الكاتب من الإتيان بالتعبير المحكم المتناسك من غير ضعف أو تفكّك، وأنّ العناية بأواخر الكلم وضبطها بالإعراب والبناء بأنواعهما هي وسيلة من الوسائل الهامة لتحقيق ذلك⁵³.

لكن الأصل هو أن يكون النحو وسيلة للكشف عن إعجاز النظم القرآنيّ، ذلك أنّ عبد القاهر قد قام باستقراء لكل ما كان معروفاً في عصره من وجوه أو دلائل -كما سماها- تصلح أن تكون موضع "الإعجاز" في القرآن، فذكر كل وجه يحتمل أن يكون له دور في الإعجاز، وناقشه وعقّب عليه ليمارس عملية "سبر وتقسيم" في تلك الدلائل، "فبدأ يتساءل عن الكلمات المفردة في القرآن - هل يكمن فيها سر الإعجاز؟"⁵⁴ ثم حذف ذلك بعد أن قرّر أنّ الكلمات ملك مشاع للناس كافة، لا يعجز أحد عن أن يأتي بمثلها، فمن المحال أن تكون هذه الكلمات المفردات موضع السرّ لهذا الإعجاز⁵⁵.

ثم انتقل إلى تركيب الحركات والسكنات في الجمل القرآنية، ونفى أن يكون لذلك أثر كبير في هذا الإعجاز.⁵⁶ وقد سخر الجرجاني سخرية مرّة ممن قال ذلك. وإذ قال فيمن جعل المفردات مجال الإعجاز: "فلو كان هناك شيء أبعد من المحال لكانت هذه الكلمات بمعانيها موضع السرّ لهذا الإعجاز...". وقد كانت سخريته أكبر وأمرّ فيمن رأى أنّ سرّ

⁵³ راجع مقدمة: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني. وقد أكد على أن "النظم" ليس سوى تعليق الكلم ببعضها، ثم شرح ذلك بإسهاب ودلّل عليه. فتنظير النظم عنده قائمة علم النحو، منبثقة عنه.

⁵⁴ خطوات التفسير البياني، مصدر سابق، ص 206.

⁵⁵ انظر مناقشته لشبهات من جعلوا الفصاحة للألفاظ: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص 299 وما بعدها. وقارن بتحليله الدقيق لدور المفردات في ص 33 وفي ص 341.

⁵⁶ المرجع نفسه: ص 21 وما بعدها.

الإعجاز يكمن في الحركات والسكنات، فقد قال فيمن جعل سرّ الإعجاز في الحركات والسكنات في الجمل القرآنيّة: "إنّ مسيلمة وغيره قد تعاطوا ذلك في بعض ما عارضوا به القرآن فما انتهوا إلى شيء...".⁵⁷

ثم تناول المقاطع والفواصل في الآيات، فبيّن أنّ الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد قدر العرب على روائع القصيد دون أن يستطيعوا الإتيان بسورة من مثل القرآن. فإذا لم تكن الفواصل والمقاطع سرّ الإعجاز فلن تكون أيضًا الاستعارة والمجاز؛ لأنّ الاستعارة لا تشمل جميع الآيات، والقرآن معجز جميعه. ثم بلغ غايته حين بلغ مرحلة القول بـ "النظم" وكاد يحصر سرّ الإعجاز فيه، قال: "وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها... وجدت المعول على أنّ ههنا نظمًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصياغة وتصوّرًا، ونسجًا وتحبيرًا".⁵⁸

والرجل لا يترك الأمر عائمًا، بل يبيّن لنا مراده بـ "النظم" بشكل دقيق: "ثبت الآن أن لا شك ولا مزيّة في أن ليس النظم شيئًا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم. ثبت من ذلك أنّ طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنّها معدنه ومعانه، وموضعه ومكانه، وأنّه لا مستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها - غارّ نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخدع، وأنّه إن أبى أن يكون فيها كان قد أبى أن يكون القرآن معجزًا بنظمه، ولزمه أن يثبت شيئًا آخر يكون معجزًا به، وأن يلحق بأصحاب "الصّرفة"، فيدفع الإعجاز من أصله".⁵⁹

⁵⁷ المرجع نفسه: ص 39-44.

⁵⁸ المرجع نفسه: ص 25. والمراد "بالصّرفة" أنّ الله - تعالى - صرف العرب عن معارضة القرآن الكريم ولازم هذا القول: أنّ المعارضة ممكنة لولا هذا الصرف الإلهي عنها.

⁵⁹ المرجع نفسه: ص 333.

لقد حمل الجرجاني -بشدة- على أولئك الذين اهتموا بالألفاظ ونسبوا الإعجاز إليها في مواضع كثيرة من كتابه. فـ "الألفاظ عنده خدَم المعاني، وتابعة لها، ولا حقة بها. وأنَّ العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"⁶⁰. فالألفاظ لا تتفاضل - من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمات مفردة- لأنَّ التفاضل من حيِّز المعاني، دون الألفاظ. وألَّها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل روئيتك، وتراجع عقلك، وتستجد في الجملة فهمك⁶¹.

ويزيد في بيان مراده بـ "النظم" فيقول: "لما كانت المعاني إنما تتبيَّن بالألفاظ وكان لا سبيل للمرَّتَّب لها، الجامع شملها إلى أن يعلمك ما صنع في ترتيبها بفكره إلا بترتيب الألفاظ في نطقه - تجوَّزوا فكُنُوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، ثم بالألفاظ بحذف الترتيب، ثم أتبعوا ذلك من الوصف والنعته ما أبان الغرض، وكشف عن المراد، كقولهم: (لفظ متمكَّن) يريدون: أنَّه بموافقة معناه لمعنى ما يليه (صار) كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن إليه. و(لفظ قلق ناب) يريدون: أنَّ معناه غير موافق لما يليه (فصار) كالحاصل في مكان لا يصلح له، فهو لا يستطيع الطمأنينة فيه، إلى سائر ما يجيء صفة في صفة اللفظ" وساق هناك أمثلة ونماذج كثيرة، وتحليلاً وافياً لدقائق بلاغية رائعة⁶².

مسيرة النظم والوحدة البنائية:

لقد كان المفهوم العام لدلالة "النظم القرآني" على الإعجاز في الأجيال الأولى التي منَّ الله (تعالى) عليها بأن تكون في جيل التلقي، ثم جيل الرواية معنى قائماً في العقول والقلوب والنفوس - لم يتداول بحيث يتم إنضاجه، ووضعه في إطار المصطلحات والمفاهيم الفنية- شأنه شأن سائر الأمور المعرفية الكبرى- حتى جاء الجاحظ ليقع على مفهوم "النظم" ويكتب

⁶⁰ المرجع نفسه: ص38.

⁶¹ المرجع نفسه: ص43.

⁶² المصدر نفسه: ص43.

رسالة في "النظم القرآني" لم تصل إلينا، ولكن ضمن بعض كتبه الأخرى المتداولة شذرات منها، وبعض الإشارات إليها، وتتابع بعد ذلك الجهود لتبدو ناضجة سوية على عهد عبد القاهر في كتابيه التأسيسيين: الدلائل والأسرار. وإذا كان عبد القاهر لم ينص على مفهوم "الوحدة البنائية" فإن جهوده في بناء "نظرية النظم" قد شقت الطريق إليها، وأعطى كثيراً من الدلائل الدالة عليها، وقدم المعالم الموصلة إليها، ولحكمة الرجل وبُعد نظره أطلق على كتابه المفصّل لنظرية النظم اسم (دلائل الإعجاز) - فهي في نظره "دلائل" على أوجه الإعجاز - كما أكّد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور⁶³.

فإذا تابعنا المسيرة نجد أنّ أبا علي الفارسي (377هـ) من بعد الجرجاني يعبر عن ذلك المعنى -الوحدة البنائية- بشكل صريح صراحة ابن العربي في قوله آنف الذكر. ففي (مغني اللبيب) لابن هشام (761هـ) في مباحث (لا) أورد قول الشاعر:

أبي جوده لا البخل واستعجلت به نعم من فتى لا يمنع الجود قائله.

شاهدًا، وذكر أقوال العلماء في تفسير البيت، وأقوالهم في كلمة (لا) فيه، فنقل فيما نقل قول أبي علي الفارسي في كتابه (الحجة في القراءات) نقلًا عن أبي الحسن الأخفش قوله: فسّره العرب (أي البيت): أبي جوده البخل، وجعلوا "لا" حشواً. نقله عن الأخفش. ثم قال الشارح: وكما اختلف في "لا" في هذا البيت: أنافية أم زائدة، كذلك اختلف فيها في مواضع من التنزيل، أحدها قوله (تعالى): ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة: 1) ف قيل: هي نافية، واختلف في منفيها على قولين: أحدهما أنّه شيء تقدم -وهو ما حكى عنهم كثيراً من إنكار البعث، ف قيل لهم: ليس الأمر كذلك، ثم استؤنف القسم؛ قالوا: وإنما صح ذلك لأنّ القرآن - كله - كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، نحو: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: 6) وجوابه: ﴿مَا أَنْتَ

⁶³ انظر التفسير ورجاله،: محمد الطاهر بن عاشور، ص 49. وكون المحاظ من المعتزلة لا يقلل من أهمية جهوده وريادتها في هذا المجال. حتى وإن استهدف بذلك الانتصار لمذهبه الكلامي. وكون عبد القاهر من الأشاعرة وأنّه أراد بذلك الانتصار لمذهبهم لا يقلل من أهميته إبداعه في هذا المجال. وكل منهما قد شيد جانباً من جوانب النظرية أو أخذ بوحدة من عضّادتي الباب.

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» (القلم:2). وبعد أن فرغ من ذلك عاد لتوكيد ما نقله عن أبي علي الفارسي من أنَّ القرآن كالسورة الواحدة⁶⁴.

والذي يهمننا من هذا النقل المطوَّل نسبياً أنَّ "وحدة القرآن البنائية" وأَنَّهُ -كَلَّة- كالسورة الواحدة كانت أمراً معروفاً ومتداولاً في القرن الخامس الهجري، وأَنَّها كانت بحيث يستفاد بها في التفسير والتأويل، وتوجيه بعض النصوص. وأنَّ الحديث عنها لا ينحصر في دائرة بيان فضائل القرآن فحسب. بل هي مدخل منهجي في التفسير والتأويل، وتوجيه النصوص التي تثار حولها إشكالات لغويّة ونحويّة. علماً بأنَّ هذا المنهج القائم على النظر إلى القرآن في وحدته هو ما علَّمنا إياه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من كل ما أثير من أسئلة واستشكالات في عهده، والتي عرفت بعد ذلك بـ "تفسير القرآن بالقرآن".

وعلم القرآن -مثل غيرها من علومنا ومعارفنا الإسلاميّة- أصابها التوقف بعد تلك المرحلة. فلم تأخذ مدياتها واستمراريتها التي كان من الممكن أن تمنحها الامتداد والتوسع، واستيعاب العصور اللاحقة كما استوعبت ما سبقها. و"الوحدة البنائية" للقرآن الجيد لو أتيح لها من يبلورها في تلك المرحلة، وما يمكن أن تنعكس عليه من أمور لفتحت من العلم الإسلامي أبواباً كثيرة، وعادت عليه وعلى علوم القرآن -خاصّة- بفوائد منهجية جليّة، ولحسمت كثيراً من الغبش الذي دار حول التنزيل، وأصلحت كثيراً من الخلل. فما يستقيم مع القول بالوحدة البنائية التسليم بأيّ نوع من أنواع «النسخ» المدّعاة لمناقضته للوحدة البنائية. ولا يقبل القول بوجود أو جواز وقوع تعارض عقليّ أو واقعي بين نصوص الوحي بحيث تستدعي استخدام أسلحة الترجيح. ولما كانت علوم التفسير واتجاهاته أخذت الأشكال التي ورثناها على ما فيها. ولما أصاب العقل المسلم الكسل عن التدبُّر والتعقُّل والتفكُّر والترتيل والتلاوة -حق التلاوة، ولما سقط في دركات الهجر للقرآن ليشابه أولئك الذين حُمِّلوا التوراة فلم يحملوها حقَّ حملها، ولأدرك أنَّه قد حمل القرآن، وأَنَّهُ مسؤول عن حسن عمله، والتمسُّك به. وقدَّر

⁶⁴ راجع: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، وحاشيته للشيخ الأمير، 185/1. وقد مرَّ كيف علمهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا المنهج في القراءة، فتأمل!!! هذا وقد مرت إشارتنا إلى تحفظ العز بن عبد السلام، وابن عاشور.

الله وما شاء فعل، والعلم أرزاق للأجيال مقدرة كالأقوات ينزلها الله (تعالى) للبشر بقدر.
وإذا لم يلتفت إلى فعل من أنزل القرآن عليه، ويتشبه به بحيث يسود سائر المناهج فما
بالك في العصور التالية؟!

علمونا بعد القرن الخامس الهجري:

إنَّ نهاية القرن الخامس الهجري قد آذنت بانحدار العلوم العربيَّة والدراسات الإسلاميَّة إلى درك التقليد والترديد. فاختفت لوامع الابتكار، وتوقفت بوارق الإبداع، وأفلت شمس الاجتهاد، وصار قصارى جهد الخالف أن يعيد ويردد ما تركه السالف.

إنَّ «نظرية الوحدة البنائية» نظريَّة لا تقل أهميَّة وخطورة عن «نظرية النظم»، وهما: أعني «نظرية الوحدة البنائية، ونظرية النظم» يشكّلان حجر الزاوية في المنظومة الداخليَّة التي أودعها الله هذا الكتاب لحفظه وجمعه من داخل، وعصمته من أي تغيير أو تحريف أو إضاعة أو نسيان . وأمَّا الوسائل الخارجيَّة من حفظ في الصدور وفي السطور وكتابة وما إليها فإنَّها وسائل معضدة معززة تقدم مزيدًا من وسائل «الحفظ» والتوثيق.

وقد انفرد القرآن المجيد من بين سائر الكتب المنزلة بهذه الخصوصية، فالكتب السابقة استحفظ عليها أهلها من ربانيين وأحبار بعد أنبيائها: ﴿يَمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾ (المائدة: 44) فما حفظوها حق حفظها. فدخلها التحريف والحذف والإضافات، واعتزتها عوامل الضياع والزيادة والنقصان مع أنَّها كانت حين أنزلت هدى ونور وفيها حكم الله (تعالى). ربما كان ذلك لاختصاصها بمن أنزلت إليهم ولتتابع النبؤات، واختلف الأمر بالنسبة للقرآن فهو رسالة الله إلى العالم كلّه، وبه ختمت الرسائل فلا كتاب بعده ينزل، ورسول الله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ختمت النبوة -كلّها- فلا نبي بعده.

وقد يكون ذلك لأنَّه الكتاب الوحيد الذي ضم بين دفتيه رسالة الله (تعالى) إلى البشريَّة كافَّة وفي إطارها الكامل من لدن آدم ونوح وإبراهيم -حتى محمد- عليهم الصلاة والسلام. فكان مصدقًا وكان مهيمنًا، وكان معصومًا بحفظ إلهي. من داخله ومن خارجه. كما أنَّ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد حفظ ليؤدي رسالته كاملة فلم يتعرَّض لما تعرَّض له العديد

من الأنبياء الذين قتلوا أو صلبوا، فالله (سبحانه) وعده بعصمته من الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: 67). فصدق الله وعده وعصمه (تبارك وتعالى)؛ فما أكثر ما تعرض أعداء الله إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ليقتلوه أو ينالوا منه ففشلوا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: 30). وقد قاد -صلى الله عليه وآله وسلم- 35 خمسا وثلاثين غزوة، كان في سائرهما أهم أهداف المشركين، فما استطاعوا الوصول إلى هدفهم منه للغرض نفسه مع أنهم في "أُحُدٍ" خاصة بذلوا كل ما يستطيعون لبلوغ هدفهم فيه، فما أمكنهم أكثر من إصابته ببعض الجروح وكسروا رباعيته الشريفة -صلى الله عليه وآله وسلم- مع أن أصحابه قد انكشفوا عنه، وظن بعضهم أنه قتل!! ذلك هو الحفظ الإلهي. وما أكثر محاولات الاغتيال التي تعرض لها!! وكل ذلك قد عصم منه ليطم -صلى الله عليه وآله وسلم- مهمته في تلقي القرآن الحكيم، وتبليغ آياته، وإتمام رسالته، وإتباع ما أنزل إليه من وحي حتى تمامه بإكمال الدين، وترك الناس على المحجة البيضاء، وترك هذا القرآن فيهم نبيا دائما ورسولا مقيما إلى يوم الدين.

آثار "الوحدة البنائية":

للوحدة البنائية باعتبارها محددًا منهاجياً من محددات «منهجية القرآن» آثار على جانب كبير من الأهمية على سائر العلوم والمعارف العقلية، وحين يجرى توظيفها بشكل منهجي دقيق فإنها سوف تقدم للمنشغلين بهذه العلوم والمعارف وسيلة من أكثر الوسائل فاعلية في مراجعة ونقد التراث الإسلامي كله وفي مقدمتها ما يعرف «بعلوم المقاصد» وهي التوحيد، أو الكلام، والتفسير، وأصول الفقه، وعلوم الحديث، والفقه.

وفي هذه الفقرة من البحث سنحاول تقديم أمثلة ونماذج وجيزة تمثل إشارات لتلك المراجعات القائمة على إدراك «الوحدة البنائية» لعلها تكون معالم تعين الباحثين على مواصلة تلك المراجعات لتنقية التراث وتصحيح المسار.

التوحيد و"الوحدة البنائية":

علم التوحيد الذي صار يعرف بـ«علم الكلام» كانت مهمته الأولى أن يهتم ببيان حقائق الإيمان - كما جاء القرآن المجيد بها- وأركانه ودقائقه وكيف يجمع بين الإيمان والعمل، وتعليم المؤمن كيف يصون هذا الإيمان، ويجعله راسخًا يقينًا على الدوام ويقوم على أساس منه متين تصوره بسائر مقومات الإيمان وخصائصه، ويؤسس على قواعد الإيمان «رؤيته الكلية» و"فرقانه": ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: 29) فالإيمان هو القاعدة والمنطلق الذي يفرق به بين الخير والشر والحق والباطل في كل شأن.

كما يفترض بهذا العلم أن يحرس أركان العقيدة القرآنية من أن يتسرب إليها ما ليس منها من تراث الأوائل أو ما إليه فتتحول إلى إطار مفتوح يدخله اليقيني، وما ليس بيقيني فتخفت أنوارها، ويضعف تأثيرها، وتفقد فاعليتها. ذلك لأنَّ للعقيدة الفاعلة المؤثرة خصائص عديدة، في مقدمتها أن تكون أركانها قطعية لا يتطرق الظن أو الاحتمال إلى شيء منها، وأن تكون محدودة جدًا وواضحة جدًا. وفي متناول الجميع مهما اختلفت مستوياتهم وقدراتهم على الاستيعاب. وفي الوقت نفسه لابد لها أن تكون عامة شاملة قادرة على الإجابة على جميع الأسئلة أو ما يطلق عليها «الأسئلة النهائية»⁶⁵ أو ما أطلق عليه الفلاسفة الأوائل «العقدة الكبرى»؛ ذلك لأنَّ الإجابات الشافية عن هذه الأسئلة هي التي تحرر وجدان الإنسان وعقله ونفسه من سائر أنواع الحيرة والضغط التي تعيق حركته، وتقيّد إرادته، وتشل فاعليته وتجعله تائهاً في غابات متشابكة من الأفكار والرؤى، والمعضلات والتفسيرات.

⁶⁵ تطلق "الأسئلة النهائية" على مجموعة من التساؤلات الإنسانية- التي تجيب العقيدة عليها، وهي من أنا من أين جئت، وإلى أين أنا ذاهب وماذا بعد؟! وهي أسئلة ناجمة عن قلق تدفع الفطرة الإنسان إليه ليبحث ويأخذ طريقه إلى معرفة خالقه (سبحانه)، وهي ذاتها التي كان الفلاسفة الأوائل يطلقون عليها "العقدة الكبرى".

كما أنَّ من شأن العقيدة الفاعلة أن تقدم حلولاً، لا أن تفرز مشكلات. ولقد كان هذا شأن القرآن حين قدم للبشريَّة الإيمان ودعاها إلى التوحيد. لقد استعمل القرآن المجيد لتأييد دعواه تلك مجموعة من الأدلة التي يفهمها الناس على اختلاف مستوياتهم في الفهم والإدراك والثقافة والخبرة والتجربة وهي أدلة تستفز سائر قوى الوعي والإدراك في الإنسان وفي مقدمتها «دليل الخلق» ثم «دليل العناية» ثم «دليل الإبداع» و«دليل التمانع» وما إلى ذلك من أدلة ترخر آيات الكتاب الكريم بها. وكان القرآن يقدم دعاواه، ويقدم الأدلة على صدقها، ويتحدى المخاطبين أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى أي من هذه الأدلة بمعاول هدم، أو معارضة، أو ممانعة. فإذا فرغ من ذلك، وجرّد معارضيّه من أسلحتهم. ذكر شبهاتهم وحزّرها بأقوى ما عرضت به من أساليب، ثم كر عليها لتفنيدها بأساليب لا تبقى لها أثرًا يذكر؛ بل إنّ طريقة عرضها، ثم تفنيدها تصب على الدوام في صالح القرآن المجيد، لأنّ المعارض ينبر بطريقة القرآن بالإحاطة بكل ما صدر عنه، أو حاك في نفسه، أو زوّره في خاطره، ويأتي جواب القرآن بأساليبه المتنوعة ليجد المعارض نفسه في حالة اندهاش تام، بحيث لا يملك إلا الانقطاع أو الاستسلام أو الانسحاب بهدوء مذموماً مخذولاً. فإذا حاول بعد ذلك أن يداري هزيمته بشكل أو بآخر فإنّه لن يجد إلا الشغب الصريح الذي يتحوّل إلى سلاح ضده لا عليه.

وقد استعرضنا التوحيد حقيقته وتحليلاته المختلفة باختصار في مقصد «التوحيد» باعتباره أعلى القيم القرآنيّة العليا الحاكمة وأساسها. فلما انتهى جيل التلقي، وبدأت نحل ومثل تظهر بأسماء لم يألّفها القوم بعدُ ظنّوها نحلًا جديدة، تطرح شبهات محدثة، وما هي بمحدثة ولكن هذا ما ظنّوه. ولو تدبّر الناس القرآن الكريم لوجدوه قد ناقش ذلك - كله - وفنّده، وقال في سائر تلك النحل بما فيها «النحل المعاصرة» كلمته، وحسم أمرها.

ولكن القوم ظنّوا أنّها لحدثتها تحتاج إلى أساليب وفنون أخرى لمناقشتها وتفنيدها وحماية العقائد الإسلاميّة من أضرارها وأخطارها. فتطور «علم التوحيد القرآنيّ» إلى «علم الكلام» وصار يعنى بالمنطق اليونانيّ ووسائله لبناء التصورات والتصديقات، وطرائقه في إقامة البراهين ويعنى بالفلسفة اليونانيّة كذلك بمدارسها المختلفة ليواجه بها تلك الشبهات فآل «علم

التوحيد» إلى «علم كلام» مهمته إيراد الشبهات المختلفة ومناقشتها بأساليب الفلسفة وطرائق المنطق باعتبار أن الخصم لا يؤمن بالقرآن فلا يمكن إقامة الحجة على الخصم بما لا يؤمن به، ولا يلتزم بمقولاته. ولم يلتفت جُلّ علماء الكلام إلى أن الفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات لم تحسم أيّة قضية من القضايا المثارة. وبقيت تلك المسائل في دائرة الشائيات المتصارعة حتى يومنا هذا.

كما أن فريقاً منهم ظنوا أن الجدل في «قضايا الغيب وعالم الأمر» التي تشكل جوهر القضايا الكلامية قد لا يختلف كثيراً عن الجدل في القضايا الفقهية فلم يجدوا حرجاً في استعمال الأساليب ذاتها في تلك القضايا الخطيرة التي حسمها القرآن كلها وبلغ بها الغاية، وأوصل المهتدين بها إلى الثلج وبرد اليقين. ولعل هؤلاء ومن إليهم هم الذين عناهم الإمام الشافعي -يرحمه الله- بقوله: "لا تتجادلوا في الكلام؛ فإنكم إن تجادلتم في الكلام كفر بعضكم بعضاً، فإن كنتم لابد فاعلين فتجادلوا في الفقه فإن قصارى ما تبلغونه أن يخطئ بعضكم بعضاً".

لكن الكثيرين قد استمرؤوا ذلك الجدل، فإذا بكل تلك اليقينيات القرآنية تصبح مادة جديدة للجدل، دون استثناء، وتحولت موضوعات الفلسفة اليونانية والمقولات الإنسانية المندثرة إلى هذا العلم الجديد، وفي مقدمتها ما يتعلق بالذات الإلهية، والصفات العلية، وحقائق النبوات والجبر والقدر، ومصادر الفعل الإنساني، بل وحقيقة الفعل الإنساني، وما إذا كان فاعله الحقيقي الله، والإنسان مجرد مظهر وشكل يقع الفعل منه ظاهراً، في حين أنه لا فعل له في الحقيقة والواقع أو أنه هو المنشئ لفعله؟.

كما اختلفوا في الأسباب والعلل أي أسباب على سبيل الحقيقة أم هي مجرد أشكال ظاهرة لا تأثير لها والمؤثر الحقيقي يختفي وراءها، وقعوا في الخلط بين المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية، وبين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية. وهكذا فكك علم الكلام الأمة التي بناها القرآن المجيد ليحل منها فرقاً وشيعاً وأحزاباً، واستعملت الأحاديث الموضوعة والضعيفة مثل حديث «افتراق الأمة» للتأصيل لتلك الأحوال الشاذة، فروت الفرق -كلها- حديث افتراق

الأمة وتداولته حتى منحته شهرة لا يستحقها، لأنَّ كل فرقة وجدت فيه ضالتها لتستدل به على أنَّها الفرقة الناجية والأمة كلّها هالكة، والحديث ضعيف لا يمكن العثور له على سند صحيح، ولكن المنشغلين بهذه الأمور أقاموا على ذلك الحديث (الذي لا يصمد له متن ولا سند أمام معاول النقد العلمي الدقيق ووفق قواعد المحدثين أنفسهم) أقاموا علمًا قائمًا بذاته سموه «علم الملل والنحل» مازالت الكليات والجامعات المعنية بالعلوم والمعارف النقلية تقيم له الأقسام، وتمنح دارسيه الذين يتلقونه بالقبول كمن سبقهم شهادات الماجستير والدكتوراه والأستاذية وألقاب الحجة - حجة الإسلام، وآية الله.....و.....و.... وكل قضايا «الكلام والملل والنحل» يقتطع المتناحرون فيها آيات من كتاب الله (تعالى) عن سياقاتها، ويبترونها من نظمها ووحدتها ونسقتها ليجعلوا منها موضع شاهد فقط لما يذهبون إليه، ولا يعدم كل فريق وسيلة لحملها على ما يريد، وتفسيرها بما يجعلها شاهدًا ملائمًا لمذهبه، مؤيدًا لوجهة نظره، وما أنزل القرآن العظيم ليتخذ شواهد لمقولات القائلين، ولذلك شاعت تلك المقولة الخطيرة ورددها المرددون - وهي: «أنَّ القرآن حمّال أوجه» ونسبوا ذلك إلى الإمام عليّ - كرم الله وجهه ورضي عنه - وما كان لمثله أن يقول ذلك،، وعنه روي حديث «القرآن باعتباره المخرج من الفتن» كما أخرجه الترمذي وغيره. كما أشيعت مقولة أخرى، هي: «أنَّ النصوص متناهية والوقائع غير متناهية»⁶⁶ ليسوغوا لأنفسهم وضع مرجعيّات أخرى إلى جانب القرآن المجيد. ففي مجال الكلام أعطوا للمنطق سلطة غير عادية حتى سماه الغزالي «معيّار العلم» و«القسطاس المستقيم»، وصرح بأنَّ من لا يتقنه لا يعتد بعلمومه. والكتابان مطبوعان متداولان.

كل ذلك وكثير غيره - مما يحتاج تتبعه وبيانه إلى دراسات مفردة مستقلة - قد حدث، لأنَّ هذا النوع من المعرفة ما كان ينبغي أن يؤخذ من غير القرآن في وحدته، لا في تعضيته وتقطيعه.

⁶⁶ عبارة شاعت في كتب الأصول، خاصّة في مباحث الاستدلال "الحجّة القياس" وردّدها بعض الكلاميين كذلك. وعلماء الفرق.

فإذا أردنا التخلُّص من بعض هذا التراث المصاب، وتنقية ما يبقى منه، وتطهيره مما علق به، وتخليص العقل المسلم والوجدان المسلم من تلك الآثار الخطيرة فلا نجاة لنا إلا بعرضه كاملاً على القرآن في وحدته البنائية، ومراجعته ونقده والتصديق عليه في نور القرآن المجيد وهدايته. وإعادة بناء التوحيد والإيمان على القرآن، وتأسيس العقيدة على هديه. ويومئذ يفرح المؤمنون بالخروج من حالات التمزق والاحتراب إلى حالة الألفة التي كان القرآن قد أوصلهم إليها ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾ (آل عمران: 103). لقد تفرقت الأمة من بعدما جاءتها البيّنات، وسقطت في أمراض الأمم السابقة. وما كان لذلك أن يحدث وبأيمانها نوران: ذكر وسنة.

هذا الذي أجملاه هناك يمكن لأساتذة وطلبة «علوم العقيدة» وأقسامها أن يفصلوه في بحوث ودراسات تكشف عن تلك الإصابات الخطيرة التي تجعل الباحث يعجب كيف استطاعت هذه الأمة أن تعيش كل هذا الزمن الطويل رغم إصابتها بكل تلك الأمراض الخطيرة؟! إنّه لا يغني عن الأمة شيئاً أن ينشغل أساتذة وطلاب هذه الأقسام بتحقيق المخطوطات، وتوكيد وبعث وإحياء تلك المقولات وهم يعلمون أنّها لو كانت أو كان فيها خير لنهضت بالأمة من قبل، ولما كان حال الأمة هذا الذي هي عليه اليوم. إنّ هذه الأقسام مطالبة أكثر من غيرها بعملات المراجعة لذلك التراث كله وعرضه على هداية القرآن الكريم الموحد للتصديق عليه بالقرآن والهيمنة عليه به، وإنقاذ الأمة وتطهير عقولها وقلوبها من إصاباته.

التفسير و"الوحدة البنائية":

فإذا انتقلنا إلى «التفسير» وما يمكن للوحدة البنائية أن تحدثه فيه، فسنجد أنّها سوف تدخل عليه تغييرات جوهرية. فالتفسير يعد أول المعارف الإسلامية حيث بدأ بعض الصحابة يمارسونه في عهد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد سن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لهم في ذلك حين كان يفسر لهم القرآن بالقرآن ذاته، أو يقوم بتنفيذ وتطبيق ما يوحى إليه لبيّن لهم.

وقد كان ينبغي أن يتخذ ما قدمه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- منهاجاً لا يحيد المفسرون عنه، بل يبنون عليه، وإذا كان لا بد من إضافة شيء فليكن من القرآن ذاته، أو ينبغي أن يربط بالقرآن الكريم ربطاً محكمًا. فسائر القضايا اللغوية كان ينبغي أن يكون الحكم فيها القرآن ذاته ولغته وأساليبه فلا يفسر القرآن بدواوين الجاهلية، ولا بتراث بني إسرائيل، ولا بلغة البدو، بل تكون لغته هي المهيمنة على اللغة العربية، وتكون اللغة العربية تابعة للغته. يبنى لسان القرآن قواعدها كلها انطلاقاً من لغته. ومن الطريف أن نذكر نموذجاً يوضح ما حدث. لقد وضعوا أحكام النحو والتصريف والاشتقاق وغيرها وفقاً للغة العرب، بل إنَّ معاني الكلمات والعبارات قد حددت وفقاً لمراد العرب بها، فهذه الكلمة يحدد معناها العرف القرشي، وتلك يحدد معناها لسان بن تميم وتلك لهجة هذيل ... إلخ. ولو أنَّ لغة القرآن الكريم كانت مثل لغات هذه القبائل مبنى ومعنى، فأين هو الإعجاز؟ ولم انبهروا به، وكيف أدركوا تفوقه وعجزوا عن الاستجابة لتحديهِ المتكرّر؟ إنَّ الاتفاق في المباني، واستيعاب المعاني وتجاوزها، والسموّ بها إلى تلك الآفاق التي جعلت من مفردات القرآن مفاهيم تتجاوز كل ما تعارفوا عليه في لغاتهم ذات المعاني المحدودة محدوديّة آفاق فكر العربي -آنذاك- والبسيطة بساطة حياته وبيئته هي التي جعلتهم يجدون في آيات القرآن أموراً لم يألفوها، ومعاني لم تخطر لهم قبل نزول القرآن على بال، ولذلك قالوا في البداية: إنَّه شعر، ثم قالوا: إنَّه سحر ثم قالوا: إنَّه شيء يفوق طاقاتنا، ويستغرب أن يأتي على لسان واحد منّا فهو إمّا كلام كهان أو سحرة، أو تنزلت به الشياطين... أو أنّها من تعليم بشر من غيرنا... أو...

والله (تبارك وتعالى) قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: 4)، فلو كان القرآن نازلاً بلغات العرب -كما هي حقيقتها- مبنى ومعنى لما احتاجوا إلى بيان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

إنَّ العرب قد رأت في الكتاب الكريم مثل ما رآته في رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فهو منهم يعرفون نسبه وحياته وأسرته وسائر التفاصيل المتعلقة بذلك، ولكن انفصاله عنهم فيما يستحيل عليهم أن ينالوه بكسبهم البشري، وهو النبوة والرسالة وتلقي الوحي عن الله

(تعالى) سبب لهم الصدمة، ودفعهم إلى كل تلك التساؤلات والحيرة حتى أدرك من آمن منهم إمكان ذلك، فأمنوا بأنه بشر رسول. وهكذا صار القرآن بالنسب عربيّ اللُّغة ولكنّه وحي إلهيّ وكلماته تجمع بين سمات اللغة ومضامين الوحي، بل إنّ الوحي قد أعاد إنتاجها - إن صح التعبير - فالكلمة المستعملة فيه لم تعد كلمة قريش أو تميم أو هوازن أو هذيل، بل هي كلمة الله (تعالى). ولذلك فإنّنا نستطيع أن نجد أمثلة كثيرة جدًّا لمفردات استعملها القرآن، وطور معانيها، وفتح الكلمة على آفاق من المعاني ما كانت معروفة أو مستعملة لدى العرب. وهذا لا يعني إحداث قطيعة بين لسان القرآن واللسان العربيّ فالنصّ على عربيّة القرآن لا يحتمل التأويل، إنّ المراد أن يعرف تفوّق لسان القرآن على اللسان العربيّ المألوف كما لا يعني ذلك أن نهمّل سائر المعاني اللُّغوية التي كانت متداولة أو معروفة وقت النزول، بل علينا أن ندرك كيف كانت تلك المعاني بسيطة ساذجة معبرة عن مستوى فكر العربيّ في تلك المرحلة فجاء القرآن ليشحّنها بمعان لم تكن معهودة من قبل، ولا تندرج تلك المعاني تحت الفكر الإنسانيّ وقدراته.

فكل الكلمات الشرعيّة مثل «الإيمان والصلاة والزكاة والصيام والحج، والكفر والشرك والنفاق، وما إليها» كانت لها معان بسيطة في الاستعمال العربي الجاهليّ فقام القرآن بتنقيتها وشحنها بالمعاني التي أراد لها أن تحملها وتشتمل عليها، فتطويع تلك الكلمات لكل تلك المعاني بعض أوجه إعجاز القرآن الكريم.

الحقيقة والمجاز:

ولم تكن قضيّة «الحقيقة والمجاز»، بأن يقال: الإيمان - مثلاً - حقيقة في التصديق، مجاز في كذا حلًّا ملائمًا لهذا الاختلاف ولا القول بأنّها في المعنى الفلاني حقيقة لغويّة، وفي المعنى الفلانيّ حقيقة شرعيّة، فهذا لا يشكل حلًّا لهذا الأمر. بل كانت الكلمة كلمة بسيطة المعنى في استعمال أهلها، فأعطاهم القرآن المعاني التي أراد منّزل القرآن (سبحانه) أن تحملها، وتتسع لها وبالتالي فإنّ الصلة بينها وبين المعنى اللُّغويّ تصبح صلة محكومة بالمعاني القرآنيّة التي حملتها المفردة بعد انضمامها إلى أسرة مفرداته.

الكلمة العربيّة مثل كائن حيّ حين نلاحظه -وحده- فإنّنا نجد بمثابة عضو أو عنصر يبحث عن كيان ينضم إليه، ليكون جسمًا أو معنى أو شيئًا مذكورًا يمكنه أن يؤدي في الحياة دورًا ما. فالحمأ المسنون قبل تسوية الله (تعالى) له، ونفخه فيه من روحه لم يكن شيئًا مذكورًا، لكنّه بعد ذلك صار بشرًا سويًا فالكلمة -بجد ذاتها- بمثابة عضو لا يكتسب صفته ولا يؤدي دوره إلّا إذا انضم إلى الجملة، واتخذ موقعه منها، وبذلك يعرف، وتُحدّد هويّته وفي الاستعمال القرآن تتحول الكلمة إلى مفهوم خالد. وقد حالف البلاغيّين التوفيق حين أطلقوا على أركان الجملة: مسندًا ومسندًا إليه. أما الركن الخفيّ الذي يربط بين المسند والمسند إليه فقد سمّوه بالإسناد؛ والإسناد هو الذي يحمل المسؤولية كاملة عن ضم المسند والمسند إليه في جملة فيحكم عليه أوله، ويحاسب عندما يبدو أيّ عيب من العيوب في الجملة يخل بتركيبها أو بمعناها أو بفصاحتها أو بلاغتها. ويستوعب الإسناد ويتجاوزه في لسان القرآن "النظم".

ويبدو أنّ المناطق لا حظوا ما لاحظته البلاغيّون -أيضًا بطريقتهم-، والتفتوا إليه فأطلقوا على ركني الجملة أو القضية: محكومًا بدلًا من مسند، ومحكومًا عليه بدلًا من مسند إليه وحكم؛ وهو ما يقابل الإسناد عند البلاغيّين، فكلّا الركنين المحكوم والمحكوم عليه خاضعان للحكم، وكل منهما موضع تأثيره.، وهو في الوقت نفسه قائم عليهما.

أمّا آيات القرآن المجيد فهي جمل وعبارات تشكّل نجومًا يمثّل النجم أو الآية منها وحدة صغرى، وحين يتم تسوير مجموعة من النجوم أو الآيات بسور تتكون السورة، وذلك يعني أنّ وحدة كبيرة قد تشكلت من هذه الوحدات الصغرى. والقرآن الذي ضم بين دفتيه تلك الوحدات الكبيرة - السور - يشكل الوحدة الكبرى. والإعجاز القرآنيّ، والسياق والتناسب والترابط، والنظم ووحدة الهدف والمقصد والغاية، ووحدانيّة المخاطب، ووحدانيّة المتلقي ووحدة المخاطب، كل ذلك وكثير غيره يجعل القرآن كلّ كآية واحدة، ويجعل من الآية الواحدة ممثلًا لجملة القرآن المجيد ونموذجًا له، فإذا ذكرت الآية ذكر القرآن، وذكر القرآن يستدعي آياته وسوره والمعاني الغزيرة التي اشتمل القرآن الكريم عليها حتى صار تبيانًا لكل شيء، ومعادلاً للكون وحركته بحيث يستوعب هذه الحركة ويتجاوزها فيمنح الإنسان القدرة «بالجمع بين القراءتين» على الإحاطة بها، واستيعابها وتجاوزها. وهذه الطاقة اللغويّة قد جاءت -والله

أعلم - من ذلك التركيب المعجز، والبناء المحكم للقرآن العزيز بآياته وسوره: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1). ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ.....﴾ (هود:14).

الإمكانات المعجزة للنص:

ولذلك كان القرآن المجيد معبراً عما يقصد ويستهدف بنظمه وأسلوبه وسياقه ومواقع كلماته من آياته، ومواقع آياته من سوره، ومواقع سوره منه، وهكذا يتضافر كله على تحقيق ما هو مطلوب به، ولغة القرآن المجيد وإن كانت عربيّة بيد أنّها فوق أيّ نوع من أنواعها، فالأصوليون والفقهاء تبدّى لهم لغة تشريعيّة. والمفسّرون يرون فيها لغة تأثيريّة وجدانيّة من غير إخلال أو تعارض مع الاتجاه التشريعيّ في لسان القرآن.

واللغويّون يستنبطون منها مناهج عقلية منطقية، ومناهج تأثيريّة وجدانيّة. والبلاغيّون يرون فيها قمة في مراعاة مقتضى الحال، وتقديم الصور الفنيّة البديعيّة المعجزة. والمؤرخون يرون فيها تاريخ الخلق والكون والنبوّات في غاية الأمانة والدقة، مع ملامسة الوجدان بحيث يتمثل التاريخ واقعاً قائماً بأحداثه وأشخاصه ودروسه وعبره. فهو ينقلك من منطق عقليّ حاسم قد يؤدي بك إلى الحكم على تلك الوقائع وأهلها، إلى حكم أو منطق وجدانيّ يهيئك للاعتبار وتلقي الدروس وأمام كل تلك الطاقات الهائلة المتنوعة للغة القرآن وجد المفسرون أنفسهم يبحثون عن نوع من الحماية من تلك الشلالات الهائلة المتدفقة بالمعاني الغزيرة المتنوعة فاتجهوا نحو الكلمات يلتمسون معانيها، ويحتمون بها بدلاً من "السياق والنظم والوحدة" التي تشكل الإطار لتلك الكلمات، وصوروا لأنفسهم أنّ الآيات والجمل والسور كلّها مؤلفة من وحدات بسيطة متعددة هي الكلمات يضم بعضها إلى بعض لتعطي من مجموع معاني المفردات معنى مركّباً. وربما تصورت جمهورهم أنّ الثبات على ذلك والانطلاق من المفردات سوف يؤدي إلى الثبات على ظاهر اللفظ والاحتماء به، وبذلك اتخذوا منه منهجاً لحماية الذات من مغامرة السياحة في محيطات "السياق والنظم والوحدة البنائية". وأنهم بذلك لا يحمون أنفسهم فقط، بل يحمون النص كذلك من أيّة إصابات قد تؤثر فيه تأثيراً سلبياً. وهم

في ذلك متحوّطون. قد يكون من بعض ما استهدفوه غلق المنافذ أمام أولئك الذين يرون أنّ من حق أيّ مقارب للنص مهما كان أن يفهم منه ما يريد، وذلك عبث لا بد من حماية النص القرآنيّ منه، فحماية النص حماية للحياة التي جاء النص ليعطيها مضموناً وهدفاً وغاية. وللإنسان الذي نزل القرآن ليرشّد مسيرته في الأرض فيعطي الأمانة حقها، ويقوم بمهمة الاستخلاف، وينجح في اختبار الابتلاء. فمن شاء أن يقرّر شيئاً من عنده فليقرّر ما يريد بعيداً عن النصّ. إذ إنّ القرآن المجيد أنزل ليقراً وأمرنا بقراءته مرتين في أول خمس آيات أنزلت منه، ولكل نوع من نوعي القراءتين المأمور بهما منهج وسبيل، والقارئ الحقيقيّ لأيّ منهما هو ذلك الذي يقرأ ويصغي لما يقرأ متجرداً مفتقراً فيسمع من النص ما يريد النص أن يفصح عنه، وله بعد ذلك أن يجاور النص، ويستنطقه كما يشاء، ويثوره كما يريد، ويقبله على مختلف أوجهه، ولكن من أجل أن ينطق النصّ نفسه، لا من أجل أن يُنطق النصّ بما يريد، أو يضع على لسان النصّ ما يشاء.

والنصّ القرآنيّ ليس كأيّ نصّ، إذ هو نصّ لن يبلغ قارئه منه ما يريد دون أن يتخلى عن سائر موانع فهمه وفي مقدّماتها الهوى والعجب، وتكوين آراء وأفكار وأحكام بعيداً عنه ثم الذهاب إلى النصّ القرآنيّ للبحث عن شاهد يشهد لما ذهب إليه من آياته، أو العناية بالألفاظ المجردة، وحسب استعمالات العرب لها.

فهذا النوع من المقاربات لا يمكن أن يفتح لها القرآن أبوابه؛ فأبوابه لا تفتح إلّا لأولئك الذين يخضعون له، ويقاربونه ضارعين مفتقرين، مدركين لعظمته. فالقرآن المجيد وعاء النبؤات، ومستودع الرسالات، ومستقر خبرات الأنبياء والرسل وتجاربهم مع أممهم، تقبل على القرآن لتقرأ فيه ومنه، أو لتصغي إليه وتستمتع فأنت بحاجة لأن تشعر بأنك مقبل على مواكب حاشدة من النبيين والمرسلين تشكل -بجملتها- أمة واحدة عبر تاريخ البشريّة كلها تكونت، وأنك حين تعايش القرآن تكون بين أيدي هذه الأمة من النبيين والمرسلين من أولهم إلى خاتمهم -صلى الله عليه وآله وسلم- تتعلّم الكتاب والحكمة، وتتركّى وتتطهّر في قلبك وعقلك ووجدانك وحواسك، وقد تتألم وتحسّر لمعانائهم، وتفخر بصبرهم وجهادهم،

وتقتدي وتتأسى بهداهم فتتغلغل الحكمة في أعطافك، وتفيض أنوار النبوات على قلبك وعقلك ونفسك ووجدانك.

إنَّ البحث في القرآن ليس بحثًا في اللُّغة -وحدها- إذ هو بحث في اللُّغة، وفي تدافع الحق والباطل عبر تاريخ البشريَّة -كلِّها- منذ خلق آدم إلى يوم الدين. وبحث في الإنسان والنفس الإنسانيَّة وبحث في الطبيعة وسننها وقوانينها وجدلها مع الغيب والإنسان، وبحث في عالم الدواعي والدوافع التي تدفع الإنسان نحو الحركة، وبحث في حركة الإنسان وكدحه وطبيعتها، ومن أين وكيف تستمد قيمتها، وكل ذلك تصل إليه بكلمات القرآن. ونجومه وآياته وسوره وبه كلُّه.

إنَّ علماءنا قد نَبَّهوا إلى أنَّ للحقائق أو الأشياء وجودًا لفظيًّا وآخر ذهنيًّا، وثالثًا واقعيًّا. فاللفظيُّ تدل عليه اللُّغة. والذهنيُّ يخضع لعالم الأفكار، أو يخضع عالم الأفكار له. والثالث يخضع الإنسان وما يصدر عنه لتقييم شرعيٍّ أو عقليٍّ أو منطقيٍّ كلُّ بحسبه.

ومع ذلك فهو كل لا يتجزأ، ووحدة لا تتكثر.

وبعد: فإنَّ "الوحدة البنائيَّة" ما تزال في حاجة إلى جهود يقوم بها متخصصون في مختلف فروع المعارف الإسلاميَّة واللُّغويَّة لتستوي على سوقها، وتبرز فضائلها ومزاياها. وتأخذ موقعها الهام بين "المحدِّدات المنهائيَّة" التي تتألف منها "منهجيَّة القرآن المعرفيَّة" سائلين العليَّ القدير أن يوفق ويعين على استكمال هذه البداية. ويرزقنا السداد، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه .

المدخل الثامن: مدخل القراءة بالقلم وبالخلق.

إنَّ كثيرًا من السور نستطيع عندما نستخدم هذا المدخل مدخل القراءة بالقلم وبالخلق تتضح لنا أمور كثيرة، فالقرآن الكريم قد صدَّق على ما سبق من كتب، وما جاء من رسالات، ثم هيمن عليها، والله (تبارك وتعالى) يخاطب رسوله الكريم ممَّنَّا عليه بأن أنزل عليه الكتاب

بالحق وبالصدق، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيقول له بعد أن يقص عليه قصة سيدنا عيسى وأمه الصديقة مريم وهما آية من آياته: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: 44)، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (القصص: 44)، فهناك قصص وتواريخ سجلتها الأقلام شابقتها الشوائب، قام القرآن الكريم بالتصديق على المهم منها، ويصبح التاريخ آنذاك بمثابة رافد أو وسيلة إيضاح، عند قراءة تلك الأجزاء من السور ومعرفة ما فيها، فحين يقول (جل شأنه): ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: 163)، فهي قصة سطرها أقلام ودونها كاتبون، فكأننا نقرأ بالقلم ثم نصدق بالقرآن على كل ما سطرته الأقلام من تواريخ.

وحين نقرأ قوله (جل شأنه): ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: 40)، نستطيع أن ندرك أن الآية تتعلق بتلك القرى التي رجمت ودمرت وسجلت الأقلام شيئاً مما حدث لها، فصارت جزءاً من تاريخ مضى، ويشاهد السائرون في الأرض أطلال وآثار تلك القرى، فنقرأ ونصدق بالقرآن المجيد على هذا الذي نراه، واليوم يسمي الناس الآثار علماء، أو علوماً عديدة، وينقبون عليها في سائر بقاع الأرض، بناء على ما سطر بالأقلام، ويستكشفونها.

وهذا المدخل مدخل القراءة بالخلق وبالأقلام هو المدخل الذي يلفت أنظارنا إلى الربط بين ما نسمع ونشاهد، وبين ما يحيط بنا من آثار الماضيين وأخبارهم، ويفتح لنا هذا المدخل أبواب القرآن المجيد لنصدق ونهيمن، فنحول بين الخرافات والأكاذيب والأساطير، وانتحالات المبطلين، وتحريفات الضالين، والدخول إلى عقولنا، وفي الوقت نفسه نتعلم عبادة السير في الأرض والاستكشاف، ومعرفة ما فيها، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: 15)، فذلك هو الذي يعيننا في مهام الاستخلاف والقيام بها على الوجه الأفضل والأكمل، وهو أمر يضاف إلى مدخل الجمع بين القراءتين، فيتكاملان معاً، لإعطائنا ومنحنا وعياً بالقراءة الدقيقة، الشاملة لما سطرته الأقلام،

ولما نراه من خلق نعيش به، ونحيا إلى جواره، وأنذاك يصبح الماضي والآثار وما تركه
الأسلاف رافداً من أهم الروافد المعرفية لنا لتصحيح حاضرنأ والمحافظة عليه وحمايته، والله
أعلم.

المدخل التاسع: مدخل الأزمات وطلب الحلول:

ما اخترت التداول معكم فيه هي مجموعة من نقاط لا شك أنهما كما تشغل بالي تشغل أفكاركم وتستأثر بشيء من اهتمامكم؛

النقطة الأولى: إنَّ العالم كَلَّه شرقه وغربه شماله وجنوبه يعاني من أزمات حادة، ويبحث كَلَّه عن سبيل من خلاص للخروج من تلك الأزمات التي تكاد تفتسه وتقتضي على حضارته هذه، فالبحث عن الخلاص أو الخروج من الأزمة بحثًا عالميًا لا يظن ظان أنَّ المسلمين هم وحدهم يعيشون حالة أزمة أو حالة ضيق وإن كانوا بالفعل يعيشون حالة أزمة أو ضيق، ولكن: ﴿... إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 104).

فللتخلف أزماته وللتقدم أزماته كذلك، وحينما يكون العالم متقدمًا في صناعته وتقنياته وأساليب عيشه وحضارته، فإنَّ ذلك لا يعني أنَّه برأ من أزماته أو أنَّه تجاوز سائر المشكلات، فللعالم المتقدم مشكلات وأزمات يعيش فيها، ومشكلات التخلف الاقتصادي والحضاري أيضًا مشكلات من نوع آخر، قد تقول لي: أين المشكلة أو الأزمة في بلدان بلغت غاية القوة وهيمنت على الجو والبر والبحر، وهيمنت على سائر بقاع الأرض، لا يعصى لها أمر، ولا يخرج أحد عن طاعتها؟ أقول لك هناك أزمات كثيرة؛ أمريكا نفسها قائدة هذا العالم وسيدة هذه الحضارة تعاني من عدة أزمات، منها على سبيل المثال: أزمة تفكك الأسرة؛ فالأسرة في أمريكا وفي الغرب عامة أسرة قد تفككت حتى تحوَّلت إلى ستة أنواع، فهناك ما يسمى بالأسرة التقليدية، وهي أن يتزوج رجل بامرأة ويكونان أسرة وينجبان أولادًا، وإلى غير ذلك. وهناك أنواع أخرى مثل أن يتفق لوطيان شاذان على أن يجعل من علاقتهما المحرمة أسرة على الأقل على مستوى القوانين الضريبية في تلك البلاد، بحيث يستطيع هذان الشاذان أن يعلنوا نفسيهما زوجين يعاملهما القانون باعتبارهما أسرة في مستوى الضرائب وفي مستوى

العلاقات الأخرى. وتعلمون أنَّ المحكمة الدستورية العليا قد اعترفت بهذا النوع من النكاح وأصبح في أمريكا كلُّها نكاحًا شرعيًّا قانونيًّا، وساوت هذين الشاذين بما سمته بالأسرة التقليدية، وللشواذ من الحقوق ما للأسر الطبيعية ويعملان ضربيًّا باعتبارهما أسرة، وقد يتبنى اللوطي يتيماً أو لقيطاً ويجعل منه ابناً ويقدمه ونفسه على اعتباره قد شكّل بذلك أسرة، وقد تفعل ذلك الزانية أو البغي وقد تتبنى لقيطاً أو يتيماً وتجعل منه ابناً وتعامل هي وهو باعتبارهما أسرة. ولذلك أخذ كثير من العقلاء يتنادون لدرأ هذا الشر المستطير وإعادة بناء الأسرة، باعتبار أنَّ تفكك الأسرة أزمة تصيب كل واحد من هؤلاء الناس ولا ينجو منها أحد، وربما من بين العوامل التي أدت إلى نجاح مستر بوش في الانتخابات، خاصّة في دورته الثانية، أنّه قد وعد الأمريكيان بإعادة بناء الأسرة بمفهومها التقليدي، وهو أمر يتوق إليه كل أمريكي، ووعدهم بأنّه سيعيد تحديد مفهوم الأسرة؛ بالاتفاق على الزواج بين ذكر وأنثى يتفقان على الارتباط برباط شرعيّ أو قانونيّ ليكونا أسرة ويتخلّص من الأنواع الأخرى.

أزمة ثانية: هي أزمة الجريمة وانتشارها، والجريمة في الحقيقة أصبحت أزمة عالميّة، ففي بلداننا نعاني من انتشارها بالرغم من وجود الإسلام والتدين ومن وجود القرآن المجيد بيننا ويعاني العالم المتقدم أيضاً من انتشار الجريمة وتنوّعها.

أزمة ثالثة: الصراع والنزاع بين بني البشر، فلو أحصينا الصراعات المحليّة بين قطر وآخر وجدنا ما لا يقل عن خمس وثمانين في عالم اليوم من الصراعات الدائرة بين بلدان على حدود أو على مصالح أو على أيّ شيء فخم، أو ثمانون حرباً صغيرة وكبيرة تدور رحاها في عالم اليوم، ومع وجود علوم متقدمة لمعالجة النزاعات ووجود الهيئات الدوليّة. لم يتغلب هؤلاء الناس لحدّ الآن على الصراع وعوامل الصراع التي تخلق العالم، والتي قد يجر بعضها العالم إلى حرب كونيّة في أيّ لحظة من اللحظات، فهناك حروب إقليمية وحروب خارجيّة وهناك حروب ومنازعات وفتن في داخل بعض الأقطار لم تعرف البشريّة كيف تعالجها بالرغم من وجود المنظمات الدوليّة والقانون الدوليّ وما إلى ذلك. وهناك أزمة البيئة والتلوث، فظهر الفساد في البيئة في البر والبحر والجو. نبحت عن مخرج من جنون البقر إلى أنفلونزا الطيور ومن الأمراض العديدة

إلى أمراض أخرى لم تكن في أسلاف الناس، نتيجة التلوث في البحار والمحيطات ودفن النفايات النووية ودفن مخلفات الأسلحة الكيماوية أو الصناعات الكيماوية التي ضاقت بها الأرض وضاقت بها المحيطات وقضت حتى على الثروة الحيوانية وعلى بعض المزارع ونحو ذلك، وأصبحت تهدد الإنسان في غذائه وطعامه وشرابه، وتهدده في الهواء الذي يتنفسه، وفي الماء الذي يشربه ويستهلكه.

ولو أردنا استعراض كافة المشكلات التي يعيشها عالمنا اليوم في كل أرجاء الأرض لضاق بنا الوقت؛ لأنّ هذه المشكلات من التعدد والانتساع أنّها قد بلغت العشرات وعلى مستويات مختلفة، وبالرغم من هذا التقدم العلمي الهائل والتعليم وتطور العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية وفلسفاتها بأشكال مختلفة، لكن الإنسان ما زال يقف عاجزاً أمام تلك المشكلات ويعالجها أحياناً بمشكلات أكبر منها. مثلاً، بدلاً من أن تعالج أسباب النزاع بين البشر بطرق سليمة أصبحت تعالج بمزيد من الفوضى، فتطرح علينا هذه الأيام قضيتان: **القضية الأولى:** تسمى بالحرب الاستباقية: وهي الحرب على تقدير النية، انظر في وجهك ولا أرى في وجهك ما أطمع أن أراه من ابتسامة وانسراح وما سوى ذلك فأقول ربما تكرهني ما دمت تكرهني فعليّ أن أتخلص منك قبل أن تفكر في إيذائي! فهناك دول كبرى تؤمن بضرورة الحرب الاستباقية، فكلما شكّت في أمة أو بلد أو منطقة تذهب للقضاء عليها، فلم يعد المتهم بريء حتى تثبت إدانته، بل أصبح من لا أستريح له أو لتصرفاته أو لشكله أو لمنظره أو لعرقه أو لدينه أو للغته أو لأيّ سبب من الأسباب ذلك يسوغ لي أن أحاربه أو أغزوه في عقر داره وأن أقضي عليه أو على قوته على الأقل، والأمثلة والنماذج تحيط بنا من كل جانب.

القضية الثانية: ما يسمى بالفوضى الخلاقة. ما الفوضى الخلاقة؟ تفترض بعض القوى المتحكمة في مصائر عالم اليوم أنّ أحسن طريقة للكشف عن معالجة الأزمات والمشكلات هو أن تحدث فوضى عارمة في المنطقة التي ترى أنّ فيها مشكلة، وحينما تحدث هذه الفوضى التي تسمى بالفوضى الخلاقة فسوف تفرز لك أو تكشف لك عن ذلك المكنون الذي هو مقيم في تلك المنطقة من العالم. وأنداك، تستطيع أن تختار من بين ذلك الذي

يخرج من بين ركام الفوضى معالجة أو حل للمشكلة التي تريد معالجتها، ومن هنا صرنا نعاني من مشكلات كونية؛ يعني لم تعد المشكلة أن تقول: إنَّ هناك مشكلة في قُطر معين داخل حدود ذلك القطر تعيش تلك المشكلة ونستطيع أن نعالجها في إطار ذلك القطر، فالمشكلة تظهر في بلد لكن آثارها تمتد إلى الأرض كلها، كما لو أنَّك ألقيت حجرًا في ماء تبدأ الأمواج تنداح من الموقع الذي أسقط الحجر فيه إلى مواقع أخرى عديدة، وتظل هكذا حتى تتلاشى، فالمشكلات قد أصبحت مشكلات كونية. تظهر أنفلونزا الطيور مثلاً في مكان ما في جنوب شرق آسيا في الصين تصل بعد ثلاثة أسابيع أو أسبوعين إلى مختلف أنحاء العالم، تظهر ظاهرة أو جريمة في مكان ما فإذا بها تعم الأرض بعد فترة محدودة. لماذا؟ لأنَّ المشكلات لن تعد مشكلات محلية، وإنما صارت مشكلات كونية قد تنشأ في أرض ما أو قطر ما أو قبيل ما وتمتد بعد ذلك وتنداح إلى مستوى الكونية كلها. من هنا لم يعد هناك مناص أو حل لهذه المشكلات إلّا حلول كونية أيضاً، لا يمكن للمشكلة الكونية أو العالمية أن تعالجها محلياً، لا بد من أن تحظى بعلاج كونيّ، وإلّا عادت هذه المنطقة بعد أسبوع أو أسبوعين إلى التلوث بتلك المشكلة مرة أخرى سواء أكانت ظاهرة اجتماعية أو مشكلة بيئية أو أي نوع من أنواع المشاكل.

النقطة الثانية: من هنا صار العالم كلّه يبحث عن طريق خلاص، عن طريق لمعالجة الأزمات والخروج من المشكلات، وعن مصادر يمكن أن تقدم الهداية اللازمة للخروج من تلك الأزمات ولتجاوز تلك المشكلات، والمشكل في أساسه كونيّ والحل لا بد أن يكون كذلك؛ كيف تستطيع الوصول إلى مصدر كونيّ يستطيع أن يعالج هذه المشكلات الكونية؟ لو قلّبنا النظر في كل ما لدى الإنسانية من مصادر اليوم: المصدر العلمي، النظم سواء أكانت ديمقراطية أو شمولية، ليبرالية أو ديكتاتورية، أيّاً كانت الأديان سواء أكانت يهودية أو نصرانية أو بوذية أو سوى ذلك، سوف يرتد الطرف إلينا إلا عن مصدر واحد لا ثاني له، مصدر كونيّ واحد ما زال على وجه الأرض. فالقرآن الكريم وحده هو المصدر الكونيّ الذي يستطيع أن يقدم علاجاً ناجحاً للمشكلات الكونية التي تعاني البشرية منها اليوم؛ ولكن

القرآن المجيد - وهذا أمر مؤسف - غير مكتشف لأهله فضلاً على أن يكتشفه سواهم، فأهل القرآن في غفلة وانشغال عنه وعن كونيته وعالميته وما فيه وغيرهم ينظر إليه على أنه مجرد كتاب ديني شأنه شأن سائر الكتب الدينية الأخرى لا فرق بينه وبين التوراة والإنجيل أو كتاب بوذا أو زرادشت، وبالتالي فكثيراً من مشكلاتنا جاءتنا من تلك الأديان.

ولكي يؤدي القرآن الكريم دوره في كونه هو المصدر الكوني الوحيد الذي يستطيع أن يعالج تلك المشكلات والأزمات الكونية لا بد من إزالة العقبات من أمامه، لأهله الذين لا يفهموه ولا يفهموا دوره ويتعلموه ويحسنوا قراءته، ولغيرهم لكي يدركوا الفروق الكبيرة بين هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وبين غيره من كتب سواء كانت بدايته سماوية أو أرضية. وهذا أمر وإن كنا نقوله بهذا اليسر والسهولة، لكنّه في حاجه إلى جهود ضخمة هائلة من أهل القرآن لكي يعرف القرآن حق المعرفة ويحسن قراءته وتدبره والتفكر فيه وتذكره وترتيبه وتعقله، لعلهم بذلك يكتشفونه. وإذا ما اكتشفوه، فإنّ عليهم أن يقدموه لهذا العالم بوصفه الكتاب الكوني الأوحيد الذي يمكن أن يعالج هذه المشكلات الكونية. فكيف تستطيع أن تفعل ذلك؟

نودّ أن نقول بكل وضوح: الله (تبارك وتعالى) قد ضرب لنا مثلاً في بني إسرائيل وقال: [مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ] (الجمعة: 5)، وبني إسرائيل في حملهم للتوراة حملوها حمل الحمار، وفي تعاملهم معها أستطيع أن أقول وأطلق على نفس نوعيّة التعامل التي تمت بفقّه بقريّ أو بفقّه أهل البقرة، ومعروفة معالم هذا الفقّه الذي نراه في سورة البقرة وطريقة تحاورهم مع موسى -عليه السلام- فيها، ولو رفعنا اسم التوراة ووضعنا القرآن الكريم وقلنا: مثل الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوه ماذا يكون؟ كمثال الحمار يحمل أسفاراً! هذا مؤسف وقاس وأرجو أن لا يغضب أحداً، ولكن الطريقة التي يحمل المسلمون القرآن فيها اليوم هي ذات الطريقة التي حمل بها بنو إسرائيل التوراة. نعم نحن نعني بتجويده ونعني بطباعته وبتغليفه، ولكن هل نتلوه حق تلاوته؟ لا. حق التلاوة بيننا وبينها فواصل عديدة، حتى نحن طلبة العلوم الشرعيّة

لا نتلو القرآن حق تلاوته، ولا نعطيه حقه ولا نتعامل إنسانياً كما أمرنا بذلك: [وَقَالَ
الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا] (الفرقان:30). إذا فنحن
نستطيع أن نقول: إننا نلمس ونعرف المصدر الكوئي الذي يمكن أن يعالج الأزمات الكويّة
للمسلمين ولغيرهم، لكننا لا نحسن فهمه، ولا نتلوه حق تلاوته، ولا نحسن ترتيله⁶⁷، ولا
التفكر ولا التذكّر ولا التعقّل ولا التلاوة حق التلاوة موجودة بين المسلمين اليوم في تعاملهم
مع القرآن الكريم، فإذا لم يكتشفوه هم كيف يقدمونه إلى الآخرين؟

إنّ مجتمعاتنا العربيّة المسلمة تعاني كما عانت من قبل في مراحل مختلفة من تاريخها من أزمات
تفكك، ومعظم المفكرين والباحثين الاجتماعيين والمعلقين السياسيين يفسرون أزمات
التفكك هذه بتفسيرات منبثقة عن علوم اجتماعيّة لم يسبق لها أن تعاملت مع أزمات الأمم
والشعوب من منطلقات الوحي، ولذلك غالباً ما تأتي تحليلاتها قاصرة مبتسرة، غير مقنعة
وكثير من هؤلاء يرون أنّ هذا التفكك ناجم عن تطلعات عنصريّة وقوميّة وطائفية وما إليها،
وأنّ النظم القائمة في هذه البلدان عاجزة عن استيعاب القوى الجديدة في هذه المجتمعات
وتطلعاتها، وأنّ الديمقراطية بما فيها من آليات الانتخاب والتصويت والتمثيل في العدد هي
العلاج الوحيد لأزماتها هذه.

وقد يكون في ذلك شيء من المسكنات الوقتيّة لكنّها لا تقدم علاجاً شافياً لهذه الأزمات
التي لم يلاحظ فيها أصل النشأة والتكوين، فالعرب كانوا قبل الإسلام مجرد قبائل متفرقة،
تسودها شرائع القوة والضعف، فالقوي تحكم بالضعيف، ويستبد به، والضعيف ما عليه إلا
أن يسعى إلى القوة فإنّ امتلكها تحكم فيمن كان يتحكم فيه، وجاء الإسلام وألف بين قلوبها
بتأليف إلهي، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:63)، وهذا يعني أنّ الاقتصاد وحده لن
يكون كافياً ولا علاجاً شافياً من هذه الأزمات، ويقول (جل شأنه) ممتناً على نبيه الكريم:

⁶⁷ والترتيل مأخوذ من دويبة صغيرة اسمها الرتيلاء تعرف كيف تبني بيتها بناءً هندسياً في غاية القوة والصلابة والشكل
الجميل كذلك الترتيل.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾
 (الأنفال: 62) وألف بين قلوبهم، فهذه أمة قد تجمعت بتأليف إلهي بين قلوب أبنائها،
 استحقته بعد أن آمنت به ربًا وإلهًا، والتزمت واعتصمت بكتابه، وآمنت بنبيه ورسوله،
 ورضيت به، فالتأليف بين القلوب إنما هو فعل إلهي واستعداد بشري لحكمة أَرادها الله (جل
 شأنه)، ووسيلة بقاء هذا التأليف الاعتصام بالله (تعالى)، والتشبث بحبله، والتمسك بدينه،
 ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ
 بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: 103).

ومعرفة ارتباط التأليف بهذا الأمر مثلت فيما مضى وعيًا كاملاً لدى كل من استظل براية
 الإسلام، وحين ينصرف الناس عن هذا سيضعف الإيمان، وتشوبه الشوائب ويصدق على
 المؤمنين قوله (جل شأنه): ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: 106)،
 ويفرقون دينهم، ويحولون أنفسهم إلى شيع وجاعات وتنظيمات مختلفة، وأحزاب كل حزب
 بما لديهم فرحون، في هذه الحالة يرفع الله (جل شأنه) عنهم يده، فتقسوا قلوبهم، وتنفك
 قبضتهم عن الكتاب، ولا يستمسكون به كما ينبغي، ويفرقون دينهم، ويصيرون شيعًا
 وأحزابًا، تفتك بهم البدع، وتسيطر على حياتهم الانحرافات، آنذاك تغرى بينهم العداوة
 والبغضاء، حدث ذلك لأمم سبقتنا، ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ
 قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ
 مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا
 إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: 13-14) وبالنسبة
 لهذه الأمة بين الله (جل شأنه) في كتابه قدرته على أن يصيبهم بمثل من سبقهم، فقال (جل
 شأنه) في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ
 تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
 لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: 65) فهذه الآية كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-

يرتعد خوفاً حينما يقرأوها أو تقرأ عليه، ويقول: أعوذ بوجهك إعوذ بوجهك. وقد سأل الله (جل شأنه) أن لا يصيب أمته بذلك، ولكن الأمة إذا لم تستقم كما أمرت ولم تستمسك بالكتاب ولم تعتصم به، وتراجعت عن وسطيتها وتنازلت عن خيريتها وقست قلوب أبنائها وصار فيها الإيمان أثراً بعد عين وصارت الصلاة مغرماً، والزكاة مغنماً، وتغيّرت أخلاقها، وانهارت مفاهيمها، فإنَّ سنَّة الله (جل شأنه) لا تتخلّف في إغراء العداوة والبغضاء بين بنيها، وجعل بعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسي بعضاً، وهكذا.

وحين تريد الأمة أن تخرج من حالة التفكك هذه فإنّها في حاجة أن تسلك سبيلاً يعيدها إلى الصراط السوي، ويجعل منها الأقدر على الرجوع إلى الله (جل شأنه)، والاستمسك بهداه، آنذاك تسود الألفة والتعاون والإخاء، فمن الذي كان يتصور قبل نزول القرآن على قلب محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- أنّ تلك القبائل المتناحرة تصبح متآخية ذلك الإخاء الذي صار المسلم يفضل أخاه المسلم على أخيه في النسب والدم والعرق والرحم، ويدافع عنه ويشاركة ماله، وما خوله من نعم.

إذاً فالخروج من هذه الأزمة أو مجموعة الأزمات لن يتم إلا باتخاذ جميع الوسائل التي أخذ بها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وجيل التلقي، وهي أمور بيّنها القرآن الكريم بأدق التفاصيل في سورتي التوبة والأنفال والفتح والصف والحجرات وغيرها، وبذلك يمكن التغلّب على هذه الأزمة، فأولاً: لابد من مراجعة التوحيد وأركان الإيمان في القلوب والعقول، وكذلك تغيير ما في النفوس من توجهات لتكون نفوساً مرتبطة بالله (جل شأنه) متعلقة به، وإعادة بناء شبكة المفاهيم الصحيحة، من إيمان وإسلام وإحسان، وتقوى، وتزكية، وعمران وجهاد، وما إلى ذلك من مفاهيم محوريّة، ثم تأتي بعد ذلك الأمور الماديّة، فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هاجر إلى المدينة المنورة وفيها استطاع أن يبيّن ويؤسّس الكيان الاجتماعيّ الإسلاميّ الأول، وهذا ينبه إلى ضرورة إيجاد شبكة اتصالات ومواصلات متينة جدّاً، بين جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، فإنّها تعد من الوسائل التي لا يتم الواجب المطلق إلا به، ثم البداية بتنقية نظم الحياة المختلفة وتزكيّتها، وتطهيرها مما شابها من شوائب.

المدخل العاشر: مدخل النبوات وقصص الأنبياء وبناء الأمم:

في هذا المدخل يستحضر القارئ المتدبر القصص الواردة في السورة ويقوم بعملية دراستها وتحليلها والنظر في سياقها في سور مختلفة، ولتسائل بعد ذلك عن الحكمة والعبرة والدروس التي يمكن استخلاصها من قصة هذا النبي في سياقها في تلك السورة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: 111)، فأحيانا نجد جانبا من قصة ذلك النبي أو الرسول لا نجده في السياقات الأخرى، فمثلا نجد في سورة القصص تفاصيل كثيرة تتعلق بمرحلة ولادة سيدنا موسى، وكيف أمرت أمه بإلقائه في اليم، إلى آخر ذلك، فيفيدنا هذا بأن المراد إبراز طغيان فرعون، وجبروته، واستعلائه، وتوهمه بأنه قادر على كثير من الأمور قدرة تسوّغ له ادّعاء الأولويّة، وغلق الباب أمام من يريد إضعافه، ونجد في سورة أخرى جانبا يكون السياق فيه أكثر التصاقا بالحوار بين سيدنا موسى وفرعون، فنعلم أننا أمام دروس وتجارب وعبر يستفيد بها كل أولئك الذين يتصدون للدعوة ومخاطبة الناس، وخاصة الجبابرة، والطغاة، ومن بأيديهم مقاليد الأمور.

والنفات القارئ وتدبره يعود عليه بخبرة ودربة متميزة في التفريق بين سياق وآخر، والاستفادة بنظرية السياق في ميدان التدبر.

المدخل الحادي عشر: مدخل السنن الكونية والاجتماعية.

هناك سنن كثيرة اهتم القرآن الكريم بإبرازها، ودعوة قارئه والمتدبرين فيه إلى العناية بها، واستخلاص الدروس منها، والاستفادة بها في تفسير كثير من جوانب الحياة، فقله (جل شأنه) ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ..﴾ (الرعد: 11)، يبرز لنا سنّة من أهم سنن الاجتماع، وأنّ التغيير من الأحسن إلى الأسوء والعكس لا يقوم على استلاب إلهي، ولا جبر لاهوتي، كما قد يتوهم البعض، وإنما يقع بعد أن تتغيّر النفوس بطول

الأمم، وقسوة القلوب، والابتعاد عن كتب الله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: 19)، فذلك هو الذي يؤدي بالناس إلى تغيير أحوالهم، انطلاقاً من تغيير القلوب، وما فيها، وبالتالي فإنَّ الإنسان يعرف المنهج الذي يدرس فيه أسباب قيام الأمم ونحوضها وتراجعها وسقوطها، ويخرج من تيه الظنون والاحتمالات والفرضيات المختلفة إلى حالة النظر العقلي في أسباب جوهرية بارزة وملموسة، ويمكن أن يسلك مثل هذا في النظر في المستويات المختلفة من مستويات الاستقامة والانحراف في الحياة البشرية الفردية والأسرية والقومية.

المدخل الثاني عشر: مدخل الأخلاق والسلوك، وآثارها في حياة الأفراد والأمم:

حين تعرض علينا القصة سلوك قوم لوط وحواره معهم: ﴿.. أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 80)، نعرف أثر ظهور الفواحش وانتشارها في حياة الأمم، والحضارات وقيامها وانحيارها، وكذلك ما يحدث إذا لم تحترم الحقوق ولم يقيم العدل بين الناس، وفي قصة شعيب نجد أمر الله (جل شأنه) لهم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشَاءَهُمْ وَلَا تُمْسِكُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٨٥-٩٣﴾ (الأعراف: 85-93) فنجد في قصته مع قومه جزاء تطفيف الموازين وعدم الوفاء بالمكاييل والمقاييس والاجترأ على حقوق الآخرين والاعتداء عليها من خلل واضطراب لا في الحياة التجارية ولا في الأبعاد الاقتصادية وحدها بل يشمل جوانب أخرى عديدة في هذا الصدد، ومنها وفي مقدمتها الجوانب الدينية؛ لأنَّ الناس تنقسم آنذاك إلى أقسام ثلاثة فقوم سوف ينهون عن ذلك السوء وهم الذين سوف يمتعون بالنجاة، وآخرون سوف ينضمون إلى الذين يمارسون السوء، فيزيدون في سواد أولئك الذين يعملون السوء ويقوى بهم جانب الشر، وفصيل ثلاث يخذل الذين ينهون عن السوء ولا يمارس السوء.

فالمجتمعات التي تشيع فيها هذه الذنوب والنقائص وهذه المفسد تكون مهددة بالانقسام والتنازع والاختلاف وربما يندرج ذلك الصراع الذي عرف في عصرنا هذا بالصراع الطبقي تحت هذا الجانب.

المدخل الثالث عشر: مدخل الاستخلاف:

مدخل الاستخلاف هو المدخل الذي تأتي فيه إشارات إلى قوم صلحت أحوالهم فمتعهم الله إلى حين، ثم بدأت أحوالهم بالتغير والتبدل فبدأت عوامل الانهيار تنخر في كيانهم لتخليهم عن مهمة الاستخلاف صراحة أو ضمناً، ففي الصراحة حين يشوب الشرك الإيمان عندهم أو يكفرون الكفر البواح أو لا يعلنون ذلك ولكن تظهر فيهم الفواحش والجرائم والانحرافات، فلا ينكرونها ولا يتوبون عنها، وتتغير وظائف الأشياء لديهم ومنها وظيفة المال في الحياة ويضمحل العدل، وتضطرب المساواة، وتحل توجيهات الشيطان بدل الإحسان، وهكذا فآنذاك يكونون قد خرجوا عن المهام الأساسية للإنسان المستخلف فحين نقرأ السورة بهذا المدخل نستطيع أن نرصد من الصفات ما ينسجم مع مهمة الإنسان الأساسية في الكون، وما يصطدم معها، فما ينسجم يمكن أن يلتقط ويعمل على تعزيز الدعوة إليه، والتذكير به، وما يتنافى وذلك يحذر الناس منه، ويدعون إلى الابتعاد عنه، وعدم السقوط فيه، وبذلك

تكون السورة قد أصبحت واضحة في معالمها الأساسية لدى المتدبر، ويكون قادرًا على اكتشاف أهم مقاصدها وما استهدفته من أهداف.

المدخل الرابع عشر: مدخل القيم والمقاصد؛ التوحيد والتزكية والعمران والأمة والدعوة:

يحرّك مشروعنا المعرفي الذي ننطلق منه لإعادة بناء العلوم الإسلامية قديمًا ومحاولة استكمال واقع نظري جديد يلمّ بخطة المعرفة التي رسمها السابقون استكمالًا نقدًا لجهدهم، استيعابًا وتجاوزًا، عددًا من المقاصد التي رأينا أنّها مقاصد قرآنية عملية، عملنا على استنباطها منذ زمانٍ عندما رأينا الأزمة الإسلامية قد دخلت في عنق الزجاجة، أو تكاد، فما كان منّا إلا أن نفضنا عن التراث الذي ننتمي إليه الغبار لنعود إلى القرآن بوصفه الكتاب الخاتم الذي حوى الشرع والمعرفة، والمقاصد والأخلاق، محاولين أن نسأله عن مقاصد حاكمة وجامعة يمكن الاعتماد عليها في تأسيس إمكانية جديدة لكي يكون للمقاصد معنى مرة أخرى.

إنّ الركيزة الأساسية التي يبنى عليها تراثنا الإسلامي هي ركيزة الفقه بالأساس؛ لأنّ الفقه هو الفلسفة العملية الحقيقية للشرع، فهو المختصّ بالأحكام العملية، فضلًا عن أنّ "أصول الفقه" تُعنى بوضع تلك الأسس التي يمكن للفقيه من خلالها أن يستنبط الأحكام. فإذا كان الفقه مختصًا بالحكم العملي، فإنّ أصول الفقه تختصّ بآلية إصدار الحكم، أي إنّها هي الآلة الضابطة والمنهجية لذلك. ولما كان الشرع قد نزل وفقًا لغايات يتغيّرها، ولمقاصد يتقصدها، فإنّ علماء الدين قد سعوا منذ بداية تأسيس العلم إلى الاستنباط والبحث عن هذه الغايات وهذه المقاصد. لأنّ الإشكال المقاصدي إشكالٌ ملحّ في التاريخ، وهذا الإشكال له صورة نظرية يمكن أن نمثّل لها بذلك: النصّ الشرعي نصّ محدود، أي عدد معيّن من السور والآيات، بينما الوقائع التي تقع للإنسان في الزمان والمكان غير محدودة؛ فكيف يمكن أن نحلّ المشكل الذي يتوسّط النصّ المحدود والوقائع غير المحدودة؟

لقد نشأ القياس، كآلة أصولية، بناءً على هذا المشكل نفسه، فقد تصوّر الأصوليون أنَّ القياس يمكن أن يحلّ المأزق من خلال قياس الوقائع المتشابهة وإنزال الحكم الكلّي عليها. إنَّ ذلك النّمط من التفكير القياسي سيجد نفسه في مشكل مستقبلي كذلك، وأصولي؛ فالوقائع لن تتشابه، وستستجدّ وقائع لا نظائر لها، ولا شبيهه، ومن ثمّ فلن يكون إنزال الحكم الكلّي الشرعيّ عليها مناسباً، وسنرجع إلى المشكل من جديد.

أي إنّ الإشكال الرئيس الذي تأسّس لأجله علم الأصول، إذا فهمناه في فلسفته وفي عمقه، هو إشكال النص المحدود والوقائع غير المحدودة، والأصوليّ يعمل على توفير أدوات مناسبة للفيلسوف العمليّ، أعني الفقيه، كي يستطيع أن يستنبط الحكم المعين للوقائع المعينة، ولا يقع تشويش يفسد النصّ والواقعة معاً.

إنّ القياس وإن كان مناسباً في بداية تأسيس العلم، وفي بداية الزمن الإسلاميّ -لأنّ المسلم يتدبّر زمنه بالأساس من نزول القرآن-، فإنّه لن يستمرّ في التاريخ، وسيجد الواقع الذي ذكرناه عاليه من أنّ "الجدّة" ستخترق التاريخ، وسنجد وقائع لم تقع لأسلافنا الذين وضعوا تلك الآلة الأصوليّة، أو الذين نظموا الوقائع وكيفوها مع الأحكام الكلّيّة.

من هنا، كان لابد من إبداع فكرة المقاصد. وينبغي أن نتنبّه إلى أنّ المقاصد وإن اتخذت صيغتها التأسيسيّة، وكذا النسقيّة، مع الشاطبي، فإنّ لها أصولاً عند أصوليين آخرين، كما عند إمام الحرمين الجوينيّ وكذا عند حجة الإسلام الغزاليّ، لكنّ الشاطبيّ هو من أعطاهما صفة العلم القائم المستدلّ عليه والمعمول به. أي إنّ المقاصد هي تطوير في النظريّة الأصوليّة نفسها، بعدما تراجعت قوّة القياس وأصبحت لا تفي بتلبية الواقع الذي يتجدّد.

والمقاصد هي منظومة عقلية بالأساس، بمعنى أنّ أي دين أو أيّ رسالة لها مقصد ولها غاية، فضلاً عن الدين الإسلاميّ الخاتم الذي هو من عند الله؛ فالله لا ينزل ديناً أو كتاباً أو يرسل رسولاً أو يبعث نبياً بين الأمم إلّا لحكمة ومقاصد، علّم منها ما علّم، وجُهِل منها ما جُهِل. فالمشرّع حكيم (سبحانه وتعالى)، كلّ حكم ينزله بحكمة ولغاية. وهذه المقاصد متفق عليها

بين حاملي هذا الدين، ولا خلاف على مقاصدية الدين ككل، كمنظومة وجودية، ورمزية موقرة للمعنى داخل التاريخ، ومهيئة للإنسان معنى لأن يكون.

بيد أن الأصوليين قد وظّفوا تلك المقاصد على مستوى فقهي؛ لأنّ عملهم بالأساس هو عمل ضبطي وإحكامي يقوم على إحكام النص وضبطه كي تكون الأحكام المستنبطة ذات نجاعة، ولها كفاءة شرعية جيّدة. فسعى الشاطبي لوضع المقاصد التي يمكن أن نقول: إنّ الدين يدور حولها، وحصرها في خمسة: مقصد حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال. ومن ثمّ، فالإنسان المسلم يدور مع هذه المقاصد الخمسة في أموره كلّها، وإليها يردّ أعماله، ويضبط وقائعه، فما كان منها مراعيًا لهذه المقاصد الخمسة كانت نافعة للإنسان، وإذا لم تكن لم تكن نافعة.

إلا أنّنا ننظر إلى تلك المقاصد على أنّها مقاصد طبيعية وليست مقاصد شرعية. فهذه المقاصد الخمسة هي مقاصد كلية يشترك فيها بنو الإنسان وجميع الأديان، ولا يختص الإسلام بها عن دين آخر، فالعقل والبداهة والطبيعة الإنسانية، كلّ ذلك يقول: إنّ هذه المقاصد مغروسة في أصل الفطر، ومبثوثة في طوايا النفس البشرية ولا تحتاج إلى تععيد. فإذا كان الفقهاء، مثلاً، يقولون: إنّك لو كنت في صحراء وغلب عليك الظمأ حدّ الموت والهلكة، فيحلّ لك أن تشرب الخمر حتى لا تذهب بحياتك، وفاءً لمقصد "حفظ الحياة" من المقاصد الخمسة، فنحن نقول: إنّ هذا أمرٌ بدهي لا يحتاج إلى شرع أو دين، بل هي حالة طبيعية لأيّ إنسان، وسيقوم بفعل ذلك دون توجيه ديني أو توجيه مقاصدي. وهذا ما نقصده بأنّ المقاصد الخمسة المتفق عليها هي مقاصد طبيعية وليست مقاصد شرعية.

كما إنّ هناك سؤالاً يُطرح إذا تحدّثنا عن هذه المقاصد، وهي أنّها ليست مطلقة بل هي يتمّ تحجيمها من خلال الشارع. فإنّ حفظ النفس أو المال إلخ... لا يقصد به مطلق الحفظ، فأيّ مال هو الذي يُحفظ، وأي نفس، وأي دين... مما يعني أنّها مقاصد محدودة وتفهم في سياقها وليست سارية على الدوام.

هذا، بالإضافة إلى أنَّ هناك نقدًا يوجَّه إليها من كونها تقوم على بنية التعليل بالأساس بعدما فشلت الأداة القياسية القديمة، وإذا أقررنا أنَّها تقوم على التعليل فما الدليل على أنَّ هذه المقاصد هي مقاصد الشارع التي أنزل لأجلها الدين؟ أي، بمعنى آخر؛ هل تم استقراء هذه المقاصد من النص؟ أم هي مبادئ كلية تم صوغها واعتبارها مقاصد للشريعة ككل؟ وهاهنا نعود مرَّة أخرى لنؤكد أنَّ هذه المقاصد طبيعية: أولاً، لأنَّها عقلية ومبدئية ولا تحتاج لتشريع؛ وثانياً، لأنَّها ليست مطلقة عند الفعل؛ وثالثاً، لأنَّها غير مستقرَّة من الشرع بل تم إسقاطها عليه.

ومع حركة التاريخ واطراده، فإنَّ المسألة التشريعية تأخذ حيِّزاً من النقاش الداخلي الإسلامي، وكذا الخارجي بين مَنْ هم يتكلَّمون من موقع ثقافة حديثة أوروبية وبين الإسلاميين (ليس بالمعنى السياسي) حول المآزق التشريعي. وقد قامت جهود كبيرة لتطوير منظومة القصاص والعمل على إدخال مقاصد أخرى فيها، كالعلامة بن عاشور، حيث أدرج "الحرية" كمقصد شرعيٍّ سادس بجوار المقاصد الخمسة المعروفة والموروثة عن تراثنا الفقهي. المهم، أنَّ المآزق التشريعي دائماً كان يحيل إلى المقاصد ومحاولة توسيعها والعمل على تحديثها من جديد.

إنَّ اللجوء إلى المقاصد والعمل عليها هو اعتراف ضمني بأنَّ حركة التاريخ قد ولَّدت مسائل وأحكاماً لم تكن ظاهرة فيما قبل، مسائل جديدة لا يمكن إحكامها لآلية القياس نظراً للفشل الإستمولوجي الذي أحدثته حركة التاريخ بها، ويبدو أنَّ الفشل نفسه بدأ في اللحاق بمنظومة المقاصد الكلاسيكية نظراً للانتقادات التي أوردتها -بإيجاز- بالأعلى، ومن ثمَّ يمكن قراءة الجدل الإسلامي داخل هذا الإطار المقاصدي والأصوليِّ عمومًا، الذي بدأ ينشقَّ عن دعوة عالية بضرورة تجديد المنظومة الأصولية كآفة.

من هنا، جاء عملنا على "مقاصد جديدة"، ولا تعني الجودة بمعنى التطوير على المقاصد السابقة، بقدر ما تعني جدَّة في استقراء المقاصد هذه وإلى الطابع الذي وسمناه بها. فإنَّ هذه المقاصد قد قمنا بإخراجها من قراءتنا المنهاجية للقرآن الكريم -يمكن للقارئ الكريم أن ينظر

لكتابنا: منهجية القرآن المعرفية-، حيث وجدنا أنَّ هذه المقاصد تمثِّل "المقاصد العليا الحاكمة" التي يتقصدها القرآن، وهي المقاصد العملية الشرعية، وليست مقاصد طبعية عقلية تقوم عليها الفطر بالأساس دون شرع أو دين.

إنَّ القرآن العظيم يتكوَّن من اللغة، وهو كلام الله المفارق لكلام البشر، ولما كان إعجاز القرآن متمثلاً في القرآن فقد أودع الله في هذا القرآن مقاصد عملية عليا حاكمة، تضبط الممارسة الفعلية للمؤمنين في حياتهم داخل التاريخ؛ وبهذا، فقد توصَّلنا إلى خمسة مقاصد جديدة، يمكن العمل عليها كمقاصد عليا من القرآن الكريم، تدور حولها الآيات، وهي تجمع بين الدين وحفظه والدنيا وإعمارها، وبذلك بالارتكاز على الإنسان محلَّ الاستخلاف وموطن الرسالة الإسلامية؛ فكل ما في الحياة إنما هو حاصل تفاعل وجدل بين الله (تبارك وتعالى) والغيب بنوعيه: الغيب الذي اختص الله به ذاته العلية به؛ أي «الغيب المطلق»، والغيب الذي يتكشف عبر الزمان والمكان؛ ألا وهو «الغيب النسبي»؛ وبين الإنسان المستخلف الذي عاهد الله على أن يعبد لا يشرك به شيئاً، وأن يحسن الخلافة على الأرض وفيها، وبين الكون الذي سخَّره الله له وائتمنه عليه وجعله ميدان فعله وتصرفاته.

إذ الإسلام قد حرَّر الرسالة من فكرة "الأرض"، واستخلف الإنسان الأخير، ورهن عمارة الأرض ببصره وبصيرته... كلَّ ذلك تحت المعية الإلهية الجامعة، وضمن سنن الله التي لا تبدل، ولم يرهن ذلك بشعب مختار أو بأرض مقدَّسة، بل الإنسان هو الذي يقوم بواجب الخلافة والاستخلاف.

هذه المقاصد بالاستقراء، قد وجدناها خمسة مقاصد "عليا حاكمة"، وهي: مقصد التوحيد؛ مقصد التزكية؛ مقصد العمران؛ مقصد الأمة؛ مقصد الدَّعوة. فهذه المقاصد العليا الحاكمة الخمسة هي جماع مقاصد الحق من الخلق، وهي التي دارت حولها آيات الكتاب الكريم في سورة كلِّها، وعليها قامت أعمدة وحدته البنائية، وتفعيلها أيسر بكثير من تفعيل تلك التي تعارف الفقهاء والأصوليون -خاصَّة المتأخرون منهم- على اعتبارها مقاصد الشريعة، وهي

في الحقيقة حَكَمَ التشريع التي بدأ بذكرها الحكيم الترمذي؛ لبيّن حَكَمَ التشريع وفوائده؛ وليرد على أولئك الذين زعموا أنّ كل ما أمر الله به إنّما هو تحكُّم منه (جلّ شأنه) في عباده انطلاقًا من عقليّات الاستلاب «اللاهوتيّ»، ثم تتابعت الكتابات فيها إلى أن وصلت إلى أبي إسحاق الشاطبيّ الذي أفرد لها أهم كتبه؛ وهما «الاعتصام» و«الموافقات»، واشتهرت «الموافقات» بأنّها الكتاب الذي أسّس فيه مؤلفه لمقاصد الشريعة، وهي في الحقيقة حَكَمَ تشريع؛ ولذلك لم يستطع العلماء تفعيلها لجبر ما نقص من الفقه أو لإنتاج فقه في كل عصر ملائم لذلك العصر؛ ولذلك ظلّ الفقهاء في سائر العصور يلجؤون إلى صياغة الفتاوى من فتاوى أهل العصور السابقة وفقههم، ولعل أحسن ما كانوا يقومون به هو التخرّيج على أصولهم.

وهذه المقاصد متناسقة ومتداخلة ومتشابكة، تعمل ضمن وحدة مقاصديّة بحيث تشغل جميعها دون اشتغال واحدة وتعطيل الأخرى، بل تعمل معًا فتصنع "رؤية كليّة كونيّة" في الكون والإنسان والحياة، وتصنع نسقًا قرآنيًا فاعلًا في المعرفة والنشاط الإنسانيين بشكل شامل.

وقد بدأنا أولاً بالمقاصد القرآنيّة العليا الحاكمة الثلاثة: التوحيد، التزكية، العمران؛ وبعد أن سلّمنا بها في مختلف الجهات المعنيّة، وسلّم بها الكثيرون وصارت متداولة بين الباحثين في الغرب والشرق، أضفنا إليها مقصدين اثنين: الأُمّة، والدّعوة. وقد علّلنا ذلك بأنّ المقصدين –الأُمّة والدّعوة– لم يكونا غائبين عن ذهننا عند التأسيس للمقاصد العليا الثلاثة الحاكمة: التوحيد، التزكية، العمران، لكنّنا أجّلنا الكتابة عنهما بهذه الصفة لئلاّ تُستغلّ من بعض فئات الإسلام المسيّس فتترجم الأُمّة إلى "الدولة" و"الحكومة" وتخرج بها عن دائرة الاستخدام القرآنيّ. وكذلك مقصد الدعوة الذي قد يسقطه الدعاة المعاصرون المسيّسون على ما يقومون به من الدعوة إلى الفئات المسيّسة التي يعملون لها، والمفهوم القرآنيّ للدعوة شيء آخر.

وسألق لكم حوار دار بيني وبين دكتورة زينب العلواني ابنتي، حول المقاصد القرآنية العليا
الحاكمة، وتطبيقات عملية في تفعيل هذه المقاصد العليا:

بسم الله الرحمن الرحيم

مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين
مدارسة مع الدكتور طه جابر العلواني

د. زينب العلواني

مقدمة

لقد كانت وما تزال جدليّة القطع والظن من القضايا التي تدور حولها حوارات العلماء والأصوليين ومجادلاتهم في مجال تأسيس المناهج التي تتعامل مع النص، والتي أصبح تقييم أي منهج يعتمد بحسب قربه أو بعده من القطع أو الظن.

ومن هنا فإنَّ أهميّة المقاصد عند المعاصرين لا تكمن في تعريفها اصطلاحياً للكشف عن المعنى الشرعي فحسب، وإنّما في كَيْفِيَّة استحضارها كمنهج له القدرة على التعامل مع النص من داخله بالإضافة إلى قدرته على التقاطع مع الواقع الإنسانيّ. وبذلك يساعد في توجيه المجتهد وتشجيعه على بذل أقصى الجهد عند القيام بعملية استنباط الأحكام الشرعيّة، بل ومتابعة عملية التطبيق واختبار نتائجها (مآلات الأفعال)؛ بالإضافة إلى تحكيمها عند الاختلافات والمناقشات العلمية والفقهية حتى تتحقق المصلحة وتدفع المفسدة فتتم عملية تنزيل الوحي على أرض الواقع. فلا تقتصر أهمية الكشف عن المقاصد الشرعية في محور التأصيل النظري فحسب وإنما تمتد كمنهج إلى مستوى التطبيق وتحويل فهم أحكام الشرع إلى واقع وفعل يتكيف السلوك به حتى تصبح حركة الإنسان فرداً وأسرة ومجتمعاً طبقاً لمراد الله في أمره ونهيهِ وهي غاية التكليف وثمرته⁶⁸.

ومن هنا بدأت حوارات العلماء المعاصرين حول المقاصد منذ بدايات القرن العشرين بعد إخراج كتاب الموافقات للشاطبي إلى النور وتحقيقه من قبل الدكتور محمد عبد الله دراز، ومحاضرات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي كان يدرس مقاصد الشريعة مادة مستقلة والتي توجهها بوضع كتابه القيم (مقاصد الشريعة الإسلامية)⁶⁹. ثم تلاه العلامة المغربي علال الفاسي الذي كان يلقي محاضراته الجامعية حول المقاصد وأصدر بعد ذلك كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها)⁷⁰ وتوالت الجهود الجادة في دراسة المقاصد وتحليل مفرداتها

⁶⁸ العلواني، طه، مقاصد الشريعة (بيروت: دار الهادي، 2001م).

⁶⁹ انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (تونس، الدار التونسية للنشر، 1970م).

⁷⁰ الفاسي، علال، مقاصد الشريعة ومكارمها، (بيروت: دار الغرب، 1993م).

على المستويين النظري والتطبيقي⁷¹.

وتروم مجمل تلك الأدبيات والكتابات المعاصرة في هذا المجال بناء أصول المقاصد على الكليات، والبحث عن منهج يعتمد الكليات ويتجاوز الظنيات سعيًا لتفكيك جدلية القطعي والظني التي أخذت مساحات كبيرة ولفترة طويلة في مجادلات الفقهاء. ولذلك سعى العلماء المعاصرون على بناء المقاصد وغيرها من المناهج المتعلقة بها على أسس قطعية قادرة على التعامل مع مختلف الإشكاليات الإنسانية عبر الزمان. فتصبح لها القدرة على أن تهدي الفقيه في فتاواه، والمشرع القانوني في تكييف القضايا وعالم الاجتماع في معالجاته للظواهر والمشكلات الاجتماعية بشكل تضم فيه الجزئيات في إطار كلي متكامل يساعد على حل إشكاليات المعقدة التي تواجه الأمة، بل والإنسانية.

وقد أدى اهتمام العلماء المعاصرون بالمقاصد إلى استنباط وإعادة تنسيق الكشف عن مناهج تساهم في ضبط حركة التعامل مع النصوص للكشف عن مقاصدها، وخاصة في العقود الأخيرة، وذلك من خلال التركيز على استخلاص كليات القرآن الكريم وقيمه العليا ومقاصده.

كما تزامن فتح الحوارات بين العلماء في العقود الأخيرة حول المقاصد ومناهج الكشف عنها خاصة في النص القرآني مع الدعوة إلى التركيز على تطوير الدراسات القرآنية، وبذل الجهد في تطوير مناهج منضبطة في فهم النص القرآن الكريم والسنة النبوية في محاولات لتوظيف

الدلالات اللغوية والسياقات الاجتماعية والتاريخية والاستفادة من علوم اللسانيات المعاصرة والعلوم الاجتماعية والإنسانية وغيرها كأدوات ووسائل منهجية في الاستنباط، مع الحفاظ على مرجعية النص واستخلاص كلياته بالرجوع المستمر إليه وفقًا لتوجيهات الشارع.

⁷¹ صدرت مجموعة كبيرة من الكتب والأبحاث العلمية الجادة، بل وفتحت أقسام جامعية ومؤسسات علمية لدراسة وتقييم المقاصد، والتي تشكل بدورها تراكمًا علميًا مهمًا في تطوير منهج المقاصد والسير به من مرحلة النقاش والحوار بين العلماء في جانبه النظري والعملية إلى مرحلة التفعيل وجعله واقع يعيشه الإنسان. أنظر إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وإصدارات الجامعات الإسلامية وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

وبدأت تظهر بذور هذا المنهج في مناقشات وحوارات جمال الدين الأفغاني⁷² ثم محمد عبده الذي أكد وطور هذا المنهج وبدأ يدعو إلى بناء فقه السنن القرآني في الأمم وفي الحضارات الإنسانية، وتبعه تلميذه رشيد رضا ثم طورها مالك بن نبي في كتاباته حول الحضارة والثقافة والمدنية وغيرهم الكثير من العلماء المعاصرين الذين ركزوا على دراسة القرآن الكريم في محاولات للكشف عن مقاصد التشريع من منظور اجتماعي، أدى بهم إلى طرح أهم التحديات والإشكاليات الاجتماعية التي تواجه المجتمعات المعاصرة، مستنطقين القرآن الكريم للاجابة عليها كالفقر والظلم والاستبداد وغياب دور المرأة وغيرها، ضمن إطار مقاصدي.

وقد تبلور على سبيل المثال مراعاة منهج الوحدة البنائية في القرآن⁷³ والذي ظهر واضحاً في كتاب "النبا العظيم"⁷⁴ لمحمد عبد الله دراز الذي أصل مفرداته وطبقه في أطول سورة في القرآن وأغناها تنوعاً في الموضوعات "سورة البقرة"، فبين التناسب والترابط والاتلاف بين آيات الكتاب المجيد وأجزائه.

وجاءت محاولات ابن عاشور في تسكين الأحكام المختلفة المتعلقة بالفعل الإنساني اجتهادات متميزة تواكب تلك المرحلة الداعية للكشف عن المناهج العلمية الدقيقة والقادرة على تقييم مختلف الأطروحات والتحديات التي تواجه الأمة على جميع المستويات. فوظف ابن عاشور معطيات ابن خلدون المنهجية وطورها، واستكمل ما فات الإمام الشاطبي، ومهد لمن جاء بعده خاصة في محاولته لإخراج المقاصد من الإطار النظري إلى القيام بتطبيقات ناجحة للمقاصد في دوائر المعاملات والسلوكيات فركز على العائلة ومقاصد أحكامها، ووضع اللبنة التأسيسية لفقه العلاقات من خلال تنظيمه لمقاصد العائلة التي العلاقات في الصهر والقربة والنكاح وجعلها من مقاصد العائلة فتعامل معها كموضوع متكامل. وخرج بها

⁷² الأفغاني، جمال الدين، الأعمال الكاملة، تحقيق: د. محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م). انظر أيضاً: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، العروة الوثقى (بيروت: دار الكتاب العربي).

⁷³ انظر: العلواني، طه، الوحدة البنائية للقرآن المجيد (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006م).

⁷⁴ دراز، محمد عبدالله، النبا العظيم: نظرات جديدة في القرآن، تحقيق: عبد الحميد أحمد الدخاخي (القاهرة: دار المرابط، دار طيبة، 1997م). والشيخ دراز هو الذي قام بتحقيق والتعليق على كتاب الموافقات للشاطبي والذي يعد ركيزة علم المقاصد.

من إطار التركيز على مقصد التناسل إلى تقديم الأسرة كمؤسسة اجتماعية مهمة تُخلَق فيها منظومة العلاقات الإنسانية بمختلف أواصرها، وتحدد فيها الحقوق والواجبات من خلال أنظمة دقيقة تحمي تلك العلاقات سواء في بناءها أو انحلالها. فظهرت الأسرة في مشروعه وكأنها صورة لأمة مصغرة.

وتضافرت الجهود منذ ذلك الوقت إلى الآن في بحوث جادة في تطوير المقاصد وبناء لبناتها كمنهج قطعي يقيم من خلاله الفعل الإنساني على مستوى العلماء والباحثين في مختلف الحقول ويمتد إلى الفرد والأسرة بل والمجتمع العالمي.

ومن هنا جاء هذا الحوار ليقوم واحدة من أهم الأطروحات المنهجية في مجال المقاصد، والتي قدمها وطورها الأصولي والمفكر الدكتور طه العلواني في مجال تطوير المناهج التي تتعامل مع النصوص.

فخلص العلواني⁷⁵ بعد أن استوعب ما جاء قبله من الأطروحات محاولاً تجاوزها بأن استنبط بعد استقرار تام للقرآن الكريم أن المقاصد المحورية التي تدور حولها سور القرآن وآياته وما اتفقت عليه النبوات السابقة يمكن حصرها في ثلاث: وهي (التوحيد والتزكية والعمران) وهي تقوم على قاعدة أن الله خالق الكون واستخلف الإنسان في الأرض لعمارها فما يجري في الأرض هو حاصل هذه العلاقة بين الله والإنسان المستخلف والكون المسخر الذي هو ميدان الخلق الإلهي والتسخير والإرادة والعمران⁷⁶، وميدان الفعل الإنساني لتحقيق ذلك العمران. فالتوحيد يمثل حق الله على العباد وبدونه لا يتحقق شيء من المنظومة ولذلك جاء به جميع الأنبياء، والتزكية تمثل أهم مؤهلات الإنسان المستخلف وبدونها يفقد أهليته للقيام بدور الخليفة، كما يفقد مؤهلاته للعمران، والكون خلق ليعمر، ودارت سور القرآن حول هذه المقاصد التي إن ادبجت ساوت العبادة وإذا فكك المفهوم سيصل إلى هذه الثلاثة.

⁷⁵ العلواني، طه، مقاصد الشريعة، كتاب قضايا إسلامية معاصرة، الكتاب الثامن والعشرون، (سنة 1421هـ / 2000م)، ص122.

⁷⁶ انظر: العلواني، طه، مقاصد الشريعة، (بيروت: دار الهادي، 2001م).

وبعد مراجعته الجادة للتراث الأصولي والفقهى بين أن عناية الفقهاء السابقين بالمصطلحات وبالتفريق بين الأدلة في قضايا القطع والظن، والاستفادة من ترجمة المنطق والفلسفة في بناء المصطلحات الفقهية وتدوين كتب الفقه؛ مما أدى إلى التركيز على المصطلحات المقتبسة من الفلسفة والمنطق ليقال: "هذا واجب أو فرض، ومندوب أو مستحب، وحرام أو محظور، أو خلاف الأولى ومباح أو طلق". لتربط هذه المصطلحات بمعاني الثواب والعقاب أو المدح والذم ونحوها ولتقوم على القطعية أو الظنية في الدليل. ومن هنا حدثت ثغرة في الفقه وأصوله، وغابت المقاصد أو انزوت لتظهر حين تظهر على يد الشاطبي، ولتنحصر بمقاصد المكلفين - عنده - حتى بدت وكأنها مفرعة عن "المصالح" وهي ليست كذلك.

ومن هنا أكد في أطروحته على ضرورة "العودة إلى الأمر الأول"⁽⁷⁷⁾ والانطلاق من المقاصد العليا والقيم الحاكمة لتقييم الفعل الإنساني ثم إعطاءه الوصف الملائم له من كونه "ينبغي أن يفعل" أو "لا يفعل" ونحو ذلك - كما كان كبار الأئمة يعبرون - قبل شيوع النظر إلى القضايا المنطقية، والمصطلحات الفلسفية التي كان المتقدمون ينظرون إليها نظرة ثانوية، فإنّ الخطر في إهمال أو تجاوز بعضها أقل بكثير من تجاوز المقاصد القرآنية العليا والقيم الحاكمة التي كرست آياته لإرساء دعائمها.

وهكذا فقد اعتبر أن ما قدمه الشاطبي وغيره من علماء المقاصد تعتبر ضمن مستويات المقاصد العائدة إلى المكلفين وهي "الضروريات" - و"الحاجيات" - و"التحسينيات" والتي يجب أن تربط بالمقاصد العليا الثلاث: التوحيد والتزكية وال عمران.

فخلص بذلك إلى أن التوحيد والتزكية وال عمران هي المقاصد القرآنية العليا الحاكمة لأنها انبثقت من استقراء تام لآيات القرآن الكريم، ومن الممكن أن تتفرع عنها المقاصد

⁽⁷⁷⁾ هذا تعبير أبي شامة المقدسي وعنوان كتابه "الرد إلى الأمر الأول" الذي نشر مختصراً ضمن "مجموعة الرسائل المنيرية".

الأخرى بحسب مستوياتها⁷⁸ لتصبح المنظومة كلها قادرة على بناء قواعد أصولية، تمد المجتهد المعاصر والمفتي والمستفتي بالقدرة على الوصول إلى فقه قرآني نبوي قائم على القرآن إنشاءً، وعلى السنن التي هي في حقيقتها ذات أصول وجذور قرآنية، وتعد تأويلاً لآيات الكتاب وتفعيلاً لها وتطبيقاً عملياً، يقتزن بالقول أحياناً، أو يكون فعلاً مجرداً على القول، أو فعلاً حدث بين رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وأقره، أو يكون قولاً يستدعي أو يقتضي فعلاً. فتكون مصادر أو أصول الفقه أصولاً قرآنية ينشئها القرآن ويفعلها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في واقع يعيشه الناس، ويتمكنون بالتأسي به (صلى الله عليه وآله وسلم)، باتباع الكتاب وحسن تأويله وتفعيله.

أما عن كيفية تفعيل هذه المقاصد فبين أنها تعتمد على التجارب التي سيقوم بها العلماء المعنيين بتفعيل هذا النسق وقد تكون من أهم العوامل المساعدة على بلورة منهج التفعيل. كما يؤكد على أن نقطة الإيجابية في مسائل إجراءات التفعيل قد تكون في استكمال أدوات (بناء فقه الواقع) فإذا استكملت هذه الأدوات وكشف عن إجراءاتها فسوف تقدم العديد من الخطوات المنهجية التي تساعد في بناء وبلورة منهج التفعيل. ومن هنا جاء هذا الحوار ليختبر قدرات المنهج المطروح من خلال جانبه التطبيقي العملي.

⁷⁸ وقد بين العلواني بعض المستويات فأشار إلى ما اسماه بالمستوى الثاني من المقاصد وهو مستوى القيم (كالعدل والحرية والمساواة وهو ضروري لتحقيق القيم العليا. وجعل المستوى الثالث هو ما جرى تركيز الأصوليين والفقهاء عليه وصنفوها إلى الضروريات والحاجيات والتحسينيات، والتي عدوها مقاصد الشريعة -وفي رأيه- أنها تشكل فقط مقاصد المكلفين والتي بمفردها لم تستطع أن تولد أو تقدم منظومة الأحكام التي نحتاجها لتغطية ومعالجة كل مستجدات الحياة التي تتعلق بها الفعل الإنساني حتى يوم الدين، لأنها كانت بمقام الحكيم والمقاصد لدعم القياس وتوسيع آفاقه، وتعزيز لدليل المصلحة وبناء الثقة برعاية الأحكام الشرعية لمصالح العباد. وبقيت بذلك الأحكام التكاليفية منها والوضعية تدور حول محاور الأوامر والنواهي والمنطوقات اللغوية التي أدت إلى بناء وتدعيم الاتجاه الجزئي في النظر الفقهي.

حول

المنظومة الثلاثية التي أطلق عليها

المقاصد القرآنية الحاكمة وحددها بالتوحيد والتزكية وال عمران

أجرت الحوار الدكتورة زينب العلواني

السؤال الأول: خلال عملي في إعداد رسالتي حول المقاصد (تفعيل المقاصد في قضايا الأسرة الزواج والطلاق: أمريكا أنموذجًا)، اكتشفت أن مقاصد الشريعة يمكن أن يكون لها هيكل كلي تتفرع عنه هياكل جزئية لمختلف الجوانب المتعلقة بحياتنا الإسلامية وقد لفت نظري أن العلماء قد اختلفوا في تناولهم للمقاصد الشرعية اختلافات كثيرة. فالتيار الأعم والأشمل هو التيار الذي جعل من مقاصد الشريعة وسيلة لبيان فضائل الشريعة الإسلامية وبيان مزاياها وحكمة التشريع فيها مما أدى إلى قيام بعض الكاتبن بالتساؤل وماذا بعد؟ وكيف نفعل هذه المقاصد في حياتنا التشريعية ونربط مختلف القضايا بها ونستخرج منها أحكامًا مثل تلك التي استنبطها الأصوليون وصنفوها إلى أحكام وضعية وتكليفية.

وقد وجدت أن هناك اجماعًا غير معلن بين حملة التجديد في أمتنا المسلمة في القرنين الأخيرين على استدعاء المقاصد وتفعيلها باعتبارها الوسيلة الأساس، والبديل الأفضل، عن محاولات تجديد أصول الفقه والفقه بأشكال مختلفة. لكنني وجدت أن دعاة التجديد وهم أئمة كبار مثل الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا وتلميذه حسن البناء والعلماء الذين ظهوروا بالقارة الهندية من ورثة حركات التجديد التي برزت على أيدي الشيخ شاه ولي الله الدهلوي. وكذلك في إيران على أيدي علماء كبار أمثال النائيني الذي حاول تجديد علمه واطروحاته

الشيخ محمد مهدي شمس الدين. هؤلاء كلهم وفي المغرب العربي وسواه مثل ابن باديس والبشير الإبراهيمي وابن عاشور، كل هؤلاء كانوا يرون أن استدعاء مقاصد الشريعة وتفعيلها هو السبيل الأهدى والأكثر فاعلية لتجديد أصول الفقه والفقه.

وكأن هناك اتفاقاً ضمناً بين هؤلاء وعلماء التجديد كافة، على ضرورة مراجعة كثير من مباحث أصول الفقه وأبواب الفقه، والعمل على جعل هذين العلمين المتلازمين أقدر على الاستجابة للاحتياجات الشرعية والفقهية الكثيرة والمتجددة والمعقدة في عصرنا هذا. وقد وجدت أن هناك نوعاً من المزج بين المقاصد التي تحدث عنها نحو أمام الحرمين والغزالي والعز والشاطبي وآخرون وبين محاور القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وأحياناً ألمس شيئاً من المزج بين الحكم والعلل مما لا تخفى الفروق بينها لدى المتخصصين. فأجد أحياناً من يقترح زيادة مقصد (الحرية) كما فعل ابن عاشور أو العدالة كما فعل الشيخ محمد الغزالي، أو حقوق الإنسان كما اقترح آخرون ولا شك أن الحرية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان وأداء الأمانات هي كليات قرآنية أساسية وهي مقصودة للشارع، والأدلة على ذلك كثيرة. لكنني أريد الوصول إلى تلك المقاصد التي يمكننا بتفعيلها أن نستجيب لتحديات عصرنا، ونثبت صلاحية الإسلام، وعقيدته وشريعته ومنهاجه لكل زمان ومكان، ليتفق ذلك مع أطروحاتنا القائمة على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وقادر على تكوين الأنساق الثقافية والحضارية.

وبما أننا نعيش في الغرب، ونواجه تحديات يومية، ونشارك أهلها خيرها وشرها. فإني لا أريد أن أرى أن كل من يستفتى عن شيء يهرع إلى فقه الضرورة وما إليه، ليجيب عن تلك التحديات، أو يهرع إلى أمر قد تعلمنا في دراستنا لأصول الفقه أنه غير مقبول، وهو القياس على أقوال المتقدمين من الفقهاء التي ثبتت بالقياس، وكما لا يخفى عليكم أنه ممنوع عند الأصوليين لأنه سوف يؤدي إلى إثبات أحكام أو فتاوى بالقياس على ما هو ثابت بالقياس، وذلك أمر ممنوع لديهم باتفاق وإن استعمله كثيرون.

من هنا فقد اهتم الكثيرون بأطروحاتكم القائمة على أن "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة" تنحصر في مقاصد ثلاث بناء على استقراءكم القرآن الكريم من سورة الفاتحة حتى سورة الناس والتي حددتموها بثلاثية "التوحيد والتزكية والعمران".

وقد لاحظت اضطرابًا في الآراء حولها، فالبعض يرى ضرورة انحصار هذه المقاصد بالثلاث المذكورة. والبعض يرى أنكم قد طرحتموها بدون أن تبينوا لنا وسائل لتفعيلها، أو بناء أصول وفقه عليها. وبعضهم أراح نفسه واعتبرها أطروحة كسائر الأطروحات التي سبقتها تصب في إطار فضائل الشريعة. ولذلك فقد رأيت أن أحاوركم في هذا الأمر رغبة في جلاء هذه الأطروحة، ومساعدة القراء خاصة المعنيين بالفقه وأصوله على معرفة مفردات هذه الأطروحة. وكيف توصلتم إليها، وما هي وسائل تفعيلها وآلياتها الإجرائية، التي يستطيع الأصولي والفقيه استعمالها وتوظيفها للحصول على أحكام مستمدة من القرآن باعتباره المصدر المنشئ للعقيدة والشريعة والمنهاج، والسنة النبوية باعتبارها مصدر التفعيل والتأويل والتطبيق في الواقع المعاش؟؟ !!

الإجابة:

الحاجة إلى التجديد في المنهج:

لقد بدأت دراساتي في العلوم النقلية في عام 1949م ودرست العلوم الشرعية على أيدي مشايخ كانوا يدرّسون في المساجد على الطريقة القديمة وحصلت على اجازات من كثير منهم ومن هؤلاء الشيخ عبد العزيز السامرائي، وشمخي إمام العراقيين عراق العرب وعراق العجم الشيخ أجد الزهاوي، وقد أجازني في الفقه الحنفي وأصوله، وشمخي حفيد أبي الشاء الذي أجازني إجازة عامة، وشمخي قاسم القيسي مفتي العراق حتى وفاته عام 1954م، وشمخي عبد القادر الخطيب، خطيب جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وكان إمامًا في علوم القرآن الكريم والقراءات خاصة، وشمخي محمد القرلجي. ثم شيوخي المصريين وفي مقدمتهم الأخوان الشيخان مصطفى وعبد الغني عبد الخالق، والشيخ مصطفى مجاهد، والشيخ طه الديناري، والشيخ جاد الرب رمضان، والشيخ محمد السائس، والشيخ عيسى منون، ثم شميخي الأخير الذي تتلمذت عليه في المملكة العربية السعودية وهو الشيخ عبد العزيز بن باز، أما الشيخ ابن عثيمين فقد كنا كثيرًا ما نتحاور ونستفيد من حواراتنا وكان يعدني من زملاءه، وكذلك محمد بهجت الأثري رحم الله الجميع وجزاهم عني خير الجزاء.

وبعد أن فرغت من دراساتي تلك بل وقبل أن أفرغ أو أن أحمل الإجازات والشهادات، كنت قد بدأت بتدريس تلك العلوم في الحلقات والمساجد وفي الكليات والجامعات، حيث كنت ولعشر سنوات أدرّس الفقه وأصوله في جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، وكنت قد أشرفت على عشرات الرسائل ولي عشرات الطلاب الذين أعتز بهم، والذين يتسمنون الآن كراسي الأستاذة في جامعات شرقية وغربية مرموقة.

وبعد تلك الرحلة الطويلة وجدت نفسي في الولايات المتحدة مقيمًا هناك وقد سلخت من عمري خمسًا وعشرين سنة في تلك البلاد وما أزال مقيمًا فيها. توجه إلي في كل يوم وليلة ما بين سبعة إلى عشرة من الأسئلة عن موقف الشريعة الإسلامية أو حكمها في قضايا، خمس

وتسعون بالمئة منها مستجدة لم تعرض لفقهاءنا من قبل ولا أجد لها في المطولات: مغني ابن قدامة، ومحلى ابن حزم، والمبسوط للسرخسي، والألم للشافعي، إجابات يمكن أن ينشرح لها الصدر أو يطمئن لها القلب. بل معظم تلك الإجابات التي كنت أستقيها من أمارت المطولات الفقهية للمذاهب الثمانية السائدة تحيك في صدري وتشغلي كثيراً لدرجة يضيق بها صدري ولا ينطلق بها لساني. وربما أجلس لنفسي أحياناً فأجهش بالبكاء وأدخل في حيرة لا أخرج منها إلا بقراءة القرآن الكريم الذي يخرجني من تلك الحيرة بكلياته وسننه ولوامع بيناته، ويمنحني حالة الثلج وبرد اليقين.

ولذلك وصلت إلى قناعة تامة ومطلقة بأننا حين نواجه تحديات العصر بترائنا خاصة نحن المقيمين في الغرب، لنحاول إسقاط إجابات التراث على المعاصرة وتحدياتها. فإن ذلك سيقودنا إلى نوع من الخيبة واليأس من التمكن من مواجهة تحديات العصر وأسئلته وإشكالياته بوسائل وإجابات صاغها أسلافنا لمواجهة تحديات واقع مغاير في جل مقوماته عن واقعنا هذا. وإن استمرار البحث في التراث والعمل على استنهاضه لينوب عنا في الإجابة عن أسئلة عصرنا سوف لن يؤدي بنا إلا إلى نوع من الفشل. وقد يجعل الطريق سالكة أمام أبنائنا باتجاه الأفكار الوضعية والعلمانية، والنظر إلى مقولاتنا بأن الإسلام هو الحل، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه قادر على إعادة صياغة الحياة، هذه الأطروحات كلها سوف يُنظر إليها على أنها أطروحات تحريضية وغير عملية.

إذ من الصعب إن لم يكن من المتعذر أن نسقط إجابات وحلولاً قدمت لواقع مغاير لواقعنا في نظمه ومقوماته، وعلاقات الإنتاج والتوزيع فيه، والتغيرات التي أصابت نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حتى صار مغايراً في ذلك كله، على واقع جديد بينه وبين الواقع الآخر المتقدم أو الماضي كل تلك الفروق. إذاً فطريق الرجوع إلى التراث وتحسير العلاقة بين الماضي والحاضر لن يعالج مشكلاتنا ولن يضعنا على طريق الحل.

من هنا كان لابد من الرجوع إلى كتاب الله فهو المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو المخرج من الفتن كلها، وهو كتاب كوني يستوعب الكون وحركته لا يتوقف عند مكان معين، أو في زمان محدد وهو كتاب مطلق. يستطيع الاستجابة لحركة الكون ولحركة الإنسان، وهو المصدق الذي يستطيع أن يعيد كل ما حُرف من رسالات الأنبياء إلى حالة الصدق، ثم يقوم بالهيمنة عليها، وهو المستوعب والمتجاوز، وهو الكتاب الذي وصفه الله وهو المتكلم به "بأنه تبيان لكل شيء"، ما فرط الله فيه من شيء، يبين للناس كل الذي يختلفون فيه، وهو الحق كله لا يأتي الناس بمثل إلا جاء القرآن بالحق وأحسن تفسيراً.

المقاصد المحورية:

فوجدت بعد الاستقراء التام أن المقاصد المحورية التي تدور حولها سور القرآن وآياته يمكن حصرها في ثلاث:

المقصد الأول: هو التوحيد أي إفراد الله (تبارك وتعالى) بالربوبية والإلهية والصفات، فلا يشاركه سبحانه أحد في أي شي من هذا وهو مقصد يعد في قمة مقاصد القرآن العليا الحاكمة، لا ينافسه في أهميته أي مقصد آخر. وحين نقول التوحيد فإنه يشمل بالإضافة إلى ما ذكرنا، عالم الغيب كله، لأن التوحيد محور أساس لعالمي الغيب والشهادة، لا يستغني أي منهما في كليته أو جزئياته عن التوحيد وتجلياته على العالمين بكل تفاصيلهما. والفعل الإنساني أيًا كان يتأثر بشكل مباشر بهذا المقصد المحوري إيجابًا وسلبًا، ويتوقف على مراعاته وملاحظته جانب كبير من تقييم الفعل الإنساني.

أما المقصد الثاني المحوري في القرآن المجيد فهو مقصد التزكية. تزكية الإنسان لنفسه وليئته ولنظم حياته ومجتمعه، ولكل ما يعايشه أو يتصل به. والتزكية هي فلاح الإنسان وإمكاناته للقيام بمهمة الوفاء بالعهد الإلهي والقيام بمهمة الاستخلاص، والوفاء بحق الأمانة الإلهية التي أئتمن الله الإنسان عليها، والنجاح في اختبار الابتلاء. كل هذه الأمور تتوقف على التزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 9-10) ولذلك لابد من اعتبار التزكية محورًا لا يُستغنى عنه ولا يمكن تجاوزه. فسور القرآن وآياته المتعلقة بالتوحيد، بل التوحيد ذاته يتصل بالتزكية اتصالًا لا انفصام له. ومن هنا كانت التزكية موضوع العديد من نجوم القرآن الكريم.

ثم يأتي **المقصد المحوري الحاكم الثالث**، إلا وهو العمران. فالعمران عندنا يقوم على إعمار الكون وإحياء مواته والاستفادة بكل ما اتاحه التسخير الإلهي من النعم الظاهرة والكامنة فيه، وجعل كل شيء فيه داخلًا في دائرة التسبيح لله سبحانه. فالأرض حين تحمل

فلا تزرع ولا تسكن تعد ميتة، وإحياءها يكون بوضعها على طريق عمراني يجعلها حية معطاء. وكذلك كل شيء من المسخرات في هذا الكون.

والفعل الإنساني هو ثمرة تفاعل بين هذه المقاصد المحورية الثلاثة. ولا بد من ملاحظتها كلها فيه، وأن يقوم تقييمه في جانب الإيجاب أو السلب بناءً على ملاحظة تفاعله وتأثره بشكل إيجابي مع تلك المقاصد المحورية الثلاثة. فالحسن منه والمقبول والمشروع هو الفعل الذي ينطلق من التوحيد، ويدل على قوته ومتانته في ضمير الإنسان ويكون في الوقت نفسه منبثقاً من نفس إنسانية مزكاة وتكون غايته ونتيجته تتصل وتصب في دائرة العمران لا دائرة الإفساد في الأرض.

فهذه مقاصد قرآنية عليا حاكمة انبثقت من استقراء تام لآيات القرآن الكريم. ويمكن أن تتفرع عنها المقاصد الأخرى بحسب مستوياتها لتصبح المنظومة كلها قادرة على بناء قواعد أصولية، قادرة على مد المجتهد المعاصر والمفتي والمستفتي بالقدرة على الوصول إلى فقه قرآني نبوي قائم على القرآن إنشاءً، وعلى السنن التي هي في حقيقتها ذات أصول وجذور قرآنية، وتعد تأويلاً لآيات الكتاب وتفعيلاً لها وتطبيقاً عملياً، يقتزن بالقول أحياناً، أو يكون فعلاً مجرداً عن القول، أو فعلاً حدث بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقره الله عليه، أو يكون قولاً يستدعي أو يقتضي فعلاً. وفي كل الأحوال ستكون مصادر أو أصول الفقه أصولاً قرآنية ينشئها القرآن ويفعلها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في واقع يعيشه الناس، ويتمكنون بالتأسي به صلى الله عليه وآله وسلم، باتباع الكتاب وحسن تأويله وتفعيله بإذن الله.

والذي نعمل فيه الآن هو كيفية تفعيل هذه المقاصد الثلاث في بناء أصول الفقه القرآني واستنباط الأحكام الفقهية القرآنية في المستجدات وفي مواجهة التحديات من القرآن وفقاً لمنهجه، مهتدين بأنوار التجربة النبوية في جيل التلقي.

وسائل التفعيل وآلياته الإجرائية:

إن أهم صعوبة تواجهنا ونحن في مرحلة بناء هذه المنظومة، أنها منظومة من المتعذر أن يقوم بتشغيلها أو تفعيلها المجتهد الفرد، لأن تشغيلها يقتضي أول ما يقتضي قدرة واسعة على تكييف الوقائع، وفهم أبعاد سائرها، وتحديد كل متغير أو معطى له علاقة بها وقدرة على الميز بين ما هو كلي أو جزئي منها. ولا يخفى أن هذا النوع من الجهود يقتضي فيما يقتضي مجامع كبيرة من علماء الاجتماعيات والطبيعات في مختلف التخصصات، لاستقراء معطياتها وسائر المتغيرات فيها، وصياغة الإشكالية سؤالاً يطرح على علماء المقاصد الثلاث، الذين ينبغي أن يكونوا أكثر من واحد، ويكونون ذوي إلمام ما ببعض التخصصات الاجتماعية وذوي معرفة عامة بالطبيعات، تمكنهم من فهم لغة أولئك الذين يصيغون الإشكاليات والأسئلة من خلال فقه دقيق للواقع مستغرق لمعطياته ومتغيراته.

آنذاك يمكن أن تعمل هذه المنظومة بشكل دقيق وتؤدي دورها في ترشيد وهداية الحياة الإنسانية بشكل سليم. وذلك يعني أننا سنكون بحاجة إلى مجامع من المؤهلين في مختلف التخصصات يعملون معاً، وفي انسجام تام لقيادة الجدل والتفاعل بين الواقع المتغير والمقاصد العليا الحاكمة. ولكي نحصل على المؤهلين فإننا بحاجة إلى جامعات ومعاهد تختار برامجها في عناية فائقة لايجاد وتخرج مثل هؤلاء ليقوموا بالمهمة.

مراجعات في فقها الموروث: نماذج تطبيقية

وقد يكون من الممكن على سبيل الاختبار والتجربة والتقريب إلى الأذهان أن نقوم بمراجعات لبعض القضايا التي عالجها فقها الموروث فيما مضى، ونعيد عرضها على هذه المنظومة لمعرفة إلى أي مدى لاحظ المتقدمون ممن أفتوا في تلك القضايا هذه المقاصد العليا الحاكمة، ولا حظوا المقاصد الأخرى في داخلها.

النموذج الأول: مسألة تقسيم الأرض بين المراجعة والتقييم:

تقسيم الأرض: أبعاد منهجية غائبة

فقضية تقسيم الأرض⁷⁹ التي تبناها فقهاؤنا فيما مضى إلى دار الإسلام ودار الحرب ودار عهد وما إلى ذلك، وحينما نحاول مراجعة هذه القضية بأدلتها على المقاصد القرآنية العليا

⁷⁹ لقد قام الشيخ العلواني بمراجعة دقيقة وتحليل منهجي لمسألة التقسيم الفقهي للأرض في ورقة مدخل إلى فقه الأقليات (قدمها في ندوة تطور العلوم الفقهية) في عُمان 2009/4/8 وزارة الأوقاف والشئون الدينية - سلطنة عُمان.

فتوصل إلى المحددات المنهجية التالية:

أما الأسباب المنهجية فأهمها:

أولاً: لم يرتب بعض فقهاءنا المتقدمين مصادر التشريع الترتيب الدقيق الذي يعين على حسن لاستنباط منها لقضايا العصر؛ والترتيب المقترح لهذه المصادر يقضي باعتبار القرآن الكريم أصل الأصول، ومنع التشريع، والمصدر التأسيسي المهيمن على كل ما سواه، والمقدم على كل ما عده عند التعارض: فهو المصدر المطلق المنشئ والكاشف عن الأحكام، لا يطراً عليه نسخ، ولا يقوم لمعارضته غيره. كما يقضي هذا الترتيب اعتبار السنة النبوية مصدراً بيانياً ملزماً يتكامل مع بيان القرآن لنفسه ويفصله ويتبعه ويطبّقه في الواقع، لتقدم الأسوة والنموذج.

ثانياً: لم يأخذ أكثر فقهاءنا عالمية الإسلام بعين الاعتبار "محدداً منهجياً" في تنظيرهم الفقهي لعلاقة المسلمين بغيرهم، بل عبّروا عن نوع من الانطواء على الذات لا يتناسب مع خصائص الرسالة الخاتمة والأمة المخرجة الشاهدة، كما حدث نوع من التركيز على المحيط الجغرافي والاجتماعي بدرجة قد توجي إلى البعض بارتباط الإسلام بذلك المحيط الذي بلغه في فترة انتشاره الأولى.

ثالثاً: تأثر الفقهاء بالعرف التاريخي الواقعي السائد في عصورهم حول التقسيم الدولي للعالم، فزاد في تركيز نظرهم للموضوع، وابتعدوا عن المفهوم القرآني للجغرافيا، فأخذ الفقه الموروث - في غالبه - صفة المحلية.

رابعاً: لم تبرز القيم العليا الحاكمة ومقاصد الشريعة التوحيد والتركية وال عمران بقدر كاف ومناسب مما كترت الصفة الجزئية للفقه، وأعطاه الطابع الشخصي إلى حد كبير، أو كما قال الإمام الغزالي "...: إنه من العلوم الجزئية..."

وأما الأسباب ذات الصلة بتحقيق المناط فأهمها:

أولاً: لم يعتد المسلمون في تاريخهم - بعد عصر الرسالة - على اللجوء إلى بلاد غير إسلامية طلباً لحق مهدر أو هرباً من ظلم مفروض، بل كانت بلاد الإسلام في الغالب أرض عز ومنعة، ولم تكن تفصل بينها حدود سياسية مانعة؛ فإذا ضاقت بمسلم أرض، أو انسدت عليه سبيل، تحول إلى ناحية أخرى من البلاد الإسلامية الفسيحة، دون أن يحس بغربة، أو تعتريه مذلة، أو تتغير عليه أحكام أو نظم.

ثانياً: لم تكن فكرة المواطنة كما نفهمها اليوم موجودة في العالم الذي عاش فيه فقهاؤنا الأقدمون، بل كان هناك نوع من الانتماء الثقافي لحضارة معينة، أو الانتماء السياسي إلى إمبراطورية معينة يعتمد المعيار العقائدي في الغالب أو العرقي، ويتعامل مع المخالفين في المعتقد بشيء من التحفظ، مع اختلاف في درجة التسامح من محاكم التفتيش الإسبانية إلى الذمة الإسلامية.

الحاكمة. نجد أن هذا التقسيم للمعمورة بني على التسليم بواقع معين وهو واقع كان ينبغي العمل على تغييره لا التقنين له وشرعته، لأنه واقع غير مقبول عند النظر لأصول الفقه والفقه القائم على هذه المقاصد لأسباب عديدة بعضها تتعلق بالتوحيد الذي عندما يُلاحظ يستدعي فوراً وحدة الإنسانية من حيث أن الإنسان قد خلق من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. "ووحدة الإنسانية" تستدعي وحدة الأرض التي هي بيت ومهاد للأسرة الإنسانية كلها.

ونضيف إلى ذلك مبدأ خلق الأرض⁸⁰ وجعلها مهاداً لهذا الإنسان، يجعل منها بيتاً واسعاً لهذه الأسرة الممتدة مهما كبرت ويجعل كل ما فيها من أقوات قدرها الله ومياه خلقها الله

ثالثاً: لم تكن الإقامة في بلد غير البلد الأصلي تكسب المقيم حق المواطنة بناء على معايير ثابتة، مثل الميلاد في البلد المضيف، أو أمد الإقامة، أو الزواج... بل كان الوافد يتحول تلقائياً إلى مواطن إذا كان يشارك أهل البلد معتقداتهم وثقافتهم، أو يظل غريباً - مهما استقر به المقام - إذا كان مخالفاً لهم في ذلك.

رابعاً: لم يكن العالم القديم يعرف شيئاً اسمه القانون الدولي أو العلاقات الدبلوماسية، اللذين يحتملان على كل دولة حماية رعايا الدول الأخرى المقيمين على أرضها، ومعاملتهم بنفس معاملة الرعايا الأصليين، إلا في بعض الأمور الخاصة التي تقتضي حقوق المواطنة التميز فيها.

خامساً: كان منطق القوة هو الغالب على العلاقة بين الإمبراطوريات القديمة - بما فيها الدولة الإسلامية - فكانت كل منها تعتبر أرض الأخرى "دار حرب" يجوز غزوها وضمها كلياً أو جزئياً إلى الدولة الغالبة، إذ من طبيعة الإمبراطوريات أنها لا تعرف حدوداً إلا حيث تتعسر على جيوشها مواصلة الزحف.

سادساً: لم يعيش فقهاءنا الوحدة الأرضية التي نعيشها اليوم، حيث تتداخل الثقافات، وتعيش الأمم في عالم يكاد يكون واحداً. ولكنهم عاشوا في عالم من جزر منفصلة، لا تعايش بينها ولا تفاهم. فكان "فقه الحرب" طاغياً بحكم مقتضيات الواقع يومذاك. وما نحتاجه اليوم هو بناء "فقه التعايش" بين الأمم في واقع مختلف كما ونوعاً.

سابعاً: كان بعض الفقهاء الأقدمين والمتأخرين يعبرون بفتاواهم عن نوع من المقاومة وردة الفعل على واقع مخصوص يختلف عن واقعنا، وفي هذا الإطار يمكن أن ندرج كتاب ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم، وكذلك كتاب "الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب"، وكتاب "النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار"، وفتاوى علماء الجزائر في صدر هذا القرن بتحريم حمل الجنسية الفرنسية. فهذه الكتب والفتاوى جزء من ثقافة الصراع التي لا تحتاج الأقليات الإسلامية - اليوم - أن تجعل منها جزءاً من ثقافتها الحالية، ولكل منها ظروفه ومسوغاته.

⁸⁰ وقد ظهر واضحاً مبدأ الأرض الذي أشار له الشيخ في آيات عديدة وخاصة في قوله (تعالى): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)، وكذلك في قوله (تعالى): ﴿لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ (النبا: 6).

شركة بين أبناء هذه الأسرة الممتدة. فوحدة الانسانية، ووحدة الأرض في وظائفها لا تسمح بقبول هذه القسمة وحين يقوم واقع ما عليها فذلك لا يضيفي عليها شرعية.

وعندما نلاحظ جانب التزكية نستطيع أن ندرك أن التزكية تقتضي أن حالة السلم هي السائدة بين البشر كافة، وأن حالات الحرب هي حالات استثنائية تدل على انحراف في التصورات الإنسانية وفي الرؤية الكلية للبشر، وانحراف في أخلاق وسلوكيات الناس تدفعهم إلىبغي بعضهم على بعض في الأرض. وقد ضرب الله لذلك مثلاً بقصة ابني آدم⁸¹ وهذا كله مناقض لحالة "التزكية" ودليل على الهبوط في الحالة المناقضة لها وهي (التدسية) من دسّاه. إن تخريب الإنسان الأرض يعني انحراف آخر في الرؤية والتصرف والسلوك واعتداء على الكون المسخر وعبث في الأرض وإفساد فيها. وكل هذا على سبيل الإجمال. وتفصيل ذلك يحتاج - كما قلنا - إلى رصد عدد كبير من المتغيرات والمعطيات للكشف عن ذلك كله.

⁸¹ في قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ انِّي أُنَبِّئُكَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۖ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۖ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۖ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة: 27-32).

النموذج الثاني:

العلاقات الإنسانية بين السلم والحرب

كذلك لو أخذنا قضية الأصل في العلاقات بين الأمم والشعوب أهو السلم أم الحرب؟ فسنجد في تراثنا أقوالاً كثيرة، يناقض بعضها بعضاً. والنظر في منظومة المقاصد المحورية القرآنية الحاكمة يكشفنا مؤنة البحث المتشعب، فالأصل أن تكون البشرية كلها متحدة في مواجهة العدو المشترك وهو الشيطان ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يوسف: ٥)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

فتفرق البشر هو الأمر العارض الذي يحاول الشيطان تحقيقه، ولذلك فإن الحروب والصراعات نتيجة فساد الرؤية، حيث يتحول كل ما جعله الله وسيلة للتعارف بين الناس - مثل اختلاف الألسن والألوان والمصالح وما إلى ذلك - إلى وسيلة للتناقض والتصارع. فالرجوع إلى "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة" كفيل بتعديل مسار البشرية وتصحيح رؤيتها وإزالة أسباب التنافر والاختلاف فيما بينها.

ويمكن أن ينظر إلى حقوق الإنسان في الحرية ومنها حرية الاعتقاد والتدين والانتقال والملكية وحق الخصوصية لأن بهذا المنظور - كلها - نستطيع أن نجد لها مكانها الملائم في إطار الفقه الأكبر الذي ينبثق من ملاحظة ومراعاة "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة" ونستطيع الاستمرار في ذكر قضايا كثيرة مما تناولها تراثنا الأصول الفقهي والفقهي ولكن باجتهاد جماعي مشترك يحشد له علماء من مختلف التخصصات نصل فيه بإذن الله إلى كلمة سواء فضلاً عن القدرة التي يقدمها هذا النسق المقاصدي لمعالجة مختلف المستجدات.

نماذج تطبيقية معاصرة

الجانب السياسي

السؤال:

إن الشكوى تتعالى يوماً بعد آخر مما يعرف بفوضى الفتاوى وربما يكتشف الناس بعد أن تتعبهم محاولاتهم لتجاوز هذه الفوضى أن مرجعية المقاصد الحاكمة هي المخرج الوحيد من هذه الفوضى.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا ۖ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٠)، بعد اتخاذ الخطوات المتقدمة لابد أن يكون لدى علماءنا الذين يعملون على تفعيل المقاصد القرآنية الحاكمة أسئلة واضحة ومستقرة، توجه إلى كل مقصد من المقاصد القرآنية الحاكمة عند عرض كل قضية من مستجدات القضايا على هذه المنظومة، وتكون هذه الأسئلة شاملة مستقرة بقدر الإمكان، تشمل الجوانب الإيجابية منها والسلبية. والسؤال الذي كثر النقاش حوله هو قضية الجهاد في الإسلام فهل يمكن توضيح هذه المسألة من الرؤية المقاصيدية التي طرحتموها.

النموذج الأول: الجهاد

وليتضح ما نقول: هناك قضية الجهاد التي تناولها تراثنا بشكل أستطيع أن أقول لم يعبر تعبيراً دقيقاً عن المنظور القرآني للجهاد، فسائر أولئك الذين كتبوا في الجهاد والسير يفهم القارئ من طرائقهم في تناول الموضوع أن الجهاد هو القتال، وأنه قتال عن الدين أو لفرض

الإسلام على الآخرين. وقسموه إلى "جهاد دفع وجهاد طلب"، وبنوا على هذا التصور كل ما عرف بأنه جزء من آثار الحرب وأحكامها. فأحكام الأسرى وأحكام المعاهدات وما يتعلق بالغنائم والإعداد والتهيئة للقتال، وتقسيم المعمورة إلى دار حرب ودار إسلام، كل ذلك انطلق معظم الفقهاء المتقدمين فيه من هذا الفهم أو ذلك التصور: تصور أن الجهاد هو القتال.

وقد استقر في أذهان الكثيرين أنّ المسلمين إنما يقاتلون لحمل الناس على الدخول في الإسلام بالقوة بناء على حديث (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله.. فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها..). وهذا الحديث حديث لا يصح، لا سندًا ولا متناً ولو أنه قد روي بعد أن أشتهر ونسب إلى أبي بكر الصديق الاستشهاد به في حروب الردة وقد روي من مائتين وأربعة وثلاثين طريقاً، أربعون منها دارت كلها على الزهري، وأربع وعشرون على الأعمش وعشرون على حميد الطويل وستة عشر على شعيب بن أبي حمزة، واثنان عشر على سفيان الثوري، وستة على الحسن البصري، وأربعة على شريك النخعي، وكل من هؤلاء مدلس ولم يصرح بالسماع وبناءً على قواعد المحدثين والأئمة النقاد للأسانيد تعتبر هذه الطرق كلها مظلمة فباطلة لا اعتبار بها، خاصة ولفظ الحديث كما رواه يناقض بشكل صريح قول الله (تعالى): ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وأجمع المحدثون على أن ورود الحديث على مناقضة القرآن دليل على عدم صحته، وهناك عورات أخرى بالأسانيد يمكن لمن يريد أن يرجع للمصادر المعتبرة لدى النقاد لمعرفة تفاصيلها والكشف عنها.

ومن طرق الحديث ثلاث وعشرون تدور كلها على سماك بن حرب عن فوقه، وثمانية تدور على كثير بن عبيد وأربعة على سفيان بن عامر الترمذي وثلاثة على زياد بن قيس وواحد على حاتم بن يوسف الجلاب عن عبد المؤمن بن خالد، وواحد على عبد الرحمن

بن عبيد الله وواحد على عجرن مولى فاطمة وواحد على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة،
 وإثنان مرسلان. وسمك المذكور ضعيف وسائر هؤلاء مجهولون فالمدارات كلها مظلمة فباطلة
 لا اعتبار بها، ومن هذه الطرق سبعة تدور على العطاء بن عبد الرحمن، وإثنان على سليمان
 بن أبي داود وواحد على عمر بن أبي بكر الموصلي عن زكريا بن عيسى وواحد على يحيى بن
 أيوب الغافقي، وواحد على أحمد بن سليمان الواسطي، وواحد على أبي أحمد عبد الرحمن
 الوكيعي عن إبراهيم بن عينة.

وكل من هؤلاء ليس بمحل للحجة مطلقاً لا مفرداً ولا مقروناً بغيره وكلها مظلمة
 فباطلة لا اعتبار بها، فضلاً عن عورات أخرى بالأسانيد لا نطيل بذكرها، وقد استقرأنا
 استقراءً كاملاً كل هذه الطرق فما وجدنا منها طريقاً يسلم بحيث يقبل عند المحدثين. وتلك
 الطرق على كثرتها رأيت منها ما دار حول مدلسين أو مجاهيل أو ضعفاء أو مجروحين في
 عدالتهم وبالتالي فإن هذا الحديث لا يصح ولا يصلح أن يكون ناسخاً لغيره ولا مخصصاً ولا
 مقيداً فضلاً عن أن ينسخ بمثله القرآن الكريم القطعي الذي أثبتنا بما لا يدعي مجالاً للشك
 في كتابنا نحو موقف قرآني من النسخ⁸² أنه لا يقبل النسخ أبداً وأنه لا مبدل لكلمات الله
 وبالتالي فقول الله (تعالى) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ
 بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ
 تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) إلى مئتي آية وردت في تقرير حرية العقيدة
 والعبادة والتدين، هذه الآيات كلها محكمة وليس هناك ما يصلح أن يكون ناسخاً لها ولأن
 الهيمنة للقرآن والحاكمية له، وهذا هو الموقف القرآني السليم فإن أي خبر أو حديث أو
 حكم فقهي، يناقض القرآن يجب أن يرد، وعلى هذا فإن القتال لإكراه الناس على قبول
 الدين أو لإجبارهم على تغيير أديانهم أمر مرفوض بمقتضى القرآن الكريم. وآيات الجهاد

⁸² العلواني، طه جابر، نحو موقف قرآني من النسخ، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2007م).

والقتال التي وردت في القرآن الكريم لا تدل على أن علة الجهاد -ومستوى القتال منه- هي إكراه الناس على قبول الإسلام أو الاستمرار فيه.

وحين نتبع هذه الآيات في سياقها نجد ذلك واضحًا -فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم- والمؤمنون في مكة مع وجود المجتمع القبلي وكلهم لهم قبائل أو معظمهم لم يدافعوا عن أنفسهم بقتال ولم يستعملوا العنف لأن الله أمرهم بأن يكفوا أيديهم في قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٧٧) وتأويلًا منه (عليه الصلاة والسلام) للأمر الألهي في الواقع وتطبيقًا للتوجيه الرباني:

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ أَنْبَأَنَا أَبِي قَالَ أَنْبَأَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوْا النَّبِيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بِمَكَّةَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً فَقَالَ (إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرْنَا بِالْقِتَالِ فَكُفُّوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ..⁸³)

فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- نفسه قد تعرض للأذى من أبي جهل ومن أبي لهب وامراته ومن كثير من المشركين وكان يمنع من يريدون الدفاع عنه من فعل ذلك، كما منع الصحابة من الدفاع عن أنفسهم، وكان جوابه دائمًا تأويلًا للآية السالفة واتباعًا لها: (إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ) أي: وإنما أمرت بكف اليد، ولم يكن ذلك عن ضعف كما يتصور كثيرون، بل عن أمر آلهي، وذلك هو الفرق بين النبوة المهتدية بنبراس الوحي وبين القيادات والزعامات البشرية البراغمية التي تخضع خطواتها كلها لمقاييس دنيوية محضة قائمة على موازين القوى.

⁸³ تنظر: النسائي، رقم الحديث: 3036، موسوعة الحديث الشريف.

ففي المجتمع القبلي لا يكون الإنسان ضعيفاً وهو بين قبيلته وعشيرته ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ينتمي إلى أهم وأقوى قبيلة من قريش وله صهر وعلاقات مع معظم قبائل مكة وبيوتاتها، ومع ذلك فإنه لم يدفع عن نفسه ولا عن أصحابه وقبل الحصار في شعب أبي طالب، وتجاوز ردود الفعل عن تعذيب كثيرين من أصحابه _عليه الصلاة والسلام_ لأنه أمر بكف اليد، وأمرهم بالهجرة للحبشة لحماية أنفسهم ثم هاجر إلى المدينة المنورة بعد أن انتشر الإسلام فيها وعاهد أهم قبائلها، ولذلك كانت الآية الأولى في تشريع الجهاد التي بينت الإذن بالقتال بعد الأمر بكف اليد فكأنها بينت انتهاء مفعول ذلك الأمر بكف اليد بالإذن بالدفاع عن النفس ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، كانت أول إذن لهم في الدفاع عن أنفسهم وعن حرياتهم بعد الأمر السابق بكف اليد حتى في حالة الدفاع.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام باليقظة والحذر من أولئك الذين أبرموا معه معاهدات واتفاقات وأن عليه أن يدرس حالة كل مجموعة من هذه المجموعات لمعرفة من يلتزم منهم بعهدته أو معاهدته وأنه سيوفي بها وأولئك الذين يريدون أن يتخذوا من المعاهدة وسيلة للكيد لرسول الله وللمؤمنين والغدر بهم.

فأمره الله بأن يتعامل مع هؤلاء بحسب مواقفهم فقال (تعالى) ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨)، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وذلك للحيلولة بين هؤلاء وبين عدوهم، وفي الوقت نفسه تأتي الآية 61 لتأمره بقبول السلام مع من يريد السلام. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١) وامتن سبحانه وتعالى على نبيه بقوله:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۖ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۖ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣) وجاء بعد ذلك في السورة نفسها آيات تدعو إلى تعزيز وتقوية الجبهة الداخلية وتنبيه إلى خيانات متوقعة من قبائل المشركين ومن القبائل اليهودية المحيطة بالمدينة المنورة، ثم تأتي آيات سورة براءة فتبدأ بالبراءة من المعاهدات التي أبرمت مع المشركين ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۚ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۚ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا

أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُخْرِجُ الرُّسُولَ وَهُمْ بَدَّءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ أَتُخْشَوْنَهُمْ ۚ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿التوبة: 1-13﴾ دون نسيان أو تجاهل لمواقف الملتزمين بالوفاء.

الآية الأولى تدل على ضرورة إعلان البراءة إلى الذين عاهدكم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والمؤمنون من المشركين، وهم ينوون خيانة رسول الله ويتحينون الفرص لذلك، ثم نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم وظاهروا على رسول الله والمؤمنين أعداءهم، فهؤلاء هم الذين تلغى الاتفاقيات التي أبرمت معهم، لأنهم بدأوا ذلك بالخيانة ونكث الأيمان ونقض العهود والتعاون مع كل أعداء رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والمؤمنين. والدليل على حصر هذا الإلغاء في هؤلاء الذين بدأوا بنقض معاهداتهم واتفاقياتهم الآية الرابعة من نفس السورة.

ونقض المعاهدات هذا لم يأت فجأة بحيث يعلن نقض الاتفاق وتشن الحرب بعد ساعات أو وقت قصير لتحقيق عنصر المباغته بل منحهم الله (تعالى) أربعة أشهر، كما في الآية الثانية ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: 2) لكي يكون أبناء تلك القبائل قادرين على ترتيب أمورهم خلال هذه الفترة الكافية وهي فترة الأشهر الحرم الأربعة التي تسمح لهم في السباحة في الأرض وحماية مصالحهم، بل والاستعداد إن شاءوا لمواجهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين.

وبعد الآية 13 من سورة التوبة آيات كلها تتعلق بتصفية تلك المعاهدات والاتفاقيات. ثم يأتي الأمر بقتال أولئك الذين ينتمون إلى أديان كتابية ولكنهم للأسف الشديد ظاهروا المشركين على المؤمنين وتعاونوا معهم ضد المؤمنين وتعاون معهم قبائل يهود التي أمدت مشركي مكة بالمال والسلاح وقالوا لهم أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلا.

فأمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يقاتل هؤلاء الذين اختاروا أن يقفوا بجانب الشرك والجاهلية ضد الإيمان والمؤمنين حسداً من عند أنفسهم فقط، لأنَّ محمداً -صلى الله عليه وآله وسلم- كان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم لا من ذرية إسحاق بن إبراهيم، فجاءت الآية

29 من سورة براءة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩).

يتضح من كل هذا أنَّ القتال لم يكن إلا لحماية حرية الاعتقاد ولجعل القبائل تحترم عهودها واتفاقياتها، فلا تنقضها ولا تتجاوزوها. ولذلك حينما جاءت آية البقرة بدأت ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾ (البقرة: ٢١٦) صرحت بأن النبي والمؤمنين كانوا يكرهون القتال فاراد الله أن يشعرهم بأنهم وإن كرهوه فهو خير لهم. ولما حاول المشركون العرب أن يقوموا بدعايات مضادة للنبي والمؤمنين، ويشعرون العرب أن النبي والمؤمنين يقاتلون في الأشهر الحرم ويقاتلون في المسجد الحرام جاءت الآية:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۖ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۖ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧).

لترد على هؤلاء وتوضح أن المشركين العرب هم الذين صدوا عن المسجد الحرام ومنعوا الوصول إليه، وعذبوا المؤمنين ليعيدوهم إلى دياناتهم الشركية التي خرجوا منها وبينت الآية أن المشركين هم الذين كانوا يقاتلون المسلمين ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

ومن ذلك كله يتضح بأن القتال ليس أصلاً بل الأصل هو السلام ولكن حينما لا يكون أمام المؤمنين سبيل لحماية حرية الاعتقاد وحمل الآخرين على احترام العهود والمواثيق فإنه لا بد لهم أن يفعلوا ذلك.

وعلى هذا فإن الجهاد كما جاء في القرآن مستويات عديدة منه: مجاهدة الإنسان لنفسه لتلتزم بالإيمان والقواعد الأخلاقية والنظم، وهناك جهاد الكلمة القائم على إزالة الجهل والامية بالتعليم، وهناك الجهاد بالقرآن الكريم لتحقيق الهداية للعالمين، ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢). وقد يأخذ الجهاد مستوى اقتصاديًا بالتنمية وسد احتياجات الشعوب، واجتماعيًا لمقاومة الانحرافات وتقويم مسيرة المجتمع، وقد يأخذ شكلاً ثقافياً فهو مشتق من الجهد في تحقيق التوحيد والتركية والعمران والعدالة والمساواة والحياة الطيبة، والله أعلم.

النموذج الثاني:

السؤال:

ما حكم صناعة المسلمين لوسائل الدمار الشامل؟

الجواب:

فنسأل أولاً: ما رأي التوحيد وما موقفه من هذه القضية؟ ولنفرض أن موقفه سيكون باتجاه القبول، ففي هذه الحالة نحن بحاجة إلى وضع العديد من الأسئلة التي تترتب على القبول.

فنقول: إنَّ هناك إنساناً وحيواناً وشجراً وبيئة، وهناك أرض وهواء وبحار، وهناك طرق مواصلات ومصادر ثروة، وهناك أناس لا علاقة لهم بالحرب، وهناك الشيوخ والمرضى والزمنى والأطفال والنساء الحوامل وما إلى ذلك. وكذلك هناك قوات العدو المستهدفة، وهناك قيم عليا أخرى كالعدل وما إليه، وهناك طبيعة الإسلام القائم على قواعد ينبغي أن تستنبط منها الأسئلة الإجرائية ليحاور التوحيد بمقتضاها وتدون إجاباته بالجانبين الإيجابي والسلبي.

وقد نجد بين أيدينا مئتي سؤال أو تزيد ينبغي الإجابة عليها حتى نحصل على الموقف السليم للتوحيد الذي يؤدي إلى الثلج وبرد اليقين. ونفعل مثل ذلك مع كل من "التزكية والعمران" ثم نعيد النظر بتوجيه الأسئلة على المنظومة كلها ملاحظين عناصر التكامل بينها لنخرج بعد ذلك بجواب تطمئن النفس إلى صحته وصدقه والله أعلم.

فالمسلمون يفترض أن يكونوا صناع سلام وصناع حياة كما قال (تعالى) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤)، ولا ينتظر من صناع الحياة والسلام أن يكونوا من المفسدين في الأرض أو المخربين للعمران فذلك ينافي التوحيد وينافي التزكية وينافي العمران.

نماذج تطبيقية معاصرة

الجانب الاجتماعي

السؤال:

تعاني المجتمعات الإنسانية المعاصرة من أزمات اجتماعية تكاد تهز كيائها، فالأسرة وهي أهم مؤسسة اجتماعية تواجهها تحديات تفوق حدود المواجهة أحياناً، فها هي قضية الإجهاد المتنازع فيه في المجتمعات الغربية وبدأت تغزو المجتمعات الأخرى لأسباب كثيرة جداً، وكذلك ما يسمى بالعنف الأسري الذي تعاني منه المجتمعات الإنسانية قاطبة والذي تفقد فيه العلاقة الزوجية في معاني السكنينة والمودة والرحمة وتتحول البيوت إلى جبهات قتال وصراع بين الزوجين ليقع الأولاد ضحايا محملين بعقد وأمراض نفسية وعصبية تطاردتهم طوال حياتهم نتيجة لتلك العلاقة المريضة.

أما الطلاق فقد أصبح ظاهرة اجتماعية عالمية، وأخطر ما فيه هو ما يترتب عليه من سلبات حين تنتهي تلك العلاقة بصراع وأحقاد بين الزوجين تنتقل سريعاً إلى الأولاد. فكيف يمكن تفعيل المقاصد القرآنية الكلية الحاكمة في معالجة تلك الأزمات المتفاقمة؟

الجواب:

إن القرآن المجيد يدفعنا إلى بناء الرؤية الكلية للإنسان باعتباره إنساناً، وفي إطار هذه الرؤية الكلية يرتبط الرجل والمرأة معاً برباط تكاملي يجعل كلاً منهما كأنه نصف الآخر لا يكتمل أمنه وسكينته وطمأنينته وفاعليته وقدرته على أداء دوره في الحياة إلا في إطار هذا التكامل، وبالتالي فإن سائر التصورات الثقافية القابعة في ثقافات البشرية المختلفة عن اختلاف الجنسين الذكر والأنثى تصبح موضع مراجعة فلا المرأة مسؤولة عن الخطيئة الأولى

وإخراج البشرية من الجنة ولا هي من ضلع أعوج، بل كلاهما متساويان في الإنسانية وفي دور كل منهما في الاستخلاف والتزكية وبناء العمران وقد وعد الله الاثنين بأن لا يضيع عمل عامل منهما من ذكر أو أنثى، فلا دونية لأي منهما مقابل الآخر لا في الدنيا ولا في الآخرة. وبعد تأسيس هذه القاعدة تكون الزوجية مهمة متكافئة متساوية وإذا اقتضت الوظائف الإنسانية نوعاً من توزيع الأدوار فهذا التوزيع لا يؤثر في هذه الرؤية الكلية، بل هو يعززها ويدعمها، ولذلك كانت الزوجية بين الذكر والأنثى رسالة ومهمة لا على مستوى الزوجين وحدهما بل على مستوى المجتمعات والأمم والشعوب فهي حجر الزاوية في البناء الاجتماعي كله لتضافر جهود المجتمع والأمة والدولة معاً في تدعيم الأسرة وحمايتها.

وقد اتخذ القرآن الكريم مجموعة كبيرة من الاحتياطات التي تمثل إجراءات وقائية من شأنها أن تحافظ على الأسرة وتحوطها بكل ما يلزم لصيانتها من التفكك أو الانهيار، فستر العورات والمنع من التبرج ومطالبة الجنسين بغض النظر وعدم الاختلاط غير المنضبط وضرورة تجنب كل ما يشير الغرائز ويهبط بالإنسان إلى مستوى حيواني غريزي وأي تصرف قد يؤثر على هذا الكيان تأثيراً سلبياً من أي جانب من الجوانب ممنوع. ويبقى على الرؤية القرآنية، ويحافظ عليها، ويجعلها حاضرة في الأذهان على الدوام نجد القرآن المجيد في سورة النور وغيرها تولى بناءها وتدعيمها بدءاً من خلجات الأنفس وحركات الأجساد والمحافظة على الخصوصيات وصيانة البيوت، وانتهاءً بالوفاة وما بعدها، كل تلك الأمور نجد القرآن المجيد قد تناولها بكل دقة لأنها من الأمور التي قد يغفل الإنسان عنها، أو يستهين بها لأي سبب من الأسباب.

ولذلك كله يهيئ القرآن الكريم النفس الإنسانية للرجل والمرأة لاحترام تلك الرابطة التي سماها القرآن الكريم ميثاقاً غليظاً وحينما نقرأ تشريعات القرآن في سورة البقرة من الآيات: 221 إلى 240 نجد أن كلمة حد لم يستعملها القرآن الكريم في شيء كما استعملها فيما يتعلق بنظام الأسرة، فقد استعملت في أربعة عشرة موضعاً في القرآن الكريم اثنا عشر منها كان فيما يتعلق بتشريعات الأسرة، ولكن الله سبحانه يعلم من خلق وهو اللطيف

الخبير، وقد لا يصادف أي من الزوجين الاختيار الحسن، ومما يناقض التزكية والسكن والطمأنينة والمودة والرحمة والتي هي أمور ينبغي أن لا تفارق الأسرة لحظة واحدة وإلا ضاعت المقاصد الرئيسية المرتبطة بتشكيلها وتأثرت سائر القيم بمستوياتها المختلفة بتلك الآثار السلبية. كان تشريع الطلاق والخلع وما ينبغي أن يسبقهما من معالجات.

والقضايا المتعلقة بتشكيل الأسرة وبناء العائلة وصيانتها والمحافظة عليها وجعلها في مستوى تحقيق المقاصد القرآنية من تشريعها تحتاج إلى تخصص دراسي كامل يمكن أن يغطي مستوى الماجستير والدكتوراه لكي يتناول هذا المؤسسة بدقة وشمول. وأنذاك يمكن تفعيل المقاصد القرآنية الحاكمة العليا في سائر جوانب هذه العلاقة بدءًا من الروية الكلية والتصور وانتهاءً بالطلاق أو الخلع أو الوفاة أو المواريث وما إلى ذلك.

فهي المؤسسة التي تابع القرآن الكريم عملية بناءها من لحظة البلوغ وبدء التفكير لدى كل من الجنسين في البحث عن شريك يقترن به حتى الوفاة بل إن القرآن يتجاوز ذلك إلى الدار الآخرة حيث يخاطب الصلحاء ببقائهم وأزواجهم ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾ (يس: ٥٦). ويقابل ذلك موقع أولئك الذين أساءوا في الحياة الدنيا إلى هذه المؤسسة وما ينتج منها، بل أن القرآن يجعل المسؤولية تضامنية في عمل الآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) ويؤول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- تأويلًا دقيقًا كما روي عنه (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول).

من هنا نستطيع أن نتبين وجهة نظر القرآن الكريم والرسول العظيم في الظواهر السلبية الشائعة في المجتمعات المعاصرة من قضية العنف والإضرار وتجاوز جميع المقاصد التي هي مقاصد لها مكانتها العالية في القرآن والسنة من السكن والرحمة والمودة والنسب والصهر وأهم شبكات العلاقات الإنسانية.

وبالاطلاع على سائر التفاصيل التي تتخذ المقاصد العليا صفة المنبه لها والموجه إلى مراعاتها مرجعاً أساساً في ربط هذه المؤسسة بتوحيد الله ورعايته وعنايته وتحقيق التزكية، تزكية الأفراد والمجتمعات والأمم والدول وبناء العمران.

فالمقصد الأساس أن الإنسان خلق ليؤدي دوره في الأرض بالشكل الذي رسمه له الخالق العظيم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

فحياة الإنسان عليها يتوقف دوره في تحقيق العمران والقيام بدور الاستخلاف، فكل ما يؤدي إلى إيذائه في نفسه أو أعضائه فيه إلغاء لدوره أو أصابته بنقص في الكفاءة يقلل من قدرته على أداء دوره العمراني، فالإنسان والكون معاً ملك لله تبارك وتعالى.

ولذلك فإن الإنسان يرتكب خطأ كبيراً حين يتوهم أنه حر بالتصرف في جسده لأن ذلك يتضمن إدعاء ملكية ما لا يملك وتجاوزاً على حق المالك الحقيقي وهو الله. ولذلك تحرم المجازفة في قتل النفس أو الانتحار أو تعريض الإنسان للتلف وهنا يندرج حفظ الإنسان كلاً وأعضاءاً في إطار مقصد حفظ النفس لتحقيق غاية الحق من الخلق، وهي الاستخلاف والعمران، وتصبح النفس الإنسانية بمثابة الوديعة والأمانة لدى صاحبها ليس له أن يعرضها للخطر أو التلف وهذا شامل للأجنة في دور التخليق وشامل للإنسان الذي خرج للحياة وأدرج في قائمة الأحياء.

والفقهاء المتقدمون ومنهم الغزالي في إطار السقف المعرفي السابق وقبل تطور العلم في الطب والأحياء كانوا يعلقون احترام الجنين وعدم اسقاطه إذا جاوز فترة أربعة شهور في الرحم لأن السقف المعرفي آنذاك كان يشير إلى أن الحياة تدب في الجنين بعد هذه الفترة ومن حكمة الإسلام أنه لم يكن يدخل في التفاصيل، بل يتجاوزها لكي يكون قادراً على تلبية احتياجات الأجيال المختلفة بدون تناقض مهما اختلفت السقوف المعرفية. وإذا كانت العلوم

الحديثة تقول بأن الحياة تبدأ بمجرد اختراق الحيمن الذكري لبويضة الأنثى وتحول الأمشاج إلى مضغة إذن يجب أن تحترم.

وهنا تظهر إشكالية الجدل الدائر حول (الاستمسل) وهل يجوز أخذه للعلاج؟

وهذا يفرض تلاقي علماء الطب والمتخصصين في هذه المجالات مع علماء الاجتماع والشريعة والقانون ليناقدوا هذه القضية من جوانبها المختلفة وإلا فإن الجراءة على هذه الأمور قد تؤدي إلى ما يعرف بالحوسلة أي تحويل الحياة الإنسانية إلى وسيلة حتى لو كانت وسيلة لمعالجة أناس آخرين.

وينبغي أن تحال هذه القضايا إلى مجامع متخصصة تتناول سائر التخصصات وتستحضر المقصد الشرعي في العمران والاستخلاف وبقاء النوع ودوامه ثم الوصول إلى آراء جمعية في هذه المجال مستندة إلى المقاصد القرآنية الحاكمة.

وهذا المقصد يفتح الطريق مباشرة نحو مقصد آخر أساسي وهام يتعلق بذات المتعلقات أي الاستخلاف والعمران والإيمان بتفرد الله بملكية الإنسان والكون إلا وهو النسب.

فالجنين الإنساني منذ البداية يتكون بحيمن ذكوري وبويضة إنثوية يشترك فيها اثنان الرجل والمرأة وهما مسؤولان مسؤولية مباشرة قبل القانون والدولة عن حماية الجنين وإعطاؤه حقوقه الكاملة منذ التلقيح حتى الاكتمال وعلى الأب أن يشارك الأم هذه الأعباء لكي لا تحمل المسؤولية وحدها فتثقل عليها وقد لا تتمكن من أدائها فلا بد من رباط يربط الاثنين، فإذا كان رحم الأم سيكون مستودع فإن الأب يكون مسؤول مسؤولية كاملة عن الأم في فترة الحمل حتى الوضع وعدم تحمل أعباء رزقها ورزق جنينها المشترك الذي يغذى على دمها وهنا يبدو عقد النكاح رباطاً مقدساً ومسؤولية وتبدو الغرائز الطبيعية مجرد وسائل تخفيف من

شأنها أن تؤدي إلى لقاء الزوجين وارتباطهما بعقد النكاح المقدس وتحمل كل من الزوجين مسؤولياته في حماية حقوق هذا الجنين الذي سيؤول إلى انسان كامل.

فهناك أكثر من مقصد وأكثر من متعلق للتشريع لا بد من ملاحظتها كافة ويعتبر اشراكاً بالله (تعالى) أن تعتقد المرأة بأن الجسد جسدها وهي حرة فيما تصنع فيه وإن الجنين مجرد طارئ على الجسد لها الحق في أن تستضيفه أو ترفضه، وعلى الرجل أن لا ينظر إلى المرأة التي اختارها أنه مجرد لقاء شهوة عابرة فيتهرب من مسؤوليته فهذا بجذ ذاته اشراك بالله واعتداء على ذاته والوجدانية فمن ادعى أنه جر في التصرف بجسده وغرائره ومشاعره وأنه لا مال لك للجسد إلا هو فإنه إعلان لنفسه شريكاً لله ومستقلاً في التصرف عنه وهذا يناقض الإيمان والتوحيد. والمنهج القرآني دوماً يقوم بتجفيف منابع المشكلة أو الأزمة، كالإجهاض ونحوه كي يغلق المجال أمام البشرية على إعادة إفراز مثل هذه المشكلات في المستقبل، وإذا ما عادت فظهرت يصحح مسارها ثم يعيدها إلى الأصل.

أما الناس في هذا العصر فيعالجون الظواهر بعد أن تمتد وتصبح ظواهر وجزءاً من الممارسات الحياتية ويتغاضون عن الأسباب الكامنة وراء تلك الظواهر في حين أن المنطق يقتضي معالجة الأسباب الكامنة وراء تلك الظواهر وتخفيف منابع الظواهر السلبية ودوافعها، ولذلك أخذت سورة النور في القرآن الكريم معالجة جميع المنابع والجذور السلبية التي تؤدي إلى شيوع الفاحشة والزنا في المجتمع الذي يحدث بين إثنين أنانيين لا يهتمها إلا قضاء الشهوة وتلبية حاجة الغريزة والتمتع لفترة قصيرة مع عدم تحمل أية مسؤوليات تترتب على ذلك، ومنها مسؤولية الثمرة التي تثمرها تلك العلاقة وهي مسؤولية ضخمة وكبيرة لا يتحملها إلا من احترموا إنسانيتهم وآدميتهم وعرفوا معنى الحياة والمسؤولية معرفة جيدة.

أما الطلاق هو فك لتلك الرابطة بشكل إنساني لا يلغي ما ترتب على النكاح من قضايا وأحكام، فمن يولد بين أبوين صارت ولادته رابطة لا تنقطع بين الأبوين حتى ولو انفصلا وكذلك سائر العلاقات الأخرى التي ترتبت على علاقة النكاح أن تحترم إذا احترمت الاثنان

إنسانيتها وعرفا حدود الله، ففي هذه الحالة يصبح النكاح كأنه ساري المفعول بالنسبة لسائر العلاقات التي ترتبت عليه ولا ينتهي منه إلا الجانب الخاص بالمعاشرة الخاصة بين الزوجين ولذلك اشتد القرآن على الذين يمسكون نساءهم رغبة في المضارة أو رغبة في الابتزاز والحصول على المال الحرام من الزوج أو الزوجة.

وبالتالي يحولون علاقة النكاح وما ترتب عليها من شبكة العلاقات طيبة إلى مجموعة من العلاقات السيئة تؤدي إلى الإضرار بكل ذوي العلاقة وجاءت الآية الكريمة لتمثل نصاً دستورياً في هذا المجال ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٧) فلا ينبغي نسيان أو تناسي حسنات كل من الطرفين ولا ما ترتب على تلك العلاقة من شبكة علاقات وحصر الآثار السلبية التي تترتب على فك الارتباط بين الزوجين في أضيق نطاق ممكن، لنحد من الآثار السلبية للطلاق ونحافظ على التوازن في العلاقات.

نماذج معاصرة الجانب الاقتصادي

السؤال الثالث: كيف نستطيع أن ننظر إلى الأزمة الاقتصادية الحالية من منظور المقاصد القرآنية العليا الحاكمة؟

يقرر القرآن الكريم أن المال كله من حيث الملكية الحقيقية هو مال الله (تعالى) وأن الإنسان مستخلف فيه ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد: ٧) وأن جميع الطيبات في هذه الحياة هي ملكه جل شأنه على سبيل الحقيقة فكأن الملكية الإنسانية للمال والطيبات ليست ملكية حقيقية بل هي ملكية انتفاع، وبالتالي فلا بد أن يكون للمالك الحقيقي الذي هو الله (تبارك وتعالى) حق التوجيه لكيفية ووسائل الانتاج والاستهلاك والتوزيع.

فملاحظة توجيهاته سبحانه في هذا المجال أمر لا بد منه. وقد اعتبر القرآن الكريم ما خول الله الانسان به من جعل المعاملات قائمة على التراضي بين البشر في تبادل تلك الطيبات بطرق سليمة هي نعمة أخرى ينبغي للبشر أن يعترفوا بها ويشكروا الله (تعالى) عليها بحسن الالتزام ودقة التصرف.

والملاحظة الثانية التي يجب استحضارها هنا هي أن الله (تبارك وتعالى) قد اعتبر بني آدم كلهم أسرة واحدة ممتدة تشترك كلها في ما خلق الله (تبارك وتعالى) في الأرض لصالحها وهو قدر كل ما خلق لصالح هذه البشرية على أن تكون مشتركة بحيث لا يحرم أحد من خلق الله مما خلق الله له باعتباره واحدًا من الأسرة الآدمية الكبيرة، وهناك طرق حددها القرآن الكريم والتجارب البشرية والإنسانية والنظم لوصول كل صاحب حق إلى حقه وكل صاحب حاجة

إليها، وأن أي خلل يحدث في هذا المجال إنما هو خلل ناجم عن إساءة تصرف الإنسان في مجال الانتاج أو التوزيع أو الاستهلاك أو كلها مجتمعة.

الوسيط النقدي:

وقد ابتكر الانسان وأيده الدين بتوجيهه الوسيط النقدي لتبادل المنافع والطيبات فتعارفت البشرية بعد تجاوز عصر المقايضة وبيع سلعة بسلعة على الذهب والفضة باعتبارهما وسيطاً نقدياً بين البشر في تبادل الطيبات التي خلقها الله تعالى، واستمرت البشرية في أنحاء الأرض تتبادل الطيبات بطريق المقايضة وفي المدن والحواسر الكبيرة التي تتبادل المنافع بواسطة الوسيط النقدي الذهب والفضة وذلك لتسهيل عمليات التبادل وتوزيع الطيبات والمنافع ووصول كل شعب أو قبيل أو مجموعة بشرية إلى احتياجاتها بواسطة هذا الوسيط النقدي.

وقد نجم عن ظهور فكرة الوسيط النقدي توافر ما يعرف بفائض القيمة فقد يبيع إنسان طيبات يحتاجها أناس آخرون ويستلم النقود ثمناً لما باع وحين يشتري احتياجاته يفيض من عنده من قيمة ما باع فائض من نقد. فبدأ فائض القيمة هذا يلعب دوراً في إعطاء فائض القيمة النقدية دوراً يوازي فيها دور الجهد الانساني في الانتاج وعناصر الانتاج من الأرض والماء وما إليها حتى تحول فائض القيمة إلى سلعة من السلع استطاعت أن تهيأ الأجواء لظهور ظاهرة الربا. فالمرابي ابتعاداً عن الجهد والمخاطرة يقرض فائض القيمة المتوافرة لديه ويأخذ عليه ربا أحياناً يكون من الأضعاف المضاعفة لفائض القيمة بحيث يزيد الطلب عليه ويقل بحسب ظروف الناس واحتياجاتهم فوجدت طبقات المرابين التي تحترف عملية إقراض فائض القيمة بالربا واستغلال حاجة المحتاجين أي كانوا ومع تحريم الأديان الإبراهيمية كلها للربا وإعلان الله الحرب على المرابين لكن الطمع في الأرباح السهلة المضمونة التي لا مخاطرة فيها مكن لهذه الظاهرة وحال بين الأديان وبين استئصالها.

وظلت التطورات سائرة حتى بلور الإنسان الغربي فكرة البنوك مؤسسة وسيطة تقوم على الربا وتوظيف الأموال وفائض القيمة بطرق خاصة أدت إلى تراكم الثروات في جانب وتراكم الفقر والحاجة في جانب آخر حتى وصلت البشرية إلى الثورة الصناعية وما أدت إليه من آثار وقامت الشركات الكبرى وانقسم الناس إلى رأسماليين وأصحاب رؤوس أموال وإلى

عمال لديهم وحدث ما حدث من أزمات عانت أوروبا وأمريكا وجاء ماركس بنظريته عن رأس المال محاولاً إلغاء الملكية الفردية وبناء الاقتصاد الجماعي أو الشعبي ولكن طرح ماركس وأفكار انجلز وفلسفة هيغل لم تؤدي إلى تحديد دقيق حل وعلاج لمشكلة حل فائض القيمة إذ أن الأومة لم تكن في ملكية أفراد أو رأس ماليين وعلاجها لم يكن بتحويل الملكية الخاصة إلى عامة ولكن العلاج المطلوب كان يكمن في معالجة إشكالية فائض القيمة، والحيلولة دون استمرار الربا والمراباة والعقود الربوية وحماية البشرية من آثار ذلك على الإنتاج وعدالة التوزيع ورشادة الاستهلاك وإيجاد نظام آخر لا يقوم على الربا لتلبية احتياجات المواطنين إلى المال بطرق أخرى سلكتها مجتمعاتنا القديمة كالزراعة والمساقاة والمشاركة بأنواعها لتحقيق العدل ومنع النقد أن يكون موازياً للجهد الإنساني أو لقيام الطيبات بل زائداً عنها في أغلب الأحيان.

لقد تفرع عن أصل الربا شبكة من العقود والعلاقات الإنتاجية والتوزيعية الاستهلاكية أدت إلى تعزيز سلطان الربا وتفشي مشاكله ومنها عملية بيع القروض والديون وبيع الإنسان ما لا يملك والتعامل بالبورصات والتوريق وما إلى ذلك من مشكلات. جعلت المال العام لكل شعب من الشعوب دولة بين الأغنياء والبنوك وحرم الآخرين من التمتع بما خلق الله لهم وهذه المعاملات الربوية واستثمار فائض القيمة والشغف بجمع المال ونسيان أو تناسي علاقة الله (تعالى) بالمال مناف للتوحيد.

بل إن فيه ما يدل على وجود نزعة لدى المرابي في أي مستوى كان فرداً أو بنكاً أو مؤسسة لتأليه المال وتهديم فكرة كون المالك الحقيقي له هو الله (تعالى) والإنسان مستخلف فيه وتدمير فكرة أو مبدأ حقوق المستضعفين في المال حتى إذا لم يكونوا من عناصر الإنتاج قوله (تعالى) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩). فهو حق وليس صدقة وليس تبرعاً اختيارياً والتوحيد يقتضي العودة إلى الأمر الأول واعتبار المال أنه مال الله وأن الناس مستخلفون فيه لا يحق لهم الاستبداد بالتصرف فيه كما أن تلك المعاملات الربوية تنافي التزكية وتوجد من الأخلاق وسلوكيات التعامل ما ليس بمقبول في دين الله الذي جاء به

جميع أنبياءه ورسله وليس غريباً أن تشتمل الكتب السماوية جميعاً على أن واجب الغني في المجتمع أن يقدم للفقير والمحتاج بوصفة حقاً له لا تبرعاً ولا صدقة.

ولذلك فإن الأديان سمت هذا الذي يدفع أو يرد رداً من أموال الاغنياء على المحتاجين زكاة مفروضة على الأغنياء وحقاً معلوما للفقراء فكان القرآن قد قدم في مبادئه وفقاً لمقاصده الحاكمة الثلاث التوحيد والتزكية والعمران منظومة اقتصادية عادلة ما هي بالرأسمالية ولا هي بالاشتراكية.

وفي هذه الأزمة خسرت البشرية ما يقرب من إثني عشرة ترلين من المال هي لم تتبخر من على وجه الأرض لكنها انتقلت من جيوب إلى جيوب ومن فئات إلى فئة تعرف كيف تدير الأزمات المالية وتهدم الأجواء اليها وتفجيرها وقت ما تشاء بحيث تزيد الفقراء والطبقات المتوسطة فقراً وتزيد المستغلين غنى ومحاولات الانقاذ التي جرت وتجري بدلا من أن تتجه إلى الطبقات المتشردة على وجه الحقيقة اتجهت إلى مساعدة البنوك والأغنياء وكبار الرأسماليين وذلك يحمي الربا ويحافظ على منظومته ويترك المتضررين الحقيقيين لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.

فلو أدركت البشرية منظومة القيم العليا القرآنية الحاكمة لأتجهت للتخلص من الربا وإعادة النظر في جميع المنظومة الاقتصادية القائمة عليه وإيجاد السبل الكفيلة بحماية البشرية منه ومما ترتب عليه من عقود فاسدة ومعاملات زادت الفقراء فقراً وأفقرت الكثير من المنتمين إلى الطبقات المتوسطة وهيأت الأجواء إلى مزيد من الأزمات والمشاكل ولو شكلت لجان كفوءة مدركين لأبعاد هذه المقاصد الحاكمة وعلماء اقتصاد وخبراء اجتماع وسياسة لوجدوا أن الحل القرآني القائم على المقاصد العليا هو الحل الأوفق والناجع للخروج من هذه الأزمة وليس كما فعلته الكثير من الحكومات من التوجه لمساعدة البنوك والمتاجرين بالفائض من القيمة وترك المعوزين الذين استغلوا من قبل هؤلاء بعضهم لا يجد ملجأ يأوى إليه ولا مال

يكفي ضرورياته سائلين المولى أن يهدي قومنا لعلمهم لا يعلمون لعلمهم يلتفتون إلى القرآن لحل
هذه الأزمة العالمية وغيرها من الأزمات.

الخلاصة:

إنّ "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة" سوف تخرج الفقيه من دائرة النظر الجزئيّ إلى دائرة "النظر الكليّ" و"الفقه الأكبر" وذلك بعطيها من المرونة والسعة ما يجعلها قادرة على استيعاب أية مستجدات، وتحقيق مصالح البشرية، وسد الذرائع بوجه المفاصد التي ترزخ كثير من الشعوب تحتها وتبرز خصائص الشريعة القرآنية، وتؤصل لفقه قرآني نبوي سليم يستوعب مشكلات الأقليات والأكثريات معًا بإذن الله. وهذه الأطروحة وإن بدت جديدة فإن كثيرًا من أئمة الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلي وعائشة -رضوان الله عليهم- قد جرت على ألسنتهم وظهرت في فقههم. والله الموفق.

المدخل الخامس عشر: مدخل البحث في الأمثال والقصص:

إنَّ الأمثال وعاء حكمة الأمم وخزائن تجاربها ووسيلة من أهم وسائل حفظ تلك التجارب والحكم وتناقلها بين الأجيال.

وهي قبل ذلك وبعده من أدق أساليب التعبير وأوجزها وأبلغها تأثيراً في النفوس.

وحين تقصر أساليب التعبير الأخرى عن استيعاب مراد المتكلِّم، أو يضيق إدراك المخاطب عن فهم المراد منه فإنَّ ضرب المثل يجعل ذلك كله سهلاً ميسراً "مع إيجاز اللفظ وإصابة المعنى، وحسن التشبيه" ولذلك اعتبرت العرب الأمثال جزءاً من أهم أجزاء ديوانها تعود إليها تستنطقها لتستفيد منها تاريخ أحداث ووقائع وسير وأشخاص وغير ذلك من مكنون الحكم وصميم الفوائد التي اشتملت الأمثال عليها.

ولقد تناول الأمثال وكتب فيها الجهابذة من الأدباء والحكماء والبلاغيين، واللغويين والمفسرين من شتى المدارس، وفي مختلف العصور، فكتب فيها الأصمعي وأبو زيد وأبو عبيدة، والنضر بن الشميل والمفضل الضبي وابن الأعراب وأبو القاسم عبيد بن سلام من المتقدمين، وعدد لا يحصى من الذين جاءوا بعدهم، ولا تزال الأمثال موضع اهتمام الكثير من أهل العلم والأدب حتى يومنا هذا، أمّا أمثال القرآن العظيم فهي مظهر من أهم مظاهر بلاغته، وإعجازه ودقة تصويره الفنيّ وسحر أسلوبه، فهي قد سحرت العرب مؤمنهم وكافرهم، وبانت حلاوتها وظهرت طلاوتها لعامةهم وخاصتهم، وبان تأثيرها فيهم أجمعين.

والأمثال القرآنيّة تمثّل علماً من علوم القرآن الهامّة، وبحثّاً لم يغفله أحد من المفسرين أو البلاغيين أو الكتّابين في علوم القرآن، ولكنهم قلّ أن يتناولوها بشكل شموليّ، يبرز صور الإعجاز الجماليّ الفنيّ فيها مع إصابة المعنى الموضوعيّ بآتم شكل وأكمل وجه.

وفي حدود ما بلغته معرفتي المحدودة لم أعرف من تكلم بتفصيل في أمثال القرآن باعتبارها وسيلة من أهم الوسائل التربويّة؛ فالأمثال القرآنيّة تشكّل معلماً بارزاً من معالم منهاج القرآن العظيم التربوي؛ فهي في بعض جوانبها تبرز النموذج الحَيِّ وتوضح معالمه، وتبيّن دقائق تكوينه حتى إنّهُ ليكاد يرى ماثلاً وشاخصاً أمام الناظرين، فلا يملك الإنسان إلا أن يتمنى أن يكون مثل هذا النموذج الماثّل أو قريباً منه، يمتلئ قلبه ونفسه وعقله ومشاعره بعوامل الرغبة بالتأسي به، والسير على منواله، ودوافع الأخذ بما به أخذ، والسير على ما سار عليه.

وبعض أمثال القرآن تجسّد النموذج وتشخصه، حتى لا نكاد ننظر إليه ماثلاً شخصاً وعملاً وسلوكاً وأخلاقاً وتصرفات، فتشهد أقبح إنسان وأسوء عمل وأردأ سلوك يصدر عن إنسان وأسوء مصير يمكن أن يصير إليه، فلا تملك إلا أن تفر بنفسك وبدينك من مشابحته ومماثلته بأي شيء من الأشياء، وقرأ إن شئت: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (التحریم: 10).

وعلى العكس من ذلك: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ كَرِيمٌ﴾ (التحریم: 11-12).

ففي هذين المثلين يضرب الله (تعالى) مثلاً للكفر والخيانة في بيتي نبوة، والإيمان والتقوى والطهر في بيت كفر، فشخصيّة المرأة مستقلة، وهي مكلفة مسؤولة، لها ثواب ما تفعل، وعليها جزاء ما ترتكب، وأمام كل امرأة في الدنيا يضرب القرآن العظيم هذين النموذجين: مثل المرأة لا يستطيع الكفر كلّهُ أن يصدّها عن الإيمان، ولا تحملها كنوز الفراعنة وقصورهم على الانتساب إليهم، بل تتبرأ من فرعون وعمله، وتترفع وتتعالى على قصره ودنياه وقومه، وتساءل الله (تعالى) أن ينعم عليها ببيت بديل في الجنة، وأن ينجيها من القوم الظالمين، أي: زوجها وقومها، فهي مثل ونموذج وأسوة لشخصيّة المرأة التي تستعلي على الدنيا، وتزهّد في

زوج هو أعظم ملوك عصره، وقصور هي أفخم ما عرفته الدنيا —آنذاك— من قصور، ولا يفل من عزمنا، ولا يضعف من إرادتنا أئها امرأة وحيدة منفردة بين قوم ظالمين، تعيش في قصر جبار كان يقتل الناس على مجرد شبهة الإيمان، ثم يعطف القرآن عليها مريم ابنة عمران فأية امرأة تقرأ هذا المثل ولا تمنى أن تتأسى به شخصية وإرادة وإيماناً وسلوكاً واستقامة ومصير.

إلى جانب ذلك ضرب المثل المغاير: المرأة المتحجرة القاسية الغليظة الطبع، التي تعيش في بيت نبوة فلا تتأثر ولا تلين، ولكنها تخون البيت والزوج النبي، وتناصر الظالمين من قومها، ويجسد المثل القرآني هذه الصورة البشعة للكافرتين الخائنتين في بيتي النبيين الرسولين الصالحين، بجانب الصورة المشرقة لامرأة فرعون ومريم، وهل يملك أحد أن يرضى لنفسه مماثلة الخائنتين ومشاققة المؤمنتين؟!

ونحوه قوله (تعالى): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: 175-177).

إنه مثل يضربه الله (تعالى) للانحراف عن سوء الفطرة، ونقض العهد مع الله (تعالى)، والنكوص عن آياته بعد العلم بها وفهمها، ولكنه —مع علمه وفهمه— ينسلخ عن آيات الله التي كانت تحيط به كثوبه، بل تلفه كجلده، كان نداء هواه، وخلوده إلى الأرض، والتصاقه بشهواتها، ولذة طينها أقوى عنده وأولى بالاستجابة لديه من نداء آيات الله، فينسلخ عن الآيات ويلتصق بالتراب خالداً إليه، والمثل يضربه الله (تعالى) لأي إنسان يتجاوز ما علمه الله (تعالى)، فلا يسمو ولا يرتفع بالعلم، بل يخلد إلى الأرض، والذي يتلو هذه الآيات وهي تصور هذا المثل في مشهد حي متحرك، عنيف الحركة شاخص السمات، بارز الملامح،

واضح الانفعالات يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة إلى جانب إيجاء العبارات الموحية⁸⁴، لا يمكن أن يرضى لنفسه مشابهة هذا المخلوق التعيس بأي حال من الأحوال.

وهكذا كل أمثال القرآن العظيم الأخرى:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود:24).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم:18).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم:26).

وتستمر آيات الأمثال تصور النفوس والقلوب والأشخاص والأعمال والأقوال والمشاهد والأمم والحضارات، وتضرب منها ولها الأمثال، فلا تغادر جانباً منها إلا أعطته من التوضيح والتشخيص ما يجعله وسيلة من أهم الوسائل التربوية، ففيها إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى مستوى المحسوس، وإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وإخراج ما لم تجر به العادة إلى الأمر المعتاد، وإخراج ما لا تأثير له من الصفات إلى ما له كامل التأثير⁸⁵، كما أنّها من أفضل وسائل البيان والتعليم.

فإذا علمنا أنّ القرآن العظيم قد ضرب للناس من كل مثل ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (الروم:58)، نستطيع أن ندرك أنّ أمثال القرآن العظيم يمكن أن تزودنا بمنهاج تربويّ كامل، لا يغادر جانباً من جوانب العملية التربوية إلا تناوله وفصله، وأوضح نماذجه بأفضل ما يكون

⁸⁴ يراجع: البرهان (486/1-487).

⁸⁵ على ما في البرهان (486/1)، وزاد: "ففيها جميع ضروب المعرفة".

الإيضاح؛ وهذا الجانب من الجوانب التي تتصل "بأمثال القرآن" وحده يحتاج إلى دراسة أو أكثر؛ توضح جوانبه وتساعد التربويين على بناء ما يريدون من أفكار ونماذج في مختلف العملية التربوية.

وجانب آخر من جوانب "أمثال القرآن" كنت أتطلع إلى أن أجد فيه دراسة جادة، ولم أطلع على ما يشفي الغليل فيه إلى الآن، هو الأمثال القرآنية بوصفها مصدرًا من أهم مصادر الأحكام وهذا يمكن أن يتضح في جانبين:

الجانب الأول: أنَّ أمثال القرآن يصحبها -دائمًا- تحسين أو تقبيح، فما حسنته فهو حسن، وهذا الحسن يمكن أن يعتبره الأصولي قدرًا مشتركًا بين الوجوب والندب والإباحة، واجتهاده فيه سوف يساعده على تحديد الحكم المناسب، إن لم يكن هناك دليل سوى الآية المثل.

وما قَبَّحته الأمثال فهو قبيح، والقبح دائر هنا بين التحريم والكراهة، والمجتهد يبذل جهده لتحديد أي منهما الأنسب، إن لم يكن له دليل غير ذلك المثل الآية، دون حاجة إلى النظر في صيغ الأوامر والنواهي الصريحة؛ ولذلك عد الشافعي -رحمه الله- معرفتها من شروط الاجتهاد، ومما يجب على المجتهد معرفته على ما نقل الزركشي في البرهان عن البيهقي⁸⁶.

وأما الجانب الثاني: فيتضح حين ندرك أنَّ أمثال القرآن، ودعوة القرآن العظيم إلى الاعتبار بما هي التي قدحت في أذهان الأئمة من قراء الصحابة وفقهائهم ومن جاء بعدهم فكرة -القياس الأصولي- واعتباره دليلًا من أدلة الأحكام الشرعية؛ هذا الدليل الذي نجمت عن الأخذ به تلك الثروة الفقهية الهائلة التي نفخر بكثير من جوانبها، وفكرة اكتشاف "القياس الأصولي" والثروة الفقهية والفكرية التي نجمت عنه، وعلاقة ذلك بأمثال القرآن العظيم موضوع آخر يستحق دراسة أو دراسات عديدة؛ ليتضح ويظهر أثر أمثال القرآن العظيم الفكري والفقهية.

⁸⁶ البرهان (486/1).

وحين نعلم أنَّ اكتشاف "القياس الأصولي" كان الدعامة العلميَّة الأولى التي قام عليها بناء "المنهج العلميّ التجريبيّ" بعد ذلك، فإنَّ الأهميَّة الكبرى التي تحتلها "أمثال القرآن العظيم" تبدو -آنذاك- بجلاء شديد.

لكن من المؤسف أن نجد إسرافاً بلغ حد التبديد، والتبذير في جانب البحث اللغويّ والبلاغيّ والبيانيّ والنحويّ في الأمثال القرآنيَّة، وقلةً وشحاً في الجوانب الأخرى التي أشرنا إليها، ولعل في هذه الإشارات ما ينبّه لإعطاء هذه الجوانب الأخرى ما تستحقه، وعلماء الاجتماعيات والإنسانيَّات هم المطالبون بتجلية هذه الجوانب، وتوضيح وخدمة كتاب الله وأغراضه في هذا المجال، فأمثال القرآن محور أساس من المحاور الخمسة التي أشار إليها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما أخرجه البيهقي عن أبي هريرة أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: "إنَّ القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال"⁸⁷.

المدخل السادس عشر: مدخل الإصلاح والصلاح والفساد:

الصلاح هو الاستقامة، والسلامة من العيب، والفساد هو التلف والعطب، والاضطراب والخلل.

وسنَّة طلب الصلاح والإصلاح هي سنَّة أولئك الذين يرجون رحمة الله وبلوغ رضاه، على عكس المفسدين في الأرض والداعين إليه: قال (تعالى): ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص:28). والله (سبحانه وتعالى): ﴿.. لَا يُصْلِحْ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس:81)، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (الفرقان:23)، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم:18)

⁸⁷ رواه البيهقي في شعب الإيمان.

فالعَمَل لا تكون له قيمة ولا وزن مطلوب إلا إذا كان عمل صالح وراءه نِيَّاتٌ صالحة، ويتبغى به مقاصد صالحة، ويراد له أن يكون مثمرًا ومنتجًا للصالح، وكل قصص الأنبياء فيها مجال لرصد دعوات الإصلاح والصالح ومعاداة الفساد والإفساد في ذلك كله، إضافة إلى أنَّ الحياة الطيبة في الحياة الدنيا تتوقف على الصالح والفلاح مرتبط به، لأنَّ الله (تبارك وتعالى) قد قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 9-10)، في الوقت نفسه فإنَّ الفساد مدعاة للاهتيار والتفكك والمعيشة الضنكة في الدنيا والمصير إلى النار في الآخرة، فحينما تذكر الأمة بالالتزام بالصالح والإصلاح فذلك يعني أنَّها صائرة إلى خير، وآيلة إليه.

والتدبُّر حالة عقلية ونفسية يحاول المتدبُّر فيها أن يحصل على الخبرات والدروس والعبر من الآيات الكريمة، ولن يحصل عليها إلا إذا عرف الإصلاح وحقيقته وما يؤدي إليه، وما يضاده من فساد إلى غير ذلك.

المدخل السابع عشر: مدخل تصنيف البشر وفقًا لمواقفهم من قضية الإيمان والكفر:

وهذا المدخل قد ظهر بجلاء في سورة الفاتحة وبداية سورة البقرة، في سورة الفاتحة في قوله (تعالى): ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 6-7)، فالذين أنعم الله (تعالى) عليهم هم المؤمنين الذين فصل الله صفاتهم في بداية سورة البقرة، والمغضوب عليهم هم كل من أصر على الباطل بعدما تبين له الحق، والضالين هم الذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء مذبذبين بين ذلك.

وفي سورة البقرة قد فصل لنا (جل وعلا) صفات كل فريق من هؤلاء الثلاثة.

قال (تعالى): ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفيه إشارة إلى الكتاب المكتوب وهو مؤلف أيضًا من تلك الأحرف التي هي عبارة عن أصوات تم تقطيعها فإذا كنت تبحث عن كتاب يغنيك عن جميع الكتب، ويغنيك عن سائر ما كتبت البشرية فليس هناك إلا كتاب واحد هو ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي القرآن الكريم، لماذا؟ لأنَّه هو الكتاب الذي ﴿لَا رَيْبَ

فِيهِ ﴿أَيُّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا اخْتِلَافٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿(النساء: 82)﴾.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هو أسمى الكتب وأهمها لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تستطيع أن ترتاب أو تشك أو تضطرب في أي آية من آياته أو جزء من أجزائه أو نجم من نجومه، فهو نور كله وهو هدى كله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والهداية طلبناها في سورة الفاتحة فقلنا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فأراد (جل شأنه) أن يقول لنا: استجبت لدعائكم، وإذا أردتم الهداية فالجأوا إلى هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، والذي هو هدى لمن؟ للفاسقين؟ لا. هدى للمتقين الذين يتعرضون لنفحات الله من خلال طاعتهم له، ومن خلال تمسكهم بكتابه، والتزامهم بصراطه المستقيم فهذا الكتاب حينما سألتهم الهداية، وقلتم: اهدنا الصراط المستقيم أعطاكم مفتاح الهداية وطريق الهداية وسبيل الهداية، ألا وهو هذا القرآن. ومن ذا الذي يهتدي بالقرآن فلا يهديه الله (تعالى)؟ فلا يمكن لإنسان أن يصل إلى غايته من دون ذلك الكتاب الكريم.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الله (تبارك وتعالى) في آية أخرى يقول ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِّلتَّقْوَى﴾ ماذا يعني؟ فبعضهم يقول: إذا كان الإنسان متقياً فما حاجته إلى الهداية؟ نقول لهم: إن أولئك الذين امتحن الله (جل شأنه) قلوبهم وعلم استعدادهم لكي يكونوا من المتقين، حينما تأتيهم آيات الكتاب الكريم تزيدهم ثَقًى وتصبح التقوى بالنسبة لهم لباساً كأثم يرتدونه، وملكة لا يستطيعون التخلي عنها فذلك الكتاب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لكنه كذلك ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فإذا، هذا الكتاب الكريم الذي هو كلمات وآيات وسور وأحرف مقطعة أو مُقَطَّعة للأصوات لكي تصبح بهذه الهيئة، وهو الهادي إلى التي هي أقوم في كل شأن وفي كل شيء، وما لم يؤمن الإنسان بهذا تماماً، ويستقر في سويداء قلبه هذا اليقين فليس بمؤمن في هذه الحالة.

ثم بعد ذلك كان من حقنا أن نتساءل من هم المتقون؟ وهذه السورة -سورة البقرة- قد ذكرت التقوى فيما يزيد عن ثلاثين آية من آياتها الكريمة منها الآية التي معنا ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فيبين الله (تعالى) بعدها حال أولئك المتقين ويقول: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ فهم الذين يؤمنون بما غاب عن حواسهم وحضر في بصائرهم وقلوبهم، فإنَّ للإنسان بصرٌ وله بصيرة، حواسٌ ظاهرة وحواسٌ باطنة، فالذين يؤمنون بما غاب عن الحواس الظاهرة يرتقون عن مرتبة المخلوقات الأخرى المشاركة لهم في هذا الوجود ويصبحون خلقاً آخر متميزاً لأنَّ مصادر معرفتهم، ومصادر إيمانهم تنوعت وتعددت إلى: مصادر غيب، ومصادر شهادة، فكما أنَّ الحسَّ يعد عندهم مصدر من مصادر المعرفة، تعدَّ الحواس الباطنة مصدراً كذلك، فالبصر نقراً به، والبصيرة نفهم ونفقه بها، وبذلك يجتمع للإنسان بُعْدَيْن: حَسِّي ووجداني. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أمَّا الإيمان الحَسِّي المشاهد فحتى الحيوانات تشاركنا به فيرى الحيوان الزرع ويقبل عليه ويأكله ويرى ما قد يضره فينفر منه، لكنَّ الإنسان يجمع بين القدرة على المعرفة الغيبيَّة ومعرفة المشاهدة بالجمع بين البصر والبصيرة، وبين السمع والبصر والفؤاد ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

هؤلاء المتَّقون لا يقتصرون على ذلك الجمع في الإيمان بين الغيب والشهادة، بل يحوِّلون ذلك الإيمان إلى حركة ليصبح عبارة عن طاقة من الدوافع التي تدفع الإنسان لعمل الخير ولتجنب الشر؛ وأول خير يمكن أن يفعله الإنسان هو أن يوثِّق صلته بخالقه، فعلاقتنا بالخالق (جل شأنه) مثل علاقة الضوء بمصدره، بالماكينة التي تولِّده لو انقطعت الماكينة عن عمليَّة التوليد لجزء من الثانية انطفأ الضوء، وهكذا حاجتنا إلى الخالق العظيم مستمرة دائماً لا يمكن الاستغناء عنها لأي جزء من أجزاء الوقت مهما قلَّ أو صغر. فمن هنا نحن أحوج ما نكون إلى أن نعرف صلتنا بخالقنا ونقيمها على أفضل السبل وأحسنها، فالإيمان بالغيب إيمانٌ بالله (تبارك وتعالى) إيمانٌ بما غاب عن الحس، إيمانٌ بأمور مجردات قد لا ندركها بحواسنا الظاهرة ولكن ندركها بعقولنا، وبصائرنا، وأفئدتنا.

هؤلاء المتَّقون ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فيأقِمَتهم للصلاة يربطوا حبال الوصل بينهم وبين الله (تبارك وتعالى)، وبإيتائهم الزكاة يبنوا حبالاً وثيقاً مع الله (تبارك وتعالى) يؤدي

إلى رباط مع المجتمع؛ ذلك لأنَّ الزكاة أمرٌ مشترك فمن ناحية أن ينفق العبد فيتذكر أنَّ الله (سبحانه وتعالى) هو الذي رزقه، وهو الذي أعلى يده، ولم يحوجه إلى غيره، ومن ناحية يذكر مجتمعه، ويذكر الفقراء، ويذكر أولئك الذين يساكنوه ويشاركوه ولا يجدون ما ينفقون، فلا يستعلي عليهم بمزٍ ولا أذى، ولكن يقدم إليهم ما أمره الله به في تواضعٍ وشكرٍ للنعمة ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيؤمن أنَّ المال ماله (تعالى) وأنَّه قد استخلفه فيه ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

والإنفاق غير الزكاة، فقد ينفق الإنسان على نفسه وعلى عياله وعلى أبنائه وعلى ضيوفه وعلى من يطرق بابه وعلى من يطلب منه العون أو المساعدة أو ما إلى ذلك، فهو حقٌّ في المال غير الزكاة، ولا بد للإنسان أن يتذكره.

ثم يأتي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي القرآن الذي أنزلناه إليك وبرسالة ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني وحدة الدين. وهذه السورة -سورة البقرة- هي السورة التي نقلت مفهوم الدين من تدين لأسر ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إلى الديانة العالمية والدين العالمي، نقلته من حالة الاصطفاء القومي وارتباط الدين بقوم كارتباط الرسالة اليهودية بقوم موسى؛ لتحريرهم من عبودية فرعون وإسكانهم الأرض المقدسة، إلى حالة اصطفاء أمة بأكملها، وارتباط الرسالة بالإنسانية، فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- خاتم النبيين، وكتابه القرآن العظيم هو خاتم الكتب السماوية، وآخر الاتصال الوحيي بين السماء والأرض، أرسله الله على النبي المختار لأداء دوره العالمي على مستوى العالم كله. فالذين يؤمنون به يؤمنون بما أنزل إلى رسول الله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وبكل ما أنزل من قبله أولئك هم المتقون، ولذلك سوف يأتي في خلال هذه السورة كلام كثير عن وحدة أمة الأنبياء وضرورة الإيمان بهم جميعًا وضرورة التخلص من عملية حصر الدين في قبيلة أو في شعب أو في أسرة أو في ما كان مثل ذلك ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقينًا تامًا لا يشوبه ريب، فهم يوقنون بأنَّ هناك بعثًا بعد الموت وأنَّ الآخرة حق، وأنَّ الحياة الحقيقة إنما هي في الدار الآخرة.

هؤلاء الذين يتصفون بكل هذه الصفات هم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الذي سألنا الله (تبارك وتعالى) في سورة الفاتحة أن يهدينا صراطهم وقولنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ من هم الذين أنعم الله عليهم؟ هم أولئك المتقون الذين كان القرآن الكريم هدى لهم فكانوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وما أنزل من قبله وبالأخرة هم يؤفنون ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إذن، أولئك الذين يستحقون أن يوصفوا بالهداية، ويستحقون أن نسأل الله (سبحانه وتعالى) سبعة عشر مرة في الفرائض ونحن نقرأ الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ صراط هؤلاء الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. الآن قد شرح لنا تفصيلاً الإشارة التي وردت في الفاتحة وهي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

"﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولفظ "الإنزال" المراد به ما ورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الإلهي الأسمى، وسمي إنزالاً لما في جانب الألوهية من ذلك العلو، علو الرب على المربوب، والخالق على المخلوقين، الذين لا يخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيداً خاضعين، وقد سمى القرآن غير الوحي من إسداء النعم الإلهية إنزالاً فقال: ﴿.. وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ..﴾ (الحديد: 25).

ووصفهم بأهم موقنون بالآخرة لأهم مؤمنون بالقرآن، ولم يصف بهذا الوصف الطائفة الأولى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ لأنها وإن كانت تؤمن بالغيب وتتوجه إلى الله (تعالى) بالصلاة المخصوصة بها وتنفق مما رزقها الله، فذلك لا ينافي أنها في حيرة من أمر البعث والجزاء، وكذلك كانت قبل الإيمان بالقرآن، وكان من هداية القرآن لها: أن خرج بها من غمرات تلك الحيرة.

ولا يعتد بما دون اليقين في الإيمان وقد قال الله (تعالى) في اعتقاد قوم: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: 28) وإذا لم يكن الظان موقناً وعلى نور من ربه في اعتقاده، فما حال من هو دونه من الشاكّين والمرتابين؟ ويعرف اليقين في الإيمان بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال⁸⁸.

ثم تأتي آيتان بعد ذلك تشرحان لنا صراط المغضوب عليهم، الذين قد دعونا الله (تبارك وتعالى) أن لا يجعلنا على صراطهم وقلنا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، يقول (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لماذا؟ لأنّه قد ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تفتح أبداً لأنّ الله هو من ختم على قلوبهم فلا يستطيع أحد بعد ذلك أن يفتحها، لا نبي ولا رسول ولا شفيع ولا سوى ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ومردواً على الكفر واستمروا عليه ورفضوا سبل الهداية كلها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، حتى يروا النار، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ هؤلاء هم المغضوب عليهم، إذن، بيّن الله (سبحانه وتعالى) لنا في آيات خمس: الذين أنعم عليهم، وبيّن لنا في آيتين المغضوب عليهم، وسيبين لنا في الآيات التالية صفات أولئك الضالين حتى نعرفهم بسميهم ونعرفهم بأوصافهم التي ذكرها القرآن الكريم ونتجنب - إن شاء الله - أن نكون منهم أو من بينهم.

فقله (تعالى): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعيدنا إلى ما ذكرت من امتياز الإنسان بأن تكون له حواس ظاهرة وحواس باطنة، فالذين أنعم الله عليهم حواسهم الظاهرة وحواسهم الباطنة كلها محكومة بالتقوى؛ ولذلك فلا يختلف الأمر عندهم لا في السر ولا في العلن، فسرهم وعلانيتهم سواء، أمّا هؤلاء الضالون فيختلف سرهم عن علانيتهم ففي العلانية يعلنون الإيمان وحب الدين وحب الله وحب رسوله - صلى

⁸⁸ تفسير المنار 1/ 111، 113.

الله عليه وآله وسلم-والإيمان بالقيم ولكنهم ليسوا بمؤمنين في حقيقة باطنهم، وهؤلاء قد وصفهم الله (تعالى) في آيات عديدة منها: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون:1) لماذا وصفهم بأنهم "كاذبون"؟ كاذبون لأن باطنهم يكذب ظاهرهم قبل أن نكتشف نحن أكاذيبهم، "وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ" إذن، لماذا يعلنون هذا الإيمان، ولماذا ينسبون أنفسهم إلى المؤمنين وإلى أمة المؤمنين وأمة المسلمين، وإلى أهل القرآن؟ ذلك لأنهم يريدون الخداع ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. هم يستطيعون أن يخدعوا الذين آمنوا لأنهم بشر مثلهم، فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عن بصائرهم أو سرائرهم، ولكن كيف خطر لعقولهم الضلالة التافهة أنهم يستطيعون أن يخدعوا الله (تبارك وتعالى) والله (تبارك وتعالى): ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، و﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ فالله (سبحانه وتعالى) يعلم سرنا وعلايتنا مهما خلونا ومهما ابتعدنا فنحن على مرأى ومسمع منه (سبحانه وتعالى) فكيف تصوروا هذا التصور الخاطئ؟ لأن في قلوبهم مرض وفيها انحراف؛ والانحراف -نعوذ بالله- حينما يستولي على قلب إنسان فإنه يفقد القدرة على التمييز، لا يميز بين الله وبين خلقه، بل بالعكس إنهم يخشون الناس أكثر مما يخشون الله (تبارك وتعالى) فيخشون ما يقول الناس مما قد يؤثر على سمعتهم بينهم أكثر مما يخشون الله (تبارك وتعالى) في الدار الآخرة، لماذا؟ لأن في قلوبهم مرض، فلو كانت قلوبهم سليمة ولو كانت قلوبهم مستقيمة، ولو لم تكن قلوبهم مصابة بداء وبيل وبمرض خطير لما جاءت كل تلك التصورات الخاطئة التي جعلتهم يتوهمون أنهم يستطيعون خداع الله (تبارك وتعالى) وهو لا يُخدع، وخداع المؤمنين.

وانظر ما جاء في تفسير المنار ما نصّه: "وجملة القول أن الإيمان بما أنزل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هو الإيمان بالدين الإسلامي جملة وتفصيلاً، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به، فلا يسع أحداً جهله، فالإيمان به إيمان، والإسلام لله به إسلام، وإنكاره خروج من الإسلام، وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامي وواسطة الوحدة الإسلامية، وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فموكول إلى اجتهاد

المجتهدين، ولا يصح أن يكون شيء من ذلك مثار اختلاف في الدين. زاد الأستاذ هنا بخطه عند قولنا: اجتهد المجتهدين ما نصه:

(أو ذوق العارفين أو ثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمدتهم فيما يعتقدون بعد التحري والتحصيص، وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل ما للناقل معه، فلا بد أن يكون عارفاً بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه، ونحو ذلك مما يطول شرحه، وتحصل الثقة للنفس بما يقول القائل).

وأقول: معنى هذا أن بعض أحاديث الآحاد تكون حجة على من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها، ولا تكون حجة على غيره يلزمه العمل بها، ولذلك لم يكن الصحابة -رضي الله عنهم- يكتبون جميع ما سمعوا من الأحاديث، ويدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به، وبالسنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلاً من بيان السنة، كصحيفة علي -كرم الله وجهه- المشتملة على بعض الأحكام: كالدية، وفكاك الأسير، وتحريم المدينة كمكة، ولم يرض الإمام مالك من الخليفين: المنصور، والرشيد أن يحملوا الناس على العمل بكتبه حتى (الموطأ)⁸⁹.

قوله (تعالى): ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لأهم هم الذين اختاروا ذلك، فزادهم الله (تعالى) فإن من سنة الله أن من يختار الإيمان يزيد إيماناً، ومن اختار الطغيان يزيد طغياناً، ومن اختار المرض يزيد مرضاً، والذي اختار العافية يهيئ له سبيل العافية وهكذا، قال (تعالى): ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدار الآخرة وفي الدنيا؛ فهذا المنافق معذب ومذبذب ومختار في الدنيا دائماً، يخشى أن ينكشف لأنه يأتي الناس بأوجه مختلفة، فيأتي إلى هؤلاء الناس بوجه ويأتي إلى أناس آخرين بوجه آخر، فهو معذب بقلق النفس، وقلق الضمير، لا يعرف معنى الاستقرار، وينتظره في الآخرة العذاب

⁸⁹ تفسير المنار 1\116.

الأيام لما كان يكذب في الحياة الدنيا. خذوا علاماتهم لكي تعرفوهم ولكي تميزوهم ولكي نفحص أنفسنا أيضاً دائماً، فإذا وجدنا في أنفسنا أية خصلة من هذه الخصال نحاول أن نفتلعها، نحاول أن نتخلص منها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ هنا شيء مهم وخطر للغاية ألا وهو تغيير المفاهيم؛ يعني أن نعلم إلى مفاهيم وكلمات وأسماء معينة وضعت لمعان شريفة نبيلة، نفرغها من تلك المعاني ونحشرها بمعانٍ أخرى فمثلاً: عصرنا هذا نجد فيه عملية تغيير المفاهيم صناعة فالمتمسك بدينه، الطائع لربه، المتقي لله (سبحانه وتعالى) يمكن أن يقال عنه رجعي مثلاً، والتارك لدينه، المفارق للجماعة، المخرب للمجتمع، يمكن أن يقال عنه تقدمي، ويمكن أن يقال عنه مثقف، ويمكن أن يقال عنه أوصاف أخرى لماذا؟ لأن الشيطان يلعب على قضية المفاهيم لإقناع الناس بالمفاهيم الباطلة، المفاهيم الخاطئة واجتياهم عن المفاهيم الصحيحة، ولذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حينما يأتيه الصحابة أول شيء يقوم به إعادة تصحيح المفاهيم، يقول أحدهم: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا جئناه فكأنه يفرغنا ثم يملأنا. يقول (عليه الصلاة والسلام) لهم: "أتدرون من المفلس؟" كلمة المفلس نحن نستخدمها اليوم في لهجاتنا العامية فلان مفلس أو نحو ذلك، فيقولون: "الله ورسوله أعلم أو المفلس من لا درهم عنده ولا متاع، فيقول: المفلس من يأتي وقد شتم هذا وأخذ مال هذا واعتدى على هذا فيحاسبه الله (سبحانه وتعالى) في الدار الآخرة عن كل ما فعل، فيأخذ الله من حسناته إن كانت لديه حسنات، ويعطي لأولئك الذين اعتدى عليهم؛ فإذا فنيت حسناته ولم يعد لديه حسنات تعطي لمن اعتدى عليهم أخذ من سيئاتهم وألقيت عليه فزادت سيئاته وألقى آن ذاك في النار"، فرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هنا يعلمنا المفهوم الصحيح فيعلمهم مفهوم الفساد، ومفهوم الصلاح، ومفهوم الإفلاس، ومفهوم الغنى، وسائر المفاهيم المتداولة.

واليوم للأسف الشديد تجاهل المسلمون هذا، وتساهلوا في عملية المفاهيم، وأصبحت المفاهيم تصاغ لهم فيقال للمطالب بحقه مثلاً وللمقاوم الذي يريد أن يستعيد أرضه وشرفه وكرامته يقال له: إرهابي، ويقال لسارق الأرض وخاطفها يقال له: صاحب أرض، ويقال له: ديمقراطي، ويقال له: كذا وكذا. هذا الأمر مرتبط بقضية النفاق ومحاولة بناء ظاهر مجتث

﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ والمفاهيم الضالّة المضلة الخاطئة منبئة دائماً لا أصل لها ولا جذر فعلينا أن ننظر في هذه العلامة ونحاول تجنبها ونرصد أصحابها والذين يسقطون منها؛ لنعرف أنّهم من هذا الصنف الثالث.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 11-13)

تنطق هذه الآيات بأنّ ما عليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قد سؤل له الباطل وزين له سوء عمله فراه حسناً، وشوّه في نظره كل حق لم يأتّه على لسان رؤسائه ومقلديه بنصه التفصيلي فهو يراه قبيحاً، وقد صوّرت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفرادهِ وهو:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (البقرة: 11) بما تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً، وتنفرون الناس عن اتباع محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- والأخذ بما جاء به من الإصلاح الذي⁹⁰.

يجتث أصول الفساد ويصطلم جرائم الإرتداد، ويحيي ما أماتته البدع من إرشاد الدين، ويقيم ما قوّضته التقاليد من سنن المرسلين .

﴿.. قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: 11) بالتمسك بما استنبطه الرؤساء، وما كان عليه الأحرار والعرفاء من تعاليم الأنبياء، فإنّهم أعرف بسنتهم، وأدرى بطريقتهم، فكيف ندع ما تلقيناه منهم ونذر ما يؤثّر آباؤنا وشيوخنا عنهم ونأخذ بشيء جديد وطارف ليس له تليد؟

هكذا شأن كل مفسد يدّعي أنّه مصلح في نفس إفساده، فإن كان على بينة من إفساده عارفاً أنّه مصل -وإنّما يكون كذلك إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له- فإنّما يدّعي

⁹⁰ تفسير المنار 1/ 131.

ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الإفساد بالتمويه والمواربة، وإن كان مسوقاً إلى الإفساد بسوء التقليد الأعمى الذي لا ميزان فيه لمعرفة الإصلاح من الإفساد إلا الثقة بالرؤساء المقلدين، فهو يدّعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم، وإن كان أثر تقليدهم والسير على طريقتهم مفسداً للأمة في الواقع ونفس الأمر؛ لأنّ الوجود والحقيقة الواقعة لا قيمة لهما ولا اعتبار في نظر المقلدين، بل هم لا يعرفون مناشئ الفساد ومصادر الخلل ولا مزلق الزلل، لأنّهم عطلوا نظرهم الذي يميّز ذلك، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك، بصددهم عن سبيل الإسلام الداعي إلى الوحدة والالتزام، فكان ذلك منهم دعاء إلى الفرقة والانقسام، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الأصنام، وأي إفساد في الأرض أعظم من التنفير عن اتباع الحق، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين، والأرض إنّما تفسد وتصلح بأهلها؟

ولذلك قال (تعالى):

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: 12) فابتدأ الكلام المؤكد لإثبات إفسادهم بكلمة "ألا" التي يراد بها التنبيه والإيقاظ وتوجيه النظر، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعده⁹¹.

نواصل ما بدأناه من ذكر صفات الأصناف الثلاثة التي وردت الإشارة إليها في سورة الفاتحة، وجاءت مقدمة سورة البقرة لتقدم لنا التفاصيل الكاملة عنها، ذكرنا أنّهم كيف يحرفون الكلم عن مواضعه، كيف يطلقون على الفساد صلاحاً، وعلى الصلاح فساد، كيف يفرغون المفاهيم الصحيحة من معانيها ليحشوها بالباطل وبالأفهام الخاطئة ليضلوا الناس بغير علم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فحينما يدمرون، وحينما يقومون بشن الحروب الظالمة التي لا رائحة لأي عدل فيها يقولون نريد أن نصحح أحوال هؤلاء، هؤلاء رجعيون يعيشون خارج العصر نريد أن ندخلهم العصر ولو بإدخالهم القبور، ولو بعد قتلهم وإبادتهم، ولو بدفن النفايات الضارة في أراضيهم التي تقتل

⁹¹ تفسير المنار 1/ 132.

الحياة وتقتل الأحياء من الإنسان، الحيوان، النبات، وسوى ذلك، وكل ذلك يسمونه ماذا؟
تحدثاً أو إدخالاً لهذه الشعوب فيما يسمى بالحدثاء فإذا ﴿قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وقد يجمع الإنسان بين النفاق والكفر -نعوذ بالله- وكثيراً من
هؤلاء يجمعون بين الصفتين الكفر الكامن في ضمائرهم وقلوبهم، والنفاق والذي يحاولون أن
يغطوا به على ما يفسدون وبين مظاهر الفساد التي يمارسونها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا
آمَنَ النَّاسُ﴾ انظر يحرفون المفاهيم ويعطون للناس صفاتٍ يختارونها بمقتضى تحريف المفاهيم
وتغييرها فهناك حرفوا مفهوم الصلاح، ومفهوم الفساد، وعكسوا الأمر، وهنا يقولون ﴿وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ بماذا يجيبون؟ ﴿قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الآن
يغيرون المفهوم تجريدًا لتحويله إلى صفة ملازمة لمن يعارضونهم ولمن يخالفونهم وتصبح سبة
عليهم وكأنهم يعرفون بذلك ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ أتريد
مني أن أكون سفيهاً، أتريد مني أن أكون رجعيًا، أتريد من أن أخرج من حالة التقدم إلى
حالة التخلف، أتريد مني أن أدخل في كذا وكذا .. الخ؟ يحولونه إلى صفة للأشخاص وهذا
كله قائم في عصرنا هذا، وكله تمارسه أجهزة إعلام وثقافة وتعليم عملاقة شملت العالم كله،
حوّلت الخطأ إلى صواب والصواب إلى خطأ والحق إلى باطل والباطل إلى حق ﴿وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ ومع ذلك فهم ضعفاء لا تظن أن ما يفعلونه من تغيير في المفاهيم وتغيير في
أوصاف الناس دليل قوة. لا إنه دليل ضعف ولذلك ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على
ضعفهم وعلى أنهم يشتمونهم صباح مساء ويرمونهم بأقذع التهم وبأقذع الأوصاف من
سفاهة ورجعية وسوى ذلك ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ نحن معكم نحن منكم أنتم خيرون أنتم طيبون
﴿قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾، وإعجاز القرآن هنا شياطينهم من الإنس
وشياطينهم من الجن، لأن شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً
﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ وأمنوا أن لا مؤمن يسمعهم قالوا: إننا معكم إنما نحن
مستهزئون كما يفعل كثيرون الآن مع قوى مختلفة مع جهات مختلفة مع فئات مختلفة من
الناس إذا جاءوا إلى الناس، إذا جاءوا إلى المؤمنين قالوا آمنا ونحن ضد كذا ونحن مع كذا،
فإذا خلوا لشياطينهم قالوا لشياطينهم من الإنس والجن ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾

إنَّا معكم في مقاومة الخير والحق والإيمان ومقاومة السفهاء، ومقاومة الذين آمنوا، ومقاومة المتقين، كل ذلك إنَّا معكم إنَّما نحن حينما كنا نظهر الإيمان، حينما زرنا المساجد لنضحك على عقول البسطاء، حينما فعلنا، حينما قلنا، حينما خطبنا، حينما حينما، إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنَّا معكم في حقيقتنا وفي ضمائرنا إنَّما نحن مستهزئون بأولئك نسخر منهم ونستهزئ بهم ونعطيهم على قدر عقولهم، نضحك عليهم، نخدعهم، نريهم ما يرضيهم فقط، ولكن حقيقتنا وسيوفنا وقوانا هي معكم ولكم.

هؤلاء الذين يصدر الآن حكم الله (تعالى) عليهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ هؤلاء الذين يفعلون هذا، هؤلاء الضالون، هؤلاء المذبذبون، هؤلاء المترددون، هؤلاء الذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هؤلاء الذين لأنفسهم وشياطينهم وشهواتهم فقط، هؤلاء يظنون أنهم راجحون فيما يفعلون ويظنون أنهم قد ضحكوا على الجميع ولكن ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ راحوا أخذوا ضلالة وأعطوا ثمنها الهدى، أخذوا انحرافًا وأعطوا بدله استقامة، أخذوا كفرًا وأعطوا بدله إيمانًا، أخذوا فقسًا وأعطوا بدله ثقى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ فهل يربح تاجر كهذا؟ لا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لا تجارتهم ربحت في الدنيا، ولا حصلوا على الهداية التي حصل عليها المتقون فصاروا من الذين أنعم الله عليهم ولكنهم في كل ذلك كانوا هم الخاسرين.

﴿مَثَلُهُمْ﴾ يضرب الله (تبارك وتعالى) لهم مثلًا وهذا القرآن كثيرًا ما يضرب الأمثال، وأمثال القرآن تعتبر ثروة ثقافية هائلة، فكل مثل وراءه مجموعة من الخبرات والتجارب للأمم يلخصها القرآن الكريم في تجارب الأنبياء مع أممهم، وتجارب أهل التقوى مع المنحرفين، فيلخصها الله (تبارك وتعالى) بمثل؛ لكي يكون هذا المثل مما يمكن استيعابه لمختلف المستويات الثقافية ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ أشعل نارًا بسيطة ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ نار من حلف أو من قش مجرد أن تشتعل قبل أن يقوم لكي يستفيد منها أية فائدة، ليستضيء بنورها، أو يصنع شيئًا عليها تكون قد انطفأت وذهبت إلى العدم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فهذا الذي يظنون أنهم أقنعوا به أعداء الأمة

وأعداءهم بأثمهم أصدقاء لهم، وأثمهم منه، وأثمهم كذا، هذا مثل من استوقد ناراً من هذا القش أو من هذه الحلفاء وقبل أن يتحرك خطوة في ضيائه أو بضياءه أو يستفيد منه أية فائدة إذا به انطفأ، ولو رجع إلى الله لوجد الله عنده ووفاه حسابه.

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لماذا؟ لأنهم أصموا آذانهم عن استماع قوله الحق ﴿صُمُّ﴾: خرقوا آذانهم فلم تعد تسمع شيئاً من الحق، ولا تسمع شيئاً من الصواب، ولا تسمع لله نداءً، ولا لدعائه قولاً ﴿بُكْمٌ﴾ لا يستطيعون قول الحق خرس، وإذا سألتهم عن أي أمر وطلب رأيهم فيه وأن يقولوا الحق فيه ابتسم لك ابتسامة صفراء، وظن أو حاول أن يوحي إليك بأنه يفهم ويعرف، ولكنه لا يريد أن يجازف أو يتورط ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم عطلوا قوى الوعي فيهم، عطلوا أجهزتهم كلها أوقفوا كل ما من الله به عليهم من قوى وعي يمكن أن تنير قلوبهم وبصائرهم فكان نصيبهم ذلك الضلال وذلك المثل الخطير الذي ضربه الله (تبارك وتعالى) لهم.

ضرب الله لأولئك المرضى في قلوبهم الضالين مثلين:

1. المثل الأول ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ صُمُّ ﴿كَأَنَّهُمْ فَقَدُوا أَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَالسَّنَنَةَ، فلم يعد لديهم شيء من قوى الوعي التي زودهم الله (تبارك وتعالى) بها؛ لتفاهة ما تعلقوا به وما تجاوزوا الإيمان من أجله.

2. المثل البديل ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مطرٌ نازلٌ من السماء -ليس غيثاً يغيث الناس ويسقي زروعهم ومواشيهم ويسقيهم- ولكنه صيب من السماء مليء بكل مخيف، فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، وهل يستطيع الإصبع حينما يوضع في أذن الإنسان أن يحميه من موتٍ محققٍ ينزل به من السماء لو شاء الله أن يميتها؟ لا. ولكن تلك هي التفاهة العقلية، تلك هي السفاهة العقلية التي كان يحملها أولئك الضالون وهم يعلنون علاقتهم

بشياطينهم على علاقتهم بالله (تبارك وتعالى) وعلاقتهم بالمؤمنين، فهم كمن يضع إصبعه في أذنه خوفاً من الصاعقة، والصاعقة لو نزلت ستقتله، ولن يستطيع إصبعه الذي وضع في أذنه أن يحميه من ذلك الموت المحقق، و﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ ولكن ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ تحركوا وظنوا أن هذا ضياء سوف يستمر وسيستطيعون أن يبلغوا غايتهم ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ لكنه برق مجرد لمعات عابرة ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ وردهم كالحيوانات ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولكن الله تركهم بناءً على ذلك الوعد الإلهي بأن يعطي للإنسان حرية الاختيار، ويجعله في هذه الحياة مختاراً حراً يستطيع أن يختار الهدى، ويستطيع أن يختار الضلال، ولن يمنعه الله (سبحانه وتعالى) ولم يجبره على شيء من ذلك إذ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَنْلِزْمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾... إلى غير ذلك من آيات كريمة.

المدخل الثامن عشر: مدخل العلاقات بين الإنسان والطبيعة والحياة:

هذا المدخل مدخل شديد الأهمية لأنه ينهي فكرة الجبر والاستلاب عن الإنسان لأنَّ حاصله يقوم على الكشف بين علاقة الغيب في الفعل الإنساني وعلاقة الطبيعة به كذلك، ثم علاقة الإنسان نفسه، والقارئ المتدبر، إذا قرأ وهو على علم بالتفاعل الحاصل بين الغيب والإنسان والكون في كل فعل إنساني فإنه في هذه الحالة يستطيع أن يدرك بأنَّ الفعل الإنساني بطبيعته لا يمكن أن يكون وليد عبث ولا مصادفة ولا يكون سدى، فهو فعل مستمر في تفاعله مع العناصر الثلاث، ونتائجه تتوقف على تلك العناصر، وتظهر بعد الكشف عن علاقتها معه، فلا عدمية ولا عبثية ولا مصادفة يمكن أن تلحق الفعل الإنساني إذا أدرك الإنسان أن هذا الفعل ينجم عن ذلك التفاعل بين الغيب والإنسان والكون.

المدخل التاسع عشر: مدخل الإحكام والتفصيل:

وصف الله (سبحانه وتعالى) القرآن المجيد بأنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1) بحكمة الحكيم (جلّ شأنه) وخبرة الخبير (تبارك وتعالى) أحكم بناء كل آية من آيات الكتاب الكريم، فإذا تدبّرتَه رأيت بناءً متقناً بالغ الإتقان "ولله المثل الأعلى" حين يكلف أحداً من رسله أو تتعلق إرادته بشيء فإنّه (جلّ شأنه) يجعله بناءً يتحدى به الآخرين ليثبت أنّه صنع الله لا يستطيع أحد أن يرقى إلى مثل مستوى مهارته وإتقانه فيما يصنع (تبارك وتعالى).

وفي هذه الحالة تستطيع أن تتصور إلى أيّ مدى سوف يتقن البناء ويُحكمه ويمنع عنه كل ما يمكن أن يسمح لأحد بأن يرقى إلى ذلك المستوى أو يدخل أي خلل في البناء فالله (تبارك وتعالى) وله (جلّ شأنه) المثل الأعلى ذو الحكمة المطلقة والخبرة المطلقة، أحكم هذا الكتاب آية آية، بحيث لا يكون في أيّة آية منه خلل على أيّ مستوى من المستويات؛ ولذلك فإنّ من المستغرب جداً أن يطلق البعض أقوالاً غثيثة حول بعض آيات الكتاب، أو كلماته كالزعم بوجود قراءات شاذة، أو كلمات لا تتمتع بالفصاحة العليا، أو آيات يكون مستوى البلاغة فيها موضع أخذ ورد، كتلك التي كتب في مثلها الكاتبون فيما تناولوه مما أسموه بمشكل القرآن أو غريبه أو نحو ذلك.

والآية التي معنا نص لا يحتمل أي تأويل في أنّ الكتاب الكريم كلّ قد أحكمت آياته، فقد أضيفت كلمة آيات بهذا اللفظ بدون تعريف إلى الضمير، وهذا النوع من الإضافة يفيد العموم لغة، فكأنّه قال: "أحكمت كل آياته بدون استثناء" فما من آية من آياته إلا وقد أحكم بناؤها، وبعد إحكام البناء وإتقانه وجعله متحدّياً معجزاً في القوة، والمتانة، والمنعة، والبلاغة، والفصاحة يأتي دور التفصيل، والتفصيل مأخوذ من "الفصل" وفصل بمعنى ميّز جزءاً عن كل، وهذا التفصيل أو ميز الأجزاء عن بعضها له وسائله وأدواته، فالخياط يفصل الثوب

على البدن فيجعل منه ما يخص الذراع والكتف وبقية أعضاء الجسم بعد أن كانت قطعة واحدة متصلة.

فيخبرنا الباري (سبحانه وتعالى) في هذه الآية أَنَّ هذا الكتاب الكريم قد أحكم (سبحانه) فيه كل شيء، وحين تكون فيه أحكام أو وصايا أو أمثال أو قصص أو أي شأن يعلم الله (سبحانه وتعالى) فيه الحاجة إلى التفصيل فإنه يقوم بتفصيله بعد ذلك، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: 119)، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام: 57)، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء: 12) والإنسان قد لا يتمكن من فهم ما أحكم إذا اشتمل على عديد من الأمور فيفصل الحكيم الخبير ما أحكم ليكون في مقدور الإنسان فهم ذلك وإدراكه، وبالتالي فالآية الكريمة نص في إحكام الكتاب أولاً ومجئ التفصيل في مرتبة ثانية فلا يسبق التفصيل الإحكام، والقرآن كله دون استثناء أحكم آياته ثم فصلت، فما من آية يمكن أن يقال فيها أي شيء ينافي ذلك الإحكام، والتفاصيل ترجع إلى ذلك المحكم وترد إليه، وهو الحاكم عليها، القاضي باندراجها أو عدم اندراجها تحت البناء، هذا شأن الكتاب وتلك صفته.

تفصيل ما أحكم في سورة الفاتحة

لقد تدبرت سورة الفاتحة وسورة البقرة فوجدت سورة الفاتحة ذات الآيات السبع سورة عمودها الأساس حصر الحمد والثناء والعبادة والاستعانة بالإله الواحد الأحد الرب الفرد الصمد، مع تعليل ذلك كله بربوبيته وألوهيته وحاكميته وملكيته التامة للعالم والآخر، وأن مواقف الناس من ذلك -أي: حصر الحمد والعبادة والاستعانة بمن يستحقها- ولا مستحق لذلك إلا الله - ذلك أمر قد انقسم البشر حوله لما سبق في علم الله (تبارك وتعالى)، فكان منهم أولئك الذين سلموا بهذه الحقائق وآمنوا بها، فكانوا من الذين اهتموا فزادهم الله هدى، وأنعم عليهم في الدنيا بالهداية والتقوى وتمام النعمة، وفي الآخرة بقبولهم وإسكانهم دار رضوانه. وقوم ضلوا في تلك المتاهات، ومنهم هؤلاء الذين يثيرون الزوابع الفارغة حول القرآن

المجيد ومعانيه بأشكال مختلفة، فهم جزء من ذلك الفريق الضالّ النائه الحائر الذي ضرب الله له مثلاً سيأتي في سورة البقرة، وفريق غضب الله عليه ليأسه من الآخرة وتنكره لأنبياء الله وقتله وتكذيبه لكل من جاءهم بما لا تهواه نفوسهم من هدى الله ودينه، أولئك هم المغضوب عليهم.

وإذا كان الله (سبحانه وتعالى) قد أمر بقراءة هذه السورة في كل ركعة من ركعات الصلاة المفروضة أو مندوبة فذلك لتذكير المسلم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار بهذه السورة التي أحكمت، ليتذكّر بها التوحيد الخالص، والإيمان العميق، وما يتطلبه من حصر الثناء والحمد والشكر والاستعانة والعبادة بالله رب العالمين، والتفكير الدائم بربوبيّته وألوهيّته ونعمه وصمديّته وتفرّده ووحدانيّته في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. فهذه الآيات السبع التي يقرأها المسلم في كل ركعة من ركعات الصلاة المفروضة وفي سبعة عشر ركعة من الفرائض في الليل والنهار تذكّره بعهدده مع الله، وتجعله في حالة حضور دائم بين يديه، هي في حقيقتها وإحكامها فاتحة الكتاب كلّ ومقدمته المشتملة على مكنون يندرج فيه كل ما فصلّ في الكتاب، ونجد تفصيلاً وجيزاً لهذه الآيات السبع في الآيات الخمس والعشرين الأولى من سورة البقرة، فتلك الآيات الخمس والعشرون تبدأ تلك البداية الحكيمة.

ففي "ألم" لعل الباري (سبحانه) أراد أن يذكر البشريّة بتلك النعمة الكبرى نعمة التمكّن من تقطيع الأصوات إلى حروف ثم تحويلها إلى كلمات يفصح الإنسان فيها ويبين عما في نفسه، ولولا ذلك لبقى الإنسان عاجزاً عن الإفصاح عما في نفسه، فنحن نسمع نقيق الحمار، وصهيل الخيل، ونباح الكلاب، ورغاء الثيران، ولا نستطيع أن نبيّن ماذا يريد هذا الحيوان بإصدار ذلك الصوت، والإنسان كان صاحب صوت مثله مثل سائر تلك الحيوانات، لكن الله (تعالى) ميّزه بهذه القدرة الهائلة على تقطيع الصوت إلى أحرف، لتكوين كلمات، وهذه الكلمات تتحوّل إلى جمل يستخدمها الإنسان للإفصاح عما في نفسه، "علّمه البيان" أي أن يبين عما في نفسه. ثم يدخل في الآية الثانية في بيان أهميّة المصدر

الذي اشتمل على تلك الآيات والثقة التامة به، وأنه لا ريب فيه ولا خلل، وكل ما يأتي به محكم ومفصل لا يمكن العثور فيه على عيب من العيوب.

ثم يبدأ ببيان وتفصيل صفات الذين أنعم عليهم في الآيات الخمس الأولى من السورة، ثم يبيّن في آيتين مراده بالمغضوب عليهم، ثم يبدأ ببيان أولئك التائبين الضالين في مجموعة آيات أخرى، وفي اثنتي عشرة آية بيّن صفات الضالّين، وذكر المنافقين نموذجًا لهم، وضرب لهم مثلين لتوضيح مدى ضلالهم وحيرتهم، ففي سورة الفاتحة ومقدمة سورة البقرة نموذجان ظاهران للإحكام والتفصيل، وحين نتدبر آيات الكتاب كلّها فإننا سنجد لها دائرة بين الإحكام والتفصيل.

وفي الآية الحادية والعشرين يوجه النداء إلى الخلق كافّة، وإلى العالمين أجمعين، وبلطف الناس، ونداء القريب؛ لحصر العبادة بالله (تعالى)، وفي ذلك تأكيد وتفصيل لما جاء في قوله (تعالى): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴾ (الفاتحة: 5) في سورة الفاتحة، وشرح للعلل والأسباب والحكم التي تدعو إلى حصر العبادة بالله (تعالى)، فهو الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم. والآية التالية لها تفصيل لتلك العلل ومزيد بيان لها، ثم تأتي الآية ثلاثة وعشرون لتعود إلى التأكيد على صحة المصدر مصدر الهداية الذي سألنا الله (تبارك وتعالى) أن يمنّ علينا بها في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: 6) ومصدر هذه الهداية هو مصدر واحد لا ثاني له، الكتاب الذي لا ريب فيه، فهو الذي يحمل الهدى للمتقين، وهنا يأتي مع تأكيد نفي الرب عنه التحدي به بل بسورة من مثل سوره، هذا التحدي الذي يعلم الله (تبارك وتعالى) أنهم لن يستطيعوا أن يستجيبوا له، فلن يتمكنوا من الإتيان بمثل سورة واحدة من سوره، ولو اجتمعوا على ذلك، واجتمع معهم الإنس والجن وسائر الخلق، وما دام الأمر كذلك ومادامت الدعوة ثابتة بدليلها وما دام التكذيب لا أثر له ولا دليل عليه؛ فإذا لا بد من أن يكون مصير الرافض هو النار التي وقودها الناس والحجارة، فإذا لم تسلّم أيُّها الإنسان بصحة هذه الدعوى التي قام الدليل المطلق على صحتها فلا أقل من أن تتقي السقوط في النار التي

وقودها الناس والحجارة، وهكذا نرى الإحكام والتفصيل يسيران في خطين متوازيين في سائر آيات الكتاب الكريم.

إنَّ الناس قد يختلفون عندما ينظرون في أصناف البشر، وقد تدرك بعضهم الحيرة في تصنيف بعض الناس، والآيات السبع في سورة الفاتحة التي أحكمت، والآيات المفصلة لها في مقدمة سورة البقرة قد بيّنت تصنيفات ثابتة للبشريّة في مواقفها من الحق مهما اختلفت الأزمان ومهما تغيّرت الأحوال، فالبشر أصناف ثلاثة في موقفهم من الحقائق، فإمّا أن يكونوا مؤمنين بها مهتدين بأنوارها، أو يكونوا جاحدين بها ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف:8)، وإمّا ضالّون متردّدون متحيّرون تتجاذبهم الرغبات المتناقضة والشهوات المتنافرة والمطامع المتضادة، وتلقي بهم هنا أو هناك، هذه الأصناف الثلاثة أصناف لا تخضع في تقسيماتها ومواقفها من الحقائق لتغيّرات الزمان والمكان والأحوال والظروف، بل تخضع لعقليّة الإنسان ونفسيّته وضميره ووجدانه والمؤثّرات في نفسيّته وعقليّته وجماع شخصيّته، أمّا التصنيفات الأخرى فهي تصنيفات سائلة متغيّرة لا تحمل عناصر ثبات ولا يمكن أن تستمر. وهكذا نجد ما أحكم بناؤه في الآيات السبع من سورة الفاتحة قد تم تفصيله في الآيات الخمس والعشرين الأولى من سورة البقرة ثم فيما بعدها.

فإذا أدركنا الحكمة في هاتين الآيتين الكريمتين: ﴿الرَّكَابُ أَهْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1)، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:23) وتدبرنا فيهما واستعنا بالله (جلّ شأنه) أن يشرح صدورنا ويفتح قلوبنا وعقولنا وألبابنا إلى المعاني الدقيقة فيها، فإنّنا سوف ندرك بأنّنا لا نحتاج تلك المسائل التي يحتاجها اللسان الإنسانيّ واللغات البشريّة من صفات لا تليق بالقرآن الكريم، ولا يمكن أن تنسب إليه، مثل: الإجمال، والإبهام، والإشكال، والترادف، والتقيد، والتشكيك، والتكرار، والتواطؤ، وما إلى ذلك من عيوب

كلامية إذا جاز أن تطلق على لسان البشر فإنه ينبغي أن ينزه كلام الله (جلّ شأنه) عنها كلها، فلا تشابه فيه بمعنى الإبهام، ولا نسخ، ولا تعارض، ولا تعادل، ولا حاجة إلى الترجيع، ولا إلى كثير من تلك الأمور التي أسقطت على القرآن المجيد دون تدبر، ودون تأمل، فجعلته وكأنّه كلام البشر في عيوبه والمآخذ عليه، ومن هنا نستطيع أن ندرك لماذا أضفى الله (جلّ شأنه) على كتابه الحكيم كل تلك الأوصاف، واستوعب في مكنونه وتفصيله ومحكمه سائر احتياجات البشر التشريعية مهما تغيّرت ظروفهم، وتشعبت مشكلاتهم.

فالله (تبارك وتعالى) حين يقول ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 157) فإنه (جلّ شأنه) بهذه الكليات والعموميات الواضحة البينة التي لا تتوقف على غيرها ويتوقف عليها كل ما عاداها فإنه يجيب عن تساؤلات كل زمان ومكان، ويعالج مشكلات كل إنسان، وبذلك يبيّن الله (جلّ شأنه) للناس كافة الذي هم فيه يختلفون، ويستطيع الإنسان في عمره القصير المحدود على وجه هذه الأرض أن يستوعب الشريعة والحقيقة والسنة والمنهاج، ولا يجد نفسه في حاجة إلى سلوك تلك المضايق التي تنقضي الأعمار ولا تنقضي مسائلها وإشكالاتها، والعدل الإلهي لا يكلف نفساً إلا ما آتاها.

المدخل العشرون: مدخل المحكم والمتشابهة:

القرآن الكريم خاتم الكتب الإلهية، وآخر الرسالات الربانية، لا كتاب بعده؛ وهو جماع رسالات الله (تبارك وتعالى) إلى خلقه، كما جعله الله ﴿تَبَيَّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: 89)، وهدى لكل خير، وموعظة وبشرى، وبصائر وذكرى، فكان بياناً لكل ما أُهم، وتفصيلاً لكل ما أغلق، وحاسماً لكل اختلاف، لقد أحكم الله القرآن الكريم، وأنزله على خاتم رسله وأنبيائه وصفوته من خلقه -صلى الله عليه وآله وسلم- مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه، وتكفل بحفظه بنفسه، وحال بينه وبين سائر محاولات التحريف، وعصمه من الباطل

من بين يديه ومن خلفه؛ بعد أن أَوَّل حفظ ما سبقه من كتبٍ إلى الناس، ففرطوا وضيّعوا، وحرفوا، وزادوا، وأنقصوا. وقد أحكم المتكلم به (عز وجل) آياته ثم فصلها، وحين فصلها (سبحانه)، فصلها على علمه الشامل المحيط المطلق، الَّذِي لا تحدّه حدود، ولا يخضع لقيود، وجعله كتاباً كريماً لا يخل على قاصده، ولا تنقضي عجائبه، ولا يتوقف عطاؤه، ولا يخلق من كثرة الرد: ﴿الرَّكِيبُ أَهْلُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1)، وهو أحسن الحديث: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:23)، فهو متشابه - كله - في الأحكام، والإتقان، والإعجاز، ووحد - كله - في ابتناؤه على علم الله المطلق المحيط، وإنَّ رسالات الله في «أصول العقيدة»، و«قواعد الشريعة» واحدة كذلك لا اختلاف بينها إلا ما فرط فيه متلقوه، أو قاموا بتحريفه. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى:13)، ويأمر الله I نبيّه الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - المؤمنين أن يلتزموا بتلك الوحدة ويعملوا على تعزيزها، وألاّ تحملهم مخالفة الداعين إلى الفرقة، من اتباع الديانات الأخرى، والأمم الأخرى على مجاراتهم في ذلك ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (الشورى:14). إنَّ على أمة القرآن الكريم أن تستمسك بتلك الوحدة، وألاّ تجاري أولئك الذين فرّقوا بين الله، ورسله ونبيّه الخاتم، فقال (تبارك وتعالى): ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى:15). ولم ينحصر «الشبه» بين كتب الله (تبارك وتعالى) ورسالات رسله في تناول قضايا العقيدة، وقواعد الشريعة، بل

هناك شبه كبير بين ما جاء في رسالات الله في أدلة الخلق، والإبداع، والعناية الإلهية، وبدء الخلق، وغايته، وأمور الغيب المطلق، وشئون الآخرة، وقصص الأنبياء، وكثير من هذه الأمور قد وردت في الكتب المنزلة قبل القرآن المجيد، وفيه كذلك، وقد أعادها القرآن إلى حالة الصدق، وهيمن عليها، والذين اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم مرجعيات، وأرباباً من دون الله أرادوا أن يحتكروا فهم الكتب المنزلة، وتفسيرها، فصوروا للعامة استحالة فهمهم للوحي دون توسط أولئك الأحبار والرهبان؛ بل نهوهم عن قراءة الكتب المنزلة بدون الاستعانة بهم، وليقنعوهم بذلك صوروا لهم أن في الوحي إحكاماً، وتشابهاً، وغيباً، وباطناً لا يعلمه إلا أولئك بزعمهم، ولم ينأ بعض المسلمين بأنفسهم عما سقط فيه أهل الكتاب السابقون، فقالوا أقوالاً قريبة من ذلك، بعد شيوع المذهبية، والطائفية وانتشارهما.

فحين تلا بعضهم: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: 7) سارعوا إلى الأخذ بظاهر الآية قبل التدبر، وبذلك برز القول بأن القرآن المجيد صنفان: صنف محكم، وآخر متشابه، وبدأ تداول المصطلحين، أو المفهومين في علوم القرآن، والحديث، وأصول الفقه، وعلم الكلام، وشاع استعمالهما، وفسروا كلاهما وفق الاصطلاحات، والمواضع اللسانية، والجذور اللغوية، دون التقيد بلسان القرآن وعربيته، ودون التفات كافٍ إلى الفروق الدقيقة بين الاستعمال الإلهي للغة، والاستعمال البشري، فبدأت هذه الإشكالية بالظهور، ثم الاستفحال.

وفي بحثنا هذا سنحتكم إلى القرآن الكريم ذاته، ونستنطقه الجواب الشافي في هذه الإشكالية، وسنتبين أن هذا القرآن المجيد قد جاء بياناً واضحاً ظاهراً لا لبس فيه، ولا غموض عند من يحسن قراءته.

نحو معنى قرآني للمحكم والمتشابه

لقد وصف القرآن الكريم "بالإحكام" على الإطلاق، بقوله (تعالى): ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (هود: 1)، وذلك لإحكام نظمهِ وإتقانه، أو من "الحكمة" التي اشتملت عليها آياته. ووصف كله "بالمتشابه": ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر: 23)، أي: يشبه بعضه بعضاً في مقاصده، وهدايته، وبلاغته، والتحدي به، وإعجازه في نظمهِ، وأسلوبهِ، وحكمته وإحكامه وأحكامه، وسلامته من كل عيوب الخطاب؛ كالتناقض، والاختلاف، والتفاوت: ﴿... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82).

«الحكمة»، و«الإحكام» في النظم والأسلوب والسياق، والتناسب، والفصاحة والبلاغة التي جعلت لسان القرآن الكريم لساناً متحدياً معجزاً لا يرقى إلى مستواه أي خطاب آخر، كل ذلك يندرج تحت «الإحكام» في استيعاب، وتجاوز، وتصديق، وهيمنة لا يمكن أن يتصف بها غير كلام الله. وأمّا «المتشابه» فهو من «الشبه»، فالقرآن المحكم يشبه بعضه بعضاً في ذلك الذي دل مفهوم «المحكم» عليه، ويشبه الكتب السابقة فيما اشتملت عليه من بيان «العقائد»، و«أصول الشائع» فهو يشبهها في ذلك، ويتجاوزها في استيعابه، وتجاوزه وهيمنته وتصديقه.

إنَّ صيغة «فَعَلَّ» في قوله (تعالى): ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر: 23) تدل على التنزل الموحى بالتدرُّج، ولأنَّ التشابه يعني التقارب والتماثل، فإنَّ المعنى الذي يمكن أن نستنبطه: أنَّ القرآن الكريم بعطائه المتجدِّد، وبكونه خطاباً يتجاوز حدود المكان، وتحولات الزمان، كان لابد أن يكون مستوعباً، ومتجاوزاً يتكشف عبر الزمان، والمكان عن المعاني المستوعبة، ثم يتجاوز إلى أزمنة، وأماكن أخرى، ولكن كلَّ تلك المعاني المستوعبة تنبع من معين واحد، وتتفرع عن جذر واحد. فالقرآن المجيد ينتج معاني متجدِّدة،

كلُّها متسقة، ومنضبطة مع جذرها القائم على إطلاق القرآن الكريم؛ وهنا تبرز صفة الإحكام، فالأنَّه متشابه بكل خصائصه التي تحدَّى الخلق بها، كان لابد أن يكون محكمًا في بنائه -كلّه- وإلَّا تداخلت المعاني، والإحكام وحده، بدون تفاعل وجدل مع صفة «التشابه» في إطار المعاني التي ذكرنا، قد يؤدِّي إلى تضيق مجالات التأويل والتدبر، وإدراك حقيقة المكنون الَّذي يتكشف عبر العصور، فيمكن القرآن الكريم من القيام بمهام الاستيعاب والتجاوز.

هذا عن الإحكام والتشابه بالمعنى العام، أمَّا المعنى الخاص لهما فيدل على: تركز هذه الصفة، أو تلك في بعض المواضع من القرآن الكريم أكثر من غيرها؛ مما جعلها «أم الكتاب»، وجعل الأخرى أكثر قابليَّة لتعدد الفهم، والتأويلات، واستيعاب ما تفرزه القرون من مشكلات إذا أخذت وحدها منفصلة عن غيرها، ولكن لابد من أخذها معًا؛ ليرز المكنون القرآني في صورة «آيات مبيِّنات».

المنهج القرآني وإشكاليَّة المحكم والمتشابه

لقد قرن القرآن «المنهج بالشرعة»، كما تبين الآية الكريمة: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: 48). ولو أنَّ الأُمَّة اكتشفت المنهج القرآني، وأخذت به لما برزت قضايا «الناسخ والمنسوخ»، ولا «التشابه»، ولا كثير من تلك المسائل التي تسلت إلى معارفنا؛ لتحجب كثيرًا من حقائق القرآن الكريم عنَّا. وما دام القرآن قد قرن «المنهج بالشرعة» فذلك يعني أنَّهما متساويان في الأهميَّة، أو متقاربان جدًّا في أقل تقدير، والقرآن الكريم المجيد المكنون قد اشتمل على الشريعة، وقام ببيانها، فلا بد أن يكون قد اشتمل على «المنهج»، وبينه كذلك، أو حدَّد معالمه.

وإذا كانت صيغ آيات التشريع، والأحكام ظاهرة بيَّنة بنصوصها، ودلالاتها، والقرائن، والأمارات التي تنبّه إليها، مما يسر على الأصوليين عمليَّات رصدتها، وإحصائها، ولو بشكل

تقريباً، فإنَّ النصوص المتعلقة «بالمنهج» يمكن الوصول إليها بجهود أخرى، ووسائل قد تختلف قليلاً، أو كثيراً عن جهود ووسائل المجتهدين في قضايا الأحكام. فإذا كان المجتهد في قضايا الأحكام يهتم بصيغ الأمر، والنهي، والعموم، والخصوص، والإجمال، والبيان، والحقيقة، والمجاز، وما إلى ذلك، فإنَّ الباحث في قضايا «المنهج والمنهجية» لابد أن يستوعب ذلك - كله - ويضيف إليه مداخل أخرى، نحو: «الجمع بين القراءتين»⁹²، والنظر إلى القرآن في «وحدته البنائية»، و«كلياته وسننه بأنواعها» إضافة إلى ضرورة المران على معرفة، وتمييز المطلق من المقيّد، والنسبي، والثابت من المتغيّر، وما يتعلق بعالم «الغيب المطلق» - عالم الأمر، وما يتعلق «بالغيب النسبي» الذي يتكشف على الزمن، وما سيق لاستيعابه، وتجاوزه، أو للتصديق عليه، والهيمنة عليه بعد ذلك، وما يندرج من ذلك في «عالم الإرادة، أو عالم المشيئة»، وما سيق من أخبار الماضين لوعظ الآخرين، وبيان النعمة الإلهية عليهم بالتخفيف والرحمة، وما سيق للتوكيد على ضرورة الالتزام به، والتأسي بالنبیین الذين جاءوا به، أو للإشارة إلى نسخه، وتجاوزه لمعرفة مواطن الاتفاق، والاختلاف مع الأمم السابقة.

وهذا - كله - ينبّه إلى أنَّ «المنهج القرآني» أمر يحتاج إلى بحث، وجهد، وكد، وكدح. وأنَّ المراد «بالمنهاج» المقترن مع «الشرعة» ليس المعنى البسيط السهل المتبادر إلى الذهن، وهو المعنى اللّغوي، أي: الطريق، أو النهج الواضح البين، بل المعنى الواسع اتّسع «الشرعة» التي اقترن بها، وهو المعنى الفلسفي، «فالشرعة» بعد استعمال القرآن الكريم لها لم يعد المراد بها معناها اللّغوي «الأصلي»: «شرعة الماء»، بل استعملت في الأحكام التي شرعها الله (تبارك وتعالى) لتحقيق مقاصد الشارع، ومصالح المكلفين بمستوياتها المتنوّعة المتعددة، وكذلك الحال بالنسبة «للمنهاج والمنهج والمنهجية»⁹³.

⁹² راجع: طه العلواني. الجمع بين القراءتين (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006).

⁹³ إنَّ الناظر إلى الألفاظ الثلاثة (المنهاج، المنهاج، المنهجية) يتبيّن له أنَّها مشتقة من جذر واحد، وتدور دلالاتها اللغوية في فلك واحد؛ فالمنهاج: الطريق الواضح، ومنهجه الطريق؛ وضحه؛ والمنهجية هي الطريقة المتبعة في عمل ما؛ ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله على الكبير وآخرون (القاهرة: دار المعارف، د.ت) م6، 49/4555. ويختلف تعريفها باختلاف الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه، فنجد:

إنَّ الأمل كبيرٌ - بعد أن ينتشر الوعي « بالمنهج » - أن يتمكّن المتعاملون مع العلوم، والمعارف النقليّة خاصّة من مراجعتها، وممارسة النقد في قضاياها التي تفتقر إلى ذلك، وذلك في هدى المحدّدات المنهجية القرآنيّة ونورها، ونحن على ثقة بأنّ ذلك الاتجاه المنهجيّ هو الذي سيعيد إلى هذه العلوم، والمعارف حيويّتها، وفاعليّتها، ويجعلها قابلة لتصديق القرآن الكريم عليها وهيمنته، وتحقيق ما كان هدفاً لكثير من الأئمة المتقدّمين، والعلماء الربانيّين من: « إحياء علوم الدين »، وتفعيلها. ولإدراكنا بأنّ « المنهج » لا تستقرّ قضاياها، ولا تكتمل أدواته، ووسائله إلا بعد أن يجري تداوله، وتنضجه حوارات العلماء ومداولاتهم، ويجزّب فيما وضع له، فقد وددنا أن نقدم - بتواضع شديد - ما توصلنا إليه من معالم ومحدّدات، مع علمنا بأنّه لا يزال في حاجة إلى الكثير من الجهد، والبحث، والعمل لينضج؛ وذلك عملاً بالقاعدة الفقهيّة المشهورة: «الميسور لا يسقط بالمعسور»⁹⁴، ونرجو أن نتلقى من أهل العلم والاختصاص ما قد يعن لهم من ملاحظات لا شك أنّها ستكون موضع تقدير، واستفادة منّا في تطوير هذا البحث وإنضاجه، وقد يستفيد منها سوانا في استكمال ما لم نكمل، و«العلم رحم بين أهله، وتواصل بين طالبيه»⁹⁵.

إنّ « المنهج » أمر لا بد منه لمراجعة تراثنا، وتنقيته، والتصديق عليه؛ لأنّ الحياة لا تقف، والمستجدات لا تنقطع. يقول ابن خلدون: «... إنّ الزمان إذا تبدّلت أحواله - جملة -

المنهج Methodology، أو الميثودولوجيا، هو العلم الذي يدرس المناهج البحثيّة المستخدمة في كل فرع من فروع العلوم المختلفة؛ لذلك يعتبر فرعاً من فروع الأبتمولوجيا.

⁹⁴ القاعدة الثامنة والثلاثون: "الميسور لا يسقط بالمعسور"؛ قال ابن السبكي: وهي من أشهر القواعد المستنبطة من قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"، وبما رد أصحابنا على أبي حنيفة قوله: "إنّ العريان يصلي قاعداً"، فقالوا: إذا لم يتيسر ستر العورة، فلم يسقط القيام المفروض؟ وذكر الإمام: أنّ هذه القاعدة من الأصول الشائعة التي لا تكاد تنسى ما أقيمت أصول الشريعة.

⁹⁵ انظر: السيوطي، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية (الرياض: مكتبة نزار، 1998) 256_258.

فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنَّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث».⁹⁶

لقد كان التقديم لعرض «حقيقة المحكم والمتشابه» في القرآن المجيد، بالتأكيد على ذكر «المنهج القرآني»، والتأكيد على اشتغال القرآن الكريم عليه، وضرورة ملاحظته في كل ما يؤخذ، أو يترك بمقتضى آيات الكتاب العزيز، أمرًا ضروريًا؛ لأنَّ من يدرك «حقيقة المنهج»، ويسلم بوجود «منهج قرآني» سوف يكون صعبًا عليه، إن لم يكن متعذرًا، قبول كثير من القضايا التي نسبت إلى القرآن المجيد، أو أضيفت إليه، ووضعت بين العلوم المضافة إليه «علوم القرآن»؛ لأنَّ المنهج ضابط صارم، مهما قيل عن مرونته، فلن يكون من الممكن القول بكثير من التقسيمات التي انبثقت عن القراءات التجزيئية؛ مثل: «الإحكام والتشابه»، وتوزيع آيات الكتاب الكريم بينهما، و«الناسخ والمنسوخ»، والقول بانقسام القرآن الكريم إليهما، إلى غير ذلك من أمور، وإشكاليات سوف نناقشها كلاً في موضعه.

منهج التدبر في معنى المحكم والمتشابه

بعد أن أشرنا إلى أنَّ غياب المنهج كان من أهم ما أدى إلى معظم الإشكاليات التي دخلت في «علوم القرآن»، لا بد لنا من توضيح المحددات المنهجية المتاحة لمعرفة معالم المنهج الذي ينبغي أن نستخدمه عندما نحاول معالجة مفهوم «المحكم والمتشابه»، وهي النظر في محدّدات القرآن المنهجية، وفي مقدمتها: «وحدة القرآن البنائية»⁹⁷، وقراءته كلّ انطلاقة من تلك الوحدة، ثم الوقوف المتدبر الطويل عند أول ما ينبغي النظر فيه وتدبره، وهو ثلاث آيات ورد فيها وصف القرآن الكريم بالإحكام والتشابه، وهي:

⁹⁶ ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي (القاهرة: نخبة مصر، 2004) 326/1.

⁹⁷ هذه الوحدة، وآثارها المنهجية قد تناولناها في دراستنا: الوحدة البنائية للقرآن المجيد (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006)، فلترجع تلك الدراسة لمعرفة كيف يمكن للنظر في الوحدة البنائية أن يعالج إشكاليات دعوى "التشابه والنسخ، ووجود القراءات، ومنها: القراءات الشاذة.

(1) ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: 23).

(2) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 7)

(3) ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: 1-2).

ولتدبر هذه الآيات لفهم إشكالية «الحكم والمتشابه» في القرآن الكريم من القرآن الكريم ذاته، لا بد من معالجة منهجية تنطلق من معهود القرآن الكريم، تسبره، فتدبره، وتحتكم إليه، ثم تحاول النظر في العلاقة بينه، وبين ما اصطلاح عليه اللغويون، وما وضعوه من معان لتلك المفاهيم المرتبطة بالموضوع، ثم تدبر الآيات التي ادعي فيها وقوع التشابه، وقراءتها مرات عديدة، في سياقها، وفي إطار وحدة السورة البنائية، ثم وحدة القرآن الكريم كله.

ولتحقيق هذا لا بد من المرور بمرحلتين؛ الأولى: التحليل، والثانية: إعادة التركيب؛ بالعودة إلى سياق الآيات، فالسياق مع الإيمان «بالوحدة البنائية» يلقيان أضواءً كاشفة على المعاني الدقيقة لتلك الآيات الكريمة. والتحليل يتم بطريقتين:

(1) المقارنة بين سياقات الآيات الثلاث؛ لاستخراج، واستجلاء ما بينها من تناسب، وروابط، وعلاقات.

(2) سبر كل وجه من أوجه المعاني والدلالات، بتتبع مواردها؛ لفهم معهود القرآن الكريم وعاداته في استخدامها، والدلالات المختلفة عند تعدد السياقات.

معاني مفردات آية سورة آل عمران

«أم الكتاب»

كذلك لا بد لنا من تحرير المراد بقوله (تعالى): ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران: 7) فإذا استوفينا ذلك فإننا سنخرج - بإذن الله - برؤية قرآنية سليمة، وموقف قرآني قويم من هذه الإشكالية.

وردت «أم الكتاب» في القرآن الكريم في مواضع ثلاثة:

(1) ﴿حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: 1-4).

(2) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: 38-39).

(3) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران: 7).

«أم» أصل الحياة، وأم الشيء: أصل وجوده ومبدأه، وأساس إصلاحه وتربيته، وسياق الآية الرابعة من سورة الزخرف ينبه إلى أن للكتاب «أمًا» لدى منزله (جل شأنه): ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: 4) فهل المراد بذلك «الكلام النفسي» كما ذهب إلى ذلك الأشاعرة، أو المراد به «اللوحة المحفوظة» كما ذهب إلى ذلك جمهرة المفسرين؟. ومهما يكن فالآية صريحة بأن للكتاب الكريم لدى الله «أمًا»، أي: أصلًا ومبدأً

وأساسًا. وآية «سورة الرعد 39» تشير إلى ما يمحو ويثبت، ولعلّ ذلك يشير إلى آيات كونيّة، فيمحو الله آجال أمم، أو أفراد، أو أقوام، أو دول، أو حضارات؛ إذ إنّهُ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد:38).

وهذا لا يعني به القرآن الكريم؛ إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (يونس:64)، ولكن الله قد محّا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء:12). أمّا آية «آل عمران» فإنّها تقسم آيات الكتاب إلى قسمين: فالحكمات هن «أمّ الكتاب» وأصله؛ أمّا «المتشابهات» التي تشبه في دلالتها ومضامينها ما ورد في الكتب السابقة، فيتّبعها الذين في قلوبهم زيغ وانحراف عن الهدى، واتباع بعض أهل الكتاب، والمشرّكين للهوى؛ ابتغاء فتنة الناس، وصرفهم عن اتّباع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والاهتداء بما أنزل عليه. فهو -في نظر هؤلاء- ليس بجديد؛ بل هو مأخوذ مما لديهم من ناحية، والسابق أولى من اللاحق -عندهم- وأفضل؛ ولذلك بلغت الوقاحة ببعضهم أن يقولوا للذين كفروا: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء:51)، وهؤلاء هم الذين كانوا يستفتحون على الذين كفروا بقرب ظهور النبي الخاتم -صلى الله عليه وآله وسلم- فلما جاءهم بالحق من ربهم، ولم يكن يُنتظر من بني إسرائيل ما كان منهم، دفعهم الحسد والغيرة إلى التنكر له، وإنكار نبوّته، وإنكار ما أنزل الله عليه؛ لأنّ الله (تبارك وتعالى) استبدل ما حرفوه مما أنزل على أنبيائهم، بما أنزل على عبده ورسوله مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلم- وحفظه بذاته العليّة: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل:101)، ولا يؤمنون بأنّ ما أنزل عليك هو الحق من ربّهم، فكل ما أنزله الله (تعالى) من صحف إبراهيم وموسى، والزبور، والتوراة، والإنجيل وأخيرًا القرآن المجيد، كل أولئك آيات الله (تعالى) وكلماته، والقرآن هو آخر ما أنزل، والمصدق والمهيمن على كل ما نزل، والبديل الكافي عن كل ما كان قد نزل، ولا يضيره أن يقول مبتغوا الفتنة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ (النحل:101). والله أعلم.

أَمَّا «أَمَّ» في اللُّغة فقد جاء في كتاب «العين»: «أَمَّ»: أعلم أنَّ كل شيء ينضم إليه سائر ما يليه فإنَّ العرب تسمي ذلك الشيء أُمًّا، فمن ذلك أَمَّ الرأس وهو الدماغ، ورجل مأموم، والأُمَّة الشجَّة التي تبلغ أَمَّ الدماغ، والأَمِيم والمأموم. والأَمِيمة: الحجارة التي يُشَدَّخ بها الرأس.⁹⁸ وبذلك يتضح أنَّ مدلول لفظة (الكتاب) ليس واحدًا في المواضع الثلاثة. فسياق الآيات يدلُّ على أنَّ (الكتاب) المضاف إليه (أَمَّ) ليس واحدًا، فهو في «سورتي الزخرف والرعد» ليس هو الذي في «آل عمران». فالذي في «آل عمران» هو القرآن الكريم ذاته، وأم الكتاب بعض منه. ورغم اختلاف الدلالة المباشرة فإنَّ من المؤكد أنَّ هناك رابطًا بين الثلاثة، أو قدرًا مشتركًا بينهم.

لما كانت "المحكمات" مفهومة بذواتها، و"المتشابهات" إمَّا تصير مفهومة بإعانة المحكمات، لا جرم صارت المحكمات كالأمِّ للمتشابهات...⁹⁹. ويستطرد الإمام الرازي قائلاً: (... أَمَّا أَمَّ الكتاب؛ فالمراد به أصل الكتاب، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أُمَّهُ، ومنه أَمَّ الرأس للدماغ، وأَمَّ القرى مكة، وكل مدينة فهي أَمَّ لما حولها من القرى، فكَذلك «أَمَّ الكتاب» هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب، أي: التي أنزلها الله تعالى) على رسله، وفيه قولان:

القول الأول: «أَمَّ الكتاب» هُوَ «اللوح المحفوظ»، وجميع حوادث العالم العلويّ، والعالم السفليّ مثبت فيه، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «كان الله ولا شيء معه، ثم خلق اللوح، وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة...»¹⁰⁰ القول الثاني: إِنَّ «أَمَّ الكتاب» هو

⁹⁸ الخليل بن أحمد الفراهيدي 426/8.

⁹⁹ الرازي 15/7.

¹⁰⁰ (... كان الله ولا شيء غيره . وفي بعض الطرق معه . وكان العرش على الماء وكتب في الذكر كل شيء وأمَّا الروايات التي ذكر فيها اللوح المحفوظ، فهي: روى الحاكم في مستدركه: " أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا مسدد، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن عطاء بن السائب، عن مقسم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: " أول ما خلق الله القلم خلقه من هجا قبل الألف واللام، فتصور قلماً من نور، فقبل له أجر في اللوح المحفوظ، قال: يا رب بماذا؟ قال: بما يكون إلى

علم الله، فإنه (تعالى) عالم بجميع المعلومات، من الموجودات والمعدومات وإن تغيرت، إلا أن علم الله بها باق منزّه عن التغيير، فالمراد «بأمّ الكتاب»، هو ذاك... والله أعلم»¹⁰¹.

ولم يأت من اطلعت على تفاسيرهم بأكثر من هذا، لكن جاء في آية الرعد: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فكون «أمّ الكتاب عنده» أمر يقتضي كثيراً من "التدبر". وجاء في آية الزخرف: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ وذكر «لدينا» هنا يقتضي من "التدبر" ما لا مزيد عليه. ففي كل من «عنده»، و«لدينا» تأكيد ظاهر صريح على أن «أمّ الكتاب» عنده (سبحانه وتعالى) ولديه ينزل منها على رسله ما يشاء، ويجعل بحكمته ما ينزل منها «أمّا» للكتاب الذي ينزلها فيه، وسواء أكان الذي عنده (سبحانه) علمه المحيط بكل شيء، وهو ما تشير إليه الآيات: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: 52-53)، أو «اللوح المحفوظ» كما قد يستفاد من نحو قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج: 21-22) فإنّ هناك مجموعة من المعاني لا بد من استدعائها، منها: «الأصل»، ومنها «المحاور الأساسية»، و«الغاية» من إنزال الكتاب، و«القيم العليا» التي أريد للكتاب أن يشتمل عليها، بحيث تكون المدار الذي تدور حوله كل نجوم الكتاب وآياته، وبها تبشّر وتنذر، وتلك هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، والأمة، والدعوة، وما

يوم القيامة ... "؛ قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. الحاكم النيسابوري؛ المستدرک (بيروت: دار الكتب العلمية؛ 1411هـ) 492/2. وقد وردت الرواية بنحو هذا المتن في: المستدرک على الصحيحين (384) 2/ 540؛ سنن الترمذي (3319) 5/ 424؛ مسند أحمد بن حنبل (22759) 5/ 317؛ سنن البيهقي الكبرى (17481، 17482) 9/ 3؛ مسند أبي يعلى (2329) 4/ 217؛ المعجم الكبير للطبراني (12227) 11/ 433؛ (12500) 12/ 68؛ مسند الطيالسي (577) 1/ 79؛ مسند الشاميين (58، 59) 1/ 57-58؛ (1572) 2/ 397؛ مصنف ابن أبي شيبة: (36003) 7/ 271.

¹⁰¹ الرازي 8/ 53.

تستلزمه، وتتصل به من قيم ومقاصد. فالأصل: أصل الكتاب عنده ولديه، ومحاوره الأساسية هو (سبحانه) من يحددها، والقيم والمقاصد هو من يحددها ويبين أهميتها، وكذلك «الغاية»، وكيفية تحقيقها.

نَزْلُ وَأَنْزَلُ:

إذا كان تتبع موارد الألفاظ في القرآن الكريم مهمًا لفهم دالاتها القرآنية، ولأنها تعدّ مفتاحًا لفهم تباين دلالتها، فإننا سنعي هنا بتلك الموارد لتبيين الفرق بين اللفظين¹⁰².

(1) ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَفَرَأْنَا فَرَقَانَهُ لِنَفْقَرَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: 105-106).

(2) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: 136).

(3) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المائدة: 112-114).

¹⁰² ابن عاشور؛ 1/ ص 11. ومحمد رشيد رضا؛ 3/ 150.

قال الزمخشري: فإن قلت: لم قيل نَزَلَ الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل؛ قلت: لأنَّ القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة واحدة. الزمخشري؛ 177. قال أبو حيان: وقد تقدّم الرد على هذا القول في البقرة، وأنَّ التعدية بالتضعيف لا تدل على التكرير، ولا التنجيم، وقد جاء في القرآن: أنزل، ونزل، ويدلُّ أهما بمعنى واحد قراءة من قرأ ما كان من "يُنَزَّل" مشدداً بالتخفيف، إلا ما استثنى، ولو كان أحدهما يدل على التنجيم، والآخر على النزول دفعة واحدة؛ لتناقض الإخبار، وهو محال". انظر: السمين الحلبي؛ 2/ 393.

(4) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ (محمد: 20).

(5) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 43-44).¹⁰³

(6) ﴿الَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (آل عمران: 1-4).

(7) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: 93).

اختلف في وجود فارق بين أنزل ونزل، فقليل: هما بمعنى واحد. فقد ذكر صاحب تاج العروس: «أن أنزل كنزل، قال شيخنا، وفرق جماعة من أرباب التحقيق، فقالوا: التنزيل تدريجي، والإنزال دفعي؛ أي: دفعة واحدة، كما في أكثر الحواشي الكشافية والبيضاوية. ولما ورد استعمال التنزيل في الدفعي زعم أقوام أن التفرقة أكثرية، وأن التنزيل يكون في الدفعي أيضًا...»¹⁰⁴. وقال الراغب: «والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن الكريم والملائكة: أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقًا، ومرة بعد أخرى، والإنزال عام»¹⁰⁵.

¹⁰⁴ محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون 1987) 488_477 / 30.

¹⁰⁵ الراغب الأصفهاني 489.

ويؤيد هذا المعنى الشيخ الشعراوي في تفسيره، وتحديدًا فيما يتعلق بنزول القرآن الكريم، حيث ذهب إلى أنَّ للقرآن نزولين اثنين: الأول: إنزالٌ من (أنزل). الثاني: تنزيل من (نزل). وبني عليه أنَّ قوله (تعالى): ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: 1) أنَّ القرآن الكريم نزل -في تلك الليلة- من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليباشر مهمته في الكون، وهذا ما أنزله في ليلة القدر، والكتاب الكريم الَّذِي أنزله الله (تبارك وتعالى) في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم صار ينزل منجمًا على حسب الأحداث التي تتطلب تشريعًا، أو إيضاحًا لأمر في ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة. لكن الكتب الأخرى لم يكن لها ذلك اللون من "النزول والتنزيل"، لقد نزلت مرة واحدة؛ لا حسب الأحداث والمناسبات، لقد جاءت مرة واحدة، كما نزل القرآن الكريم أولًا من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ... ويأتي القول الفصل في: «وأنزل الفرقان»¹⁰⁶.

وقال السيوطي: «.. وللمزيد من الثلاثي أفعّل، وهو للتعدية، كأخرجت زيدًا، وللصيرورة (كأغدَّ البعير أي صار ذا غُدَّة)، والتعريض (كأقتلت فلانًا) إذا عرضته للقتل، ووجود الشيء على صفته (كأبخلت فلانًا)، أي: وجدته متصفًا بالبخل، والإعانة (كأحلبت فلانًا)، أي: أعتته على الحلب، وبمعنى (فعل) ومطاوعته، والإغضاء عنه ... و(فَعَّل) وهو للتعدية ... والتكثير ... والتوجه (كشرَّق وغرَّب) ... واختصار الحكاية (كأَمَّن وهَلَّل) ... وبمعنى (فَعَّل) ...»¹⁰⁷.

يُستنتج من تتبع موارد أنزل ونزل؛ أنَّ التمييز بينهما على أساس أنَّ نزل تختص بالنزول التدريجي، وأنَّ الإنزال عام، أو يختص بالنزول الدفعي؛ ولهذا فإنَّ القرآن الكريم عند تعرضه لنزول الكتب السابقة يُستخدم الإنزال، والتنزيل عندما يصف نزوله هو -لكن هذا التمييز

¹⁰⁶ محمد متولي الشعراوي 16/ 1277-9.

¹⁰⁷ السيوطي، جمع الجوامع. تحقيق: أحمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1998) 3/ 265 - 266 وانظر: ابن عاشور 3/ 147-148 في بيان الفرق بين الفعلين: "أنزل ونزل".

غير مضطرد. فقد جاء وصف نزول التوراة بأنه تنزيل كما في آية (آل عمران: 93). فالتمييز بين التنزيل والإنزال يكون على أساس أن: الأول: مختص بالتدريجي. الثاني: مختص بالدفعي. هو حالة من حالات التمايز بينهما، أو وجه من أوجهه، بناءً على قاعدة: «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى». على أن التمايز بينهما ليس بتلك الأهمية، واستقراء موارد أنزل ونزل في القرآن المجيد، وملاحظة الفارق بين وزنيهما أفعل وفعل قد ينبه إلى غلو بلاغي. فالله (تبارك وتعالى) وحده المختص «بالإنزال والتنزيل»، ولكن في «الإنزال» يراد أن يلتفت الإنسان إلى عظمة هذا القرآن الكريم وجلالة قدره من حيث كونه «منزلاً منه» (سبحانه)، وفي «التنزيل» قد يلاحظ الكتاب الكريم نفسه من حيث نظمه، وأسلوبه، وتحديه، وبلاغته وفصاحته، ومكنونه، واستيعابه، وتجاوزه، وتصديقه، وهيمنته، ومناسباته. وأحياناً يشير السياق إلى المنزل عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالفرق بينهما غير منفي لكنه لا يخضع لقاعدة عامة؛ بل يلاحظ في كل آية سياقها. لمعرفة الحكمة في إبدال كل منهما بالآخر.

التأويل:

وردت مادة (أول) في القرآن الكريم (17) مرة كلها تدل على ما يؤول إليه الشيء، أي: معرفة حقيقته¹⁰⁸ إلا في موضعين:

(1) قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: 59).

(2) وقوله (تعالى): ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (الإسراء: 35).

¹⁰⁸ محمد فؤاد عبد الباقي 96/1

أَمَّا الأولى: فقد يفيد التأويل فيها معنى الرجوع والاحتكام إلى الله (تبارك وتعالى) ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- لحسم أيّ خلاف، أو نزاع، فذلك خير وأحسن مآلاً ومصيراً لذلك النزاع، فهي ترجع إلى ما يؤول إليه الشيء أيضاً، ولكن بعد الأخذ بالأسباب. وكذلك وقوع الشيء وحدوثه على مثل ما أخبر الله (تعالى) به في كتابه، أو جاء على لسان نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في الآية: ¹⁰⁹

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: 53).

وأما الثانية: فقد يفيد التأويل فيها إرجاع، أو دفع الحقوق إلى أصحابها، خاصة وأن الآية السابقة عليها ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الأنبياء: 152).

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: 34) مال اليتيم، والعهود، والمعاملات بالكيل والميزان هي حقوق لا بد من أن تعاد إلى أهلها، وتؤول إلى أصحابها لا إلى غيرهم.

أما التأويل لغة: «أَوَّل»: التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أوله تأويلاً وتأولّه بمعنى. ¹¹⁰ وفي مقاييس اللغة: «أَوَّل»: الهمزة والواو واللام أصلاً: ابتداء الأمر وانتهاءه ... وآل يؤول: أي رجع. قال يعقوب: يقال: (أَوَّل الحكم إلى أهله)، أي: أرجعه وردّه إليهم ... والإيالة السياسيّة من هذا الباب؛ لأنّ مرجع الرعية إلى راعيها. قال الأصمعي: آل الرجل

¹¹⁰ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح. تحقيق: محمود خاطر (بيروت: مكتبة لبنان، 1995) 28.

رعيته يؤولها: إذا أحسن سياستها ... وتقول العرب في أمثالها: «ألنا وإيل علينا»، أي: سُننا وساسنا غيرنا ... ورجل آيل مال، مثال خائل مال، أي: ساسته، قال الأصمعي: رددته إلى آيلته، أي: من طبعه. وآل الرجل: أهل بيته من هذا -أيضاً- لأنّه إليه مآلهم وإليهم مآله ... ومن هذا الباب: تأويل الكلام؛ وهو عاقبته وما يؤول إليه¹¹¹.

التأويل والتفسير:¹¹²

يقول أبو الفرج ابن الجوزي: اختلف العلماء هل "التفسير والتأويل" بمعنى واحد أو هما مختلفان؟! فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنّهما بمعنى واحد؛ وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين. وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما؛ فقالوا: التفسير إخراج الشيء عن مقام الخفاء إلى مقام التجلي. والتأويل: نقل الكلام عن وضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، فهو مأخوذ من قولك: "آل الشيء إلى كذا"، أي: صار إليه؛ فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول والثاني، وأمّا "التأويل" في لغة القرآن الكريم فلا يذكرونه، وقد عرفت أنّ التأويل في القرآن الكريم هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام. وإن كان ذلك موافقاً للمعنى الذي يظهر من اللفظ، بل لا يعرف في القرآن الكريم لفظ "التأويل" مخالفاً لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين. وذهب ابن تيمية إلى: «أنّ لفظ التأويل قد صار بتعدد الاصطلاحات مستعملاً في ثلاثة معانٍ:

الأول: هو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله أنّ التأويل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح للدليل يوقنون به. وهذا هو الذي

¹¹¹ ابن فارس 158/1-162.

¹¹² وارجع إلى المقدمة الأولى من مقدمات التحرير ففيها تفريق جيّد بينهما.

عنا أكثر من تكلم من المتأخرين في تأويل نصوص الصفات وترك تأويلها، وهل ذلك محمود أم مذموم؟¹¹³.

الثاني: أنَّ التأويل بمعنى التفسير، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن الكريم، كما يقول ابن جرير، وأمثاله من المصنفين في التفسير (واختلف علماء التأويل، ومجاهد إمام المفسرين) فإذا ذكر أنَّه يعلم تأويل المتشابه، فالمراد به معرفة تفسيره.

الثالث: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، كما في الآية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ (الأعراف: 53) ... وقول سفيان بن عيينة: (السنة هي تأويل الخبر، والكلام خبر وأمر) ... أمَّا ما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر ففيه ألفاظ متشابهة يشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، كما أخبر أنَّ في الجنة لحمًا، ولبنًا، وعسلًا، وخمرًا، ونحو ذلك، وهذا شبيه ما في الدنيا لفظًا ومعنى، ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته ...¹¹⁴.

وأمَّا عند الإسماعيلية الباطنية فإنَّ "علم التأويل" يقوم على نظرية "الظاهر والباطن": فهو يختلف كليًا عن "التفسير" الذي يقول به علماء الظاهر وعامة الناس؛ لأنَّ التأويل في اعتقاد أهل الحق -يعنون بذلك أنفسهم- هو الرجوع إلى الأصل لإدراك معاني الموجودات، واستنباط جوهر الحقيقة ومعناها الروحي ... قالوا: ومن استقرأ آيات القرآن الكريم ... نجد أنَّ لكل آية ظاهرًا وباطنًا ... وأنَّ الموجودات قسمان: الأول: قسم ظاهر للعيان، وهو: الغلاف، أو القشرة. الثاني: قسم باطن خفي، وهو: اللب، أو الجوهر. وأنَّ ما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية، وما جاء في ظاهر آيات القرآن الكريم هي معاني يعرفها

¹¹³ ابن تيمية 7/ 368.

¹¹⁴ ابن تيمية 3/ 57.

أهل الظاهر، ولكن في العرفان الحقاقيّ - كذا - لكل فريضة من فرائض الدين تأويل باطني لا يعلمه إلا الأئمة، وكبار حججهم، وأبوابهم، ودعاتهم.... ولقد انبثق عن "نظرية التأويل" نظرية المؤول، أو الشخص الملهم.... ولأنّ النبوة وقتية فقد شاءت إرادة المبدع أن تحل الإمامة محلها وتتمّها....!!¹¹⁵ وفي (الفصول اللؤلؤية) ذكر السيد صارم الدين الوزير: أنّ «التأويل، لغة: الرجوع، واصطلاحاً: صرف اللفظ عن ظاهره الراجح المحتمل، لدليل. وتعرف ظواهر الكتاب والسنة تأويلهما بالسمع اتفاقاً، وبالعقل، واللغة العربية خلافاً للحشوية، وقالت الإمامية، والباطنية: من الإمام، أو من علمه فقط ...»¹¹⁶.

«مثنائي»:

مَا المقصود بـ«المثنائي» في «آية الزمر»؟ وما رتبته القرآن المجيد بعدها من بيان تأثير القرآن الكريم على المؤمنين بحيث قال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: 23) وذكر الجلود هنا يدل على التأثير الحسي للقرآن الكريم؛ إذ إنّ مراكز الإحساس كلها في الجلد.

¹¹⁵ مصطفى غالب، مفاتيح المعرفة (بيروت: مطبعة عز الدين، 1982) 213-215. قلت: ولعل من أفضل من تناول هذا الموضوع من المتأخرين بعد الإمام أبي حامد الغزالي في "فضائح الباطنية" ابن عاشور، وذلك في المقدمة الأولى من مقدمات تفسيره التنوير (1/ 10-17) وما أورده في المقدمة الثالثة (1/ 28-37).

¹¹⁶ ابن الهادي الوزير، الفصول اللؤلؤية. تحقيق: محمد يحيى عزان (صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمني وبيروت: دار المنهال، 2001) 197. والحشوية هم: طائفة كانوا يجلسون في حلقة الحسن البصري، فأنكر خلافتهم، وقال: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة، أي: جانبها، وقيل: إنّه لقب يطلق على من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع. وقد يطلق خصوم أهل الحديث عليهم هذا اللقب نسبة إلى الحشو نيزاً لبعضهم بعدم التمييز بين الأحاديث الموضوعية والمضطربة، والأحاديث الصحيحة، فيحشون الصحيح بغيره. انظر بعض التفاصيل عنهم في "الخور العين" للحميري 204، ومواضع أخرى منه، وشفاء الغليل للشهاب الخفاجي 81 و229 على ما في التذكرة التيمورية 148، وكتاب "الزينة لابن أبي حاتم، وراجع المحصول للرازي بتحقيقنا 385-386.

لقد قيل في معنى «المثاني» الكثير استنادًا إلى المعنى اللغويّ «(ثني): الثناء والنون والياء أصل واحد؛ وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين، أو متباينين، وذلك قولك: ثنيت الشيء ثنيًا...، والثني: الأمر يُعاد مرتين» وذهب ابن فارس في مقاييس اللغة «... والمثناة: ما قُرئ من الكتاب وكرر، قال الله (تبارك وتعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ (الحجر: 87) أراد: أن قراءتها تُثنى وتُكرر»¹¹⁷، وفي المفردات في غريب اللغة: ثنى: الثني والاثنان أصل لمتصرفات هذه الكلمة، ويقال ذلك باعتبار العدد، أو باعتبار التكرير الموجود فيه، أو باعتبارهما معًا، فيقال: ثنيته ثنيةً: كنت له ثانيًا، أو أخذت نصف ماله، أو ضمنت إليه ما صار به اثنين، والثني ما يُعاد مرتين. قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا ثني في الصدقة»، أي: لا تؤخذ في السنة مرتين.¹¹⁸ وفي القرآن جاءت بصيغة الفعل المضارع، كما يُقال للآوي الشيء قد ثناه، نحو ما في قوله (تعالى): ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ (هود: 5). وبصيغة اسم الفاعل، كما في الآية: ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ (الحج: 9)، وذلك عبارة عن التكرار والإعراض؛ مثل: لوى شدقه، ونأى بجانبه...، والثناء ما يذكر في محامد الناس، يقال: أثنى عليه إذا كرّر الثناء عليه، وسميت سور القرآن الكريم «مثنائي» في الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ (الحجر: 87)، أُنْثِيَ وتكرر قراءتها على مرور الأوقات، فلا تنقطع دروسها وعبرها وأحكامها، وعلى ذلك قوله (تعالى): ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ (الزمر: 23). ويصح أنه قيل للقرآن الكريم «مثنائي» لما يثنى، ويتجدد حالًا فحالًا من فوائد...، ويصح أن يكون ذلك من الثناء تنبيهًا على أنه أبدًا يظهر منه ما يدعو إلى الثناء عليه، وعلى من يتلوه، ويعلمه، ويعمل به. وذهب الرازي في التفسير الكبير، عند تفسيره للآية الثالثة والعشرين من الزمر إلى أن: «... الصفة الثالثة من صفات القرآن الكريم كونه مثنائي...، وبالجمله فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين

¹¹⁷ ابن فارس 39/1.

¹¹⁸ الراغب الأصفهاني 82/1.

مثل: الأمر والنهي، العام والخاص، المجمل والمفصل، أحوال السموات والأرض، والجنة والنار، الظلمة والضوء، اللوح والقلم، الملائكة والشياطين، العرش والكرسي، الوعد والوعيد، الرجاء والخوف، والمقصود منه بيان كائن كل ما سوى الحق زوج، ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه، وأن الفرد الأحد هو الله (سبحانه وتعالى) ...»¹¹⁹ وعند تفسيره لقوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: 87)، قال في المسألة الأولى: «اعلم أن قوله (سبعًا من) يحتمل أن يكون (سبعًا من السور)، وأن يكون سبعًا من الفوائد، وليس في اللفظ ما يدل على التعيين. وأمّا المثاني: فهو صيغة جمع، واحده مثناه، والمثناه كل شيء يثنى؛ أي: يجعل اثنين من قولك: ثنيت الشيء إذا عطفته أو ضمنت إليه آخر ...»¹²⁰ وروي في هذا حديث أبي بن كعب ونصه: (قال أبي: قال لي رسول الله ﷺ «ألا أعلمك يا أبي سورة لم تنزل في التوراة والإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، قلت: بلى.... قال: فقرأت (الحمد لله رب العالمين) حتى أكملت فاتحة الكتاب، فقال: هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن الكريم العظيم الذي أوتيت). كذا أو نحوه»¹²¹. «والمثاني على قول هؤلاء يحتمل أن يكون القرآن الكريم (فمن) للتبويض، وقالت فرقة: بل أراد آيات الحمد نفسها، كما قال (الرجس من الأوثان) ف(من) لبيان الجنس. وسميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها يثنى بها على الله (تبارك وتعالى)؛ جوّزه الزجاج...»¹²². فأما السبب في تسميتها-أي الفاتحة- «بالمثاني» فوجوه: الأول: أنها تثنى في كل صلاة بمعنى إنها تقرأ في كل ركعة. الثاني: قال الزجاج سميت مثاني لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها. الثالث: سميت آيات الفاتحة مثاني؛ لأنها قسمت قسمين اثنين، والدليل عليه ما روي عن النبي ﷺ

¹¹⁹ الرازي، التفسير الكبير 237/26.

¹²⁰ الرازي 164/19.

¹²¹ ذكره مالك في الموطأ، وهو مروي في البخاري، ومسلم من طريق أبي سعيد بن المعلّى أيضًا. وروى أبو هريرة عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أنها السبع المثاني وأم القرآن وفاتحة الكتاب.

¹²² الرازي 166 / 19.

«يقول الله (تبارك وتعالى): قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» والحديث مشهور. الرابع: سميت مثاني؛ لأنها قسمان: ثناء ودعاء، وأيضاً؛ النصف الأول منها حق الربوبية، وهو الثناء، والنصف الثاني حق العبودية، وهو الدعاء. الخامس: سميت الفاتحة بالمثاني؛ لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن الكريم، ومرة بالمدينة. السادس: سميت بالمثاني؛ لأن كلماتها مثناة مثل: «الرحمن الرحيم، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم...». ¹²³

نتائج التدبر

هذا عن التحليل، أمّا التركيب، وهو الخطوة الثانية، فيتم بالتدبر في سياقات الآيات الثلاث، والذي نستنتج منه ما يلي:

(1) إنّ القرآن الكريم قد وصف - كلّهُ - وكل آياته بأنّه «مُحْكَم» في «آية سورة هود».

(2) إنّ «التشابه» وصف به الكتاب - كلّهُ - في «آية الزمر» أيضاً.

(3) وفي «آية سورة آل عمران»، جاء ذكر النوعين مسبوقين بـ«منه» التبعيضية، ولهذا الاختلاف دلالة.

(4) في «آية الزمر» استخدم لفظ «نَزَلَ»، وفي «آل عمران» أنزل، وإذا ما لاحظنا قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ (الزمر: 23)، فذلك يستدعي انتباه المتدبر لما قد يقتضيه من زيادة في المعنى.

أولاً: قوله (تعالى): ﴿الرَّكِتَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ *
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (هود: 1-2). الآية كما سيأتي؛ وحدة

¹²³ الرازي 19 / 164-165.

بنائية صغرى في القرآن الكريم، وبعيداً عن الجدلالات الكلامية التي دارت حول مقولة: إنَّ آيات القرآن الكبرى وجدت أولاً، ثم أحكمت بعد ذلك، ثم فصلت، وهو ما جرَّ إليه الجدل في إشكالية «خلق القرآن»¹²⁴ وبعيداً - أيضاً - عن «الجدالات النحوية»¹²⁵ التي دارت حول علاقة «ألا تعبدوا إلا الله» وما إذا كانت توضيح السبب، فيكون المعنى: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لأجل ألا تعبدوا إلا الله»، أو أنها مبيّنة، أي: «بيان» لما سبقها، فيكون المعنى: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت بألا تعبدوا إلا الله»، أو غير ذلك من خلافاً أبعدتنا عن الفهم الدقيق للقرآن الكريم. بعيداً عن كل ذلك الجدل العقيم نستطيع القول بأنَّ: المقصود هنا «بإحكام الآيات» أنَّ كل آيات القرآن الكريم تدل بإحكام، وحكمة، وحكم، على «حقيقة التوحيد» بما لا يدع أي شك، أو ريب، أو تردد يمكن أن يوسوس به الشيطان ضد التوحيد. وهذا ما تنطق به كل آية من آيات القرآن الكريم.

¹²⁵ قال أبو حيان في البحر المحيط: " (أن لاتعبدوا) يحتمل أن يكون "أن" حرف تفسير؛ لأنَّ في تفضيل الآيات معني القول، وهذا أظهر؛ لأنَّه يحتاج إلى إضمار؛ وقيل: "أن" هي المخففة من الثقيلة، وجلة النهي في موضع الخبر، وفي هذه الأقوال العامل "فصلت"، وأما من أعربه أنَّه بدل من لفظ آيات، أو من موضعها، أو التقدير: من النظر أن لاتعبدوا إلا الله، أو تفضله ألا تعبدوا، فهو بمعزل عن الإعراب، والظاهر عود الضمير في "منه" إلى الله، أي: إني لكم نذير من جهته، وبشير، فيكون في موضع الصفة متعلّق بفعل محذوف، أي: كائن من جهته، أو تعلّق بنذير، أي: أنذركم من عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم، وقيل: يعود على الكتابة، أي: نذير لكم من الفتنة، وبشير منه لمن آمن وعمل به، وقدم النذير؛ لأنَّ التخويف هو الأهم". أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: عبد الحى الفرماوي وآخرون (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993) 21/5_202. ورجح السمين الحلبي وجهها التفسيرية، بقوله: أن تكون "أن" تفسيرية؛ لأنَّ في تفضيل الآيات معني القول، فكأنَّه قيل: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم، وهذا أظهر الأقوال؛ لأنَّه لا يجوز إلى إضمار. انظر: السمين الحلبي، الدر المصون، تحقيق: أحمد الخراط (دمشق: دار القلم، د.ت) 281/6.

وَأَمَّا "فُصِّلَتْ" فيفسرها - والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا - قوله (تعالى): ﴿وَمَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38) وقوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: 89). وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: 33). وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: 89).

ثانيًا: قوله (تعالى): ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: 23).

بعد معرفة الفارق بين نَزَّلَ وأَنْزَلَ - بالشكل الذي اتضح فيما سبق - حيث بيننا فيه أنَّ نَزَّلَ تفيد النزول باعتبار كَيْفِيَّتِهِ أو إمكانيَّتِهِ، ومعرفة معنى «الحديث» وأَنَّهُ: مَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانَ مِنْ كَلَامٍ أَوْ خُطَابٍ؛ نستطيع أن نستنتج أنَّ «آية الزمر» معنيَّة بالمرتبة الأولى بتوضيح خصائص التبليغ القرآني؛ أي: كيف يخاطب القرآن الكريم الناس ليوصل لهم ما يريد إيصاله؟ وكيف يخاطب عقولهم وقلوبهم؟ وهي بتركيزها على هذا الجانب نَبَّهَتْ إلى أنَّ نزول القرآن الكريم وقع تدريجيًّا وعلى نجوم، فذلك ما يتناسب مع كونه «حديثًا». وبالتالي فإنَّ التشابه هنا خاصيَّة لهذا البلاغ الذي نزل متدرجًا على مدار «اثنين وعشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا»، مع ذلك فإنَّه يتميز بالانسجام الداخلي من حيث النظم، والأسلوب والبلاغة والفصاحة والتحدي، مع تباعد فترات النزول، وهذا ما لا يمكن أن يتوافر لكلام بشريٍّ، ومع ذلك فهو «مثنائي». فإمَّا أنَّ: «مثنائي» تفيد المزاوجة بين الأساليب المختلفة والمتباينة؛ لكي يحقق الخطاب القرآني مراده، وهذا ما يؤكد تمام الآية من توضيح تأثير القرآن الكريم في المؤمنين، وإمَّا: أن تكون «مثنائي» مفهومًا ينبه إلى ما يتصف به القرآن الكريم من دفع وتجدد، فكأنَّ كل ما نزل فيه يثني على ما نزل قبله، ويعززه، ويقويه حتى يبدو وكأنَّه نزول ثان لما سبق نزوله، من حيث التوافق والانسجام، فتأثيره ليس وقتيًّا وليس مقصورًا على

وقت نزوله، أو أنه لم يكن موجهاً إلى من عاصر نزوله فقط. كما أنه على مستوى الفرد الواحد لا يقتصر تأثيره على اللقاء الأول بقوى وعي السامع والقارئ، ثم يفقد تأثيره، بل إنه يتجدد، ولكن هذا التجدد له طابع معين ينسجم مع مفهوم «مثاني»، وأظن أن هذا الطابع هو طابع المجاورة، والاستجابة، والعطاء، فبقدر ما نحتاج من القرآن الكريم يعطينا، وبهذا تتجدد عطاءاته: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: 20)؛ وسواء أكانت «مثاني» تصف تأثير القرآن الكريم، أو تصف كيفية تجددته، فإنَّ المعنيين متمم أحدهما للآخر.

ومما سبق؛ نفهم لماذا لم تصف «آية الزمر» آيات القرآن الكريم بأنها «متشابهة» - كلها- كما في «آية سورة هود» التي وصفت جميع آياته بالإحكام، ولكن آية سورة الزمر وصفت الكتاب - كله-؛ لأنها معنيّة بالقرآن الكريم باعتباره خطاباً وبلاغاً للناس؛ أي: بأسلوبه في توجيه هذا الخطاب، وهذا يقتضي الكلام عن القرآن الكريم بصفته العامة والكلية، وليس باعتبار وحداته المكونة له من آيات وسور، فيصبح التشابه في تلك الأوجه من الشبه دليل ثناء وصفة مدح للقرآن، لا صفة تشير إلى الغموض والإبهام التي قد تكون من بعض لوازم «التشابه» لصعوبة التمييز.

قوله (تعالى): ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 7).

بعد الاتفاق على معنى «الآية» التي هي وحدة تكوينية في القرآن، وهي: الوجود، أو الكيان الظاهر الملازم لموجود آخر قد يكون غير ظاهر، وفي كلا الحالين فقد استدل بها على وجود، أو حدوث، أو إمكان حدوث هذا المدلل عليه. نستطيع أن نخلص إلى القول التالي:

لقد استولى الوهم على بعض عقول أهل الكتب السابقة بأنَّ الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يأت بجديد؛ بل لَقَّق القرآن الكريم من الكتب السابقة، وشكَّل دينه من مقتبسات من أديانهم، وأنَّ أصحاب الديانات السابقين خاصَّةً لن يخسروا كثيرًا إذا لم يؤمنوا به، بل قد يكون هو الأولى؛ إذ لا جديد في الرسالة الخاتمة يضاف إلى ما عندهم، والسابق لدى هؤلاء أولى بالاتباع من اللاحق مطلقًا، وبذلك فهم يتبعون ما تشابه منه مع كتبهم، ثم يحاجُّون المسلمين في ذلك لدفعهم إلى مشاركتهم في تلك الأوهام المريضة، ويفترض بالحكيم ألاَّ يتكلَّف ما لا يحسن وما لا طريق لمعرفته إلاَّ الطريق الوحيد الَّذي حدَّده الله وهو السمع!!

هنا يجب علينا أن نلتفت بالقدر الكافي إلى «السياق». أمَّا حين نتدبَّر «السياق» فإنَّ الآية وردت في سياق مناقشة «النصارى» من أهل الكتاب الذين كانوا يقطنون بعض نواحي الجزيرة العربيَّة ومنهم "نصارى نجران". فبعد أن فرغت «سورة البقرة» من مناقشة «يهود»، شرعت سورة آل عمران أولًا بمناقشة النصارى، وذلك يجعل السياق يشي من بداية السورة¹²⁶ بأنَّ التشابه بين الكتب المنزلة في تحديد أركان العقيدة وأصول الشريعة، «والقيم القرآنيَّة العليا الحاكمة»، وأدلة الخلق والإبداع، والعناية على التوحيد، قد جعل الذين في قلوبهم زيغ يسيئون الفهم، فهذه المشتركات كان يفترض أن تكون من وسائل دفع أهل

¹²⁶ هذا، والاتصال بين هذه السورة وما قبلها من وجوه: فمنها: أنَّ كلاً منهما بدئ بذكر الكتاب، وشأن الناس في الاهتداء به. ففي السورة الأولى ذكر أصناف الناس، من يؤمن به ومن لا يؤمن، والمناسب في ذلك التقديم؛ لأنَّه كلام في أصل الدعوة. وفي الثانية: ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، والراسخين في العلم الذين يؤمنون بحكمه ومتشابهه، ويقولون: كلٌّ من عند ربِّنا، والمناسب فيه التأخير؛ لأنَّه فيما وقع بعد انتشار الدعوة. ومنها: أنَّ كلاً منهما قد حاجَّ أهل الكتاب، ولكن الأولى أفاضت في محاكاة اليهود، واختصرت في محاكاة النصارى، والثانية بالعكس، والنصارى متأخرون عن اليهود في الوجود، وفي الخطاب بالدعوة إلى الإسلام، فناسب أن تكون الإفاضة في محاجتهم في السورة الثانية.

ومنها: ما في الأولى من التذكير بخلق آدم، وفي الثانية من التذكير بخلق عيسى، وتشبيه الثاني بالأول في كونه جاء بديعًا على غير سنَّة سابقة في الخلق، وذلك يقتضي أن يذكر كلٌّ منهما في السورة التي ذكر فيها. ومنها: أنَّ في كلٍّ منهما أحكامًا مشتركة؛ كأحكام القتال، ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أنَّ ما في الأولى أحقَّ بالتقديم، وما في الثانية أجدر بالتأخير. ومنها: الدعاء في آخر كلٍّ منهما، فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين؛ لأنَّ معظمه فيما يتعلَّق بالتكليف، وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاري أهلها، وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك؛ لأنَّه يتضمَّن الكلام في قبول الدعوة، وطلب الجزاء عليه في الآخرة. كما أنَّ سورة البقرة تبدو كأنَّها ختمت بما بدأت بنحوه آل عمران، حتى لتبدو كأنَّها متصلة بها. محمد رشيد رضا 3/ 135-136.

الكتب السابقة كافّة إلى قبول الرسالة الخاتمة، وتصديق حاملها خاتم النبيين، والتمسك بالكتاب المنزل عليه، وإذا بزيع قلوبهم وبميلهم عن الاستقامة العقلية، واضطراب رؤاهم، يجعلهم يحولون ما كان ميزة، ودليل وحدة لأمة الأنبياء، وتكامل بين رسالاتهم، إلى منقصة تصدّهم عن الإيمان بخاتم النبيين -صلى الله عليه وآله وسلم- ورسالته الخاتمة، والكتاب الحكيم المصدّق لما بين يديه، وكانت لديهم فرصة لا تعوض لجمع كلمة المؤمنين بالانضمام إلى صفوفهم، والالتفاف حول النبي الخاتم -صلى الله عليه وآله وسلم- لا حول الوثنية والشرك، والذين كان ينبغي تطهير الأرض منهما، وجمع كلمة البشرية على الهدى بقيادة آخر نبي تطأ قدماه الأرض.

فهذا «التشابه» جعل من الذين في قلوبهم زيغ من أحبار، ورهبان، وأمثالهم وسيلة صد عن سبيل الله (تبارك وتعالى) ليقولوا من افتراءاتهم ما شاءوا، ومن ذلك أنّه لم يأت بزيادة، وما جاء بشيء لم يأت به النبيون الذين سبقوه، وكأنّ هذه الآيات المحكمات اللواتي انفرد الكتاب الكريم بها، وجعل منها «أمّ الكتاب» -في نظرهم- ليست مقنعة بالقدر الكافي بأنّه جاء بجديد، وزعموا أنّ هذا الذي يمكن اعتباره جديداً إنّما تعلّمه من بشر مثلنا، وهكذا حوّل «الزيغ» الذي في قلوبهم "التشابه" بين بعض ما نزل في القرآن الكريم، وما ورد في كتبهم إلى وسيلة صد عن سبيل الله (تبارك وتعالى)⁽⁵²⁾.

وأهل الكتاب قد زاغوا بأبصارهم وقلوبهم عن رؤية وإدراك ما جاء رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- به، فلمّا زاغوا بأبصارهم وقلوبهم، وحولوا ما كان ينبغي أن يكون من المؤثرات الإيجابية إلى مؤثرات سلبية زاد الله (تبارك وتعالى) قلوبهم زيغاً على زيغ وضلالاً على ضلال، وتلك سنة من سنن الله (تبارك وتعالى) في التعامل مع أهل الزيغ.

المدخل الواحد العشرون: المدخل الموضوعي دون غفلة عن الوحدة البنائية

التفسير الموضوعي أن نختار أي موضوع من الموضوعات التي تناولها الكتاب الكريم مثل العدل المساواة الإحسان الإيمان، ونتبع ذلك الموضوع في السورة، ونتبيّن السياق الذي ورد

فيه الموضوع في هذه السورة، وكيف تم تناوله فيها، وندرك ونحن نتبع الموضوع أنّه لا يمكن فصله عن الحالات والسياقات الأخرى التي ورد الموضوع فيها بعد ذلك، وهذا لا يعني أي إضرار بيقيننا بوجود وحدة بيانيّة تجمع بين آيات القرآن وسوره وسائر كلماته، ولا يخل ذلك بهذه الوحدة ولا يخرج عنها، أو تجاهل لمبدأ الوحدة البيانيّة لسائر آيات القرآن وسوره ومفرداته؛ لأنّ هذا التقسيم لا يكون نهائياً بل هو تقسيم مفترض نستعين به على تدبّر أي القرآن وسوره.

وفي مدخل "التصنيف الموضوعي" بعد أن نداوم على قراءة القرآن، ونتدبّر أهم الموضوعات التفصيليّة التي تناولها، ونمرن أنفسنا على تحديد موضوعات مثل "الإيمان والكفر والشرك والنفاق والحق والباطل والصلاة والعلم والإصلاح والإفساد وما إليها" ثم نبدأ بجمع الآيات التي تتعلق -في نظرنا- بذلك الموضوع، باستقراءها وتتبعها في آيات القرآن -كلها- دون غفلة عن "وحدة القرآن البنائيّة" التي تستلزم أن نستحضر القرآن -كله- في دراسة أي موضوع؛ ثم نبدأ عمليّات التدبّر والتأمّل، ونحذف ونضيف إلى أن نظمّن إلى أنّ ما جمعناه من الآيات هو كل ما يتعلّق بذلك الموضوع. على ألا نتوقف عن التأمل والتدبّر فيها والحذف والإضافة: فبعد فترة سنجد أنفسنا مشدودين إلى القرآن -كله- في كليّته ووحدته البنائيّة، فيزداد فهمنا ووعينا بالقرآن المجيد عموماً. وهنا يمكن أن نستشهد بما نقل عن الإمام الشافعي -يرحمه الله- فقد عمل الشافعي على جمع آيات الأحكام في القرآن المجيد، وله كتاب يحمل اسم "أحكام القرآن" جمعه البيهقي. وآيات الأحكام معدودة لدى الفقهاء، فهي في تقديرات جمهورهم لا تتجاوز خمسمائة آية، وبعضهم لا يجاوزون بها أربعين ومائتي آية.

لكن الإمام الشافعي بعد أن ركّز على هذا النوع من الآيات وجد أنّ من المتعذر حصر الأحكام فيها. فأشار إلى أنّ في الأمثال أحكاماً كثيرة بل يمكن القول: إنّ في القصص القرآنيّ أحكاماً، فالحكم لا تستطيع استنباطه، والإمام بجوانبه كلّها بدون معرفة سياقه وعلاقاته -كلّها-. وقد نبهنا إلى تفاصيل مفيدة -إن شاء الله- في بحثنا في "الوحدة البنائيّة للقرآن المجيد". فارجع إليها فيه واربط بين ذلك وهذا المدخل.

المدخل الثاني والعشرون: مدخل الكشف عن السياقات:

السياق يعد أهم المفاهيم المتداولة في علوم الأدب والبلاغة والنقد وإذا عرف الإنسان سياق أي نص مقروء أو مكتوب، ومحرر أو شفهي فإنَّ السياق من أهم الأدوات والوسائل المعينة على فهم المراد، وقد نعطي للعبارة الواحدة بحسب السياقات التي وردت فيها معاني متعددة؛ ولذلك فإنَّ الكشف عن السياق سوف يكون فيه مؤشرات تفيد المتدبر، ولا يستغني عنها المفسر الذي يريد أن يشتغل في قضايا التفسير.

صياغة المفهوم قرآنياً:

وردت المادة اللفظية «س، ي، ا، ق» في القرآن المجيد في آيات عديدة في سورة القيامة (9،30) وفي سورة الأنفال (24)، وفي سورة الفرقان (7)، وفي سورة ص (33)، وفي سورة ق (21)، وفي سورة الفتح (29) وفي سورة النجم (42) وفي سورة القلم (42). وفي غالب هذه الآيات الكريمة وردت الكلمة أو مادتها للدلالة على مدلولات حسية؛ مثل سوق الإبل، ومساق الناس يوم القيام: أي منتهاهم إلى الله والتفاف الساق بالساق.

لكنها وردت للإشارة إلى اشتداد الأمور في قوله (تعالى): ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم:42)، ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى اشتداد الأمور في القيامة. ويؤدي العرب نحو هذا المعنى في قولهم: «كشفت الحرب عن ساقها» أي: اشتدت وحمي الوطيس، ولا بد أن تبلغ غايتها بانتصار فريق وهزيمة فريق.

لماذا نتحدث عن السياق عندما نتدبر معانيه؟:

السياق يساعد في التخلص من كثير من المشكلات التي قد تلحق النص حين لا يُلتفت إلى السياق الذي ورد فيه، فقد ذهب الجمهور إلى أَنَّ آية العدة ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿البقرة: 234﴾.

ففهموا أَنَّ هذه الآية ناسخة لقوله (تعالى) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 240).

والنظر في السياق يرينا أَنَّ الآية الأولى أربعة أشهر وعشر كانت متجهة في سياقها نحو عدة
المرأة التي توفي عنها زوجها، أمَّا الآية الثانية فَإِنَّ السياق ينبهنا عن المراد به من العناية بالزوجة
وعدم إخراجها من سكنها إلا بعد حول كامل، وذلك مراعاة لحالتها واحتياجاتها في الوقت
نفسه فلن ترد الآيتان على مورد واحد ليقال وقع بينهما تعارض، ولا يحل ذلك التعارض
للقول بالنسخ واحدة منهما للأخرى¹²⁷.

فيجب ألا نغفل مدخل السياق حينما نتدبر آيات الكتاب الكريم، فتدبر «سياقاته»
ونزوله مفرقًا منجمًا، حيث كان لتثبيت فؤاد رسول الله فيه وبه، وكذلك أفئدة المؤمنين:
﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: 106)، ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾
(الفرقان: 32).

فهذا التنجيم والنزول على مكث لا بد أن يستدعي سائر أنواع «السياق» الذي نزل
فيه كل نجم من نجوم القرآن المجيد.

وهنا تتضح أهمية «أسباب النزول» و«المناسبة» و«تأريخ النزول»، ومعرفة موقع كل
نجم بالنسبة لما قبله ولما بعده؛ ليتمكن المجتهد، والمفسر، وأهل الاستنباط، والمدركون لأسرار

¹²⁷ أنظر كتابنا في النسخ.

بلاغة القرآن ودلائل إعجازه من الوقوف من النصّ على ما لا يمكن الوقوف عليه بدون ملاحظة سائر أنواع السياق.

السياق في اللغة:

لم يزد جُلُّ اللغويين على ما وردت الإشارة إليه في معنى مادة «السياق» اللُّغويّة في القرآن المجيد، فقد اعتمدوا الألفاظ القرآنيّة التي وردت المادة اللغويّة فيها، وساقوا لها المعاني ذاتها. لاحظنا هذا في القاموس وشرحه، وفي لسان العرب نحوه مع إسهاب في ذكر الشواهد والأسماء، وفي أساس البلاغة نجد قريباً من مرادنا بـ«السياق» قولهم: "فلان يسوق الحديث أحسن سياق"، و: "إليك يُساق الحديث"، لكنّه لم يبعد كثيراً عن الاستعمالات المذكورة، وكذلك كتاب «العين» و«المصباح» و«المختار» وما إليها، ففي كلّها نجد -الأغلب- استعمالها في أمور حسّية؛ مثل «سياق المرأة» أي مهرها، أو بعض الأمور الدالّة على السوق إلى غاية أو نهاية، كقوله:

وَلَمَّا دَنَا مِنِّي «السِّيَاقُ» تَقَدَّمْتُ إِلَيْ *** وَدُونِي مِنْ تَقَدُّمِهَا شُغْلُ

أَنْتَ وَحِيَاضُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا *** وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ

فـ«السياق» هنا الاحتضار؛ ولأنّ الإنسان يُساق به إلى الدار الآخرة حسّن أن يُطلق عليه «السياق».

مفهوم السياق في تراثنا الإسلامي:

أدرك علماءنا -على اختلاف المعارف التي اشتهروا بها- ما للسياق من أهميّة بالغة في جميع العلوم والمعارف ذات العلاقة بالخطاب القرآنيّ من تفسير وحديث وأصول وفقه وعلم كلام وعلوم ومسائل، وذلك لأنهم وجدوا فيه وسيلة منهجيّة تساعد في بيان المراد بخطاب الشارع، ويمكن أن نجد قدرًا مشتركًا بينهم -جميعًا- في بيان المراد بالسياق على

سبيل الإجمال؛ وهو «ما ساق الشارع الخطاب من أجله»؛ وهذا الذي يتسوق أو حض وتحريض، أو منشئ لحكم، أو بيان لسنة كوثية، أو دعوة لموعظة أو اعتبار أو مثل أو بيان لسنة اجتماعية أو إنسانية... إلخ.

وهناك قرائن ومؤشرات قد يحتفي الخطاب بها، تسبقه أو تلحقه إذا كانت من داخل الخطاب، وقد تكون أمورًا خارجية، مثل: الزمان والمكان وعناصر الواقع المختلفة ومناسبات أو أسباب النزول بالنسبة للقرآن المجيد، أو أسباب الورود بالنسبة للسنن النبوية؛ ولذلك عرف بينهم مصطلح «القرينة السياقية» للإشارة إلى بعض القرائن التي قد تحفّ بالنص، بحيث تساعد على بيان مجمل أو تقييد مطلق، أو كشف مبهم أو ترجيح معنى على آخر.

والسياق -في بعض الأحيان- يكون ظاهرًا بارزًا لا يحتاج إلى كثير من النظر والتدبر ليظهر، وأحيانًا يحتاج إلى شيء من ذلك، وأحيانًا يكون السياق لفظيًا، وأحيانًا يكون مقاميًا، وأخرى يكون سياق نظم، أو سياق لفظ مفرد، وسياق «نطقية سياقية»، وبعضهم جعل السياق في صدر الآية والعلاقات بينها وبين بيئتها القرآنية. وهناك من فرق بين «السياق والسباق» فاعتبر السياق ما سبقت الآية من أجله، و«السباق» ما سبق الآية. وعلى هذا فإن «السياق» إمّا أن يُراد به نصوص سابقة ولاحقة لما يُراد بيانه، أو سيق الخطاب لأجله، أو تأويله بحيث يتّضح ما سيق الكلام لأجله، بملاحظة بيئة النص التي قد تكون السورة كلها.

ويُراد بـ«السياق» مقاصد الشريعة، أو عللها وحكمها، أو قصد الشارع الذي يدل النص عليه بنوع من أنواع الدلالة، ويُستفاد منه بتأويله، أو بيانه.

وأحيانًا يُراد به سبب نزول الآية أو مناسبتها أو سبب ورود الحديث أو مناسبتها، ومكونات الواقع الذي نزل الخطاب فيه، وأحوال المخاطبين.

من هنا فإنّ من الممكن القول بأنّ الأئمة المتقدمين في علومنا النقلية -المقاصديّ والوسائلية منها- قد عرفوا نوعين هامّين شاملين من أنواع السياق المقاليّ اللفظيّ والمقاميّ أو

الحاليّ، واستفاد بكل نوع منهما في دراساتهم لخطاب الشارع، وتحديد دلالاته وفق المراد منه، وتحديد مستوياته في الدلالة، ومستوياته في إنتاج الأحكام.

السياق في علومنا النقليّة:

قد كان من موضوعات الاهتمام المشترك بين المعنّيين بعلومنا النقليّة، وقد نال من الاهتمام ما جعله من المفاهيم الكبرى المشتركة بين علوم الوسائل وعلوم المقاصد؛ كيف لا وهو مما يتوقف فهم العديد من آيات الكتاب الكريم عليه، وكذلك فهم مراد رسول الله في كل ما جاء به. ف«الخطاب» رسالة من مرسل إلى مستقبل، وهذه الرسالة قد تكون رسالة لإخبار المستقبل بشيء ما، أو لدعوته للقيام به، أو الاستفهام منه، أو رجائه أو حصّه وتحريضه، أو أمره ونهيه، والخطاب ذاته يأتي بصياغات عديدة، وأساليب متنوعة عديدة، ولا يمكن للمرسل أن يوصل ما يريد، أو يفصح ويبيّن عما يقصد بألفاظ النصّ -المخاطب به- وحدها. وللمستقبل عقلية ونفسية وظروفه وثقافته وبيئته، وكلّها مؤثّرات تساعد أحياناً على فهم مراد المخاطب، وقد تُعيق عملية فهم مراده، وكل منهما -المرسل والمستقبل- يحتاج لملاحظة ذلك الذي نسمّيه بـ«السياق»، بل إنّ النصّ الإنسانيّ عندما يتكوّن إنّما يتكوّن في سياق حتى يُصبح السياق ليس مجرد مؤثّر خارجيّ، بل هو جزء من مكونات النصّ؛ ولذلك اعتبر بعض الباحثين السياق متممًا للنصّ، والنصّ متممًا للسياق¹²⁸، فالنصوص مكوّنات للسياقات التي تظهر فيها، والسياقات يجري تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتّاب في مواقف معيّنة¹²⁹.

وربما انتبه القدماء إلى ذلك الملمح -بطريقة ما- عندما قالوا: إنّ الكلمة المعجميّة لها عدد من المعاني، تبدو واضحة فيما سمّوه بالمرادف والمشارك، وأنّ العلاقة السياقيّة لها معنى

¹²⁸ - اللغة والمعنى والسياق، ص215، وزارة الثقافة والإعلام العراقيّة بغداد 1987م، دار الشؤون الثقافيّة العامة، تأليف جون لاينز، ترجمة عباس صادق الوهاب.

¹²⁹ - المصدر نفسه.

واحد يقوم على توطين الكلمة المعجمية في وضع واحد من مواضعها؛ فكلمة «عين» تعني عين الإنسان، وعين الشمس، ومكان انبثاق الماء «معجميًا»، ولكنني أختار معنى واحدًا يُحدده السياق الذي استعمله، فأقول: شربت من عين صافية «سياقيًا هنا تُحدد العين بعين الماء». كذلك كلمة «خال» فالخال أخو الأم، والخال العلامة في الوجه. ويبدو أن قضية «المشترك» في اللغة العربية هي ما أثارت مفهوم السياق بوصفه محدّدًا للمعنى أكثر من غيرها.

ويرى «جون لاينز» أن معنى الوحدة الكلامية يجاوز ما يُقال فعلًا، إذ إنه -أيضًا- ما هو مقصود ضمّنًا أو ما يفترض مسبقًا. وللسياق صلة وثيقة بهذا الجزء من معنى الوحدات الكلامية، فللوحدة الكلامية ناحيتان: الناحية الكلامية، والناحية اللاكلامية، وقد أهمل اللغويون في رأي «جون لاينز» ما يتصل بالقصد، واكتفوا بما يتصل بالمعنى الكلامي.

ونحن نستطيع أن نلمس في القرآن الكريم ما عناه «لاينز» بالقصد الذي يجاوز ما يُقال بالفعل.

فلنقرأ قوله (تعالى): ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: 49).

أو قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35).

أو قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: 32).

إنّ السخرية في الآية الأولى تعني ما هو أبعد من الدعوة إلى مذاق العذب بالمقابلة غير المذكورة بين وضعين، هما العبودية والعزة والكرم، يذكّرنا بقول مصطفى ناصف أن معنى السياق هو المحذوف.

أمّا التساؤل في الآية الثانية فيعني دفعهم إلى المفاضلة بين «محض العدم» أو «الخلق الذاتي» في حالة إنكارهم لله، وهي مفاضلة محرّجة للمنطق البدهي، ومثيرة لإعادة المراجعة.

أمّا التقرير في الآية الثالثة فهو يُجاوز وصف واقع موضوعيّ -موجود- وتحديدّه إلى تعيين مَنْزَعٍ نفسيّ يسبب الشعور بالامتلاء واليقين الوهميين عند تحصيل قدرٍ من المعرفة، قد يحتمل في ذاته الصواب وقد يحتمل الخطأ، وهذا المنزع النفسي هو المولّد الخفي لغرور الإنسان الذي يعلم «وذلك دون أن يتساءل عن مدى علمه»، فالفرح هنا في «فرحون» هو خيال الإنسان عن ذاته بوصفها حاملّةً لمحمولٍ ليس له من الأرجحية إلا ما تتصوره هذه الذات عنه، وكما قال الإمام النّقري: "الكون كالكرة، والعلم كالميدان"؛ أي أنّ الكون يتقلّب في العلم بدون استقرارٍ على حال. لذلك قال النّقري: "العلم حدود، وبين كل حدّين جهل".

نماذج من ملاحظة السياق في القرآن المجيد:

لقد ظهرت مراعاة السياق في كتاب الله، ولفت رسول الله أنظار الصحابة إلى ذلك حتى مهر في ذلك كثيرون؛ منهم: الشيخين أبي بكر وعمر، وعلي -كرم الله وجهه-، وأم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وابن عباس -رضي الله عنهم أجمعين-، ونستطيع أن نجد في فقه الشيخين واستدراكات أم المؤمنين على الصحابة، واستدراكات علي وابن أم عبد، وابن عباس وغيرهم نماذج تملأ مجلدات، لكننا سوف نقتصر على القليل من ذلك تاركين الاستقصاء إلى ميدان آخر¹³⁰.

إنّ ملاحظة السياق بأنواعه أمر لا يختلف -في موقعه وأهميته- عن دراسة النص وتحليله، ف«إهمال السياق يؤدي إلى الوقوع في الغلط والمغالطة»¹³¹.

¹³⁰ - ونتمنى على أبنائنا وبناتنا في الدراسات العليا أن يوجّهوا بحوثهم نحو تجلية هذا المجال، ففي ذلك خير كثير لا يقلّ عن الخير الذي حدث عندما وجّه بعض الباحثين الجادين دراساتهم نحو «مقاصد الشريعة» فعادت على الدراسات الشرعيّة والاجتماعيّة عامّة بكثير من الفوائد الملموسة حالياً. ويمكن تسجيل رسالة دكتوراه أو أكثر في بيان آثار السياق في التفسير، وفي فقه الكتاب، والسنة، والقواعد الأصوليّة، والفقه... إلخ.

¹³¹ - راجع الفوائد: «4/9-10»، وما نقله الزركشي عن ابن دقيق العيد في البحر المحيط «4/289-290».

ولقد لفت رسول الله الأنظار إلى هذه الدلالة وأهميتها فيما رُوي عنه من تفسير، وفي الرد على كثير من الشبهات التي أثارها المشركون والمنافقون وأهل الكتاب ومن إليهم، فمن ذلك ما ورد في قصة ابن الزبيري حين زعم أنه سيخصم رسول الله، وذلك لما نزل قوله (تعالى): ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء: 98)، فجاء ابن الزبيري إلى رسول الله، وقد أكثر المفسرون في التعليق على هذه الواقعة، وكذلك بعض المحدثين، ورووا في ذلك أحاديث وآثارًا من المستبعد أن يصحَّ شيء منها.

والمسألة -كلها- لا تتجاوز أن قريشًا -وابن الزبيري منهم- لم يلاحظوا السياق الذي وردت الآية الكريمة فيه، فاضطربوا في فهمهم لها، فالآية جاءت بعد أن عرضت سورة الأنبياء لعدد كبير منهم، وبَيَّنَّت ما جرى لهم مع أقوامهم، وختمت ذلك بإعلان وحدة أمة الأنبياء في جوهر مضامين رسالاتهم وهو التوحيد، ووحدتهم كذلك في اختلاف مواقف أقوامهم منهم ومما جاؤوهم به من الخير، ووحدتهم في الغاية والرجوع إلى الله، وبَيَّنَّت الآيات الكريمة اختلاف مصائر أولئك الأقوام، فلن يجعل الله المسلمين كالمجرمين، ولا الذين يعملون الصالحات كالذين يجترحون السيئات.

وفي الوقت الذي بشرت الآيات الصالحين بأنهم لا كفران لسعيهم، وأن كل ما عملوا في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى، أكَّد الإنذار الأخير لأولئك المشركين بأنَّ الفرصة الوحيدة أمامكم لتؤمنوا ولتنقذوا أنفسكم من نار جهنم هي هذه الدنيا فقط؛ لأنَّ القرى التي هلكت والقرون التي خلت لم يرجع أحد منها ليعمل صالحًا غير الذي كان يعمل، إنها أمان يتمنونها، وكلمات يقولونها لا تتحقق، ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ (الأنبياء: 95) أي: حرام عليها الرجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى لتستدرك وتغيّر عملها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: 95)، ثم يجري التفات الآية إلى هؤلاء المشركين لتحذّرهم وتندّرهم بأنَّ الفاصل بينهم وبين الوعد الحق القريب يسير وليس بطويل، فليُفارقوا عنادهم وليؤمنوا بما جاءهم به

رسولهم، فقد اقترب اليوم الذي سيقذفون فيه مع آلهتهم المزعومين في النار ليستقروا فيها، وكأَنَّهُمْ حصبها وحصباؤها، وسيكتشف هؤلاء المشركون الأغبياء هذه البدهية: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُّوَهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء: 99)، وهنا يجري القرآن المجيد على عادته في ذكر المتقابلات، ودفع ما قد يتوهمه المتعجلون الذين لا يتدبرون القرآن ليقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: 101)، فإذا كنَّا قد وحدنا في المصير بينكم أيُّها المشركون وبين آلهتكم فإنَّ هذا ليس بعام في كل قوم وما عبوده، فهناك رسل وأنبياء صالحون دعوا أقوامهم إلى الدين الخالص، والتوحيد الخالص، فانحرف أقوامهم عن سبلهم فألهوهم وعبدوهم من دون الله، وهؤلاء لن يتَّحد مصيرهم بمصير أولئك الذين ألهوهم، فهم أبرياء مما فعل أقوامهم، وقد سبقت لهم منه الحسنَى بأن يفصل بينهم وبين أقوامهم ويفتح بينهم وبين أقوامهم بالحق¹³². فالسياق يكفي ويغني عن كل ما ذكر، أو حاك في صدور المشركين. فتجاهلهم للسياق وإثارتهم لما أثاروا هو من قبيل الشغب الذي أَلفناه منهم.

إنَّ معرفة السياق في القرآن خاصَّة تُعدُّ من الضروريَّات لسائر أولئك الذين يتعاملون مع القرآن المجيد، فملاحظة السياق تُعين على تفسير القرآن بالقرآن، ويمكن أن تُزيل أحكام التشابه ودعاوى النسخ، وتصحح في كثير من الأحكام؛ وتعطي المجتهد القدرة على الترجيح.

¹³² - أخرج الواحدي في أسباب النزول قصة مطوَّلة باعتبارها سبب نزول قوله (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: 101). فراجع في أسباب النزول «315-316»، وأخرج ذلك الطبري في «76/17» والبخاري والحازن «262/4» ط. الطوي. والسيوطي في الدر المنثور «337/4» ولباب النقول «11/2» بامش تفسير الجلالين. ط. مصطفى الحلبي. وتفسير الجلالين نفسه «36/2» والقرطبي في تفسيره «343/11» وأبو حيان في تفسيره البحر المحيط «342/6»، والكشاف للزمخشري والفخر الرازي في التفسير «133-132/6» والمخصول «332/2»، والهيتمي في الجمع «68/7-69» وقد أوردوا حديثًا حول تخصيص «ما» بما لا يعقل أكد ابن حجر أنَّه اشتهر على ألسنة كثير من علماء العجم وكتبهم وهو لا أصل له والوضع فيه ظاهر. وأبدى عجه ممن نقله من المحدثين أمثال أبي داود وابن المنذر وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس، وذلك في تخريجه لأحاديث الكشَّاف ط. مصطفى محمد الجزء الرابع الملحق «111-112» وتأمل في تعليقنا المطول على قصة ابن الزبيرى بامش المخصول «332/2-335».

فالسّياق هو الذي يجعلنا نفهم من قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ (المائدة:2) أَنَّ «فاصطادوا» جاء لبيان رفع الحظر الذي ورد به قوله (تعالى): ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ (المائدة:1).

والسّياق هو الذي يجعلنا نفهم أَنَّ قوله (تعالى): ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:33)، أَنَّ المراد بها ليس بيان «حدٍّ من حدود الله يطلق عليه: حدُّ الحاربة» كما ذهب إلى ذلك الأكثرون، بل المراد بذلك بيان ما ترتب على فعل ابن آدم الذي قتل أخاه وقصتهما التي قدمت لقوله (تعالى): ﴿مَنْ أَجَلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة:32).

و«السّياق» هنا يربط هذه التصرفات بحرب معلنة على الله ورسوله، وسعي في الأرض بالفساد والإفساد، وهذه -كلّها- أمور لا تصدر باعتبارها ذنوبًا وانحرافات صادرة عن أحد ينتسب إلى الإيمان أو الإسلام لتُعد عقوبة شرعيّة أو حدًّا من حدود الله، إنّما هي عقوبة لمن وُصفوا بذلك، وقد يكونون من المشركين، أو من أهل الكتاب المتحالفين معهم المحاربين لله ورسوله، ولو فُرض أَنَّ منتسبًا إلى الإسلام قام بكل تلك الجرائم فإنّه لا يمكن أن يفعلها وهو مؤمن، إذ كيف تجتمع صفة الإيمان بالله والإسلام له مع إعلان الحرب على الله ورسوله؟! إضافة إلى مفارقة السعي في الأرض بالفساد والإفساد؟! إنّ تصرفات كهذه لا يتوقع صدورها عمن في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. وبالتالي فإنّ السّياق لا يسمح أبدًا بأن يكون المراد بهذه الآية بيان حدٍّ من (الحدود الشرعيّة) يُسمّى بـ«حد الحاربة».

إنَّ السياق الداخليَّ الخاصَّ الذي يبدأ بقصة «ابني آدم» يتناول دوافع خفيَّة تأخذ من وسوسة الشيطان واستعداد الإنسان شكل الدوافع المؤثِّرة في تحريك الإنسان نحو القتل، وهي دوافع لا تقف صلات القربى حائلًا دون السقوط في جريمة القتل بنسبيَّتها وتأثيرها، ثم يجعل من سقوط أحد ابني آدم في أحوال تلك الجريمة علةً لتشريعات عقائيَّة يمكن أن تشكِّل رادعًا يجعل الإنسان أقدر على مقاومة تلك الدوافع، ويصوِّر حجم الجريمة بصورة تجعل من تبدأ الدوافع إلى القتل عملها في نفسه يدرك حجم الجريمة التي يحدثه شيطانه ونفسه بارتكابها، إنَّها ليست قتلاً لذلك الفرد الذي حققت عليه النفس المريضة أو غضبت منه أو حسدته، وإنَّما إعدام للبشريَّة ممثلة في آدميَّة ذلك الفرد، وقضاء على الحياة الإنسانيَّة بأكملها، وهنا يلتفت السياق إلى أولياء القتل، أولياء الدم فيجعل لهم سلطانًا كافيًا لشفاء أنفسهم مما وقع عليهم من ظلم أفقدهم واحدًا منهم، وإقناعهم بأنَّ المعتدي عليهم وعلى فقيدهم سينال الجزاء العادل، فيبيِّن أنَّ أولئك الذين يقتلون الناس بغير حق لا بد للمجتمع من معاقبتهم ومجازاتهم على ما يفعلون، لأنَّ استعداد ذلك المحارب القاتل للقتل لا يمنعه عن قتل الناس جميعًا، فكأنَّه (تعالى) ينبِّه بذلك إلى أمر خطير، وهو أنَّ مَنْ وقع في جريمة واحدة، وقتل نفسًا واحدة قد استكلم واجترأت نفسه على القتل، فإذا لم يقتلع الشر من نفسه وتُعطلَّ قدراته عن ممارسة أيَّة جريمة لاحقة فإنَّه سيكرِّر الجريمة دون حساب، ولا يهمه - آنذاك - أن يُنهي الحياة البشريَّة على الأرض، وهنا تتضح البلاغة المعجزة لقوله (تعالى): ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 179).

فإذا لاحظنا السياق العام لسورة المائدة من بدايتها نجد أنَّ المناداة بالوفاء بالعقود تنبِّه الأُمَّة الوارثة - أُمَّة محمد - إلى ضرورة الالتزام بعهودها مع الله وموآثيقها معه، وكأنَّها تنبيه مبكِّر لها أن لا تقع فيما وقعت فيه بنو إسرائيل الذين جاءت بديلًا إرثًا عنهم، فينبغي للأُمَّة البديلة الحرص على الوفاء بالعقود، وأن لا يحلُّوا شعائر الله، وأن لا يجرمَنهم شئان قوم على العدوان، وأن يتَّقوا الله، ويجعلوا التقوى شعارهم ودثارهم، ثم يبيِّن لهم محرَّمات الأطعمة، إذ إنَّ السقوط فيها ينافي التزكية. ثم يحذِّر من الذبح على النصب حماية للتوحيد، وكذلك

الاستقسام بالأزلام. وقد يخطر على بال البعض أن يرى في تناول قضايا الأطعمة -بعد الأمر بالوفاء بالعقود- نزولاً إلى الأدنى أو الأقل أهمية، فينبه السياق إلى ما قاله رسول الله (تعالى) في خطبة حجة الوداع: "... إن الشيطان قد يئس أن يُعبد، ولكنه رضي منكم ما دون ذلك..."، فيقول (تعالى): ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ (المائدة:3)، فكأنَّ أحكام الأطعمة جاءت بمثابة الخاتمة للتشريعات القرآنية، وبها اكتمل الدين. ويستمر السياق في بيان ما يؤدي إلى تزكية الإنسان تزكية تامة في المطعم والمنكح، ويتَّوج ذلك بالصلاة وبالطهارة وبالوضوء وبالتيمم، ويُعيد التذكير بضرورة المحافظة على الميثاق مع الله (تعالى)، ويبين نعمة الله بهذا الميثاق، فهو ليس عبثاً أو تكليفاً، بل هو نعمة أنعم الله بها عليكم، فكونوا إذن قوامين لله شهداء بالقسط، لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا، بل اعدلوا؛ لأنَّ العدل أقرب للتقوى، واتقوا الله، فلا تُجانبوا العدل ولا تتجاوزوا، فهو خير بما تعملون، ويرتب على ذلك إشارته لهم بالجنة وإنذاره للكافرين بالجحيم، ثم يذكر المؤمنين بنعمته عليهم، وذلك حين حماهم من الذين أرادوا أن ييسطوا إليهم أيديهم بالسوء فكفَّ أيديهم عن المؤمنين، وكأنَّه علَّل ذلك بتقواهم لله، فأكد الأمر بالتقوى، وأمرهم بالتوكل على الله الذي يتولى نصرهم على عدوهم وإعانتهم وحفظهم، لتكون نفوسهم أنشط في المحافظة على ميثاقهم مع الله، ثم يلتفت السياق إلى موقف بني إسرائيل من الميثاق الذي واثقهم به، وكأنَّه يريد بذلك تحذير المؤمنين من السقوط فيما سقطت فيه الأمة المستبدلة من نقض الميثاق، وفي الآية التالية (13) يجعل نقض اليهود لميثاقهم سبباً في اللعنة وقسوة القلوب، والجرأة على تحريف كلمات الله عن مواضعها وتناسي آيات الله والسقوط في الخيانة، ويأمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في آخر الآية بأن يصبر عليهم ويعفو عنهم ويصفح في تلك المرحلة، إذ إنَّه ليس من السهل على أمثالهم أن يروا أمة من الأميين تحتل موقع الخيرية والاصطفاء الذي نُحُوا عنه، ثم يلتفت إلى إخوانهم من بني إسرائيل، أو الطرف الثاني منهم وهم النصارى، ليدمغهم أيضاً بنقض الميثاق الذي واثقهم الله به ونسيانهم -كإخوانهم اليهود- حظاً مما ذكروا به، وأنَّ ذلك كان علة لإغراء

العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، منبِّهاً إلى أنَّ ذلك لن يُعفيهم من المسئوليَّة يوم القيامة، حيث ينبِّئهم الله يوم القيامة بما كانوا يصنعون، ثم يوجِّه نداءً للفريقين من بني إسرائيل - كأنَّه النداء الأخير - بمجيء رسول الله محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ليبيِّن لهم ما كانوا يخفون من كتبهم أو يحزفون، وأنَّ ما جاءهم به نور من الله وكتاب مبين، كفيل بهدايتهم مرة أخرى إلى سبل السلام التي أضاعوها، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذنه (تعالى)، وهدايتهم إلى صراط مستقيم، ثم يبيِّن لهم - خاصَّةً للنصارى منهم - حاجتهم الماسة إلى هذا النبيِّ الكريم، حيث إنَّ انحرافاتهم وقسوة قلوبهم قد حملتهم على الشرك بالله وتجاوز التوحيد، والمزج بين الله (تعالى) وبين نبيه ورسوله المسيح ابن مريم، ثم ينبِّه إلى السبب الأساس الذي دعا كلا من اليهود والنصارى إلى الانحراف عن جادة التوحيد والإشراك بالله (تعالى)، ألا وهو اغترارهم بنعم الله، وتوهمهم أنَّهم ما والى الله نعمه عليهم إلا لأنَّهم أبناء الله وأحباؤه، فردَّ عليهم ذلك ثم ناداهم مرة أخرى نداء توكيد بأنَّ هذا النبيِّ الأميِّ كما أرسل إلى الأميِّين فهو مرسل إليهم؛ ليبيِّن لهم بعد فترة وتوقف في تتابع الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إليهم، ويبيِّن لهم أنَّه بذلك قد قطع حجتهم وأنَّهم لن يستطيعوا القول يوم القيامة بأنَّهم أو أنَّ أجيالهم المتأخرة ما جاءها بشير ونذير، فإنَّ محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - بشير لهم ونذير، ثم يذكِّرهم بما كان موسى يدعو إليه، ويذكِّرهم به بمعصيتهم لموسى، وهو منهم لا يستطيعون أن يقولوا إنَّه من قوم غيرهم كما يحاولون أن يقولوا عن رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويذكِّرهم بقصة ابني آدم الذين قلَّد بنو إسرائيل الشرير منهما وهو القاتل، وأنَّهم لذلك قد ابتلوا بتشريعات مغلظة شاقة في مسألة القتل والاستهانة بإراقة الدماء، والإفساد في الأرض، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ومخالفتهم لسائر البينات التي جاؤوا بها؛ لأنَّهم استمروا القتل - بما في ذلك قتل الأنبياء - ومردوا على القسوة والغلظة، فناسب ذلك أن تشدَّ عليهم العقوبات وأن تُثَقِّل عليهم التشريعات، وينتهي السياق عند قوله (تعالى) في الآية (33): ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ

خَزِيٍّ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (المائدة: 33) والآية التي تليها، والتي فيها الالتفات إلى أمة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- التي كانوا يسكنونها في المدينة المنورة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: 34)، والآية (35) تنادي المؤمنين مرة أخرى للالتزام بتقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه، والجهاد في سبيله ضد أولئك وأمثالهم -من يهود وإخوانهم- بأنهم إذا فاتتهم هذه الفرصة -فرصة اتباع هذا النبي الأمي- فذلك يعني أنهم ذاهبون إلى عذاب يخلدون فيه، لا يمكن أن يتخلصوا منه بفداء أو غيره، فالسياق كله يقود إلى أن هذه العقوبة إنما هي عقوبة لأولئك الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا مؤمنين أو مسلمين بأي معنى.

والذي حمل بعض علمائنا على أن يتجاوزوا السياق ويذهبوا إلى القول بما أسموه بـ«حد الحراية» قصة العرنيين وظنهم أن هذه الآية الكريمة جاءت تعقيبًا على أحداث تلك القصة، مع أن هناك روايات كثيرة تبين أن قصة العرنيين قد وقعت بعد نزول هذه الآية الكريمة¹³³.

¹³³ - قصة العرنيين والعقلين أو النفر المختلط من عقل وعزلية أو غيرهم قصة أخرجها المحدثون بطرق مختلفة، تنتهي كلها بأنس ابن مالك -رضي الله عنه، وذلك أن عبد الملك ابن مروان ثم الحجاج بن يوسف الثقفي قد سأله كل منهما عن أشد وأقصى عقوبة عاقب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بها فذكر لهم قصة هؤلاء، والحديث على صحته وكثرة طرقه وأسانيده المنتهية بأنس قد كره التحديث به الحسن البصري وغيره من الأئمة وأعلنوا اعتراضهم على أنس وتمنيهم لو أنه لم يحدث الظلمة به؛ لأنهم وجدوا فيه تشجيعًا على ممارسة عقوبات النكال المشددة ولو لم توجد ظروف مقتضية للتحديد، ولدينا دراسة نقوم بإعدادها حاليًا حول هذا الحديث وما في متنه، والطرق التي روي فيها، وعلاقته بما عرف بـ«حد الحراية» نرجو الله أن يُعيننا على إكمالها.

أمّا الغزالي (ت: 505هـ) فقد وقف وقفات مهمة ركّز خلالها على أهميّة القرائن المقالية التي يُسمّيها بـ«قرائن الأحوال» في تحديد المعنى، يقول: "والقرينة إمّا لفظ مكشوف، كقوله (تعالى): ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: 142)، والحق هو العشر. وإمّا إحالة على دليل العقل كقوله (تعالى): ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر: 64)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»، وإمّا قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق، لا تدخل تحت الحصر والتخمين، يختص بإدراكها المشاهد لها، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس، أو من جنس آخر، حتى توجب علماً ضرورياً بفهم المراد أو توجب ظناً.

وكل ما ليس له عبارة موضوعة في اللغة تتعيّن فيه القرائن، وعند منكري العموم، ويتعيّن تعريف الأمر والاستغراق بالقرائن، فإنّ قوله (تعالى): ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: 5)، وإن أكّده بقوله «كلهم» و«جميعهم»، فيحتمل الخصوص عندهم كقوله (تعالى): ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: 24)، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: 23)، فإنّه يريد به «البعض».

وأفرد الغزالي في كتابه «المستصفى» عنواناً خاصاً للسياق سمّاه «الضرب الرابع»: «فهم غير المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده» كفهم تحريم «الشتم» و«القتل» و«الضرب» من قوله (تعالى): ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ (الإسراء: 23)، وفهم تحريم مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه من قوله (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ (النساء: 10)، وفهم ما وراء الذرة والدينار من قوله (تعالى): ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: 7)، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ (آل عمران: 75)، وكذلك قول القائل: "ما أكلت له برة، ولا شربت له شربة، ولا أخذت من ماله حبة" فإنّه يدلُّ على ما وراءه.

فإن قيل: هذا من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قلنا: لا حرج في هذه التسمية، لكن يُشترط أن يُفهم أنه بمجرد ذكر الأدنى لا يحصل هذا التنبيه ما لم يُفهم الكلام وما سيق له، كما تنبّه الغزالي -رحمه الله- أيضاً إلى قرائن الأحوال، أو ما يُسمّى في الدرس اللغوي «الحديث بسياق الحال» ودوره في تحديد المعنى، قال: "إن قصد الاستغراق يُعلم بعلم ضروريّ، يحصل عن قرائن أحوال ورموز وإشارات وحركات من المتكلم، وتغيّرات في وجهه، وأمور معلومة من عاداته ومقاصده، وقرائن مختلفة لا يمكن حصرها في جنس ولا ضبطها بوصف، بل هي كالقرائن التي يعلم بها خَجَلُ الْحَجَلِ وَوَجَلُ الْوَجَلِ وَجُبْنُ الْجَبَانِ، وكما يُعلم قصد المتكلم إذا قال: «السلام عليكم»، أنه يريد التحية أو الاستهزاء واللهو.

ومن جملة القرائن: فعل المتكلم، فإنه إذا قال على المائدة: "هات الماء" فهم أنه يريد الماء العذب البارد، دون الحار المالح.

وقد تكون دليل العقل كعموم قوله (تعالى): ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29)، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: 6)، وخصوص قوله (تعالى): ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر: 62)، إذ لا يدخل فيه ذاته وصفاته.

وقد تنبّه الإمام الشاطبي إلى سعة مفهوم السياق، بحيث صار يشمل سياق السورة كلّها، فنبّه إلى وحدتها البنائية، ومن أمثلة ذلك تفسير قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: 82)، قال: "فإنّ سياق الكلام يدل على أنّ المراد بالظلم أنواع الشرك على الخصوص، فإنّ السورة من أولها إلى آخرها مقرّرة لقواعد التوحيد، وهادمة لقواعد الشرك وما يليه، والذي تقدّم قبل الآية قصة إبراهيم -عليه السلام- في محاجته لقومه، بالأدلة التي أظهرها لهم في الكوكب والقمر والشمس، وكان قد تقدم قبل ذلك قوله:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ (الأنعام: 21)، فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَظْلَمَ مِمَّنِ ارْتَكَبَ هَاتَيْنِ الْخَلْتَيْنِ، وَظَهَرَ أَنَّهُمَا الْمَعْنَى بَعْدَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

إِنَّ «الْقِرَاءَةَ السِّيَاقِيَّةَ» تَنَاقُزُ بِنَا عَنْ الْقِرَاءَةِ وَفَقًا لِلتَّصَوُّرِ الْكُونِيِّ الْمَاضِيِّ السَّكُونِيِّ التَّارِيخِيَّ، كَمَا تَنَاقُزُ بِنَا عَنْ الْمَنْطِقِ اللَّائِكِيِّ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْحَدَاثَةِ أَوْ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ فِي دِرَاسَةِ الْإِلَهِيَّاتِ. وَ«الْقِرَاءَةُ السِّيَاقِيَّةُ» قِرَاءَةٌ تَسَاعِدُ عَلَى الْكَشْفِ عَنِ السَّنَنِ الْكُونِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ الَّتِي تَحْكُمُ حَرَكَةَ التَّارِيخِ وَالْمَجْتَمَعِ وَالْأُمَمِ كَافَّةً.

وَ«الْقِرَاءَةُ السِّيَاقِيَّةُ» تَسَاعِدُنَا فِي الْكَشْفِ عَنِ الْغَايَاتِ وَالْمَقَاصِدِ الَّتِي رَسَمَهَا اللَّهُ (تَعَالَى) لِحَرَكَةِ الْكَوْنِ وَالْإِنْسَانِ وَالْحَيَاةِ فِي تَفَاعُلٍ وَجَدَلٍ لَا يَنْقُطِعُ حَتَّى تَصِلَ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى غَايَةِ حَدِّدَهَا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

وَبِ«الْقِرَاءَةِ السِّيَاقِيَّةِ» نَسْتَطِيعُ أَنْ نَلْتَمِسَ سَبِيلَنَا لِإِعَادَةِ الْبِنَاءِ.

إِنَّمَا نَرَاجِعُ فِي تَرَاثُنَا وَنَحْنُ فِي حَالَةٍ اسْتِضْعَافٍ وَهَزِيمَةٍ حَضَارِيَّةٍ وَاسْتِعْلَاءٍ خَارِجِيٍّ، نُهَيِّمُ عَلَى نَفُوسِنَا مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْمَشَاعِرِ السَّلْبِيَّةِ، الَّتِي كَثِيرًا مَا تَوَلَّدَتْ -عِنْدَنَا- شَعُورًا بِالْذَوْنِيَّةِ بِشَكْلِ ضَاغِطٍ عَلَى مَحَاوَلَاتِنَا لِتَحْقِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ فِي الْبَحْثِ مَهْمَا حَاوَلْنَا، وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ.

وَلِذَلِكَ فَنَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَى دِرَاسَاتٍ مُتَعَمِّقَةٍ جَادَةٍ وَفَاحِصَةٍ فِي عَمَلِيَّاتِ تَكْوِينِ الْأَنْسَاقِ الثَّقَافِيَّةِ، وَتَدَاخُلِهَا وَتَقَابُلِهَا، وَكَذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَدْيَانِ وَتَدَاخُلِهَا وَتَقَابُلِهَا، وَكَيْفَ يَتِمُّ كُلُّ مَنِهْمَا، وَفِي أَيِّ سِيَاقٍ الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ لِذَلِكَ كُلِّهِ.

المدخل الثالث والعشرون: مدخل التصديق والهيمنة:

إِنَّ التَّصَدِيقَ وَالْهَيْمَنَةَ وَالِاسْتِيعَابَ وَالتَّجَاوُزَ مِنْ مَحْدَّدَاتِ الْقُرْآنِ الْمُنْهَجِيَّةِ. «الِاسْتِيعَابُ» مَحْدَّدٌ يَرْتَبِطُ بِنَسْقٍ مُفْتَوَحٍ لَا يَنْغَلِقُ عَنْ «التَّصَدِيقِ» عَلَى أَيِّ نَسْقٍ آخَرَ، ثُمَّ «الْهَيْمَنَةُ» عَلَيْهِ، وَ«الِاسْتِيعَابُ» فِي نَسْقِهِ بَعْدَ تَرْقِيَّتِهِ، وَمِنْحِهِ الرُّؤْيَا الْأَلْزَمَةَ، وَالِامْتِدَادَ

الضروريّ، وتجاوز الطريق المسدود الذي كان قد دخل إليه وتوقف عنده. والاستيعاب يتوسل لتحقيق ذاته باستعمال وممارسة سائر الخطوات المنهجية لهيمنة النسق الآخر للاستيعاب ففي «الاستيعاب القرآني» قدرة هائلة على تخلص أي نسق من كيانات وقواعد تكون قد أدت دورها، واستنفذت مسوغات وجودها.

ففيه آليات عديدة تمكّن «المنهجية المعرفية القرآنية» من الاستيعاب، منها: صفة الكونية، والرؤية الكونية الشاملة. وبما تخرج الأنساق المغلقة من حالة الانغلاق والضيّق إلى سعة الدنيا والآخرة.

ووجود الثابت والمتغيّر في مستويات متنوّعة. والإيمان بوحدة البشريّة، والكون، والحقيقة. والانفتاح على العلم والعقل «بالجمع بين القراءتين» وبالاجتهد، فالكون مسخّر بسنن وقوانين معقولة من الممكن معرفتها والكشف عنها.

والإنسان مستخلف مخيّر وليس ورقة تحركها أقدار وحتميّات، وهو فاعل مختار. وصفة «العالمية»، وهي محدّد منهاجي آخر -تستلزم «الاستيعاب» و«التجاوز» فلولاها لما أمكن اتّصاف القرآن «بالعالمية» فبالإطلاق و«التصديق» و«الهيمنة» و«العالمية» مع «الاستيعاب» و«التجاوز» يفتح القرآن الكريم على سائر الأنساق الثقافية، والحضارية ليستوعبها ويتجاوزها فيحقق عالميته وكونيته.

فالعلاقة بين الحضارات والثقافات منذ فجر التاريخ تتراوح بين علاقات تصادم وعلاقات التقاء. وطبيعة الحضارة الغربية المعاصرة تحمل بذور الصراع الذي يؤدي غالبًا إلى التصادم؛ لأنّه -في نظرها- هو الذي يمنح «التقدّم» دماء الحياة وهو الذي يشحذ أسلحة «المنهج النقدي» ويجعلها فاعلة متحركة، أمّا الالتقاء بين الحضارات القائم على الحوار فإنّ شرطه ليكون مثمرًا ودافعًا «للتقدّم» أن يكون تفكيكيًا نقديًا يمارسه مجتمع مفتوح على كون مفتوح.

وأخطر ما يصيب البشرية أن تفقد «منهاج النقد المعرفي» -الذي يمكن أن يندرج تحت ما يعبر القرآن عنه «بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» أو هو أحد «مناهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فتوقف منهاج النقد يؤدي إلى غرور بعض الحضارات والثقافات بما هي عليه، واتخاذ نظراتها لنفسها مسلّمات بحيث تتوهم لنفسها الكمال فتستعلي، والتفوّق فتستبدّ، والاستغناء فتطغى. وقد ينسحق الآخرون أمامها فيسلّمون لها بذلك إحساساً بدونيّتهم، أو استسلاماً للمتغلّب، كما يقال.

وقلّة «المناهج النقدية» الفاعلة لها أدت إلى انغلاقها على ذاتها واستعلائها وغرورها ثم استبدادها، إنّ القرآن المجيد -بعد أن يستوعب تراث الحضارات، وينقده يقوم بتجاوزه: ﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 134)، هنا ينقل القرآن البشرية من نموذج إلى آخر، ومن نسق قياسي إلى آخر؛ وهو حين يمارس نقده وتفكيكه فيما سبق يوضح ضرورة التمييز بين مناهج ومقاييس ومعايير محاكمة الأنساق الثقافية والحضارية، وينبّه إلى «ضرورة التعددية المنهجية» المستعملة في ذلك، فيحاكم تلك الأنساق بالنسبة لظروفها والتحديات التي واجهتها. وبذلك يكون في غاية الاستقامة والعدالة في تقويماته ونقده، وميز ما يستوعب وما لا يستوعب من قواعد وكماليّات تلك الأنساق.

فهو لا يؤدي إلى قيام فلسفة: «كلّما ذهب أمة أو دخلت أمة لعنت أختها» بل لا يسمح نسقه بذلك، كيف وهو قد أمر بالقراءة القلمية. وعدّ تراث الإنسانية -كلّه- تراثاً عليه أن يصدق عليه ويهيمن.

إنّ الإنسان الغربيّ الذي تحقّق على يديه الإنجاز الحضاريّ المعاصر أعطى لنفسه الحق في أن يفرض طريق (التقدم) الأوحّد الذي أفرزته ثوراته العقلية والعلمية على البشرية -كلّها- طوعاً أو كرهاً، وجعله أساساً أيديولوجياً للحركة الاستعمارية. ومفكرو الحضارة الغربية لحد اليوم يناقشون واجب (الدولة المتقدمة) أو حقّها في الأقل في فرض وصايتها على الدول

المتخلفة، لإخراجها ولو بالقوة من حالة التخلف واللامدنية الديمقراطية. بل إنَّ الأساس الأيديولوجي الذي سَوَّغوا به عملية احتلال العراق وتفكيكه كان هذا - في نظرهم - جزءاً من حق الدولة الحاملة للشعلة الحضارية في أن تفرض ما تظن أنه قد يؤدي إلى التقدم والديمقراطية. ولو قبل إنضاج الوعي على الديمقراطية، وقبل إقامة أي من مؤسَّساتها وبعد إبادة مئات الألوف من ذلك الشعب.

أمَّا (المنهج القرآني) في الاستيعاب فإنَّه يحدّد مواطن الانحراف والباطل والخطأ، ويفتح الطرق لتصويبها، ويستحيي في الإنسان قدرته وإرادته وفاعليته للقيام بذلك التصويب.

إنَّ الحائط الإسرائيليّ اليوم -الذي يدور الجدل حوله- قد بني - قبله- حائط عقائديّ وأيديولوجيّ جعل منه تعبيراً صارخاً عن أيديولوجيّة المجتمع المغلق العاجز عن الاستيعاب، والرّدّة الأمريكيّة باحتلال بلاد الآخرين بدلاً من عرض التجربة عليهم في مشاريع سلميّة تنويريّة تمثّل انكفاءً نحو المجتمع المغلق، الذي لا يرى في الآخرين أكثر من حيوانات تجارب.

وكذلك تلك الأصوات التي تتعالى في أمريكا وأوروبا بخطر الهجرة والمهاجرين وضرورة تغيير تلك القوانين المتساهلة في الهجرة ما هي إلا دعوة لتكريس النسق المغلق، وإعلان لفشل تلك الأنساق وعجزها عن الاستيعاب والانكفاء على الذات. والبحث عن وسائل لتكريس النزعات القائمة على المركزيّة، وتكريس ثنائيّة «الذات والآخر» مما يفتح الباب واسعاً لإنماء عوامل الصراع، وتقليل فرص السلام بين البشر. وتبدو الأرض آنذاك غير كافية لأهلها، وتبدو مواردها قاصرة عن تلبية حاجات سكّانها: فيعمد القادة والمفكرون الضالُّون إلى التفتيش عن تلك المخاوف وتكريسها، والتشريع لها.

المدخل الرابع والعشرون: مدخل الاستيعاب والتجاوز:

وحين ينظر المجتهد في مرحلة "الاستيعاب" -وحدها - ويقف عندها؛ قد لا يرى الحبل الذي يشدّ الخطاب إلى مرحلة "التجاوز"، وبالتالي فقد يتوهّم أنّ النص قد وقف عند مرحلة

"الاستيعاب"، إننا ننظر إلى الجبال فنحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (النمل: 88).

المدخل الخامس والعشرون: مدخل البحث عن الكلّي والجزئيّ: وهكذا يتضح أنّ الخطاب القرآنيّ لا يسكن الجزئيّ ولا ينشأ به، إنّه يمر عليه بمقدار ما يلقي ضوءاً بين يدي المجتهد أو التالي أو القائم بالقراءة والتلاوة "حقّ التلاوة" يساعده علي فهمه، ثم ينطلق إلى غايته الممتدة إلى يوم الدين وهناك خصائص قرآنيّة أخرى عديدة لا بد للتالي من تتبعها، والعناية بها، واستحضارها على الدوام.

1. "المعرفة هي المعرفة بالكلّي" كما يرى أرسطو، فلا علم يقينيّ إلا بالكلّي؛ لذا فقد عني منشئ علم المنطق بمبحث الكلّيّات، وأضحى من أهم مباحث المنطق بعد هذا، ومن أسباب أهميّته هو دوره الهام في تشكيل "الحد" أو التعريف، وهو أصل كل علم عند المنطقة، فالحد هو مفتاح الدخول لحقيقة الشيء والقبض على ماهيّته؛ لذا فقد فضلوا الحد دوماً وفضّلوه على التعريف بالمثل أو بالشبيه.

والحد كي يكون جامعاً ومانعاً وقادراً على تحديد ماهيّة الشيء وحقيقته، عليه أن يسبق بمعرفة بهذه الكلّيّات، هذا لأنّ الحد يتركب منها.

والكلّيّات خمسة: النوع والجنس والفصل والعرض العام والخاصّة، وكى يكون التعريف جامعاً مانعاً لا بد من أن يتكون من فصل قريب وجنس قريب، فلو أدركنا مثلاً تعريف الإنسان تعريفاً محدداً لماهيّته شاملاً مانعاً جامعاً، فإننا نركبه من الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان وهو "الحيوانيّة" ثم نخصص هذا الجنس، ونخرج منه ما ليس منه بإضافة فصل مميّز للإنسان وهو "النطق"، فيكون تعريف الإنسان بأنّه حيوان ناطق، وهذا ما يسمى بالحد التام، والتعريف يكون بالجنس القريب لا بالجنس البعيد "فلا يقال الإنسان جسد ناطق" — وهو ما يسمى عندهم حد ناقص "لأنّ الحيوانيّة أخص مما يقرب انطباقه على المعرف وشمولها لخصائصه، ويكون بالفصل لا

بالخاصّة ولا بالعرض فلا يقال الإنسان "حيوان كاتب" أو "حيوان ضاحك" -
ويسمى عندهم رسم تام-، هذا التحديد بالفصل والجنس يجعل الحد يخرج تمامًا ما
ليس من ماهيّة الإنسان ويجمع ما يعطيه إنسانيّته فيصير جامعًا مانعًا محصلاً لفهم
بماهيّة الإنسان محصلاً العلم بحقيقته.

الكلي والجزئي كمدخل لتدبر القرآن:

بهذا المعنى يصلح الكليّ والجزئيّ كمدخل جيد لتدبر القرآن، فندخل لتدبر القرآن متهيئين
للتفرقة بين الكليّ والجزئيّ، فهذا سيبعدنا عن أي خلط بين مقاصد القرآن، وسيجنبنا قلب
مرامه، فتحديد الكليّ في السور التي نتدبرها يعيننا على تحديد أبعاد السورة جيدًا وفهم دقيق
جزئياتها، وعند تدبر حتى الآيات نستطيع فهم مقاصدها ومدى كليّاتها أو انضواءها داخل
كليّات أخرى.

يقول أبو الوفا الكفوي في "الكليّات" للتفرقة بين الصيغ التي تعني الكليّ والتي لا تعنيه،
فيقول مثلاً: أنّ "كل" إذا دخلت على الجملة، تفيد الكليّة كليّة الأفراد في حالة دخولها على
النكرة فحسب، مثال قوله (تعالى): ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: 21)، أمّا
إذا دخلت على معرفة فإنّها تعني كليّة أجزاء المفرد، مثال قولنا: "كل الرجل" فإنّها تعني كليّة
رجولة الفرد، كما أنّ "كل" قد تأتي ولا تعني الكليّة والاستغراق بل فقط التكرير والمبالغة
مثال قوله (تعالى): ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ (يونس: 22).

ونستطيع عبر تدبر القرآن عبر هذا المدخل أن نتبيّن هذه الفروقات الطفيفة، والوصول لمعرفة
الكليّ والجزئيّ فيما نتدبر، وتحديد معنى الكليّ داخل الآية، وتحديد كليّات سورة ما، وربما
التدرج حتى الوصول للكليّات في مجموعة من السور، ثم الكليّات في القرآن.

علينا أيضاً التنبيه لكون هذا المنهج المنطقيّ ربما يكون ضيقاً بعض الشيء في تعريف ما يعرفه؛
لذا فالقرآن أوسع كثيراً في تحديد كليّاته من هذه المبادئ البشريّة، فيستخدم القرآن في تقرير
الكليّ أو في التعريف بالأشياء ضرب الأمثلة والتقريب للأذهان، وبالطبع ليس هذا قلة في

البرهانية، بل شمول وعموم وتجاوز لضيقها ومراعاة لمخاطب أشمل وأوسع من المنطق، ولا يصلح معان وصور يصعب حصرها في المنطق، من أمثلة هذا:

(1) القرآن حين يعبر عن كلمات الله، لا يقوم بتعريفها وفقا للحد، فلا حد يحددها، بل يمثلها تعالى بالشبيه كي يقرها من أفهامنا ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: 109).

(2) كذلك في وصف الجنة، يقوم القرآن بالتعريف بها لا عبر الحد، حيث هي أيضًا لا يحددها حد، لكن عبر التمثيل والتعريف بالشبيه الذي نعرفه في دنيانا ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الواقعة: 15-24).

(3) كذلك قوله (تعالى) عن الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: 24-26).

والأمثلة في هذا كثيرة في القرآن الكريم الذي نزل للناس كافة بمعان لا يسعها منطق ولا لسان.

المدخل السادس والعشرون: مدخل نفي النسخ والتعارض بين الآيات:

وبعد البحث الشاق المضني في هذه القضية الخطيرة وصلنا إلى أنَّ القرآن كله من أول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: 2) حتى قوله (تعالى): ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾

(الناس:6) محكم كُله، لا ناسخ فيه ولا منسوخ، ثابت كُله، معصوم من الاختلاف كُله، وأنَّ كلَّ ما ادَّعى نسخه في هذا الكتاب -سواءً في ذلك ما ادَّعى نسخه بالكتاب نفسه أو ادَّعى نسخه بالسنة- أثبتنا بالأدلة الشرعية المعتمدة أنَّ دعاوى النسخ فيها لا تستقيم للبحث، وأنَّ تلك الدعاوى عارية عن الصحة، لا يمكن أن نجد لها أدلة معتبرة لا من الكتاب ولا من السنة النبوية، وأنَّ هناك ظروفًا مختلفة -قد أشرنا في ثنايا البحث إلى أهمَّها- قد أدت إلى هذا القول الخطير، وجرت إلى ادعاء وجود ناسخ ومنسوخ في القرآن الكريم، والقرآن من ذلك -كله براء.

ولعل من الأسباب التي حولت هذا القول الغثيث -القول بوجود ناسخ ومنسوخ في القرآن الكريم- إلى مسلمة من المسلمات -لدى الكاتبين في علوم القرآن وأصول الفقه- ذلك التساهل العجيب في قبول الروايات الضعيفة، وتداولها، والعناية بتناقضها، وإشهارها، ثم الحكم بها على القرآن القطعي المعصوم المحفوظ، وعلى بعض ما تواتر وما صح من السنة النبوية المطهرة لأسباب كثيرة -أشرنا لبعضها- ومنها قضايا الانتصار للفرق والمذاهب والمقالات والآراء، ومحاولة تعزيز كل فريق لما تبناه أو ذهب إليه من آراء ولو بضعيف الروايات، وسقيم النقول.

مفهوم النسخ في القرآن الكريم⁽¹³⁴⁾:

وردت مادة النسخ في القرآن المجيد في الآيات التالية:

1. ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 106).
2. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف: 154).

⁽¹³⁴⁾ انطلاقاً من إيماننا بأنَّ للقرآن لساناً تميّز به عن لغة العرب بمزايا عديدة تعرضنا لها في رسالة خاصة نشرتها مكتبة الشروق الدولية في القاهرة بعنوان "لسان القرآن" فإننا نؤثر أن نبدأ بمعرفة معنى أي مفهوم أو مصطلح قرآني من القرآن ذاته قبل أن نبحت عن المراد به في لسان العرب ولغاهم. كما جرت بذلك عادات الكاتبين في العلوم والمعارف الإسلامية.

3. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: 52).

4. قوله (تعالى): ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: 29).

• ومن هذه الآيات الكريمة يمكن أن يصاغ المفهوم؛ ويتضح المراد به، فأما قوله (تعالى) ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 106) فهي تعقيب على قصة بني إسرائيل التي بدأت السورة الكريمة بتناولها بدءاً من الآية (40) وكأنها بعد ذكر كل تلك التفاصيل عن انحرافات بني إسرائيل أرادت أن تبين أن هؤلاء الإسرائيليين بعد كل ما فعلوه من قتل الأنبياء، وتحريف كلمات الله، وإنكار نعم الله عليهم، ومواجهتها بكل ذلك النكران أصبحوا حالة ميؤساً منها لا يمكن أن تعتب، أو تتعظ، ولم يردعها شيء أو يردّها عن غيّها، فلم يغيّر منها رفع الجبل فوقها كأنه ظلّة، ولا تسليط أعدائهم عليهم من بابليين وبيزنطيين وسواهم، ولا وقوع "المسخ" فيهم، فلا بد من استبدالهم، ونسخ آيتهم، وإنساء البشرية تجربتهم، وتقديم بديل عنها في الخيريّة والوسطيّة يمكن أن يقوم بمهمة الشهادة على الناس، ويكون نموذجاً خيراً لبني آدم يتأسّون به، ويتجنّبون ما قد يقع فيه من أخطاء بتجنب ما وقعوا فيه، ويتنزهون عما سقطوا فيه من مخالفات.

فهم قد ضربت عليهم الذلّة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله. وقد تنكروا لبني الله عيسى —عليه السلام، وتأمروا عليه وأغروا الرومان بقتله —لولا أن نجّاه الله منهم— وافتخروا بما توهموه من قتله، فمحا الله آيتهم كما محا آية الليل، وجعل آية النهار مبصرة، وبين انتهاء مدّتهم وانتساخ آيتهم، والإتيان بخير منها، فإن لم يعترفوا بأفضليّتها وخيريتها على آيتهم فلا أقلّ من أن تكون مثلها مع البراءة من معائب فهمهم، وانحرافات تفسيراتهم، وما حرّفوه من رسالات أنبيائهم ورسولهم.

لقد جعل الله (تبارك وتعالى) الذين اتّبعوا عيسى —عليه السلام— وآمنوا برسالته فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وضرب على الكافرين به بالني الرسول الأمّي الذي جاء بعده،

وبشر عيسى به الذلّة والمسكنة، وعدم الفلاح والانتصار إلا انتصارات شكلية أو موهومة لا تقع إلا بحبل من الله لتأديب من يماثلونهم ويتابعونهم في ظلمهم وانحرافاتهم، أو حبل من الناس.

وصدق الله (تعالى) فالحبل الممدود لهم من الناس انحرافات قطاع كبير منا -نحن المسلمين-، وموالات بعضنا لهم وقدرتهم بمختلف الأساليب على استثمار قوى عالمية تقف إلى جانبهم في أزماتهم. وبذلك الانحراف الذي مارسوه استحق هؤلاء اليهود أن تنسخ آيتهم بآية الإسلام، وتسلم الراية إلى خير أمة أخرجت للناس وسطاً منهم، تقوم مقام الشهادة في الأمم كافة دون استعلاء عليهم، أو إلغاء لمزاياهم، أو ادعاء نبوة لله رب العالمين. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والسياق -كله- يقود إلى هذا المعنى وينبّه إليه. فالنسخ -هنا- إذن: بيان انتهاء مدة "بني إسرائيل" ونسخ النسق الذي قامت عليه أمتهم وآيتهم كما نسخت دولتهم، وهدم كيانهم وهيكلهم مرّات فلم يتعضوا ولم يرجعوا إلى صوابهم، واستمروا يعيشون في الأرض فساداً. فمعنى "النسخ" هنا بيان انتهاء مدّة الأمة اليهودية وآيتها واصطفائها، وتفضيلها على العالمين، واستبدالها بخير منها.

مفهوم الآية:

و"الآية" لها معانٍ عديدة، منها ما ذكرناه. وقد نبّه الراغب الأصفهاني في المفردات إلى ذلك.

فذكر معنى الآية وحقيقتها واشتقاقها، وذكر أهم أماكن ورود لفظها في القرآن المجيد مثل قوله (تعالى): ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء: 128) وقوله (جل شأنه): ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: 77) وذكر أنّ المراد بها -هنا- الآيات المعقولة التي تتفاوت بها المعرفة بحسب تفاوت منازل الناس في العلم. وانتقل إلى قوله (تعالى): ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾

(العنكبوت:49)، وقوله (سبحانه): ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف:105) ومن تلك الآيات القرون الأولى، والأمم السابقة التي أمرنا بالسير في الأرض والنظر في مصائرهما.

وقد جاءت كلمة "آية" في القرآن الكريم بالإنفراد وبالجمع؛ لأسباب ومعان يمكن للمتدبر أن يدرك بعضها من السياق والتناسب في النظم.

وقال (سبحانه): ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون:50) فكلاهما عبر القرآن عنهما "بآية" ولم يقل "آيتين" للإشارة إلى أن كلا منهما صار آية بالآخر. وقد وردت بصيغة الجمع في قوله (تعالى): ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء:59) فالآيات جمعت هنا لأنها تضمنت الإشارة إلى "الجراد والقمل والضفادع والدم" التي أرسلت إلى فرعون وقومه تخويفاً لهم، ولفناً لأنظارهم؛ ليؤمنوا بما جاءهم به أنبيأؤهم، وكثير من الأمم المتقدمة أرسلت إليهم مثل هذه الآيات لهذا الغرض، قال الراغب: "فنبه أن ذلك إنما يفعل بمن يفعله تخويفاً، وذلك أحسن المنازل للمأمورين، فإن الإنسان يتحرى فعل الخير لأحد ثلاثة أشياء: إما أن يتحرّاه لرغبة أو رهبة، وهو أدنى منزلة. وإما أن يتحرّاه لطلب محمّدة، وإما أن يتحرّاه للفضيلة، وهو أن يكون ذلك الشيء في نفسه فاضلاً، وذلك أشرف المنازل. فلما كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، كما قال (تعالى): ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:115) رفعهم عن هذه المنزلة، ونبّه أنه لا يعمهم بالعذاب لعله يريد "عذاب الاستئصال والإهلاك العام التامّ الشامل".

قلت: قد أعطى الله (تبارك وتعالى) أنبياء بني إسرائيل من الآيات ما جعل نسق رسالتهم وشريعتهم وتكوين أمتهم -كلّه- قائماً على الخوارق والآيات والمعجزات، وقد اصطفاهم (سبحانه) وفضلهم على العالمين ليكونوا آية للبشريّة تقتدي بها وتهتدي بهديها فانسلخوا من ذلك -كلّه- كما انسلخ منها الذي آتاه الله آياته. وأنعم على موسى -عليه السلام- وعليهم بتسع آيات بارزة ظاهرة تحدّى موسى بها فرعون وقومه، وجعلهم (جل شأنه) بذلك

الاصطفاء آية للعالمين، فضربوا عن ذكر ذلك -كله- صفحاً، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وعبدوا العجل، وافتروا على الله الكذب، وكانوا أسوأ مثل يمكن أن يقدم للبشريّة بغرورهم وتمردهم وانحرافاتهم، فكان لابد من طيّ صفحتهم، ونسخ نسقهم، واستبدالهم بمن هو خير منهم.

ومما ينبّه إلى أنّ ذلك هو المراد أنّ الآية (102) ذكرت اتّباعهم للشياطين فيما كانت تتلوه على ملك سليمان بعد كل ما جاءهم الأنبياء به من الهدى. فنّبّه القرآن المجيد المؤمنين إلى أنّ الأمة الوارثة⁽¹³⁵⁾ سوف تواجه من هؤلاء الذين سوف تكون بديلاً عنهم بكثير من الدس والحقد والحسد والبغي، والتآمر بطبيعتهم المنحرفة وكراهيتهم أن ينزل أيّ خير من الله على أيّ أحد سواهم، فهم ينطلقون من أنّهم أبناء الله وأحباؤه، وأنّ الله (تبارك وتعالى) لهم وليسوا هم عبداً له. وبعد ذلك التحذير يعلن الله (تعالى) نسخ آيتهم وطيّ صفحتهم في الآية (106): ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ثم يبيّن -ذلك كله- (جل شأنه) في الآية التالية لها: أنّ له ملك السموات والأرض، فله الحق -كله-.

والحكمة -كلّها إذن- في أن يستبدل أمة بأمة بناءً على السنّة الإلهيّة الثابتة "سنّة الاستبدال" ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: 38).

وتأتي الآية التالية لها (108) لتحذر المسلمين من فعل مثل ما فعلوا، كأن يسألوا رسولهم مثل ما سأل أولئك موسى من قبل.

ويكون التعبير بالنسخ للدلالة على أنّ هذا النسق القائم على الاصطفاء والخوارق في العطاء والعقاب، والارتباط بأرض مقدّسة وحاكميّة إلهيّة لن يعود أبداً؛ لأنّ التوبة بالنسبة لليهود تتوقف على اعترافهم ببطلان نسقهم، والإيمان برسالة سيدنا عيسى ونبوّته، والكتاب الذي

⁽¹³⁵⁾ إشارة إلى قوله (تعالى): {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (فاطر: 31-32).

أنزل عليه، وطهارة أمه الصديقة، وشم الإيمان بمحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ونبوته ورسالته، والقرآن الذي أنزل الله عليه. وأنداك يدخلون النسق الإسلامي الإبراهيمي والحنيفية السمحاء. أمّا قوله (تعالى): ﴿.. أَوْ مِثْلَهَا ..﴾ (البقرة: 106) أي مثلها في النشأة والتكوين، وإلا فإن الحكمة تنتفي من نسخ المثل بالمثل، أو الشبيه بالشبيه. والله أعلم.

• وأمّا قوله (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ (الحج: 52 - 55) فهذه الآيات قد دلت -بوضوح- على أن الشيطان يلقي في أمانى الرسل والأنبياء ما يلقيه وأن الله (جل شأنه) ينسخ ما يلقي الشيطان، ويذهب آثاره، ويبطل شبهاته، ثم يحكم آياته بعد نسخ ذلك الذي ألقاه الشيطان ... وحين تتلى السورة في "وحدتها البنائية" نجد أن السورة من حيث مكان النزول من السور القلائل التي امتزج المكي والمدني فيها امتزاجا من الصعب أن يميز معه المكي منها من المدني، ولذلك أطلقوا عليها من هذه الناحية أنها "مختلطة".

وهناك أقوال أخرى كثيرة في موضوع نزولها، لكن الذي يستفاد من كل ذلك أنها نزلت في نجوم مفرقة، وربما متباعدة، ثم أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بضم تلك النجوم في هذه السورة وإعطائها هذا العنوان الذي لم يطلق عليها غيره "الحج" لأن فيها أصل الحج، وبيان كونه من إرث إبراهيم -عليه السلام- وتراثه، وتأكيد العلاقة بين ما جاء إبراهيم به وبين خاتم النبيين ورسالته.

وكذلك التأكيد على القضية المشتركة الكبرى في رسالات النبيين والمرسلين كافة، وهي القيامة والبعث والنشور والجزاء والاستدلال عليها بكل الأدلة التي من شأنها أن تقنع الإنسان -لو

كان محايداً، وبعيداً عن المؤثرات الشيطانية خاصة - بصحة ذلك كله. لكن وساوس الشيطان قد تؤثر على أولياء الشيطان، وقد تفتن مرضى القلوب، والذين أصيبت قلوبهم بالقسوة، وتحوّلهم إلى حالة الشقاق والنزاع والخلاف مع الأنبياء. وأنداك يشعر النبي أو الرسول بالحسرة والألم على بعض قومه الذين اجتالتهم الشياطين، فيتلطّف الخالق (سبحانه) به فينزل عليه نحو قوله (تعالى): ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: ١)، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: 6)، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 3) وفي الوقت - نفسه - تأتي آيات أخرى للتأكيد على الرسل والأنبياء بأن لا تحملهم "أمنيّاتهم" بأن تؤمن أهمهم بهم على تجاوز "منهج التبليغ" ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى: 49) ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية: 27) ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ (ق: 45) ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: 29). لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بدعاً من الرسل فقد كان (عليه الصلاة والسلام) يتمنّى لو أسلم العرب - كلهم أجمعون - وكثيراً ما أبدى تحسّره على رفض قريش خاصة وغيرها عامّة لدعوته.

وحين جاء قادة قريش انصرف (عليه الصلاة والسلام) عن ابن أم مكتوم وأقبل على قادة قريش متمنياً أن يكون ذلك وسيلة لإقناعهم بقبول دعوته. وأنزل الله (تعالى) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ (عبس: 1-2) يعاتبه على ذلك!!

ومع ذلك فإنّ كثيراً من المفسّرين زعموا - متأثرين بالروايات الإسرائيلية - أنّ "الأمنيّة" تعني فيما تعنيه "التلاوة والقراءة" وحكموا بأنّ المراد بها - هنا - هو هذا المعنى استدلالاً ببيت ركيك مختلف في صحة نسبته إلى حسّان بن ثابت هو:

تمنّى كتاب الله أوّل ليلة تمنّى داود الزبور على مهل

وقالوا: إنّه أراد بـ "تمنّى" قرأ.

وقد تبع المفسرين اللغويون حتى صار هذا المعنى البعيد مشهوراً ليخرجوا عليه -بعد ذلك- خرافة "الغرائق العلى" التي زعموا أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قرأ بها وهو يتلو: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ (النجم: 19-20)، هنا تدخل الشيطان وألقى على لسان رسول الله -حسب زعمهم- وفي قراءته -صلى الله عليه وآله وسلم- مقالة الكفر "تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى" قالوا -وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -: فلما بلغ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- السجدة في آخر السورة سجد وسجد معه جميع من حضر من المسلمين والمشركين، وتسامع الناس بأن قريشاً أسلموا حتى شاع ذلك في بلاد الحبشة، فرجع من مهاجرة الحبشة قوم، منهم عثمان بن عفان إلى المدينة. وأنَّ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يشعر بأنَّ الشيطان ألقى على لسانه المعصوم ذلك، فلما أخبره جبريل بذلك أصابه غم شديد فأنزل الله (تعالى) هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: 52). تسلياً له، وتخفيفاً عنه وليعلم أنَّ كل من سبقه من النبيين والمرسلين حدث لهم مثل ما حدث له، وهو لم يكن بدعاً منهم في ذلك!!.

وسمات الاختلاق والكذب على هذه القصة واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى كبير عناء لتكشف. فكل رواياتها واهية الأسانيد، وليس في أيٍّ من أسانيد سماع صحابيٍّ لشيء من ذلك في أيٍّ مجلس للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فضلاً عن أن يتحمَّل أيٌّ منهم شيئاً يروى.

وهذه الروايات مما يجب ردها ورفضها بما هو معلوم من الدين بالضرورة من عصمة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وأنه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النجم: 3) فضلاً عن أن ينطق بلسان الشيطان. وأين هؤلاء الذين رَوَّجوا لهذه الروايات السخيفة من تكفُّل الله "بمحفظ القرآن" بنفسه؟: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9) وعصمته لنيبه ولسائر أنبيائه ورسله!!.

وقد نقل الطيبي في شرحه على الكشف للزمخشري: أنَّ هذه الزيادة الشيطانية وضعها ابن الزبيري المشرك الذي كان يحاول الدس على القرآن ومعارضة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- باستمرار وهذا هو الأليق بمثل هذا التخريف المتناقض الذي ينقض آخره ما جاء في أوله.

وحين نرجع إلى دواوين اللغة لا نجد معنى "القراءة" باعتباره أحد معاني "التمني" إلا فيما نقلوه عن المفسرين مستدلّين ببيت حسان بن ثابت الذي يوردونه أحياناً في مدحه لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ويوردونه أحياناً في رثائه لعثمان -رضي الله عنه-:

تمنى كتاب الله أول ليلة

وأخره لاقى حمام المقادر

وهذا لا يصلح لإثبات هذا المعنى الغريب لهذه الكلمة على افتراض صحة البيت، وصحة صدوره عن حسان.

وعلى فرض صحة ذلك فإنه يشير إلى أنَّ عثمان -رضي الله عنه- كان يتمنى أن يقرأ كتاب الله - كما اعتاد - لكنَّ شغب محاصريه، ومهاجمتهم له لم يعطه فرصة لتحقيق أمنّيته، وفي آخر الليل قتلوه.

أمّا قوله: ﴿.. فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ..﴾ (الحج: 52) فذلك أنَّ الله (تعالى) يزيل ويبطل ما يلقي الشيطان من طريق القرآن، وتأثيره في القلوب ويحكم آياته ويشبّتها في تلك القلوب المؤمنة المخبّئة التي لن يكون لوساوس الشيطان أثر فيها أو عليها -بعد ذلك- وهذا المعنى أدعى لاستيعاب "النسخ" ورفض نسبته إلى أيّ شيء من القرآن بحجّة جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً، لأنّه يجعل المنسوخ في هذه الآية مما يلقي الشيطان، لا من آيات الله ولا من سنة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي هذا ما فيه أو كفى بذلك صارفاً عن قبول "النسخ" أو القول به.

• وأما قوله (تعالى): ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ أَنَا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: 29) هذه الآية بمعنى نقيّد ونكتب ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف: 80) فنريكم يوم القيامة في كتاب تلقونه منشورًا قيدًا بكل ما فعلتم بحيث لا يسعكم نفي ولا إنكار. أمّا نسخ الكتب وإثبات مثل ما فيها لتكون نسخة أي: "ثبتًا" لا تغيير ولا تبديل فيه.

ومن معاني "النسخ": الكتابة سواء أكانت عن أصل يراد كتابة مثله. أو نسخ الأصل ابتداءً، ولعل منه قوله (تعالى) ﴿وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف: 154).

وتلك المعاني التي جاءت في كتاب الله (تعالى) هي التي ينبغي أن تكون الأصل الذي يقاس به سواه. أمّا ما أورده اللغويون متأثرًا وممتزجًا بالمعاني الاصطلاحية لدى الأصوليين، وما قرره الأصوليون في هذا المفهوم تبعًا للغويين، فإنّه قد تمت صياغة تلك المعاني وإشاعتها بعد أن أبرزوا المعنى الذي بنوه على قبول فكرة "النسخ" التي كانت قد شاعت وانتشرت في جيل الفقه، وحملوا عليها كل ما استعمل من هذه المادّة، وامتد بها الذين توسّعوا في هذا المفهوم حتى كاد يصبح مرادفًا لمصطلحي "التفسير والتأويل" حيث استعملوه في تقييد المطلق، وتخصيص العام، وبيان الحمل، وتوضيح المبهم، فذلك -كلّه- قد يطلق البعض عليه مصطلح "النسخ". والله أعلم وكل تلك المعاني المضافة إلى هذا المصطلح قابلة للنظر.

وإذا اتضح ما تقدم فإنّه يمكن القول بأنّ جميع الآيات التي وردت مادة "نسخ" فيها لا يراد بها تلك المعاني التي ذهب الأصوليون والمفسّرون واللغويون إليها بناءً على ما سبق إلى الأذهان واستقر فيها من معان اصطلاحية: (رفع حكم بحكم، أو إبطال حكم متقدّم بمتأخّر، أو بيان انتهاء مدة حكم) وما إلى ذلك.

وقد رأينا كيف تكلف البعض تحميل كلمة "تمنّى" معنى لا علاقة له بكل اشتقاقات الكلمة وهو "القراءة والتلاوة" ليؤسّسوا عليها الفرية الصلحاء فرية "الغرائق" وذلك يجعل من الضروري إدراج اللّغة بين المعارف التي لا بد لنا من مراجعتها إضافة إلى ما ذكرنا.

ومما حمل الناس على ركوب متن هذه العمياء؟

ما نبه إليه الشيخ محمود شلتوت -يرحمه الله- حين قال: "...لما ظهرت بدعة الفرق والتطاحن المذهبي، والتشاحن الطائفي، وأخذ أرباب المذاهب، وحاملو رايات الفرق المختلفة، يتنافسون في العصبيّات المذهبيّة والسياسيّة، وامتدت أيديهم إلى القرآن، فأخذوا يوجهون العقول في فهمه وجهات تتفق وما يريدون، وبذلك تعقّدت وجهات النظر في القرآن، واختلّفت مسالك الناس في فهمه وتفسيره، وظهرت في أثناء ذلك ظاهرة خطيرة، هي تفسير القرآن بالروايات الغربية، والإسرائيليّات الموضوعة التي تلقفها الرواة من أهل الكتاب، وجعلوها بياناً لحمل القرآن وتفصيلاً لآياته، ومنهم من عني بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصّة، وبذلك وجدت تحكّكات الفقهاء والمتكلّمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروّجون لمذاهبهم، ويستبيحون في سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن، فأصبحنا نرى من يؤوّل الآيات لتوافق مذهب فلان، ومن يخرجها عن بياها الواضح، وغرضها المسوقة له، لكيلا تصلح لمذهب فلان، وبهذا أصبح القرآن تابِعاً بعد أن كان متبوعاً، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً!

كانت هذه ثورة! ثورة غير منظّمة، عقدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية، وكان من سوء الحظ أن صادفت الثورة عهد التدوين، فحفظ رجال التدوين ودونوا كثيراً من الآراء الباطلة في بطون الكتب، وأخذت بحكم الأقدميّة ومرور الزمن نوعاً من القداسة والتوثيق والعناية التي يخضع لها الناس، فتلقاها المسلمون في عصور الضعف الفكريّ، والانحلال السياسيّ قضايا مسلّمة، وعقائد موروثة توهم البعض أنّه لا يسوغ لهم التحلّل منها ولا تجاوزها ولا التشكيك فيها.

قيّد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلاميّ فيما يختص بفهم القرآن، والانتفاع بهداية القرآن، فحمد الناس على تداول هذه الكتب واتخذوها حكماً بينهم، واعتقدوا جملة ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل، ونافع وضار، واعتقدوا أنّه ليس لمؤمن

أن ينكر شيئاً منها، أو يتجاوزها وقالوا: هذا شيء درج عليه السابقون المتقدمون ودونوه في كتبهم، وشرحوا به كتاب الله، وتلقته الأئمة بالقبول، وما كان لنا أن نتجاهله، أو نتجاوزها — ولسنا بأعلم بالدين، ولا بأبعد نظرًا في فهم أساليب القرآن، وتخريج الأحكام — فلا ينبغي لنا أن نحيد عما تلقيناه عن الماضين قيد شعرة، ولا أن نخالفه في قليل ولا كثير، وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير، وجنوا على دينهم باعتقاد كون هذه الأوهام من الدين أو من العلم الإسلامي، وقعدوا عن النظر في القرآن، وامتألت أذهانهم بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة، وما يحل وما يحرم، وصار كثير من المسلمين يعتقد أنّ الحلال ما أحلّه فلان في كتاب كذا، وأنّ الحرام ما حرّمه فلان في كتاب كذا، بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول: إنّ هذا الشيء ثابت في القرآن لأنّ فلانًا أو فلانًا حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم وبذلك جعلوا القرآن تابعًا لعلم الرجال بدلًا من أن يكون علم الرجال دائرًا مع القرآن حيث دار.

لقد صار من المؤلف لكثيرين أن ينشئوا مواقف أو يتبنوا آراء وأفكارًا يستندون فيها إلى سنن سبق إلى الأذهان وصولها واستقرارها، واجتهادات توصّل من توصّل إليها بمختلف المناهج، ومتنوع الوسائل، فإذا أنزل "الخطاب القرآني" بعد ذلك حملوه على تلك المسلّمات والثقافات الموروثة التي سكنت عقولهم من قبل. وحين شاعت الروايات في "جيل الرواية" حملوا القرآن على ذلك الفهم الذي استقر لديهم من معاني تلك الروايات، فإن وجدوا تعارضًا بينه وبين ذلك المستقر في الأذهان لجأوا إلى التأويلات المختلفة، ومنها القول "بالنسخ"، للخروج من ذلك التعارض يقول الفراهي: "فالحديث لم يزد شيئًا على القرآن، لكن خرج من الآية شيئًا غامضًا يكاد يخفى على من لا يتدبّر..".

ثم يقول: "... ولكن هاهنا منزلة.. وذلك أنّك قبل أن تفهم القرآن تنهافت على الحديث وفيه صحيح وسقيم، فيعلق بقلبك من الآراء ما ليس له في القرآن أصل، وربما يخالف هدي القرآن فتأخذ في تأويل القرآن إلى الحديث، ويلبّس عليك الحق بالباطل: فالسبيل السويّ أن تعلّم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك، ثم — بعد ذلك — تنظر في الأحاديث فإن وجدت ما

كان شاردًا عن القرآن حسب بادئ النظر أولته إلى كلام الله فقرت عينك، وإن أعياءك فتوقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن، وقد أمرنا أولاً وآخرًا بإطاعة الله ثم بإطاعة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا شك أن الأمرين واحد (أي من حيث وجوب الطاعة، ولكن أمر الله مقدّم على أمر رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم))^(*) فإن لم يرد الله أن يقدم كلامه على ما روي عن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - فماذا أراد بهذا الحكم؟⁽¹³⁶⁾

النسخ بين المصطلح والنظرية:

إنّ هذا التنوع في معنى "النسخ" قد يفرض على الباحث - مسبقًا - أن يدرك أنّه أمام "نظرية" كاملة، لا أمام مصطلح فقط، والفرق بينهما كبير جدًا: فالنظرية تستوعب المصطلحات والمفاهيم، بل وكما كبيرًا من المعارف في بعض الأحيان لتكون إطارًا معرفيًا يثبت ببرهان من ناحية، ويكون مرجعًا في تفسير مجموعة كبيرة أو صغيرة من القضايا العلمية أو الفنية التي لولا تلك النظرية لبقيت تلك القضايا غامضة أو غير مفهومة⁽¹³⁷⁾، ولا شك أننا أمام ما يمكن أن نطلق عليه "نظرية النسخ"، إذ إنّ ما سنذكره عن "النسخ" وتعدد المعاني التي يطلق عليها ينبّه إلى أنّها نظرية كاملة، لا مجرد مصطلح أو مفهوم: "فالنظرية قضية تثبت ببرهان، وهي - عند الفلاسفة - تركيب عقليّ، مؤلّف من تصورات منسقة، تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ"⁽¹³⁸⁾، والنسخ قضية أثبتتها القائلون بها بأدلة دلت - بحسب اجتهادهم -

*

⁽¹³⁶⁾ رسائل المعلم عبد الحميد الفراهي في علوم القرآن ص (225). ط ونشر المكتبة الإصلاحية في "عليكر" الهند. لعله يريد تقديم أمر الله ما إذا لم يرد أمر رسول الله على ذات مورد القرآن وهذا ما لم يحدث عند التحقيق.
⁽¹³⁷⁾ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1994.

⁽¹³⁸⁾ فإذا أطلقت النظرية على ما يقابل الممارسة العلمية في مجال الواقع دلت على المعرفة الخالية من الغرض، المتجردة من التطبيقات العلمية. - وإذا أطلقت على ما يقابل العمل في المجال المعياري دلت على ما يتقوّم به معنى الحق المحض أو الخير المثالي المتميز عن الالتزامات التي يعترف بها جمهور الناس.
- وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة العامة دلت على ما هو موضوع تصور منهجيّ منظم ومتناسق تابع في صورته لبعض الموضوعات العلمية التي يجهلها عامة الناس.

عليها، وبرهنت على صحتها بقطع النظر عن تحقق تلك الصحة في الواقع ونفس الأمر من عدم تحققها.

منشأ النظرية:

ومادما قد تواضعنا على اعتبار النسخ "نظرية" فيمكننا القول: إنَّ "نظرية النسخ" نشأت لتواجه الفكرة القائلة بإمكان وقوع التعارض بين نصوص الشارع الحكيم أو التعادل، بحيث لا يمكن أن يرتفع ذلك التعارض أو التضاد أو التعادل في ذهن المجتهد بدون التخلُّص من أحد النصَّين بالحكم بإبطاله، أو إزالته، أو رفعه، أو بيان انتهاء مدَّته، أو تبديله أو تغييره، أو تحويله أو إدالته. المهم أن لا يبقى إلا أحد الدليلين -أي المتأخَّر منهما- معمولاً به. وهنا يصبح السبيل الوحيد لتعيين ما هو ناسخ وما هو منسوخ الزمن -وحده- فالتأخُّر الزمانيُّ كاف لجعل النصَّ المتأخَّر -الذي قامت نسبة أو علاقة التناقض أو التنافي أو التضاد أو الممانعة أو التعادل أو التعارض بينه وبين الدليل المتقدم- في نظر المجتهد- ناسخاً للمتقدم بقطع النظر عن أيِّ اعتبار آخر، وهنا يصير التأخُّر الزمانيُّ ميزة هائلة، ويكون التقدم الزمانيُّ عبئاً يكفي لإبطال مفعول النصَّ وإزالة أثره وتبديله وتغييره. وتسأل أين موقع المنظومة الفكرية للنسق الإسلاميِّ كله من هذه القضية؟ وأين موقع "النظام المعرفيِّ الإسلاميِّ" والكليَّات الإسلامية، والنماذج المعرفية، والمقاصد والغايات والمناهج؛ ولم لم يستحضر المجتهد ذلك -كله أو بعضه- لإزاله ما بدا له، أو خطر في ذهنه بدلاً من تحميل النصوص أزمته؟ ولم اختار أن يختفي كل ذلك اختفاء النصَّ المنسوخ، ما دام التعارض قد قام في ذهن الفقيه

- وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة اليقينية دلَّت على رأى أحد العلماء أو الفلاسفة في بعض المسائل الأخلاقية، مثال ذلك "نظرية الخطأ والصواب" عند ديكرت.

- وإذا أطلقت على ما يقابل الحقائق العلمية الجزئية دلَّت على تركيب عقليِّ واسع، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر، ويقبله أكثر العلماء في وقته من جهة ما هو فرضية قريبة من الحقيقة، مثال ذلك نظرية الذرة ولعل هذا المعنى الأخير هو أقرب معاني "النظرية" إلى ما نحن فيه من قضية "النسخ" التي أسس لها الأصوليون وعلماء القرآن للاستعانة بها في تفسير ما يروونه متعارضاً -من وجهة نظرهم- من نصوص وأدلة شرعية، لأسباب مختلفة لا نجد عند إتمام النظر شيئاً منها يعود إلى النصوص -في الحقيقة- لأنها جميعاً تعود إلى منهج المجتهد في النظر إلى الأدلة، وزاوية رؤيته.

انظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1994، 478-477/2.

أو المجتهد وفي إطار أدوات فهمه اللغوية المحدودة ومنطقه الأرسطيّ، والجواب: أنّ فهم النسخ " بذلك المعنى قد استقر في الأذهان مبكراً، وصار من المسلّمات المتعارف عليها بين المجتهدين. باعتباره أداة لحل ذلك الإشكال المنهجيّ. ولم يلتفت كثير من أهل العلم إلى أنّ ذلك الذي أنكروه ليكون حلاً سيصبح إشكالية كبيرة سوف تنال من سلامة نصوص قطعية ثابتة.

الطرق التي يعرف بها النسخ عند القائلين بها:

مما عرضنا قد يبدو "النسخ" -في غالبية- وسيلة ونظرية ابتكرها المجتهدون لمعالجة قصور في مناهج النظر والتفسير يجعل الفقيه يرى في بعض النصوص تعارضاً أو تضاداً أو تناقضاً لا يرى له حلاً إلا بإلغاء أثر أحد النص. وإذا أخذنا الأمر بهذا الإطلاق فقد يفهم منه اتهام الفقيه بالتحكم الذاتي بالنص، وذلك بدلاً من اتخاذ النص حاكماً. وهذا فيه نظر. ولذلك فإنّ الفقيه قد احتاط لدفع مثل هذا التصور الذي قد يؤدي إلى اتهامه بالتحكم في النصّ برؤية ذاتية فحدد الطرق التي بها يستطيع الفقيه أن يعرف كون النسخ ناسخاً، وكون المنسوخ منسوخاً من خارج ذاته، لئلا يتهم بأنه قد تصرف في نصّ أو خطاب إلهي أو حديث نبويّ تصرفاً قائماً على الموقف الذاتي لا غير، فذكر الأصوليين هذه الطرق والإعلان عن الالتزام بها قد ينفي هذه التهمة من ناحية، كما أنّه قد يكون بمثابة المنهج الضابط الذي يحمي النصوص من الإسراف في أعمال "نظرية النسخ" فيها دون ضوابط فذكروا ضابطين:

الضابط الأول: النصّ ذاته؛ وذلك بأن يرد نص من الشارع يقول: "هذا النصّ منسوخ بهذا"، أو يقول: هذا النصّ ناسخ لذلك⁽¹³⁹⁾، ولم يذكر لنا أحد من الأصوليين أو علماء القرآن مثلاً واحداً -في سائر ما اطلعنا عليه من مصادر- علي وجود هذا النوع في القرآن المجيد.

⁽¹³⁹⁾ انظر المحصول بتحقيقنا ط. مؤسسة الرسالة -لبنان- (377/3).

الضابط الثاني: وهو ما لم ينصَّ الشارع فيه علي وقوع النسخ به أو عليه نصًّا، بل يأتي الشارع (تبارك وتعالى) أو رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- بنقيض حكم الأول أو بضده مع العلم بالتاريخ، وقد مثلوا للنقيض بقوله (تعالى): ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ (الأنفال: 65) فإنه عندهم نسخ للأمر بثبات الواحد من المسلمين للعشرة قالوا: لأنَّ التخفيف نفي للثقل المذكور في الأمر بثبات الواحد للعشرة من الأعداء.

ومثلوا للضد "بتحويل القبلة" عن بيت المقدس إلى الكعبة والبيت الحرام، فالأمر باستقبال الكعبة ضدَّ التوجُّه إلى بيت المقدس عندهم.

وأما قضية التقدُّم والتأخُّر (أي معرفة تاريخ كل من النصَّين لتحديد الناسخ منهما والمنسوخ، فيمكن أن يعرف التاريخ بأن يقول الشارع: هذه الآية نزلت قبل هذه، أو يروى عن الصحابة قول لواحد أو أكثر دون التفات إلى كون ذلك الصحابيٍّ من كتاب الوحي، أو من أمهات المؤمنين أو من بقيَّة الصحابة: بأنَّ إحدى الآيتين وردت قبل الأخرى، وقد لا ينص الصحابيُّ على ذلك نصًّا، بل يأتي ذلك على واحد من أوجه ثلاثة:

1. أن يحدِّد الصحابي تاريخ ورود كل من الآيتين، بأن يقول: هذه الآية نزلت سنة كذا وتلك نزلت سنة كذا.

2. أن يعلِّق إحداها على واقعة أو زمان معلوم تقدُّمه، والآخر على واقعة أو زمان معلوم تأخُّره: كان يقول الصحابيُّ نزلت هذه في غزوة بدر، وتلك في أحد، أو قبل الهجرة، أو بعدها ونحو ذلك.

3. وفي الأحاديث أن يروي أحد الحديثين صحابيًّا متقدِّم الصحبة، ويروي الآخر صحابيًّا متأخِّر الصحبة، وانقطعت صحبة الأول بالموت أو غيره عند ابتداء صحبة الثاني.

وهذه الطرق ما عدا الأول الذي لا نعرف له مثلاً -كلها- قد تنفي الجانب الذاتي الذي يتعلق بوقوع التعارض في ذهن الفقيه، وأنَّ الفقيه يحاول الخروج من هذا التعارض القائم في ذهنه وفهمه بالحكم لواحد من النصَّين بأنَّه ناسخ، وعلي الثاني بأنَّه منسوخ. وأنَّ الفقيه

بذلك يخرج من دائرة الحاكم بالنص إلى منصب الحاكم عليه، ويتحوّل النص من متبوع يتبعه المحكوم عليه "الإنسان" سواء أكان مجتهداً أو مقلداً إلى تابع لفهم الفقيه الذي يحدّد للنص موقعه، ناسخاً أو منسوخاً؛ بحسب ما يصل إلى علمه من تاريخ النزول أو الورود؛ وذلك جانب واحد من الجوانب الخطيرة التي يكشف عنها الأخذ بـ "نظرية النسخ" كما هي في الإطار الذي قرره الكاتبون في علوم القرآن، وعلماء أصول الفقه كذلك.

كما أنّ من الواجب علينا أن ندرك أنّ القرآن الذي جمعه الله (تعالى) بين الدفتين وهو بين أيدينا -الآن- بعد أن انتهت حكمة التنجيم وتم تثبيتته في فؤاد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي ضمير الأمة، عارضه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- مع جبريل توقيفاً مرتين ليأخذ هذا الشكل الموجود، فنحن عندما نقرأ سورة الفاتحة باعتبارها أول سورة في الكتاب نعلم أنّ أول ما نزل هو الآيات الخمس الأولى من سورة "اقرأ" أو "العلق" فمعنى هذا أنّ القرآن قد أخذ صفة الإطلاق فأصبحت أسباب وتواريخ النزول مجرد أدوات يستأنس بها الفقيه -إن شاء- دون أن يكون ذلك عبئاً على النص، يؤثر فيه بناءً على عامل الزمن وكأنّ القائل "بالنسخ" يلغي صفة الإطلاق، والوحدة البنائية، وينسب الخطاب القرآني إلى نوع من التاريخانية التي تنافي العموم والشمول والإطلاق وهي بعض صفات هذا الكتاب الكريم.

إنّ أسباب النزول أدوات مساعدة على الفهم وليست حاكمة على الخطاب، وهذا لم يكن غائباً عن أذهان أئمة الأصول ولكنهم استخدموه في قضايا الأحكام ووضعو قاعدة بهذا المعنى وهي قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"⁽¹⁴⁰⁾ لكنهم لم يعطوها صفة العموم لتشمل كل القواعد الأصولية!!

(140) راجع هذه القاعدة وما قاله الأصوليون فيها شيئاً من تفرعاتهم عليه في المصنوع من علم أصول الفقه للإمام الرازي بتحقيقنا، ط مؤسسة الرسالة (511/2).

وإشكالية التعارض في ذهن المجتهد التي وضعت "نظرية النسخ" لمعالجتها، وإن صورت على أنها إشكالية في النصوص ذاتها، لكنها عند إنعام النظر تبدو ظاهرة في "فقه التنزيل" لدى الفقيه الذي يعبر عنها "بتحقيق المناط" أو معرفة كيفية "إعمال النص" وتنزيله على الواقع، وإعمال النص يدور بين فهم الفقيه للنص فهماً لا يتوقف على اللغة أو يبني عليها - وحدها- وبين قدرته على تنزيله على الواقع الذي لا بد له من فهمه فهماً دقيقاً لا يعتمد على اللغة -وحدها- بل عليها وعلى تركيبة المجتمع ونظم العلاقات في المجتمع والنظم السائدة فيه، والتقاليد والأعراف وما إليها. وتعدُّ اللغة واحداً من عشرات المعطيات ذات العلاقة بالواقع وهذا ما نسميه في عصرنا هذا "بتكليف الوقائع" بحيث ينزل النص التشريعي على واقع تمت الإحاطة بأبعاده ومتغيّراته ووقائعه وسائر مقوماته، أو بالأحرى يصاغ ذلك الواقع سؤالاً لينزل على الخطاب طلباً للجواب فإذا توافر للمجتهد ذلك فإنّ قسمًا كبيراً من الأدلة الجزئية التي يظن تعارضها سوف ينتفي "التعارض" عنها، أو "التعادل" كذلك ما دام المجتهد يتمتع بقدرة اجتهادية عالية على ربط النص به، وتنزيله عليه ولديه خبرة بالحدّات المنهجية لمنهجية القرآن المعرفية.

الأصل المعتمد في إثارة إشكالية النسخ

استدل عامة القائلين بجواز "النسخ" عقلاً ووقوعه شرعاً أنّه -عقلاً- لا يترتب عليه محال عقليّ. وأمّا الوقوع الشرعيّ فقد استدلوا عليه بآيتين كريمتين تم قطع كل منهما من سياقها لتكون شاهداً أو دليلاً على ذلك؛ الأولى مكيّة والأخرى مدنيّة، فالمكيّة تقع في سورة "النحل" بين هذه الآيات ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ

بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿النحل: 97-105﴾.

والآية موضع الاستدلال هي الآية (101) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولفظ "آية" في هذه الآية لا يمكن أن يصرف - بدون كثير من التعسف - عن معنى "الوحدة الأساسية" في القرآن أو الجملة القرآنية، أعنى الآية القرآنية بمعناها المعروف لوجود القرينة الدالة على ذلك، وهي قوله (تعالى): ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ كما يعزّز هذا قوله (تعالى) في سورة يونس ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: 15-16). فالآية " (101) من سورة النحل " تفسرها آية سورة يونس. وآية سورة النحل هي من أهم أدلة القائلين بالنسخ، أو هي أهمها بإطلاق، إن لم تكن الدليل الوحيد الذي للاستدلال به على المدعى ما يسوغه. وسنناقش بمزيد من التفصيل وجه استدلالهم بذلك، ونبيّن المخرج منه - بإذن الله.

هل تقر آية البقرة نظرية النسخ؟

أمّا الآية الثانية التي استدلو بها على "الوقوع شرعاً" فهي الواردة في سورة البقرة بين الآيات التالية ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ

تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: 105-109﴾.

والسياق الذي وردت فيه الآية (106) في سورة البقرة مغاير لسياق الآية (101) من سورة النحل، فهنا بيان دقيق لروح العداء التي صار أهل الكتاب يواجهون بها المسلمين الذين كانوا قبل نزول القرآن من الأميين الذين كان أهل الكتاب يحتقروهم ويستفتحون عليهم، ويقولون ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: 75) فأخرجهم القرآن من دائرة الأمية ليصبحوا أهل كتاب كذلك، وأيُّ كتاب؟!، ولذلك كان السلاح الذي يلجأ أهل الكتاب -اليهود خاصة إليه- هو اتِّهام القرآن بأنه مصاب "بالبداء" أي يبدو له الآن شيء فيقرره، وينزله ثم يبدو له شيء آخر فيبطل الأول وينسخه وهكذا. في حين أنَّهم زعموا أنَّ التوراة ثابتة وأنَّ رب الجنود إله موسى لا يغيّر رأيه، ولا يقبل "البداء" ولا النسخ في الشريعة التي أنزلها على موسى. ولقد ذكر الإمام الرازي أنَّ قوله (تعالى): ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ الاستدلال به على جواز النسخ ووقوعه -أيضاً- ضعيف: لأنَّ "ما" هنا تفيد الشرط والجزاء، وكما أنَّ قولك: "من جاءك فأكرمه" لا يدل على حصول الجيء، بل على أنَّه متى جاء وجب الإكرام، فكذا هذه الآية لا تدل على أنَّه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه، فالأقوى: أن نعول في الإثبات على قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ (الآية 101) من سورة "النحل"، وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: 39)، والله أعلم⁽¹⁴¹⁾.

(141) راجع التفسير (1/ 443) ط الخيرية، وانظر ما قاله القرطبي في نفائسه (2/ 268- ب) والإسنوي في شرحه على المنهاج (2/ 557)، ط السلفية، راجع -أيضاً- ما قاله الفخر في تفسيره للآية (1/ 441)، وانظر مغني اللبيب (2/ 5) وراجع المحصول (3/ 297).

ومما زعم اليهود أنه من "التناقضات" في القرآن المجيد: أن الله (سبحانه وتعالى) نهي عن الربا في القرآن، ولكنه وعد المؤمنين بأن يعطيهم ويكافئهم عن الحسنة بعشر أضعافها إلى سبعين إلى سبعمائة، فقالوا: "نعجب لرب محمد يحرم علينا الربا ويعطيناه؟!"، وقد زاد شغب اليهود وتهميجهم في مسألة "البداء" وادعاءات التناقض في القرآن وفي تصرفات الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) حين أمر الله (تعالى) رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين بالتوجه إلى الكعبة⁽¹⁴²⁾ بعد أن صلى رسول الله والمسلمون في المدينة سبعة عشر شهرًا مستقبلين بيت المقدس⁽¹⁴³⁾، قيل: استصحابًا لحالة الأحناف في استقبالهم لبيت المقدس ظنًا منهم أنه قبله أبي الأنبياء إبراهيم وسائرهم من بعده، وقيل: لعل أهل الكتاب وخاصة اليهود يدركون أن هذا التوافق بين وجهة النبي في صلاته، وتعظيم أنبيائهم — عليهم الصلاة والسلام — لبيت المقدس دليل على وحدة أمة الأنبياء، واتحاد تعاليمهم في العقائد والمقاصد وكتليات الشرائع فلعلهم يؤمنون بأن محمدًا (عليه الصلاة والسلام) لم يكن بدعًا من الأنبياء، ويجدون في كل تلك الموافقات بين ما جاء به وما جاء به الذين سبقوه من المرسلين ما يؤكد علي ضرورة الإيمان به، لأنه منهم وخاتمهم، ولكن غلظة أكباد يهود، وغرورهم وتوهمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وجعلهم الله (تبارك وتعالى) لهم بدلًا من أن يكونوا عبادًا له، ذلك — كله — لم يسمح لهم بالرؤية السليمة لهذا التدرج الحكيم الذي

(142) وفي الوقت الذي ينفون فيه النسخ غفلوا عن أن المجمع الديني اليهودي زعم نسخ الرجم للزناة بالتحميم والإهانة والركوب على الحمار متجهًا للخلف حينما استنقلوا حكم التوراة هذا، أو أرادوا أن يجعلوا نص التوراة المشهور (الشيخ والشيخة) شيئًا منسوخًا بما قرروه.

(143) أخرج البخاري بسنده عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يُعجبه أن تكون قبلة قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاتها صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مكة، فداؤوا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قبل البيت لم ندر ما نقول فيهم، فأُنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم).

صحيح البخاري كتاب التفسير، باب (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (1631/4) رقم (4216).

اتَّسَمَتْ به كل تشريعات الإسلام، ومنها تشريع القبلة فبدلاً من أن يدركوا أَنَّ استقبال الكعبة إنما هو عودة إلى الأصل؛ فالكعبة منذ صدور الأمر الإلهيَّ إلى إبراهيم وإسماعيل بنائها إنما بنيت لتكون بيتاً لله ووجهة وقبلة لعباده المرسلين والمؤمنين أجمعين، فهي بيته المحرَّم. أمَّا بيت المقدس فإنَّها لا تملك مثل المقوَّمات التي تملكها الكعبة فالبركة فيها وفيما حولها، وبناء سليمان هيكلًا أو معبدًا له (جل شأنه) يعظِّمه بنو إسرائيل فيه، كل ذلك غير كفيل باجتماع قلوب البشر -كافة- على تعظيمه واستقباله والاتِّحاد حوله. إنَّ بيت المقدس بناه سليمان الملك الرسول ليكمل لمملكة سليمان فخارها، ولعل كلمة بني إسرائيل الممزَّقة تجتمع حوله فلم يتحقق لهم ذلك فأثيَّ للبشريَّة -كلَّها- أن تجتمع كلمتها عليه؟! وعلى تعظيمه؟! فلا غرابة أن يوجَّه الله خاتم النبيين إلى استقبال القبلة الوحيدة للبشريَّة ولأبي الأنبياء إبراهيم ففيها مقامه، وفيها القواعد التي رفعها وولده إسماعيل وهي بيت الله المحرَّم وهو أول بيت وضع للناس بكة، فالبیت بيته ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ (البقرة: 125) ومقام إبراهيم فيه، ولذلك أمر اتباع الأنبياء الحقيقيُّون أن يتخذوا منه مصلى. والحرم حرم الله منسوب إلى ذاته العليَّة يكتسب صفة "الحرمة والتحریم" من هذه النسبة ويضيفها على كل ما يتَّصل به فكأنَّها فيض منه على ما يحل فيه.

أمَّا المسجد الأقصى فهو قدس أو مقدَّس لمباركة الله له ولما حوله؛ لأنَّه الموقع الذي تقدَّس لكونه موضع حاكم شعبه "بالحاكميَّة الإلهيَّة" التي كانت في بني إسرائيل، والفرق بين المحرَّم والمقدَّس كبير، فقدسيَّة بيت المقدس والأرض المباركة حوله لانتسابها إلى الله (تعالى) حين أمر بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ليكون منهم الأُمَّة النَّمُودَج التي تقاد بحاكميَّة إلهيَّة، وتعطى كل ما تطلب بشكل خارق للعادات -كلَّها-، لا لتحريمه لها، ولذلك فإنَّ أحكام كل من الأرضين المحرَّمة والمقدَّسة تختلف اختلافاً كبيراً كما هو معلوم.

فالأرض المقدَّسة لا يمكن أن تكون حين تكون قبلة إلا قبلة مؤقتة ولقوم معيَّنين، ولتحقيق أغراض محدَّده. أمَّا المحرَّمة فهي الجديرة بأن تتَّخذ قبلة دائمة وعالميَّة ومهوى لأفئدة البشر -كافة- بيني البشر حولها وحدتهم وعالميَّتهم، ولذلك كان رسول الله -صلى الله عليه

وآله وسلم- يقلّب طرفه في السماء لعلّه يوجّه إلى القبلة التي يرضاها، إلى القبلة التي تنسجم وعالمية رسالته، وتجعله الوارث لتراث إبراهيم والنبيين كافة، فلما تمّ له ذلك قامت قيامة يهود فقالوا: "يا محمد، ما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنّك على ملّة إبراهيم ودينه؟! ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك"، قالوا ذلك وهم يعلمون أنّهم كاذبون، لا يريدون بذلك إلّا فتنته عن دينه، وإظهار أنّه يتصرّف بدوافع ذاتية لا بوحى إلهي، فأنزل الله (تعالى) فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 142-143)⁽¹⁴⁴⁾ ثم قال (تعالى) ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: 144).

وهكذا حاولت يهود أن تجد في توجيه الله رسوله الكريم نحو الكعبة البيت الحرام عذراً لتذرع به لتسويغ إعراضها عن الإيمان بالنبي الأمي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعدم اتباعه والاهتداء بهداه، فقالوا -وكأنهم متدينون متشبّشون بأهداب دينهم-: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: 91) وأرادوا به أنّهم يكفرون بغيره، وهم في عذرهم ذلك يدعون أنّ شريعتهم لا تنسخ، ويقولون: إنّ محمداً وصف التوراة بأنها حقّ، وأنّه جاء مصدّقاً لها فكيف يكون شرعه مبطلاً للتوراة، وناسخاً لشريعتها ومؤهون على الناس بما سمّوه "البداء" وهو لزوم أن يكون الله (تعالى) غير عالم بما يحسن تشريعه، وأنّه يبدو له الأمر، ثم يعرض عنه، ويبدّل شريعة بشرية، لكنّ الله (تعالى) قد رد عليهم عذرهم وفضحهم بأنهم لم يكونوا متمسكين

⁽¹⁴⁴⁾ راجع سيرة ابن هشام (142/2)، وراجع الكشف في تفسيره للآية، وكذلك القرطبي.

بشرعهم كي يدَّعوا التمسُّك به، والتصلُّب فيه، وذلك في قوله (تعالى) ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 91) إلى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ (البقرة: 94). وبأنَّهم لا داعي لهم، ولا دافع لرفض نبوة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي يعرفونه كما يعرفون آبائهم غير الحسد بقوله ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: 105) المنبئ أنَّ العلة وراء عدم إيمانهم بمحمد وما أنزل إليه هي الحسد، فلما بيَّن الردَّ عليهم في ذلك -كله- أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على الناس بدعوى منع "النسخ" في شريعتهم، والمقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصل عدم نسخ الشرائع. وهو: أصل النسخ الذي يطرأ على شريعة بشرية تأتي بعدها⁽¹⁴⁵⁾، لئلا يلتفت أحد منهم إلى مرأى بني إسرائيل وسخفهم وشغبهم: فقد برح الخفاء، وظهر كذبهم وافترائهم، وأعذر النبي الخاتم -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الله فيهم، وطال صبره عليهم: فقد ادَّعوا زوراً أنَّ إبراهيم منهم فكذبهم الله (تعالى)، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران 67). وبيَّن لهم أنَّ إبراهيم بنى أول بيت وضع للناس ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 96-97)، إنَّ الأشهر التي قضاها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يستقبل بيت المقدس في صلاته، وخاصة حين تمحضت الوجهة إلى بيت المقدس بعد الهجرة لم تزد بنى إسرائيل يهوداً أو نصارى إلا صلوا وغروراً وتمادياً في الباطل، وإصراراً عليه، فاستمروا في دعاوهم العريضة ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ والقرآن يجيب: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(145) راجع التحرير والتنوير (655/2).

(البقرة: 135)، واستمروا في مهاتراتهم حتى مع إخوانهم من نصارى بنى إسرائيل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: 113) وهنا يعلن القرآن المجيد نهاية تلك المرحلة — مرحلة البحث عن المشتركات مع هؤلاء لعلمهم يهتدون ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. (البقرة 120) ⁽¹⁴⁶⁾.

⁽¹⁴⁶⁾ إنَّ دعوى يهود أنَّ اصطفايتهم، وتفضيلهم على العالمين، وشريعتهم بما في ذلك أسطورتهم الكبرى القائمة على الأمر بدخول الأرض المقدَّسة وهو الأمر الذي تمردوا عليه في عهد موسى -عليه السلام- فعوقبوا "بالتَّيَّة" انتظاراً لنشوء جبل جديد قاده يوشع ودخل بهم الأرض المقدَّسة.

وعائثوا في الأرض فساداً فسَلَّطَ عليهم أشهر ملوك الكلدانيين "نبوخذ نصر" أو مختصَّر "الذي حكم ما بين سنة (604 - 561) قبل الميلاد وهو الملك البابلي الذي دَمَّرَ الهيكل وأورشليم -سنة (586) قبل الميلاد وهو الذي بنى "الجنان المعلقة" إحدى عجائب الدنيا السبعة، وهو الذي سبى يهود إلى بابل، وأمر باتلاف كل ما يذكرهم بأنَّهم شعب مختار، فأتلَّفت كل كتبهم المقدَّسة، بحيث لم يبق تراثهم إلا ما حفظه أولئك الذين نجوا من الموت على يديه، ومن بينهم الرباي عزرا الذي ألَّفَ "التوراة البديلة" من حفظه ومحفوظات بقايا السيوف من قومه.

وقد جعلوا من ذلك فرصة سانحة ليحوِّلوا كل تجاربهم وخبراتهم وطموحاتهم وتطلعاتهم وأحقادهم إلى "دين" ونصوص دينية نسبوها لله ولأنبيائهم، ليصوغوا مشروع فحوض قومي متعصَّب مشوب بغلالة دينية رقيقة ليتمكنوا بما من الحفاظ على وحدتهم رغم السبي والشتات وضباب الأصول؛ وليكونوا قادرين على توجيه جماهيرهم الوجهة التي يريدونها. ومن الأحكام التي أدعت توارثها عزرا تأييدها: ونفت عن اليهودية أصولها عقيدة وشريعة "النسخ" من أجلها هذه الأحكام. فبعد أن قدم "سفر التثنية" (الإصحاح 11 و 12) قالت توارث عزرا:

30 واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك. 31 لكي تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الربُّ لأبائك أن يعطيهم أياها كإيام السماء على الأرض. 32 لأنَّه إذا حفظتم جميع هذه الوصايا التي أنا أوصيكم بها لتعملوها. لتحبُّوا الربَّ إلهكم وتسلكوا في جميع طرقه وتلتصقوا به 33 يطرد الربُّ جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوباً أكبر وأعظم منكم. 34 كل مكانٍ تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم. 35 لا يقف إنسان في وجهكم. الربُّ إلهكم يجعل خشيتكم ورعياً منكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلمكم.

وفي سفر التثنية -نفسه- الإصحاح (20) يحدِّد بمنتهى الدقة مواقف "يهود" من جميع الشعوب المجاورة للدولة ومنها الشعوب العربية سيئة الحظ بهذا الجوار.

إذن فكل دعاوهم كانت كاذبة ومحاولات لكسب الوقت⁽¹⁴⁷⁾، لعل حلفاءهم من مشركي مكة يقضون على رسول الله والإسلام فيريحوهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ﴾ (الصف: 8) وهنا يأتي القرار الإلهي بطي صفحتهم إلى الأبد لانتهاؤها، بالفشل الذريع فلن يكونوا -بعد اليوم- شعب الله المختار ولن يكونوا -بعد اليوم- نموذجًا للبشر، بل هم نموذج لظاهرة الشر فيهم، وبذلك تم إعلان انتهاء تجربتهم، وإسدال الستار عليها، جملة وتفصيلاً، ومنها القبلية التي زعموا أنها قبلتهم وذلك بعد أن أمر الله المسلمين بقبول أنبيائهم، والإيمان بهم أجمعين، وضمّ أمة الأنبياء كلّهم إلى هذه الأمة، والتصديق على رسالات سائر الأنبياء والرسل، والهيمنة عليها بهذا القرآن، بحيث تتوحد مرجعية البشرية -كلّها- في هذا القرآن، وهذا النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- والنسق الذي قامت عليه رسالته الخاتمة. ففي هذا القرآن خلاصة الوحي الإلهي الذي جاء به الأنبياء -كلّهم- إلى البشرية -كلّها-، ليس عليها أن تبحث خارجه عن أيّ مصدر من مصادر الهداية والنور.

وأما بنو إسرائيل فسواء أكانوا يهودًا أم نصارى فما هم إلا أمة خالية تنتسب إلى الماضي والتاريخ، قصصنا عليكم كلّ تجربتهم لتعتبروا أو لتأخذوا منها الدروس والعبر، تستوعبونها ثم تتجاوزونها إلى غيرها ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ

10 حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. 11 فإن إجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُسْتَعْبَد لك. 12 وإن لم تسلمك بل عملت معك حربًا فحاصرها. 13 وإذا دفعها الربّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف. 14 وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتعنتمها لنفسك وتاكل غنيمه أعدائك التي أعطاك الربّ إلهك. 15 هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. 16 وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربّ إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمةً ما. 17 بل تحرّمها تحرّمًا الحثّين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحيويين واليبوسيين كما أمرك الربّ إلهك. 18 لكي لا تعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لأهنتهم فتخطئوا إلى الربّ إلهكم.

(¹⁴⁷) يحسن أن يلتفت المنادون لحوار الأديان والتركيز على المشتركات إلى أسلوب القرآن وعاداته في محاورة أهل الكتاب كافة والنظر فيما آلت إليه تلك المحاورات بعد محاولات دامت اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا من حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن فيها دروسًا وعبرًا لا تنتهي عجائبها وفيها كشف لدخائل نفوس مازادتها القرون إلا أحقادًا وضغائن واستعلاءً على البشرية كلّها.

وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿البقرة: 134﴾، والآية هنا في قوله (تعالى) ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...﴾ ليست كالتى في قوله (تعالى) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ...﴾ فالآية ليست نصًّا في "الآية القرآنية" التي هي عبارة عن مجموعة كلمات من القرآن تنتهي بفاصلة ولا هي ظاهرة في ذلك. بل هي لفظ استعمل في معان عديدة كما تقدم فهي في الأصل الدليل والشاهد على أمر. ثم أطلقت على ما يتحدّى الأنبياء به أقوامهم، فيعجزون عن الإتيان بمثلها فتكون المعجزة؛ لأنَّ المعجزة دليل صدق الرسول، قال (تعالى): ﴿.. وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: 59)، ولقد ذهب جلُّ المفسرين قديمًا وحديثًا إلى أنَّ الراجح في معنى "آية" في قوله (تعالى) ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...﴾ أنَّها المعجزة ⁽¹⁴⁸⁾ أو العلامة الدالة على صدق النبوة بدلالة قوله (تعالى) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ (البقرة: 108) حيث قال المشركون له (عليه الصلاة والسلام): ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا الأنهار والينابيع كما فعل موسى نتبعك ونصدقك، وكان الله (تعالى) نبَّههم إلى أنَّ له (سبحانه) أن ينسخ ويغيّر في العلامات الدالة على صدق أنبيائه ورسوله، ففي نبوة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- يكفيهم الكتاب الكريم ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت 51)، وخلق السماوات والأرض آيات ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات 20) والخلق -كله- آيات، والليل والنهار آيتان ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً﴾ (الإسراء 12)، واختلاف الأمم بالسنتها وألوانها واستعداداتها آيات، وإنهاء الخيرية والاصطفاء -لأمة- لم ترع ذلك حق رعايته -آية، ونظام الزوجية من آيات الله.

ولاشك أنَّ القرآن أهمّ بكثير من إخراج اليد بيضاء أو تحويل العصا إلى ثعبان أو إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، بل لا وجه للمقارنة بسائر المعجزات أو الآيات الحسية، فما

⁽¹⁴⁸⁾ راجع المنار (12/2)، والتحرير والتنوير (655/2)، وقد عبَّ الإمام الرازي على الاستدلال بآية سورة البقرة (106) بقوله:

"والاستدلال به ضعيف... كما تقدم.

من آية من آيات الكتاب المجيد إلا وفيها من الدلالات ما لا تقوم بمثله كل المعجزات الحسيّة لسائر الأنبياء والمرسلين.

وقوله (جل شأنه) مخاطبًا المسلمين ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ...﴾ استفهام إستنكاريّ يستنكر على اليهود ويحذّر المسلمين في الوقت نفسه أن يسلكوا مسلكهم في سؤال الرسول النّبّي الأمين مثل ما كانت يهود تسأل موسى من قبل أن يأتيهم بالخوارق التسع واستعداده لتكرار ذلك باستمرار وبآيات الأخرى، فتلك شريعة اصطفايّة نسخت بشريعتنا، أصولًا وفروعًا، من ذلك القبله علينا أن نقتبس منها الدروس والعبر، فخوارق الآيات تقتضي ما يقابلها في التكاليف الشاقة التي لا يستطيع القوم القيام بها أو أدائها بالشكل المناسب. وتقتضي صرامة وشدة في الأعباء وفي الأداء والجزاء.

وشريعة الإسلام شريعة تخفيف ورحمة وعدد من الأعباء والتكاليف التي ترتبط بمقاصد كليّة وغايات وعلل وحكم تجعل الناس قادرين على فهمها، راغبين في أدائها، وناشطين للقيام بها حتى مع اختلاف ثقافتهم وحضاراتهم وأزمانهم وأماكنهم لتكون شريعة دائمة يستطيع الجميع الالتزام بها.

ما هي وظيفة النسخ؟

إنّ الجدل الذي دار حوله النسخ قديمًا وحديثًا جدل لم "يتحرر فيه موضع النزاع" بشكل دقيق كما يقول الأصوليون، خاصّةً فيما يتعلق بحقيقته. وقد مر بنا ما أورده اللغويون ثمّ ما أورده أهل الاصطلاح في بيان معناه.

ولم يكن أهل الاصطلاح من علماء القرآن والأصوليين أقلّ اضطرابًا في بيان وظيفة النسخ منهم في بيان حقيقته. فإذا كانت وظيفته رفع التعارض القائم في ذهن المجتهد وهو ينظر في دليلين، فهذه قضيّة تتعلق بأدوات المجتهد ووسائله المنهجية التي يستخدمها في التعامل مع النصّ، فإذا كانت وسائل المجتهد قاصرة عن إدراك معاني النصوص في سياقاتها الكلية والجزئية، وفي وحدتها وتفرّقها، فذلك يعني أنّ عليه أن يعيد النظر في تلك الوسائل

والأدوات المنهجية، وليس له أن يعالج إشكاليته الذهنية بالتحكم في النص قبل "الجمع بين القراءتين" من ناحية، وقبل بناء المنهج الملائم للتعامل مع خطاب كوني مثل القرآن المجيد من ناحية أخرى، فتحميل الخطاب مشكلة المجتهد المنهجية أمر غير معقول منهجياً ولا يستقيم مع واجب "التلاوة حق التلاوة".

إنَّ من حق المجتهد والباحث أن يلتفت إلى صفات الباري (سبحانه وتعالى) فيناقش الأمر من زاوية أنَّ مآل معاني النسخ -على كثرتها- إلى "البداء" مثلاً، والبداء محال على الله (تعالى) لإحاطته علماً بكل شيء.

ومن زاوية أنَّ "الخطاب" وإن صدر عن الله (تبارك وتعالى) إلا أنَّه موجه إلى بشر مستخلف في كون، وفي واقع محدّد في زمانه ومكانه، ما يصلح بحسب أنظار المجتهدين في وقت قد لا يصلح - كما هو في ذلك الفهم - في وقت آخر.

والواقع بكل مركّباته الزمانية والمكانية والإنسانية والبيئية بشكل عام محكوم بالجعل الإلهي والسنن ومنها "الصيرورة التاريخية"، وعدم السكون بحال.

منافاة النسخ لخصائص الخطاب القرآني:

وهنا نجد أنفسنا مطالبين -إضافة إلى ذلك- بفهم طبيعة الخطاب القرآني ذاته، ولا بد من إدراك الفروق بكل أنواعها بين "خطاب الكتاب الكريم" وكل النصوص الأخرى وفي مقدّمتها "السنة النبوية المطهرة".

فالخطاب القرآني -كلام الله تعالى - مطلق ومتحدّي به مع ثبوت العجز عن الاستجابة للتحدي. وللقرآن خصائصه العديدة ومعرفة خصائص الخطاب القرآني وأساليبه كفيلة بمنع القول بالجواز العقلي والوقوع الشرعي في خطاب إلهي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، وعصمة هذا الكتاب، وكونه معادلاً للكون وحركته، مستوعباً لكل تصاريف

تلك الحركة، تشبه آياته وكلماته وحروفه في مواقعها منه مواقع النجوم في السماء بحيث لو غير موقع نجم واحد، أو خرج عن مداره، أو اتخذ لنفسه مداراً مغايراً لاختل نظام المجموعة كلاً. وكذلك مواقع "نجوم القرآن" منه وآياته وكلماته وحروفه. وحين نلاحظ هذا فإننا لا نستطيع قبول أعمال "نظرية النسخ" في القرآن العزيز المجيد. ولذلك كان لابد من بيان بعض أهم هذه الخصائص -التي يظهر إدراكها وتأملها بعناية غرابة القول بصحة هذه النظرية، وإمكان إعمالها في هذا الكتاب الكريم.

ومن بين الخصائص القرآنية التي لابد من استحضارها:

1. الوحدة البنائية للخطاب: التي تجعل من القرآن وإن تعددت آياته وسوره وأجزأؤه وأحزابه كالكلمة الواحدة، أما المعاني التي أعطاها الفقهاء والأصوليون والمفسرون وعلماء القرآن "للسنخ" بعد تلك الفترة فمعاذ الله أن ننسب إلى القرآن وقوع شيء منه فيه، لما ستطلع عليه قريباً.

2. الجمع بين القراءتين: إن قراءة القرآن ليست مثل قراءة أي نص لغوي أو أدبي، إنها تلاوة مطلوب أن تكون "حق التلاوة"، فإذا لم يقرأ القرآن بالطريقة التي أمر الناس أن يقرؤ بها فقد فرطوا فيه وأضاعوه، وتلاوته حق التلاوة تكون بقراءته وفق التوجيه الإلهي في الآيات الخمس الأولى من سورة "العلق" ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-5).

فهما قراءتان: إحداها باسم الله الخالق في الخلق والكون -كله-، ويكون القرآن هو القائد والهادي باسم الله في قراءة هذا الكون، فيفهم كل منهما بالآخر، وينعكس فهم كل منهما على الآخر. وقراءة يقود الإنسان فيها وهو يقرأ كل ما تراكم من علوم ومعارف وخبرات ليصدق عليها قارئ القرآن بالقرآن، ويهيمن عليها به فلا تتبعثر جهود البشرية ولا تضيع هباءً⁽¹⁴⁹⁾.

⁽¹⁴⁹⁾ ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى رسالتنا المطبوعة في القاهرة "الجمع بين القراءتين". مكتبة (دار الشروق).

وهذا المحدّد أو الخاصيّة من خواصّ القرآن المجيد حين تُفهم الفهم السليم، ويستعان بها على القيام "بحق التلاوة" لن يجد القارئ في هذا القرآن ما يمكن أن يقوده إلى القول بالنسخ في مفهومه الشائع لدى المتأخرين.

وأمام هذه الخصائص التي لا يتّصف بها أيّ خطاب آخر غير هذا الكتاب الكونيّ الوحيد يمكننا أن نقول: إنّ القرآن معادل موضوعيّ للكون وحركته، ومستوعب لهما، وقادر علي استيعاب "الصيرورة التاريخيّة"، لأنّ هذا الخطاب بخصائصه المذكورة لا يتعلق تعلّقًا مباشرًا وتأمّلًا وناشِبًا⁽¹⁵⁰⁾ بأيّة إشكاليّة جزئيّة، بل يستوعبها ويتجاوزها.

من أين جاء الخل؟:

إنّ القول بالنسخ وتأكيدّه بالشكل الذي نراه لدى علماء القرآن وجمهرة علماء الأصول إنّما نجم عن أسباب كثيرة إضافة إلى ما أشرنا إليه سابقًا، لعل من أبرزها تلك الروايات التي سبقت إلى الأذهان واستقرت فيها، وانشغلت بها العقول والقلوب زمنًا طويلًا حتى صارت مسلّمات ضروريّة، وأكثر الرواة من ترديدّها وذكرها حتى صارت شهرتها صارفة عن البحث في صحتها من عدمها. إضافة إلى أسباب أخرى:

أولها: عدم الالتفات بقدر كاف إلى "الوحدة البنائيّة" للقرآن المجيد، باعتبارها محدّدًا منهاجيًا، بل وضعت في إطار الفضائل، وشاعت قراءته مفرّقًا، مجزئًا كأنّه أعضاء مفرّقة، ومما ساعد على شيوع هذا النوع من القراءة انصراف الأذهان إلى الأحكام الفقهيّة الجزئيّة في الوقائع الجزئيّة، وسيادة الفكر الشائبيّ التقابليّ بدافع من التفكير الفقهيّ الجزئيّ والانفعال بالمأثور، وعدم ملاحظة منطق القرآن ومحاولة الكشف عنه وبناء منهجه، وقد قاد ذلك —

⁽¹⁵⁰⁾ ناشِبًا أي متعلّقًا مع إفادة مزيد من القوة في ذلك التعلّق. تاج العروس (4/266)

كله- إلى الوقوع في براثن هذه الآفة آفة النسخ، وتحويل "النسخ" إلى علم من علوم القرآن ألقى على القرآن المجيد كثيرًا من الظلال القائمة.

ثانيًا: عدم تحديد مفهوم "النسخ" تحديدًا دقيقًا، فلو أنّ المتأخرين التزموا بما فسّر المتقدمون "النسخ" به لما وقع ذلك الاضطراب الشديد الذي نشهده في هذه القضية لدى علماء القرآن والأصوليين ومن بعدهم لدى الفقهاء والمفسرين.

ثالثًا: لقد اعتبر المتقدمون "النسخ" بمعنى "النقل" أو حقيقة في النقل فحسب، فالنص الذي يشير إلى الانتقال من حالة إلى أخرى عدوه ناسخًا لما سبقه، إذا كان تخصيصًا لعام أو تقييدًا لمطلق أو بيانًا لمحمل، مثل قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: 53) وقوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: 116) وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: 82) فالنسخ - عندهم - لا يعدو أن يوجد نصّان يردان - في ذهن الفقيه - على قضية واحدة، إحداها أو السابق منهما - بالذات - يدل على حكم في حالة، واللاحق يدل على انتقال عن ذلك الحكم، وتحول في تلك الحالة في إطار الأمور الثلاثة التي ذكرنا، فهو أمر لغويّ يدور أحيانًا على أدوات التخصيص اللغويّ داخل الآية الواحدة، أو تقييد المطلق، وبيان المحمل في آيتين، فجاء المتأخرون ليضيفوا إليه المعاني التي جعلتنا في مقدمة هذه الدراسة نعتبر "النسخ نظريّة" لا مصطلحًا، وقد شجّع على ذلك النظر الجزئيّ، وظهور فكرة ومقولة "تناهي النصوص وعدم تناهي الوقائع" ⁽¹⁵¹⁾، وحصر آيات الأحكام بعدد قيل: "240، وقيل 340 وقيل خمسمائة"، وكذلك حصر أحاديث الأحكام، فقيل: خمسمائة بقدر الآيات، وقيل: تسعمائة، وقيل ألف ومائة .. إلخ.

رابعًا: في إطار ثقافة المأثور شاع ظلُّ ارتباط القرآن ببيئة النزول وبالمخاطبين في تلك البيئة. واعتبروا عصر القرآن عصر زمن الرسالة، والمطلوب تعميم الفهم الذي وقع للصدر

⁽¹⁵¹⁾ هذه المقولة شاعت وانتشرت في "جيل الفقه" وبما احتج القائلون "بحجّة القياس" ثم استرسلوا في الاحتجاج بها في الأدلة المختلف فيها - كلها - وبذلك صيروا "القرآن المطلق" نسبيًا و"الوقائع النسبيّة الحادثة" مطلقًا!!

الأول، لا تجدد فهم النص وتجدد المخاطبة به في كل عصر وقرن، ولعل قول الشاطبي بعدم جواز فهم شيء من القرآن خارج دائرة فهم القرون الثلاثة الحيرة قد بناه على ذلك التصور وهو تصور فهي نظر⁽¹⁵²⁾.

خطورة القول بوقوع نسخ في القرآن:

قضية نسخ بعض آيات القرآن الكريم قضية يرفضها القرآن الكريم ولا يستسيغها الحس العلمي الذي بناه القرآن المجيد في عقول وقلوب وأنفس المسلمين، وهي من الأمور المعقدة تمامًا، والتي أخذت مدى في العقل الإنساني قبل الإسلام، وكانت موضع نقاش واختلاف

⁽¹⁵²⁾ قد ناقشنا مذهب الشاطبي هذا في الحلقة الخاصة "بالوحدة البنائية" فلا نعود إليه، وراجع هناك ففيه الكثير من الفوائد.

أما قضية مخاطبة من لم يكن مولودًا في عصر الرسالة بالقرآن الكريم وبخطاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي المسألة التي عرفت عند الأصوليين بمسألة "تكليف المعدم" ولهم في ذلك جدل طويل لا ضرورة له لولا سيطرة بعض الأفكار الكلامية مثل قضية الحسن والقبح، وجوب الأصلح، وعدم جواز تكليف من هو غير مؤهل للتكليف، والخلط بين تعلق الخطاب بما يتناوله العموم، ومن يتناوله، وبما لا يتناوله العموم ومن لا يتناوله، وخلط البعض - كذلك - بين التعلق التنجيزي الذي يراد به إنجاز الفعل أو القيام به ساعة الخطاب به، وبين ضرورة القيام به عند توافر شروطه، واستيفاء المكلف به لشروط الإنجاز، وقد أخذ الله (تبارك وتعالى) العهد من البشر وهم في "عالم الذر" بقوله (تعالى) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: 172 - 173) وهو خطاب منه (سبحانه وتعالى) للبشر وهم في حالة لا يمكن أن يتعلق بها الخطاب تعلقًا تنجيزيًا يقتضي القيام بالفعل حين الخطاب، ولكنه يصدق عليه أنه خطاب مستوف لكل أركان الخطاب لمخاطب مؤهل للفهم والإدراك ليدرك به عندما يصبح قادرًا على إنجاز ما فهمه، بحيث يتعلق الخطاب - آنذاك - بفعل المخاطب تعلقًا "تنجيزيًا"، بعد أن تعلق به تعلقًا صلوحياً.

كما أن نصوص الكتاب والسنة متضافرة على عموم هذه الرسالة وشموها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبا: 28) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: 158) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 90) والعالمون شاملة لمن كانوا في عهد الرسالة ووقت تلقي الخطاب وللذين يأتون من بعدهم ويندرجون تحت هذا المفهوم إلى يوم الدين، وقد كان في مقدور العلماء الذين أنفقوا كثيرًا من الوقت والجهد في مناقشة هذا الأمر أن لا يأسروا أنفسهم في المسائل التي جرهم إليها الجدل الكلامي مثل مسألة الحسن والقبح، ومفاهيم الشيء، والمعدم، وتحديد مقولات الوجود وما إلى ذلك بالطرق التي فعلوها ليوفروا على أنفسهم وعلى الأمة ذلك الجدل العقيم ويمكنك مراجعة المسألة بتفاصيلها وبتعليقنا عليها بما مش الحصول (55/2) وما بعدها فستجد تلخيصًا وافيًا ودقيقًا، ومناقشة مستفيضة كتبناها لهذه المسألة. فاحرص على الاطلاع عليها هناك.

وأخذ ورد وفي فترات تاريخية كثيرة وما من دين من الأديان السماوية والوضعية إلا واجه هذه المشكلة بشكل أو بآخر، ذلك لأنَّ قدرات البشر وطاقاتهم في عمليَّات إنزال القيم الدينية على واقع الحياة قدرات محدودة يشوبها القصور في كثير من الأحيان؛ ولذلك يختلف الناس وينقسمون إلى فرق في مواقفهم من أصول الأديان، فهناك من يعمد إلى التأويل بقراءات بشرية ليكون قادرًا على إيجاد حالة التوافق والإنسجام بين ما يريده الدين الذي يتدين به وبين الواقع وإمكاناته والإنسان نفسه وطاقاته واحتياجاته وما إلى ذلك، وأحيانًا يلجأ إلى إيقاف العمل بالنص، وإيجاد مسوغات لذلك الإيقاف لا تجعل منه متمرّدًا على ما جاء دينه به، ومن ذلك دعوى النسخ. فدعوى النسخ كان قد أسبغ استعمالها وفهمها وتفسيرها لدى أمم سابقة كثيرة. فاليهود حينما جاءهم عيسى بالبينات ورفضوه وأكّدوا أنّه ليس المقصود ببشارات موسى وأنبيائهم قبله، قالوا: إنّ شريعتنا ثابتة، وديانتنا دائمة ومؤبّدة، ولسنا بحاجة إلى أيّ تغيير أو التصديق برسالة المسيح وما أنزل إليه، يعني أنّنا لا نقبل فكرة النسخ ولا نقر بأنّ رسالة موسى وما جاء به رسالة منسوخة، وطرحوا فكرة "البداء" وقالوا: إنّّه يزعم أنّ الله أرسله وكأنّ الله قد بدا له أن يرسل نبيًا من بعد موسى، ولدينا ما يؤكّد أنّه لن يأتي بعد موسى نبيّ عدا المسايا، وصفات المسايا لا تنطبق -حسب زعمهم- على السيد المسيح، حيث إنّهم درجوا على إنكار من يأتيهم بعد رسول قد جاءهم، والقرآن الكريم أشار إلى هذا، قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ (غافر: 34) فكلما هلك رسول قالوا لن يبعث الله من بعده رسول، ولذلك درجوا على قتل الأنبياء وإنكار نبوّاتهم ظنًا منهم أنّهم بذلك يحافظون على الثبات، وإن كان أحبارهم قد أعطوا لأنفسهم في بعض مراحل حياتهم حق التغيير والنسخ، وحرفوا بعض النصوص وغيروا فيها واستبدلوها بسواها وغيروا أحكامًا كثيرة واردة في التوراة ومنه الحكم في رجم الزناة⁽¹⁵³⁾.

(153) وإذا جاريّناهم في هذا المنطق فهذا يعني أنّ عليهم أن يرفضوا رسالة موسى لأنّه جاءهم بعد إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف.

ومع أنَّهم استوطنوا الجزيرة العربيَّة قبل بعثة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بسبعة قرون انتظارًا لبعثته، وخالطوا العرب وحملوا أسمائهم وانتموا إلى قبائلهم طمعًا في أن يكون النبيُّ الخاتم من أبنائهم، ولكنَّهم حين جاءهم من كانوا ينتظرون بالبينات تنكروا له وأنكروه وهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم - كما فعلوا مع السيد المسيح قبله - وحاولوا اغتياله وقتله مرات عديدة، وموَّلوا كثيرًا من حملات المشركين ضده، وكانت حجتهم في رفض الاعتراف بنبوِّته -عليه السلام- أنَّ شريعتهم ثابتة، ودينهم كامل، وأنَّ الله (تبارك وتعالى) لا يمكن أن يغيِّر رأيه ويرسل بعد موسى رسولًا ينزل عليه شريعة تغاير شريعة موسى، وكما وضع قارئهم كفه على النصِّ القائل بوجوب رجم الزناة في التوراة، وهو "الشيخ والشيخة إذا زنيا..."، فقد غيَّروا في صفات خاتم النبيين في توراتهم وهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم، وعملوا كل ما استطاعوه لينزعوا عن الشريعة الإسلاميَّة العالميَّة النازلة على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- صفاتها الواردة في سورة الأعراف ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 157) وفي مقدمتها التخفيف والرحمة وإزالة الإصر والأغلال ليؤكدوا بذلك أنَّه (عليه الصلاة والسلام) ليس هو المقصود ببشائر التوراة وتشبثوا بنفي النسخ.

وفي إطار الجدل الذي أثاره الكلاميُّون لإثبات ورود النسخ، وأنَّ النسخ خاصَّة من خواصِّ الشرائع، دخلت فكرة النسخ إلى العقل المسلم، وصارت تتردَّد على بعض الألسن، وحملتها روايات دخلها الكثير من الإسرائيليَّات والثقافة الشفويَّة لتجعل من النسخ وسيلة لهدم حجَّة اليهود في رفض الإيمان بالمسيح أولًا ثم برسول الله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ثانيًا، فتحول -بعد ذلك- إلى سلاح وجَّه إلى العقل المسلم ذاته وارتدَّ إليه، وإذا ببعض العلماء يتبنَّون فكرة النسخ ويدخلونها إلى تفاصيل شريعة القرآن وبيانها في سنَّة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ظنًّا منهم أنَّ القول بالنسخ سوف يحمل يهود على التسليم

بنبوة ورسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحين وجد الفقهاء -خاصة- في النسخ سهولة في التخلص من عمليّات التعارض الموهوم بين النصوص خاصة في مجال السنّة النبويّة المطهرة التي لا شك أنّها قد وقع فيها النسخ؛ لأنّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يتحرك في واقع له خصائصه وطرائقه في الإستجابة إلى النصّ والتفاعل معه، ولذلك كثر في سنن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ما يمكن اعتباره نسخاً في المعاني اللغوية التي وردت بها أحاديث مثل قوله: "نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ" (154)، ومنه نهي عن أكل الحمر الأهليّة (155) خوفاً من أن تحدث أزمة في المواصلات.

فهو (عليه الصلاة والسلام) وكان يتحرك في ذلك الواقع بقيم القرآن منزّلاً لها في ثنايا الواقع متابعاً ردود فعل ذلك الواقع وطرائقه في استقبال آيات القرآن الكريم، كان يلاحظ (صلوات الله عليه) وهو الرؤوف الرحيم الحريص على أن يجنب أمته أيّ عنت الأولويّات والمقاصد والمآلات وسائر الجوانب التربويّة بحكمته وبما يوحى إليه ليتمكن للقرآن عقيدة وشرعية ونظم حياة في واقع الأمة المؤمنة.

وهنا عندما حصلت عمليّة الخلط والمزج بين الكتاب والسنّة -لأسباب كثيرة تناولناها في دراستنا عن السنّة النبويّة المطهرة وعلاقتها بالقرآن الكريم- فمن الطبيعي أن يختلط لدى البعض موضوع النسخ فينقل من دائرة السنّة النبويّة إلى دائرة القرآن الكريم. وهنا برزت هذه الإشكاليّة بشكلها الحادّ.

(154) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) زيارته في زيارة قبر أمه 672/2 رقم 977.

(155) أخرجه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جاءه جاء فقال: أَكَلْتَ الْحُمْرَ، فَسَكَتَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: أَكَلْتَ الْحُمْرَ فَسَكَتَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: أَفَبِئْسَ الْحُمْرُ فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاسِ (إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ) فَأُكْفِيتُ الْفُدُورُ وَإِنَّمَا لَتَقُورُ بِاللَّحْمِ. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر 1539/4 رقم 3963.

ولذلك حين وجدنا الإمام الشافعي -رحمه الله- وهو من هو في تعزيز موقف أهل الحديث، والانتصار للسنة النبوية حينما بلغ الأمر القول بنسخ الكتاب بالسنة والعكس وقف موقفه الصلب الذي أساء كثير من معاصريه فهمه، كما أن أتباعه غاب عليهم مرماه ومقصده، فجاءوا "بنظرية المعضد" لتميع تلك الفكرة الجليلة التي كان الإمام الشافعي يرى نفسه وكأنه المسئول عن تصحيحها بعد أن مهدت دراساته وانتصاراته لأهل الحديث لعملية الخلط والتسوية بين الكتاب والسنة، بحيث أصبح الفارق بينهما ينحصر بأن الكتاب معجز، متحدى به، متعبد بتلاوته وليست السنة كذلك، وكلاهما وحي، وتجراً البعض على أن يقول: "الوحيان"، وهو أمر قد عاجلناه في دراستنا المشار إليها حول علاقة السنة بالقرآن الكريم فارجع إليه يتضح لك أن هذا المزج أمر لا يقبله القرآن الكريم ولا السنة النبوية المطهرة، فالعلاقة بينهما علاقة بيان ومبين دون أن يعني ذلك أي غض من السنة النبوية المطهرة أو المساس بحجيتها، ولكنها عملية وضع للأمور في مواضعها، والابتعاد عن الخلط المرفوض.

من هنا نستطيع أن نقول بناءً على المبدأ الذي طرحه الإمام -ولم يُن عليه، ولم يتم تفصيله- بأنه لا نسخ في القرآن بإطلاق قولاً واحداً، فلا القرآن ينسخ بعضه بعضاً لأنه من عند الله (تعالى) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82)، كما لا يُنسخ بالسنة أبداً لأن مهمة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هي تلاوة الكتاب وإبلاغه للناس وأتباعه وتعليمهم مع الكتاب كيفية أتباعه وتنفيذ ما فيه، وبالتالي فإن جميع هذه الأقسام التي ذكرها الكاتبون في علوم القرآن والأصوليون هي من التراث المصاب الذي لا بد من إخضاعه لتصديق القرآن وهيمته واستيعابه وتجاوزه، وأن بعضها مما يمكن أن نلتمس له بعض التأويلات فيقال: بأنه روي بالمعنى وتصرف الراوي فيه -حسب فهمه-، أو أن هناك ما يطعن في صحة الرواية أو دقتها، ولكن -والأمر يتعلق بالقرآن الكريم- لا بد من الحسم، ولا بد من القول: بأنه لا نسخ في القرآن على الإطلاق وأن كل ما ادّعي نسخه لم يكن يحتاج إلا إلى جهد يسير، يجمع فيه بين القراءتين، وتلاحظ فيه الوحدة البنائية في القرآن الكريم، وبقية خصائص الخطاب القرآني ليفهم ويتضح، وتبرز معانيه، وأن عملية فهم

الآيات التي ادعي وقوع النسخ فيها استمرت منذ القرن الثاني الهجري في التناقص كلما اتضح للناس معنى يزيل التعارض من أذهان المجتهدين أو العلماء رفعت من بين الآيات التي أدخلت في النسخ حتى بلغت عند المتأخرين ست آيات فقط، أو خمسة.

وإليك معاني هذه الآيات الكريمة الستة:

1. قوله (تعالى) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 240) قالوا: هذه الآية منسوخة بقوله (تعالى) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: 234) ظننا منهم أن الآيتين قد وردتا على مورد واحد ألا وهو فترة العدة التي تعتدها المتوفى عنها زوجها. والحق أن مورد الآيتين مختلف تمامًا، إذ إنَّ قوله (تعالى) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ جاء مراعيًا لعادات الأمم وأعرافها، فلأُمم عادات مختلفة في التعبير عن تكريم الأحياء لموتاهم، واحترامهم لذكراهم، وإعطاء الانطباعات الإيجابية بأنهم كانوا في موقع الحب والتقدير لدى أهلهم وذويهم، وأنَّ هذا المتوفى له ذكرى طيبة واحترام وقدر عند المتصلين به، والخواص من المنتمين لأسرته. واختلفت تقاليد الأمم في التعبير عن هذه المشاعر ولا تزال مختلفة، وقد راعى القرآن الكريم هذه المشاعر الإنسانية أحسن مراعاة وأجملها، فمَنْزل الرجل الذي شهد حياته مع زوجته وبنيه يبقى وكأنَّ تغييرًا لم يحدث بهذه الوفاة، تخفيفًا على المنتمين للأسرة - كلَّها - وفي مقدِّمتهم الزوجة، فامراته قائمة فيه، وأبناؤه وذووه يترددون عليه، وذكراه بينهم، لكي يأخذ كل منهم فرصته الكافية للصبر والسُّلُو، وتجاوز الإحساس بالموت والفراق، والإسلام جاء وللعرب والشعوب الأممية من حولهم، والشعوب الكتابية تقاليدها وعاداتها في هذا المجال، ولا شك أنَّ زوج المرأة منها ليمكن كما عبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

(156)، وهناك براءة الرحم من ماء المتوفى وهي التي تكفيها القروء الثلاثة، وهناك فترة الإحساس النفسي الثقيل الشديد على المرأة وتكفيها أربعة أشهر وعشر، وهناك فترة إعادة ترتيب الحياة بالنسبة لها ولأبنائه بعد هذه التغيرات الحادة المادية منها والمعنوية، وفترة إعادة ترتيب الحياة لا يمكن أن تتم بشكل ملائم في أقل من حول، سواءً أكان الناس ينتمون إلى مجتمع زراعي تتعلق حياته بالمواسم، أو مجتمع رعوي تتعلق حياته بالماء والكأ، أو مجتمع تجاري ترتبط فيه الحسابات بحولان الحول، وكذلك الزكاة وحساباتها، وإذا كان البيت مستأجرًا فتغلب أن تكون الإجارة مرتبطة بالحول، فالحول يعتبر بمثابة الوحدة الصغرى لإعادة تنظيم شئون الناس وحياتهم، خاصة بعد مصيبة كبيرة مثل "مصيبة الموت" كما سماها القرآن الكريم (157) بأن تُعطى الزوجة المفجوعة في زوجها فرصة عام لتعيد ترتيب أمورها وأمر صغارها، ولتعود نفسها على تحمل المسئوليات -منفردة- بعد اجتياز الصدمة العاطفية وبراءة الرحم وما إلى ذلك، وذلك أمر معهود في أحكام القرآن الكريم القائمة على التخفيف والرحمة ومراعاة مختلف المشاعر والقضايا الإنسانية وفي مقدمتها "الأسرة" التي هي حجر الزاوية في بناء المجتمع. وعنهما تتفرع شبكة واسعة من العلاقات الاجتماعية التي يحرص الإسلام على إنمائها والمحافظة عليها.

فالتربص بالنفس لاستبراء الرحم وللتهيؤ لاستئناف دورة حياتية جديدة قد تكون الأربعة أشهر وعشر ليالي حدًا أدنى كافيًا لذلك، وقد يكون كافيًا لتسوية الجانب النفسي والجسمي للمرأة، وأمّا الحول فهو حد للتسويات المختلفة خاصة المادية منها، المتعلقة بإعادة ترتيب الحياة. وحين نلتفت إلى بعض العلوم المعاصرة خاصة علوم النفس والاستفتاءات التي

(156) أخرج البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق قال (لما انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة من أحد لقيته حنة بنت جحش فنعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ زوج المرأة منها ليمكن، لما رأى من صبرها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها) دلائل النبوة (3/301).

(157) المائدة آية (106).

يقوم بها الباحثون بين المتوفى عنهن أزواجهن، وملاحظة مختلف الجوانب العاطفية نجد توضيحاً لكثير من المعاني التي ربما لم يلاحظها المفسرون، لأنَّ أعينهم كانت مشدودة إلى الحكم الفقهي الجزئي التكليفي، لكنَّهم لو لاحظوا الأمور الأخرى لحكموا بإحكام الآيتين، وأنَّه لا نسخ بينهما، فكل منهما اتجهت جهة، فالآية الأولى متجهة نحو الزوجة في بدنها ونفسها ورحمها وخروجها من تأثيرات مصيبة الموت، أمَّا آية الحول فهي وصية من الله (تبارك وتعالى) للأزواج وللأسرة والورثة وللأمة في أن تعطي الزوجة المتوفى عنها زوجها فرصة إعادة ترتيب حياتها المادية التي صار لها فيها شركاء آخرون هم بقية الورثة، فهي في حاجة إلى تلك الفرصة بقطع النظر عن طبائع العلاقات بين أبناء المجتمع، وبالتالي فليس هناك تعارض أو تناقض أو تصادم بين الآيتين يستدعي القول بتخريجهما على قواعد النسخ نفسها -عند القائلين بها- لينسخ المتأخر بالمتقدم، وللدخول في تلك التأويلات المتعسفة، ما دام من الممكن فهم الآيتين اللتين اختلف موضوع كل منهما عن موضوع الأخرى وانتفى التعارض بينهما.

وأما تلك الروايات التي رويت بناءً على هيمنة أفكار النسخ، والنظر إليه على أنَّه من المسلّمات، فإنَّها لا تقف أمام هيمنة القرآن الكريم على ما عداها، ولا تصلح لنسخ حاكميته لجعل غيره حاكماً عليه.

2. قوله (تعالى): ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُم فَأُذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: 15-16).

ذهب أكثر المفسرين إلى أنَّ هاتين الآيتين منسوختان، غير أنَّهم اختلفوا في النسخ وفي كيفية النسخ. فذهب جماعة منهم إلى أنَّ الآية الأولى نسخت بالثانية وإلى أنَّ الثانية نسخت بآية النور ومحدث عبادة بن الصامت الذي ورد فيه أنَّ الحد كان الحبس، ثم نسخ بالإيذاء، ثم نسخ بالإيذاء بآية النور الجلد

للبر، والرجم للمحصن "بالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة"⁽¹⁵⁸⁾،
وعكس بعضهم الأمر فقال: إِنَّ الآية الثانية نسخت بالأولى حيث كان حد الزنا
في نظر هؤلاء الإيذاء ثم نسخ الإيذاء بالحبس ثم نسخ الحبس بالجلد والرجم،
قائلين: إِنَّ الآية الثانية كانت سابقة للأولى في النزول، وذهبت فرقة ثالثة منهم
إلى أَنَّ الآيتين نزلتا معاً، وأُتِمَّتا نسختاً معاً بآية النور وحديث عبادة، أي الجلد
للبر والرجم للشيب.

وقد أثارت دعوى النسخ هذه إشكاليات عديدة، منها: تجويز نسخ القرآن الكريم
بأحاديث الآحاد التي روي جُلُّها بالمعنى، وقد يكون الراوي أخطأ في فهم المعنى، فيكون
الحديث -كله- موضع نظر!! واستدراكات عائشة وعمر وغيرهما كافيه للفت الأنظار إلى
هذا الاحتمال الكبير، وقد حاول بعضهم الخروج من هذا المأزق ببعض التأويلات وهي
تأويلات ساقطة يصعب قبولها إن لم يتعذر كما قال ابن الجوزي في زاد المسير (36/2)،
ناقلاً عن قوم: بأنه يحتمل أن يكون النسخ قد وقع بقرآن رفع رسمه وبقي حكمه!! وهو
تأويل بعيد جداً، وعمليّات التجويز وفرض الاحتمالات هذه عبارة عن فرضيّات بشرية ما
كان لمن له مسكة من علم أن يسقطها على القرآن المجيد، فأيات الكتاب الكريم لا تخضع
لفرضيّات إنسانيّة لا سند لها بإطلاق، وإلا فما الذي أبقيناه لأهل الكتاب الذين وقعوا في
التبديل والتحريف، حينما اجتالته الشياطين وفتحت أمامهم سبل الافتراض والآراء الخطيرة
التي لا يقوم عليها دليل ليسقطوها على كتبهم وما جاءهم أنبيائهم به عن الله (تبارك
وتعالى)!!؟

قال القاضي أبو يعلى: وهذا وجه صحيح يخرّج على قول من لم ينسخ القرآن بالسنة،
قال: ويمتنع أن يقع النسخ بحديث عبادة لأنه من أخبار الآحاد والنسخ لا يجوز بذلك، وردّ
بعض المفسرين والفقهاء دعوى نسخ الآية، ومن هؤلاء الخطابي في معالم السنن حيث قال:

(158) أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن عُبادَةَ بن الصَّامِتِ قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ
اللهُ هُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدٌ مِائَةً وَتَغْيُ سَنَةٍ، وَالتَّيِّبُ بِالتَّيِّبِ جُلْدٌ مِائَةً وَالرَّجْمُ) كِتَابُ الْخُذُودِ بَابُ حَدِّ الزَّنى (3/1316 رقم 1690).

لم يحصل النسخ في الآية ولا في الأحاديث، وذلك أَنَّ الآية تدل على أَنَّ إمساكهنَّ في البيوت ممتد إلى غاية وهي أن يجعل الله لهن سبيلاً، وذلك السبيل كان مجملاً فلما قال (صلى الله عليه وآله وسلم): (خذوا عني الثيب ترجم والبكر تجلد وتنفي) صار هذا الحديث بياناً لتلك الآية لا ناسخاً لها، وصار أيضاً مخصصاً لعموم آية الجلد (فالمهم أَنَّ الحكم الذي دلت عليه الآية يغيّر ويبدّل بحديث الآحاد سواء سَمَّوه ناسخاً أو مخصصاً، أو مبيناً لإجمال مزعوم في الآية، فالنتيجة واحدة).

وقد نقله النيسابوري عنه في غرائب القرآن (204/3)، واعترض على القول بالنسخ الإمام الرازي في الكبير (230/9 - 234)، والقرطبي في الجامع (282/5 - 285)، وأبو حيان في البحر المحيط (194/3، 195)، والسيوطي في الإكليل ص (35)، ورشيد رضا في المنار (438/4 - 440) نقله أولاً عن محمد عبده وأيده وتبنَّاه، وكذلك السعدي في تيسير الكريم الرحمن 37/2، وعبد الكريم الخطَّابي في التفسير القرآني للقرآن (718/4 - 721).

ونقل رد القول بالنسخ عن مجاهد وانتصر له أبو مسلم الأصفهاني وأيده بكثير من الأدلة، وأبطل دعوى النسخ، وقد تولى الإمام الرازي تفصيل مذهب أبي مسلم، فقال - بعد أن ذكر القول الأول والقول الثاني وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني -: إِنَّ المراد بقوله (تعالى) ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾ المساحقات وحُدَّهن الحبس إلى الموت، وبقوله ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا﴾ أهل اللواط وحُدَّهما الأذى بالقول والفعل، والمراد بآية النور ﴿الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: 2) الزنى بين الرجل والمرأة وحده في البكر الجلد، وفي المحصن الرجم، واحتج أبو مسلم عليه بوجه منها: أَنَّ اللاتي يأتين مخصوص بالنسوان، واللذان مخصوص بالرجال، وعرض الإمام الرازي بقیة أدلة أبي مسلم والتي تؤكد على أَنَّ الجهة منفكة، وأنَّ آيتي سورة النساء لم تتجه

ليان حد، بقدر ما كان توجُّه الآيتين لبيان كَيْفِيَّة صيانة المجتمع من إشاعة السحاق واللواط، ولما كان الزنا بين رجل وامرأة، وليس بين رجلين أو امرأتين، فإنَّ آية النساء غير ما ورد في سورة النور، ورد عليه القائلون بالنسخ بتمسكهم بما قرروه، وبالتأكيد على أنَّها متجهة للموضوع ذاته ألا وهو الزنا، وهناك مفسرون رَوَوْا هذه الأقوال كما هي دون أن يتبنَّوا شيئاً منها.

وتمسَّك مصطفى زيد بما تمسَّك به الجمهور، وناقش أدلة أبي مسلم لأنَّها عنده من بين الآيات الخمس التي دخلها النسخ في نظره.

وقد علمت مما تقدم أنَّه لم يقع تعارض ولا تعادل بين الآيات الثلاث، فالأولى تتعلق بالنساء الشاذَّات السحاقيَّات اللَّواتي يملن إلى إناث مثلهن، وهي فاحشة تؤدي إلى اكتفاء النساء بالنساء، وهدم الأسرة والمجتمعات، والخروج من العهد الإلهي، والتمرد على عهد الإستخلاف، والإخلال بالكرامة الإنسانيَّة، والحيلولة دون قيام مجتمعات إنسانيَّة تحقِّق العمران في هذه الأرض. وحبسهن بالبيوت حتى يتوفاهن الموت إجراءً وقائيَّ يحول بينهن وبين إشاعة هذه الفاحشة في المجتمع، والترويج للفاحشة بين بنات جنسهن.

وأما الآية الثانية فإنَّها في اللواط واللواطيين، وهو انحراف يقع بين الذكور، وهو فاحشة لا تقل خطراً عن الانحراف والشذوذ الذي يقع بين الإناث، والأذى يناسبه، وقد يوقف هذه الظاهرة، ويحمي المجتمع منها، فالأذى يدخل في باب التعاذير، والمجتمع والأمة وولاية الأمر يستطيعون الاستفادة من التشريعات التعزيريَّة لحماية المجتمع المسلم من ظواهر الانحراف والشذوذ بكثير من الشذوذ.

وأما آية النور فهي في الزنا الذي يقع بين الرجل والمرأة، فالجهة منفكة، ولا تعارض ولا تعادل ولا شيء يقتضي القول بالنسخ. وأما القول المضطرب القائم على حكم التوراة ونصّها: "الشيخ والشيخة.." وأدَّعاء نسخ آية الجلد في حق المحصن بنص من التوراة التي زعم

البعض أنّها آية قرآنية منسوخة التلاوة، فهو قول في غاية الغرابة، وقبول الروايات الواردة في هذا الشأن تترتب عليها مجموعة من العظائم.

منها الطعن في الصحابة الكرام، وفي مقدمتهم عمر وعثمان وزيد وكتاب الوحي ومن عملوا في جمع القرآن المجيد بشتى صيغ الجمع، فكل هؤلاء تنتفي عنهم الأمانة والدقة والضبط، وتوجّه إليهم تهمة التفريط في تدوين آيات قرآنية توفي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي مما يقرأ.

ومنها: أنّ الله (تبارك وتعالى) الذي تكفل بحفظ القرآن كما تكفل بإنزاله وجمعه وأنّه (تعالى) عن أقوالهم وعن ما تؤدي إليه أقوالهم قد أخلف وعوده، وفرّط في ذلك كلّ وتركه أو بعضه لهوى الرواة إن شاءوا أثبتوا وإن شاءوا محوا.

ومنها: الطعن ببلاغة القرآن وفصاحته ونظمه وأسلوبه وتميّزه في ذلك - كلّ - واعتبار هذا القول الركيك المترجم عن التوراة: "الشيخ والشيخة .." كان آية من آياته وكأنّ الصحابة لم يتمكّنوا من إدراك الفروق الهائلة بين أساليب القرآن المتحدي المعجز. فلم يشر أي منهم وهم من ذؤابة فصحاء العرب إلى ركافة هذا المروي الذي لا يرتقي إلى مستوى أحاديث أفصح من نطق بالضاد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأئني له أن يطاول فصاحة القرآن وبلاغته وهو بتلك الركافة. لقد برزت هذه الدعوى أو الشبهة أول ما برزت في حديث جاء في موطأ الإمام مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني - صاحب الإمام أبي حنيفة ومستشار الخليفة العباسي هارون الرشيد. وتوفي الشيباني سنة (189) هـ حيث جاء في هذا الحديث: "خبرنا مالك حدثنا يحيى بن سعيد أنّه سمع سعيد بن المسيّب يقول لَمَّا صَدَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ مِئَى أَنْأَخٍ بِالْأَبْطَحِ ثُمَّ كَوَّمَ كَوْمَةً بِطَحَاءِ ثُمَّ طَرَحَ عَلَيْهَا رِدَاءَهُ وَاسْتَلْقَى ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ اللَّهُمَّ كَبِّرْتَ سَيِّئِي وَضَعَفْتَ قُوَّتِي وَانْتَشَرْتَ رَعِيَّتِي فَأَقِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضِيعٍ وَلَا مُفَرِّطٍ ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ سُنَّتْ لَكُمْ السُّنَنُ وَفُرِضَتْ لَكُمْ الْفَرَائِضُ وَتُرِكْتُمْ عَلَى الْوَاضِحَةِ إِلَّا أَنْ تَضِلُّوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَشِمَالًا وَضَرَبَ بِإِخْدَى يَدَيْهِ عَلَى

الأخرى ثُمَّ قَالَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لَا بَحْدُ حَدَّثَنِي فِي كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وآله وسلم- وَرَجَمْنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَكَتَبْتُهَا الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ فَإِنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا أَنْسَلَخَ ذُو الْحِجَّةِ حَتَّى قُتِلَ عُمَرُ - جَمَهُ اللَّهُ - (159).
وقد ناقشنا هذا الخبر أو الأثر مناقشة مستفيضة تناولنا فيها سنده ومتمنه، وذلك في دراستنا قيد الإنجاز في "حد الرجم" نورد شيئاً مما قلناه هناك:

1- الحديث نسبوا إلى سعيد بن المسيب روايته عن عمر، وسعيد قد ولد قبل استشهاد عمر بسنة واحدة، وذلك يعني أَنَّهُ يستحيل على مثله التحمل والأداء. إذن فهناك حلقة مفقودة، فما هي؟

2- إِنَّا لَا نَنْفِي عَنْ هَذَا الْإِصْحَاحِ - مِنْ إِصْحَاحَاتِ التَّوْرَةِ كَوْنَهُ مِنْهَا؛ وَلَكِنَّا نَنْفِي عَنْهُ - الْقَرَأَنِيَّةَ، بَلْ نَذْهَبُ إِلَى اسْتِحَالَةِ ذَلِكَ. وَنَوَكِّدُ اسْتِحَالَةَ أَنْ يَكُونَ حَدِيثًا مِنْ أَحَادِيثِ أَفْصَحَ مِنْ نَطْقِ بِالضَّادِ، فَلَفْظُ الْحَدِيثِ "يَبْدَأُ بِالشَّيْخِ وَالشَّيْخَةِ .."، وَلَمْ يَعْرِفْ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا فِي الْإِصْطِلَاحَاتِ الْفَقْهِيَّةِ أَنَّ الشَّيْخُوخَةَ تَفِيدُ الْإِحْصَانَ (160).

3- إِنَّ الْقُرْآنَ حِينَ ذَكَرَ جُرْمَ السَّرْقَةِ بَدَأَ بِذِكْرِ الذَّكَرِ "السَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ"، لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنْ تَقَعَ السَّرْقَةُ مِنَ الرِّجَالِ، وَأَمَّا الزَّنا فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَدَأَ بِذِكْرِ الزَّانِيَةِ لِتَوْقُفِ هَذِهِ الْجُرْمَةِ عَلَى اسْتِعْدَادِهَا وَرِضَاهَا.

إلى غير ذلك من مناقشتنا للمتن والسند فليحرص على الرجوع إليه في ذلك البحث.

3. قوله (تعالى) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: 43) قيل: إِنَّمَا نَسَخْتُ بِقَوْلِهِ (تعالى) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا

(159) انظر موطأ الإمام مالك رواية محمد بن الحسن الشيباني باب الرجم ص (241) رقم (693) بتعليق وتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف. ط ثانية، المكتبة العلميّة.

(160) وقد بيّنا المراد بمفهوم "الإحصان" في دراستنا لحدّ الرجم، فارجع إليه.

الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ (المائدة: 90).

ونحن نرى أنَّ الآيتين كل منهما قد وردت في موضع منفصل عن موضع الآية الأخرى وعلى مورد مغاير، فالآية الأولى منعت الإنسان من أن يصلي وهو سكران، فموضوعها حينما نريد تحديده إنما هو "صلاة السكران"؛ لأنَّ السكر لا يتناسب والصلاة التي يفترض أن يقوم الإنسان بها بكامل وعيه مستجمعًا كل طاقاته العقلية والنفسية ليتحقق بالفهم لما يقرأ، والفهم لما يفعل، والخشوع الذي هو لباب الصلاة، والذي يجعل منها شيئًا ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالنهي منصبٌّ على منع الصلاة للسكران.

وأما الآية الثانية: فموضوعها بيان حكم مجموعة من موروثات الجاهلية، منها الخمر ومعها الميسر والأنصاب والأزلام، فانصبَّت على منع ممارسة أي شيء من ذلك، وضرورة اجتناب كل هذه المحظورات، فلا تشتري ولا تباع ولا تُصنَّع ولا يجري تداولها، فما هو مأمور باجتنابه هو غير ما نهي عنه في الآية الأخرى، فالجهة منفكة تمامًا، ولكن حديث أمنا عائشة في البخاري هو الذي أوحى بفكرة التدريج، وهو في الحقيقة تدريج في التربية والاستعداد، وتهيئة نفسية الإنسان لقبول هذا التغيير في نظم حياته.

4. قوله (تعالى) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: 65-66) هاتان الآيتان وردتا في سورة الأنفال، وسورة الأنفال اشتملت على آيات كثيرة تنبه إلى أنَّ السياق سياق تشجيع وتعبئة نفسية للمؤمنين فقد سبقت هذه الآيات آيات أخرى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ

أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿الأنفال: 9-12﴾، ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آَعَيْنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آَعَيْنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الأنفال: 43-44) فسياق السورة كله يدور حول رفع معنويات المسلمين الذين وجدوا أنفسهم في معركة لم يكونوا يتوقعون حدوثها، بل كانوا لا يريدونها، كما قال (تعالى) ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ لِكُادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الأنفال: 5) وبالتالي فهذا كله يؤكد أنَّ هذه السورة الكريمة هي سورة تعبئة للجماعة المسلمة لتحقيق نصرًا بإذن الله يغيّر من موازين القوى على مستوى الجزيرة العربية كلها، ويفتح أمام الإسلام سائر الأبواب المغلقة، ويزيل كثيرًا من العقبات، فأعطوا هذا السقف، وربطوا بأنَّ تغلبهم على عدوهم أمر لا بد أن يتحقّق بإذن الله، ولأنَّ عدوهم وصف ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فالتفوق حاصل بقطع النظر عن العدد الذي لم يلتفت سياق السورة إليه كثيرًا، فإدخالها في مجال الأعمال التكليفية أمر لم يكن واردًا، خاصّة وأنّه ما من فعل تكليفيّ إلا وقد علّقه الله (تبارك وتعالى) -فضلاً منه ونعمة- بالاستطاعة بما في ذلك التقوى، ورفع الحرج وعدم تكليف ما لا يطاق في الحروب القائمة على المسايفة تعتبر العشرة عددًا كبيرًا مقابل الواحد، وفي بدر نفسها التي جاءت السورة الكريمة لتبيّن لنا ما جرى فيها لم يكن التفوق العدديّ للمشرّكين يتجاوز (ثلاثة إلى واحد)، ومع ذلك أيّد الله (تبارك وتعالى) بكل ما أيّد عباده المؤمنين به.

5. قوله (تعالى) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَعَشَفَقْتُمْ أَنْ

تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿المجادلة: 13-12﴾.

ذهب جمهرة العلماء إلى أَنَّ الآية الأولى منسوخة، واختلفوا في ناسخها، فروى الطبري وابن عباس أَنَّها نسخت بالزكاة، وروى عن عكرمة والحسن البصري أَنَّها نسخت بالآية التالية لها، كما أَنَّهُم اختلفوا في وقت النسخ، فقال أبو حيان: إِنَّ هذا الحكم نسخ قبل العمل به، وقال قتادة: عمل به ساعة من نهار، وقال مقاتل: عمل به عشرة أيام، فانظر الطبري (28/15)، وأبو حيان في البحر (237/8). وأمَّا الإمام الرازي فقد علَّل الأمر بتقديم الصدقة بأنَّ الحاجة كانت ماسَّة إلى تمييز المنافقين عن المؤمنين، فَإِنَّ المنافقين لا يتوقع منهم أن يقدموا صدقة ليناجوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعلَّلها آخرون بأنَّ الله (سبحانه وتعالى) رَأْفَةٌ بِنَبِيِّهِ الذي أَكْثَر الناس عليه، وكان كل منهم يحرص على مناجاته أنزل هذا الأمر نوعًا من التقييد لذلك، ولهم في ذلك أقوال كثيرة وتعليقات مختلفة، ومنها أَنَّ الصدقة التي أُمِر بها أمر بها على سبيل الاختيار والندب، وَأَنَّها غير محددة المقدار ولا النوع، ويمكن أن تكون ذكرًا -أي أمرًا معنويًا- ويمكن أن تكون أمرًا ماديًا، وَأَنَّ الذي أثار شبهة النسخ في هذه الآية هو تصور أَنَّ الله (تبارك وتعالى) أراد أن يؤدِّب الناس ليعاملوا رسوله الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- كما تعامل الشعوب من حول الجزيرة ملوكها وأباطرتها ليدركوا هيبتهم وعظمتهم، وعدم سهولة الوصول إليهم، وهذا أمر لا يمكن أن يكون مقصودًا للشارع الحكيم الذي ميَّز بين رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- وبين أولئك الملوك والحكَّام، ولكن لا يبعد -بالرغم من ذلك- أن يقيس الناس النبي الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- على من حولهم من عظماء، ألم يقل مشركوا مكة ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31) فكأنَّه قيل: إِنَّ هذا النبي الكريم أعظم من كل أولئك الذين يشيرون إليهم، وفي تقديم الصدقة قبل مناجاته -صلى الله عليه وآله وسلم- إعداد وتربية للجماعة المؤمنة على أفضل أنواع السلوك معه بأن لا ينادوه من وراء الحجرات، وأن

يلتزموا أرقى أنواع السلوك في تعاملهم معه، فإنه حتى لو قدموا بين يدي نجاوهم صدقات فليس ذلك بكثير عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، خاصة وأن فوائد ذلك إنما تعود عليهم أولاً وآخراً، ففقراؤهم هم المستفيدون بتلك الصدقة، وقوله (تعالى) ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ ليست بناسخة لما سبقها، بل هي محكمة إحكامها، ومتممة لمعانيها، فإن كثيراً من الناس قد أشفقوا على أن ذلك قد يحرمهم من مناجاة نبيهم الذي هو أحب إليهم من نفوسهم لقلّة ذات اليد⁽¹⁶¹⁾ وقد يستأثر بملاقاته ومناجاته الأغنياء، ولذا قال (تعالى) ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ ثم أردفها بقوله (جل شأنه) ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فكأنه أراد أن يقول إذا كانت الصدقة فيها نوع من الإثبات والدليل على حبكم للرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- واحترامكم له، فإن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله تطهركم وترزقكم وتجعلكم مؤهلين لمناجاته (عليه الصلاة والسلام) فإنها نوع من اتباعه -صلى الله عليه وآله وسلم- التي تدل على محبتهم المشار إليها في قوله (تعالى): ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: 31) ففيها معنى عميق كالمعنى المشار إليه في فهم القرآن الكريم كما قال (جل شأنه): ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: 79) فلا استفادة بمناجاته -صلى الله عليه وآله وسلم- لا تحصل إلا لقوم تزكوا وتطهروا وتهيئوا لملاقاة المتلقي الأول لكتاب الله (جل شأنه) ففي الآيتين معاً تهيئة نفسية على أعلى مستوى لأولئك الذين يريدون مناجاة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- ويتأثرون بصحبته

(161) ومن جنسه وينبه إليه شكوى الفقراء من استئثار الأغنياء بالأجور مثل ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات الغلاء والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، وهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرُونَ ويجهدون ويتصدقون، قال (ألا أخذتكم بأمر إن أخذتم به أذركم من سببكم ولم يذكركم أخذ بغيركم وكنتم خير من أنتم بين ظهرائيه إلا من عمل مثله تسبحون وتحمدون وتكثرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين فاختلنا بيننا فقال بعضنا نُسبح ثلاثاً وثلاثين ونحمد ثلاثاً وثلاثين ونكبر أربعاً وثلاثين فرجعنا إليه فقال تقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين) صحيح البخاري كتاب الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة 289/1 رقم 807.

ويستفيدون بها، وإذا كانت الصدقة المادية قد تكون وسيلة لتمييز المنافق الذي أحضرت نفسه الشح، والذي لا يرى أهمية لمناجاته لرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو غير مؤمن به فإنَّ المؤمنين لا يأتون إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا بقلب سليم تطهره مختلف أنواع وسائل التزكية والتطهير، فلا ناسخ ولا منسوخ بين الآيتين، وجنس ذلك مراعى في الآداب التي علّم الله المؤمنين عليها، والآداب التي أمرنا بالتحلي بها عند مقارنة القرآن أو مقارنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لكن العقل الفقهي يحرص على الدوام أن يترجم كل شيء إلى حلال وحرام، وأمر ونهي، وناسخ ومنسوخ، وعملیات بناء الأمم وتربيتها لا تتوقف على التقنين الفقهي وحده.

وإذا صحت الآثار التي نقلها بعض المفسرين بأنَّ هذا الأمر قد أريد به تمييز المنافقين عن المؤمنين فإنه لا يعارض ما ذكرنا -بل يعززه- لأنَّ الله (تبارك وتعالى) حين أمر رسوله بأخذ الزكاة علل ذلك بقوله (جل شأنه) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: 103) ويكون الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى بمثابة القيام بالتزامات لا بد من الوفاء بها قبل لقاء رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- التي يحدث بها تطهيرهم وتزكيتهم وصلاته عليهم، فأمروا بالتطهر وتهيئة القلوب والعقول والنفوس للقاء رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بحيث يكونون مؤهلين لاستغفاره لهم، وصلاته عليهم، وتعليمهم وتزكيتهم وتطهيرهم. فالمقصود هو التطهر قبل المناجاة، وهو قصد يمكن تحقيقه بكل أنواع العبادة، صدقة أو صلاة أو ذكرًا.

وحينما ننظر إلى كل تلك الآيات وتربطها فإننا لا نجد أنفسنا بحاجة إلى الاقتراب من القول بالنسخ أو مجرد إثارته بفضل الله. ومفهوم "الصدقة" مفهوم واسع جدًا فالكلمة الطيبة صدقة، وتبشّمك في وجه أخيك صدقة، والكّد على العيال صدقة. ويبدو أنَّ البعض قد ذهب أوهامهم إلى أنَّ الأمر منصرف إلى صدقة المال بخصوصها فحصل لديهم شيء من الاشفاق بأنَّ ذلك قد يحول بين الفقراء، ومناجاته -صلى الله عليه وآله وسلم- فطمأنهم القرآن بأنَّ الله (جل شأنه) يتوب عليهم، ويطهرهم بأيّ نوع من البر يفعلونه، ويعدّهم نفسيًا

لمناجاة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بحيث يتلقون ما يتلقونه منه بالجدية اللازمة.
والله أعلم.

6- قوله (تعالى) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ إِلَيْكَ قَلِيلًا نُّصَفْهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: 1-4)

زعم القائلون بالنسخ أن هذه الآيات الثلاث قد نسخت بقوله (تعالى) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّنْ خُصُّوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل: 20).

واختار القول بالنسخ ابن سلامة وابن حزم والخازن والكلبي والفيروزآبادي والشنقيطي وبعض المحدثين مستدلين بروايات عن عائشة وابن عباس والحسن وعكرمة ومقاتل والشافعي وابن كيسان. ورد القول بالنسخ الحسن وابن سيرين وسعيد بن جبير والطبرسي وآخرون. ووقف مجموعة من المفسرين موقف الحيدة بين الفريقين فلم يذهبوا إلى القول بالنسخ ولم يردّوه، ويمكن أن نضع من بين هؤلاء الماوردي والزحشري والرازي والقرطبي والبيضاوي والنيسابوري والبغوي والألوسي والشوكاني ومن إليهم. ومن بين هؤلاء أناس لم يشيروا إلى قضية النسخ في هذه الآيات ومنهم الإمام الطبري وابن العربي وأبو حيان وابن كثير وغيرهم.

ونحن لا نرى ما يسوغ الحديث عن وقوع نسخ بين الآيات الثلاث المذكورة، وما زعم أنه ناسخ لها ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ...﴾ ذلك أن كل ما في الأمر أن هذه الآيات من أوائل آيات القرآن الكريم نزولاً على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

وسلم، وأنَّ الوحي وتلقَّيه وعمليَّة تبليغه للناس وتلاوته عليهم وتعليمهم وتزكيتهم به كل هذه الأمور أمور في غاية الخطورة والأهميَّة، يعجز البشر بطاقتهم المحدودة وقدراتهم عن القيام بها، والنهوض بأعبائها، فهي تحتاج إلى معيَّة الله (تبارك وتعالى) في كل منها والارتباط الدائم به، والحضور الدائم بين يديه (سبحانه وتعالى) وذلك لا يتحقق إلا بالصلة الدائمة به (سبحانه) الصلة المستمرة التي لا تنقطع بحال من الأحوال، ولذلك فإنَّ الأمر في هذه الآيات قد علَّل بقوله (تعالى) ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:5) أي أنَّ من شأنه أن يحتاج منك إلى أن تكون في معيَّة الله (تبارك وتعالى) على الدوام، فأمر (عليه الصلاة والسلام) بأن يقوم الليل، ويكون على ذكر دائم لله (تبارك وتعالى)، يذكره في نفسه تضرُّعًا وخفية، ويذكره بين الملاء، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه -صلى الله عليه وآله وسلم- وهناك أصحاب كرام كانوا يحيطون به -صلى الله عليه وآله وسلم- يقتدون به ويتبعونه ويتأسَّون به لا يسألون عما إذا كان واجبًا عليهم أو مندوبًا أو غيره فالمهم عندهم اتِّباعه -صلى الله عليه وآله وسلم- في كل ما يأتي وما يدع، وما يفعل وما يصنع، فأراد الله (تبارك وتعالى) أن يدرك هؤلاء برحمته فبيَّن لهم أنَّه يعلم الفرق بين نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وبين غيره، ولذلك يمكن أن تخرَّج على ما جرى بالنسبة لصلاة التراويح وقيام رمضان، فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حين رأى الأصحاب قد انضموا إليه في صلاة التراويح امتنع عن الذهاب إلى المسجد وقال: "خشيت أن تفرض عليكم" (162)، فقيام الليل كان مفروضًا على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنَّه من ضرورات التأهيل لتلقي القول الثقيل، ولذلك قال (تعالى): ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (الإسراء:79)، وبقي بالنسبة للأمة أمرًا مندوبًا إليه ولا زال يمارسه كثير من المسلمين ويعتبرونه من أهم وسائل التزكية وتطهير النفس والتقرب إلى الله (تعالى)، والعلاقة بالله (تبارك وتعالى) كما رسمها القرآن العظيم علاقة لا تخضع لقضايا

(162) أخرج البخاري بسنده عن عائشة أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثرت الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تُفرض عليكم، وذلك في رمضان) صحيح البخاري أبواب التهجد، باب تحريض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (380/1 رقم 1077).

التقنين الفقهي والأحكام التكليفية وما إليه، بقدر ما تخضع للعلاقة القائمة على حب الله (تعالى) والرغبة إليه، وطلب القرب منه وحب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والتأسي به فلا داعي لتحويل كل شأن إلى نوع من العلاقة القانونية والفقهية التي تخضع للناسخ والمنسوخ، ورسول الله كثيراً ما كان يواصل وينهى الآخرين عن الوصال، ويقول: (لستم مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)⁽¹⁶³⁾، فهو يتحمل ما لا يتحمله الآخرون، ورأفته ورحمته بهم مستمدة من رحمة الله (تبارك وتعالى) بهذه الأمة، وبالتالي فإنَّ السورة محكمة -كلها- ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

المدخل السابع والعشرون: مدخل الاستنباط:

الاستنباط هو منهج ينتقل فيه الذهن من القوانين إلى الظواهر، بعكس الاستقراء الذي ينتقل فيه الذهن من الظواهر إلى القوانين وهو حملي إذا كانت مقدماته مسلّمات نهائية، أو فرضي إذا كانت مقدماته مسلّمات مؤقتة.

للاستنباط deductive على أساس من ذلك صفة متعالية على التجربة بوصفها مُغيّراً ضمن سلسلة من وقائع المتغيّرات، ونستطيع أن نقول: إنَّ ما هو استنباطي يصلح أن يكون ناظماً يَنْقِلُ شمولية نموذجهِ إلى التغيرات التي يتعدّل بواسطته انحرافها، خاصّةً في علم السلوك من المنظور الديني¹⁶⁴.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: 83):

⁽¹⁶³⁾ أخرجه الإمام البخاري، كتاب الصوم، باب الوصال 177/4.

¹⁶⁴ وليد منير، الاستنباط من المصادر الإسلامية.

عطف على جملة: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ...﴾ (النساء: 81) فضمير الجمع راجع إلى الضمائر قبله، العائدة إلى المنافقين، وهو الملائم للسياق، ولا يعكّر عليه إلا قوله: ﴿وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، وسنعلم تأويله، وقيل: الضمير هذا راجع إلى فريق من ضعفة المؤمنين: مَن قَلَّتْ تجربته وضعف جلده، وهو المناسب لقوله: ﴿وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ بحسب الظاهر، فيكون معاد الضمير محذوفاً من الكلام اعتماداً على قرينة حال النزول، كما في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (ص: 32).

والكلام مسوق مساق التوبيخ للمنافقين واللوم لمن يقبل مثل تلك الإذاعة، من المسلمين الأغرار.

ومعنى) جاءهم أمر (أي أخبروا به، قال امرؤ القيس: وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي.

فالجيء مجاز عرني في سماع الأخبار، مثل نظائره. وهي: بلغ، وانتهى إليه وأتاه، قال النابغة: أَتَانِي أَبِيتَ اللَّعْنُ أَتْلُكَ لُمْتَنِي.

والأمر هنا بمعنى الشيء، وهو هنا الخبر، بقرينة قوله: (أذاعوا به).

ومعنى (أذاعوا) أفشوا، ويتعدى إلى الخبر بنفسه، وبالباء، يقال: أذاعه وأذاع به، فالباء لتوكيد اللصوق كما في: ﴿...وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ...﴾ (المائدة: 6).

والمعنى إذا سمعوا خبراً عن سرايا المسلمين من الأمن، أي الظفر الذي يوجب أمن المسلمين أو الخوف وهو ما يوجب خوف المسلمين، أي اشتداد العدو عليهم، بادروا بإذاعته، أو إذا سمعوا خبراً عن الرسول (عليه السلام) وعن أصحابه، في تدبير أحوال المسلمين من أحوال الأمن أو الخوف، تحدّثوا بتلك الأخبار في الحالين، وأرجفوها بين الناس لقصد التشييط عن الاستعداد، إذا جاءت أخبار أمن حتى يؤخذ المؤمنون وهم غارون، وقصد التجبين إذا جاءت أخبار الخوف، واختلاف المعاذير للتهيئة للتخلّف عن الغزو إذا استنفروا إليه، فحذر الله المؤمنين من مكائد هؤلاء، ونبه هؤلاء على دخيلتهم، وقطع معذرتهم في كيدهم بقوله:

﴿.. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: 83)، أي لولا أنهم يقصدون السوء لاستتبوا الخبر من الرسول ومن أهل الرأي.

وعلى القول بأنّ الضمير راجع إلى المؤمنين فالآية عتاب للمؤمنين في هذا التسرع بالإذاعة، وأمرهم بإنهاء الأخبار إلى الرسول وقادة الصحابة ليضعوه مواضعه ويعلموهم محامله.

وقيل: كان المنافقون يختلقون الأخبار من الأمن أو الخوف، وهي مخالفة للواقع، ليظنّ المسلمون الأمن حين الخوف فلا يأخذوا حذرهم، أو الخوف حين الأمن فتضطرب أمورهم وتختلّ أحوال اجتماعهم، فكان دهماء المسلمين إذا سمعوا ذلك من المنافقين راجع عندهم فاذعوا به، فتمّ للمنافقين الدست، وتمشّت المكيدة، فلامهم الله وعلمهم أن ينهوا الأمر إلى الرسول وجلّة أصحابه قبل إشاعته ليعلموا كنه الخبر وحالّه من الصدق أو الكذب، ويأخذوا لكلّ حالة حيطتها، فيسلم المؤمنون من مكر المنافقين الذي قصدوه . وهذا بعيد من قوله: ﴿جَاءَهُمْ﴾ وعلى هذا فقوله: ﴿لَعَلِمَهُ﴾ هو دليل جواب (لو) وعِلَّتُهُ، فجعل عوضه وحذف المعلول، إذ المقصود لعلمه الذين يستنبطونه من أولي الأمر فلبّيئوه لهم على وجهه.

ويجوز أن يكون المعنى: ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلم ذلك المنافقون الذين اختلقوا الخبر فلخابوا إذ يوقنون بأنّ حيلتهم لم تتمشّ على المسلمين، فيكون الموصول صادقاً على المختلقين بدلالة المقام، ويكون ضمير (منهم) الثاني عائداً على المنافقين بقرينة المقام.

والردّ حقيقته إرجاع شيء إلى ما كان فيه من مكان أو يد. واستعمل هنا مجازاً في إبلاغ الخبر إلى أولى الناس بعلمه. وأولو الأمر هم كبراء المسلمين وأهل الرأي¹⁶⁵.

¹⁶⁵ ص رقم 141.

منهم، فإن كان المتحدث عنهم المنافقين فوصف أولي الأمر بأنهم منهم جارٍ على ظاهر الأمر وإرخاء العنان، أي أولو الأمر الذين يجعلون أنفسهم بعضهم؛ وإن كان المتحدث عنهم المؤمنين، فالتبعية ظاهر.

والاستنباط حقيقته طلب النبط بالتحريك؛ وهو أول الماء الذي يخرج من البئر عند الحفر؛ وهو هنا مجاز في العلم بحقيقة الشيء ومعرفة عواقبه، وأصله مكنية: شبه الخبر الحادث بخفير يُطلب منه الماء، وذكر الاستنباط تخيّل. وشاعت هذه الاستعارة حتى صارت حقيقة عرفية، فصار الاستنباط بمعنى التفسير والتبيين، وتعدية الفعل إلى ضمير الأمر على اعتبار المعنى العرفي، ولولا ذلك لقليل: يستنبطون منه، كما هو ظاهر، أو هو على نزع الخافض.

وإذا جريت على احتمال كون (يستنبطون) بمعنى يختلقون كما تقدّم كانت (يستنبطونه) تبعية، بأن شبه الخبر المختلق بالماء المخفور عنه، وأطلق يستنبطون بمعنى يختلقون، وتعدّى الفعل إلى ضمير الخبر لأنّه المستخرج. والعرب يكثرون الاستعارة من أحوال المياه كقولهم: يُصْدَرُ وَيُورَدُ، وقولهم ضَرَبَ أَخْمَاسًا لِأَسَدَاسٍ، وقولهم: يَنْزِعُ إِلَى كَذَا، وقوله (تعالى): ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (الذاريات: 59) وقال عبدة بن الطبيب:

فحقّ لشاس من نذاك ذنوب

ومنه قولهم: تساجل القوم، أصله من السَّجَل، وهو الدلو.

وقال قيس بن الخطيم:

إِذَا مَا اصْطَبَحْتُ أَرْبَعًا خَطَّ مِثْرِي

وَأَتَّبَعْتُ دَلْوِي فِي السَّمَاحِ رِشَاءَهَا

فذكر الدلو والرشاء. وقال النابغة:

خَطَاطِيفَ حَجْنٍ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ

تُمَدَّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعَ

وقال:

ولولا أبو الشقراء ما زال ماتح

يُعالج خَطَّافًا بِأَحْدَى الْجَرَائِرِ

وقالوا أيضاً: (انتهز الفرصة)، والفرصة نوبة الشرب، وقالوا: صدر الوم عن رأي فلان ووردوا على رأيه.

وقوله: (منهم) وصفٌ للذين يستنبطونه، وهم خاصّة أولي الأمر من المسلمين، أي يردُّونه إلى جماعةٍ أولي الأمر فيفهمه الفاهمون من أولي الأمر، وإذا فهمه جميعهم فأجدر.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ امتنان بإرشادهم إلى أنواع المصالح، والتحذير من المكائد ومن حبائل الشيطان وأنصاره.

واستثناء (إلا قليلاً) من عموم الأحوال المؤذن بها (اتَّبَعْتُمْ)، أي إلا في أحوال قليلة، فإن كان المراد من فضل الله ورحمته ما يشمل البعثة فما بعدها، فالمراد بالقليل الأحوال التي تنساق إليها النفوس في بعض الأحوال بالوازع العقلي أو العادي، وإن أريد بالفضل والرحمة النصائح والإرشاد فالمراد بالقليل ما هو معلوم من قواعد الإسلام. ولك أن تجعله استثناء من ضمير (اتَّبَعْتُمْ) أي إلا قليلاً منكم، فالمراد من الاتباع اتباع مثل هذه المكائد التي لا تروج على أهل الرأي من المؤمنين¹⁶⁶.

المدخل الثامن والعشرون: مدخل البحث عن تأثير القرآن في الإنسان

¹⁶⁶ تفسير الآية (النساء: 83) التحرير والتنوير، ابن عاشور.

في هذا المدخل يتضح بشكل كامل في صفات جيل التلقي، وكيف أثر القرآن بهم أو فيهم، ونقلهم تلك النقلة النوعية من كل ما كانوا عليه مما سماه القرآن الكريم بالجاهليّة، ليصبحوا خير أمة أخرجت للناس بوصف القرآن المجيد نفسه، وقد وصفوا قبل ذلك في التوراة والانجيل وصدق القرآن الكريم على تلك الأوصاف فقال (تعالى) ﴿مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 29).

المدخل التاسع والعشرون: مدخل الكشف عن بلاغة القرآن وفصاحته

من المعلوم أنَّ تعريفات البلاغة التي وصلتنا تعريفات كثيرة، إلَّا أنَّ التعريف الأكثر انتشارًا والذي هو أكثر تداولًا هو التعريف القائل بأنَّ: البلاغة تعني مراعاة مقتضى الحال. ومعنى «مراعاة مقتضى الحال» أنَّ الكلام البليغ هو الكلام الذي يأتي موافقًا للظرف الذي يُقال فيه، ومن ثمَّ يكون الكلام الذي لا يتوافق ومقتضى الحال كلامًا غير بليغ، وإن كان جميلًا في ذاته. فما معنى أن يكون كلامٌ ما كلامًا جميلًا لكنَّه لا يراعي سياقًا ولا شرطًا ولا ظرفًا يتحدث فيه؟ وبالتالي، فقضيَّة الجمال مختلفة -تمامًا- عن قضيَّة البلاغة. صحيحٌ أن كون كلامًا بليغًا يتضمَّن، في طيَّات ذلك، أنَّه كلام جميل، لكنَّه لا يكتسبُ بلاغته من جماله، بل من مراعاته لمقتضى الحال بشكلٍ أساسيٍّ ورئسيٍّ. وإذا عرَّجنا على القرآن الكريم -الذي هو أفصح الكلام وأبلغه وأصحَّه قطعًا، نجد أنَّ القرآن ببلاغته لم يراعِ فقط مقتضى الحال -إذ هذا شرط أوليٍّ لأيِّ «كلام» بليغ-، وإنَّما نراه قد أضاف إلى ذلك مضاعفات بلاغيَّة فائقة تفوق على أيِّ كلامٍ آخر، ولذلك كان قرآنًا «مبينًا» بذاته. ومن هذه «المضاعفات البلاغيَّة».

1- أنَّ القرآن الكريم قد راعى مقتضى الحال نزولاً في مواقيت محدّدة، وفي أوقات نزول بعينها، وهذا فضلاً عن أنّه حكمة إلهيّة، فهو أيضاً معنى بلاغي عميق، حيث يتنزل الكلام على مقتضى حال بعينه.

2- أنَّ القرآن لم يراعِ «الحال» فقط، وإنّما قد راعى الماضي والمستقبل. فهو لا يهتم بما هو قائم، وإنّما بما كان وما سيكون، فضلاً عن اهتمام القرآن بما ينبغي أن يكون، لأنّه كتاب قيم وأخلاق بالأساس. ولذلك قال الله لنبيّه (عليه الصلاة والسلام) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: 102).

3- أنَّ القرآن أيضاً لم يراعِ فقط المجموع، وإنّما راعى سياق كلّ فردٍ على حدة. كما في آية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: 1).

فالقرآن محاكاة بلاغيّة متحدّية معجزة دون السماح بتحوّل الزمان أو المكان إلى عائق يقلّل من قوة التحدّي أو الإعجاز أو يشد الخطاب إليه بأيّ وثاق.

المدخل الثلاثون: مدخل البحث في المحذوف والمقدر والمكنون في القرآن الكريم:

في القرآن المجيد مدخل لا يخطئه القارئ المتدبر ذلك لأنه ظاهر بين يفرض على ذهن القارئ أن يتوقف لينظر ويفكر فيما تطويه العبارة من أمور دفعت إلى طيها أسباب بلاغية ولكي يفرض ذلك المحذوف على القارئ المتدبر أن يفكر فيه ويقف عنده فحين يقول الله (جل شأنه) ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنَِّّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنَِّّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ (يس: 20-26)

فبين مجابته لقومه بإعلان إيمانه بما جاء به الرسل، ودخوله الجنة كلام لم يذكر، يستدعيه سياق الآيات الكريمة، فكأنه أضمر "فقام إليه قومه فقتلوه فأدخله الله (تبارك وتعالى) الجنة وما أعدده الله للشهداء المجاهدين فيها" ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: 26-27).

وكثير من آيات الكتاب الكريم نلاحظ فيها محذوفاً تنبه إليه المذكرات أو مكنوناً مدمراً تنبه إليه ظواهر الآيات وما إلى ذلك، فإذا استحضر القارئ المتدبر ذلك، وبدأ يستدعي المكنون والمضمر والمحذوف فإن ذلك سيكون عوناً كبيراً على الفهم والتدبر والتفسير والتأويل وما إلى ذلك.

نحن نعرف أن الفساد اليوم قد بدأ يظهر في الجو، ونفهم كذلك أن هناك فساداً يمكن أن يصيب كثيراً من جوانب الخلائق لا في البر والبحر فقط بل وفي الجو والنبات والشجر وما إلى ذلك إضافة إلى الإنسان والحيوان.

ومن هذه المداخل نستطيع الوصول لبعض خصائص القرآن الكريم:

- قدرة الخطاب القرآني على الانفتاح على حركة الزمن:

وحين ندرك -عند التعامل مع القرآن المجيد- أنَّ الخطاب القرآني منفتح على حركة الزمان، وأنَّه ذو قدرة خارقة معجزة على استيعاب تلك الحركة وتجاوزها، فإنَّنا لن نجد أنفسنا مضطَّرين للقول بالنسخ، أو ملاحظة تواريخ النزول، أو أسبابه فيما يتجاوز الاستثناس. وإنَّ نزول القرآن منجَّمًا في عصر النزول لم يكن لربط تلك النجوم القرآنيَّة ببيئة ذلك العصر، بل لتكوين "الأُمَّة القطب النموذج" بها وإبراز معالم منهج التكوين دون تقييد بذلك الواقع المبارك، فهو يمثِّل القدرة المطلقة على انفتاح الخطاب القرآني على حركة الزمن في عصر النبوة وما بعده، فيستيقن المؤمنون أنَّه قد جاءهم من الله نور وكتاب، فصَّله الله على علمه، فلا يستعصي عليه سؤال، ولا يتوقف عند أيِّ إشكال يأتي به الوقت، أو يفرزه الواقع، فهو تبيان لكل شيء، كما أنَّه يمثِّل قدرة الخطاب القرآني على الانفتاح على حركة الفعل الإنساني وتغيرها وصيرورتها داخل حركة الزمن واستيعابها وتجاوزها: فالخطاب القرآني فعل قولي مؤثِّر في فعل تاريخي، يتشكَّل ذلك الفعل وفقًا للحظة تاريخيَّة معيَّنة قد يتفق ويألف مع بعض عناصر تلك اللحظة التاريخيَّة، وقد يختلف مع بعض عناصر أخرى، فيستمر الخطاب القرآني بفاعليَّة وإحكام يعمل على جذب واستقطاب عناصر الاختلاف بتدرج متقن إلى مجال الائتلاف معه، بمجموعة من الوسائل، منها:

1. تأكيد استجابة بعض الوقائع المتكررة لمنطق الخطاب القرآني الداخلي وقدرته الفدَّة على استيعابها.

2. اقتراح بدائل عمليَّة متفوقة تحلُّ محل النموذج السائد في الواقع بقطع النظر عن مرجعيَّة ذلك النموذج.

وبذلك يتمكن الخطاب القرآنيّ من احتواء حركة الزمن وآلياته التاريخيّة في كليّته الشاملة⁽¹⁶⁷⁾.

استراتيجية الخطاب القرآنيّ:

إنّ الثقافة السائدة في المجتمع الجاهليّ كانت ثقافة قد تشكّلت عبر قرون وأجيال، والواقع الذي صاغته تلك الثقافة وصاغها قد شكّلت شخصيّة الإنسان الجاهليّ عقليّاً ونفسيّاً، لكن هذا التشكّل لم يكن نهائياً: فهو تشكّل قائم على تصورات - كما يقول المنطقة لا على تصديقات ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ (البجائية: 32)، لذلك فما دامت المياه راكدة فلن يشعر الجاهليّ بضرورة البحث عن "بديل ثقافي"، ولكنّه بمجرد أن تتعرض تلك التصورات لاختبار - مهما كان نوعه - تبرز وجوه هشاشة العلاقة بين عقليّة ونفسيّة الجاهليّ وتلك التصورات التي يحملها.

ولعل "الخطاب القرآنيّ" لم يكن مجرد اختبار لعقليّة العربيّ الجاهليّ ونفسيّته، بل كان تحدّيّاً هائلاً فرض عليه مناقشة المنظومة القيميّة الجاهلية كلها فلم يعد يغني عنه شيئاً إعراضه عن القرآن، أو عدم استماعه له، أو لغوه فيه أو صمّ أذنيه وإغلاق قلبه وغض عينيه عنه.

إذ إنّ خطاب يحمل قدرة هائلة على اختراق كل تلك الحجب. ولك أن تتصور "الخطاب القرآنيّ" هنا مقاتلاً مغوّراً، أو فارساً كامل الفروسيّة يحاول اختراق حصن حصين مصمت ليصل إلى عقل ونفس ووجدان ذلك الإنسان الذي جعل من نفسه حصناً للجاهليّة، فهو يستخدم كل الوسائل المتاحة لديه، والتي هيأها الله وأعدّها مسبقاً للقيام بعملية الاختراق، كما أنّه يستغل كل ثغرة أو فرجة أو نقطة هشّة ليصل إلى ما يريد؛ وهنا تجد نفسك أمام خطة استراتيجية دقيقة ومحكمة، ومخطّط في غاية الدقة تبدو لك غايته، ومعالم سياساته المرحليّة - حتى بلوغ الغاية - ولذلك فإنّه حين تبدو للقارئ بعض التعارضات

(167) قارن مع "النصّ القرآنيّ: من الجملة إلى العالم" الفصل الأول، ص(17) وما بعدها.

الموهومة على سطح الخطاب فإنّها لا تنم إلّا عن طبيعة "المجاوزات المرحليّة التي يمر الخطاب بها وهو⁽¹⁶⁸⁾ يشق طريقه حاملاً المعنى الذي حمل به إلى عقل المخاطب ونفسه ووجدانه" والخطاب يهيئ المخاطب -وهو يقوم بالعمليّات التمهيدية- لمحاولات الاقتحام لإدخال المخاطب بادئ ذي بدء في عمليّة مواجهة إيجابيّة مع ذاته من خلال عقد علاقة إيجابيّة وجيدة مع بعض الحقائق الجيدة المستقرة فينفس المخاطب لتحقيق هدفين:

الأول: تحييد ذلك الجانب والخروج بالمخاطب من دائرة الصراع والتحفّز المعادي إلى دائرة الحوار، والاستعداد للتفاهم، ثم لتحديد ذلك الجانب الذي يمثّل عنصر القوّة في المخاطب لهزم عنصر الضعف فيه، وهنا نستطيع أن نفهم درجة السموّ في مفهوم "الإصلاح" لدى الأنبياء بدلاً من مفاهيم التغيير والثورة والإنقلاب وما إليها.

الثاني: أنّ الخطاب القرآنيّ يدرك تماماً أنّه يقدّم عقيدة بديلة وشرعية بديلة، وتصوراً بديلاً وثقافة بديلة .. إلخ، ولكنّه -وهو يمارس استراتيجيّته في تحقيق ذلك- "ينحاز على مستوى الموضوع والقيمة إلى عدد من القيم الراسخة في الثقافة التي يعمل على إصلاحها وتقديم البديل عنها كإنحيازه في الحالة العربيّة إلى الكرم والشجاعة والأمانة والغيرة ونجدة الضعيف، ويندد -في الوقت ذاته- بقيم أخرى كالصلف والتفاخر بالآباء والاعتداد بسلطة المال والاسترقاق وإدمان الشراب والمقامرة والنظر إلى المرأة بوصفها مخلوقاً دونياً"⁽¹⁶⁹⁾، وهنا يأخذ القرآن بيد المخاطب ليعلي الجانب الإيجابي المنسجم مع فطرته فيه، ويستعين به على جعل هذا الإنسان بمواجهة ذاته، يحاورها ويجادلها ليصل إلى مستوى رفض الجانب السيئ الذي كان عليه، وقبول البدائل التي جاء بها الخطاب القرآنيّ، والخطاب -وهو يعمل على استقطاب عناصر الاختلاف معه إلى مجال الائتلاف بالوسائل الثلاثة التي مر ذكرها يدرك أنّه مطالب -كذلك-

⁽¹⁶⁸⁾ ((النص القرآني، مصدر سابق ص 17.

⁽¹⁶⁹⁾ (الخطاب القرآني، مصدر سابق، ص 21.

1. بإثبات حجّيته للمخاطب لإيجاد الاستعداد للقناعة لديه بهذا الخطاب، والثقة بمصدريّته ومرجعّيته الإلهيّة، وفتح قوى الوعي لدى المخاطب للاهتمام بهذا الخطاب الجديد والانفتاح عليه، وليسمح بمخالطة بشاشته القلب.
 2. بإثبات شرعيّته، بل وإثبات تفوّقها على شرعيّة الموروث واستقراره مستفيدًا من أكثر عوامل الهدم والبناء فاعليّة وتأثيرًا في الوعي الإنسانيّ.
 3. وهنا يساعد تقديم البدائل التي ذكرناها فيما سبق على إزالة عقبة الخوف من الفراغ أو الخوف من المجهول.
 4. كما أنّ الخطاب الجديد لابد أن يكون متفوّقًا ليمكن من إقناع المخاطب بضرورة نظره فيه، ولذلك كان "تحدي القرآن المجيد" عاملاً هامًا في دفع العرب لقراءته والنظر فيه، وإدراك أهم الفوارق بينه وبين أي خطاب آخر⁽¹⁷⁰⁾.
- الخطاب القرآنيّ يبيّن منظومة كاملة للقيم والمقاصد:**

إذا كان المحور العقيدّي قد حظي باهتمام وتركيز عامّة السّور المكيّة، وفرض نفسه على أساليبها -: فإنّ المحور التشريعيّ والنظميّ قد استأثر باهتمام السور والآيات المدنيّة فجاءت آياته في سياق بناء الجماعة المؤمنة نواةً للأمة القطب المسلمة "والخطاب القرآنيّ" -هنا- كان يعمل على تقديم المقاصد الشرعيّة الكبرى لأوّل مرّة في تاريخ الشرائع والقيم.

كذلك عنى الخطاب القرآنيّ بتقديم "القيم الحاكمة العليا" لتشكّل قاعدة الثوابت الراسخة التي تمكّن البشريّة من الاستجابة لحاجاتها التشريعيّة مع تحقيق مقاصد الشرائع مهما اختلفت البيئات وتنوعت الثقافات والحضارات، وتمايزت الأنماط الحياتيّة للبشر لتكون لدى البشريّة على الدوام -بعد ختم النبوة- الوسائل العادلة والأمانة في تقييم الفعل الإنسانيّ الذي هو غاية التشريع، ومقصده.

⁽¹⁷⁰⁾ راجع مقدمتنا لكتاب "النصّ القرآنيّ" ص 9.

والخطاب التشريعيّ القرآنيّ جانب من جوانب النصّ القرآنيّ المطلق، وهو مع إطلاقه وتعاليه وتجاوزه، واستهدافه بناء منظومة القيم والمقاصد لتكون للإنسان ينبوع الغزير القادر على تلبية احتياجاته التشريعيّة عبر العصور - لكنّه - لم يغفل تناول جزئيات تنعكس عليها تلك القيم والمقاصد بوضوح من ناحية، وتشمل مختلف جوانب الحاجات الحيائيّة من ناحية أخرى، لتؤكد على تكامل المقدرة التشريعيّة لهذا الخطاب؛ ولذلك فقد وضع الخطاب القرآنيّ في اعتباره وهو يتناول ذلك "حالة المخاطبين المكلفين" والواقع بعناصره المختلفة والسياق⁽¹⁷¹⁾، الذي ورد "الخطاب فيه". فأما بالنسبة للواقع فيتفاعل الخطاب معه متدرجاً فيتصل به، وينفصل عنه فيستوعب الواقع، لكنّه سرعان ما يتجاوزه فهو لا يحل فيه ولا يرتبط به ارتباطاً نهائياً بل يستوعبه ويقوم بترقيته وتركيبته ثم يتجاوزه إلى المستقبل.

وحيث يتصل الخطاب بالواقع يتصل به اتصال الحكيم المترقّب كأنّه يوجه إليه سؤالاً: تلك هي قيمتي وتلك هي حالتك فإلى أيّ مدى تستطيع التجاوب معي، وتتجاوز نقصك وتتعالى عليه؟.

وحيث يتجه إلى المخاطب يتجه اتجاه المحيط بطاقاته وقدراته ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: 28) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: 37) والمحيط بظروفه والمؤثرات فيه، فكأنّه يبدأ بقياس طاقات هذا الإنسان المختلفة ليوظّف الإيجابيّ منها في مواجهة السلبيّ.

أمّا "السياق" ذاته فنستطيع أن نتبّع التقنيات والأساليب العديدة التي يعمد إليها، وهو يؤدي مهمّته في بناء المقاصد والقيم، واستراتيجيّته، وخططه التي يتبّعها في ثناياه - كما أشرنا إليها فيما تقدم-. وقد يبدو في الخطاب القرآنيّ -وهو يمارس ذلك كلّ- نوع من

(171) قارن "النصّ القرآنيّ" مصدر سابق ص 17، ونحو منهجيّة التعامل مع مصادر التنظير الإسلاميّ بين المقدمات والمقومات د. منى أبو الفضل، ط 1، المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ، 1996، القاهرة، ص 27).

تعارض للوهلة الأولى على سطح الخطاب سرعان ما يزول عند ملاحظة ما ذكرنا بالدقة والتفاصيل المطلوبة، وإليك بعض الأمثلة:

روى سفيان عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أنه تلا هذه الآية: ﴿لَلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 284) فدمعت عيناه فبلغ صنيعه ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد صنع ما صنع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)⁽¹⁷²⁾، وفي قوله (عز وجل) ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ﴾ (الأنفال: 65) قال ابن عباس: فرض عليهم أن لا يفر رجل من عشرة ولا قوم من عشرة أمثالهم، وقال: فجهد الناس ذلك وشقَّ عليهم فنزلت الآية الأخرى ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ﴾ فرض عليهم أن لا يفر الرجل من رجلين ولا قوم من مثلهم⁽¹⁷³⁾، وروى عن قتادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: 51) أي أن يطيعوه فلا يعصوه، ﴿وَلَا تَمُوتُنَا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 51) قال قتادة: نسختها الآية التي في التغابن ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ (التغابن: 16)، وعليها بايعوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - "على السمع والطاعة ما استطاعوا"⁽¹⁷⁴⁾، وذكر قتادة أيضًا عن قوله (عز وجل): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (القمار كله) ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (البقرة: 219)، وذمهما ولم يحرمهما، وهي لهم حلال يومئذ، ثم أنزل الله (عز وجل) بعد ذلك هذه الآية في شأن الخمر، وهي أشد منها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى

⁽¹⁷²⁾ نواسخ القرآن، أبو الفرج ابن الجوزي، ص(999، ط دار الكتب العلمية بيروت).

⁽¹⁷³⁾ المرجع السابق، ص (68).

⁽¹⁷⁴⁾ الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى، تحقيق حاتم الضامن، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995، ص 38.

حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ (النساء: 43) فكان السكر منها حراماً عليهم ثم إنَّ الله (عز وجل) أنزل الآية التي في سورة المائدة فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: 90 – 91) فجاء تحريمها في هذه الآية قليلها وكثيرها، ما أسكر منها وما لم يسكر⁽¹⁷⁵⁾.

وهناك مداخل أخرى لقراءة القرآن الكريم لم نرد أن نطيل الحديث عنها وهي:

1. إنَّ تنزيل القارئ للقرآن على قلبه – بالشكل الذي أوضحنا – مدخل أساسي من مداخل فهمه، والفقه فيه. ولعلَّه أهم مداخل "الجمع بين القراءتين" فالله (تبارك وتعالى) قال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 97) وقال (تعالى) ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء: 192-194) وهناك مداخل أخرى للدخول إلى عالم القرآن الجيد، منها:

2. مدخل الانطلاق من الإيمان "بوحدة السورة" وهو مدخل لا يختلف كثيراً عن مدخل "الوحدة البنائية"، لكن التركيز فيه يكون على سورة واحدة يتخذها القارئ المتدرب بمثابة وحدة متميزة. وهنا ينطلق في تدبره باتجاه البحث عن عمودها، والأعمدة أو الأوتاد الساندة. ونعني بذلك: أنَّ لكل سورة موضوعاً أساسياً تأتي آياتها – كلها – لتوضيحه وبيانه، وتجلية ما يتعلق به. وتكون الموضوعات الأخرى دائرة حول ذلك الموضوع الأساسي تعززه، وتريد في بيانه وتوضيحه، فتكون بمثابة الأوتاد المساندة لعمود البيت ودعامته

⁽¹⁷⁵⁾ الناسخ والمنسوخ، المرجع السابق.

الكبرى. وقد كتب فيه "الإصلاحي" دراسة جيدة تحتاج إلى من يبني عليها، ويتوسع فيها، ونبه إلى ذلك الشيخ أمين الخولي.

3. وهناك مدخل الولوج إلى رحاب القرآن بمدخل العلاقات بين الله (تبارك وتعالى) والإنسان والكون المسخر. فحين نقول: "الله" فإننا نستحضر بذلك علم الغيب كله وحين نقول: "الإنسان" فإننا ننبه بذلك إلى كل ما يتعلق به ابتداءً من "عالم العهد الأول، أو عالم الذر" مروراً بعالم الخلق والإبراز. للوجود والأمر بالتصدي للمهمة، وانتهاءً بعالم المآل إلى الجنة أو النار. وحين نقول: "الكون" فإننا نعني به عالم الخلق أو الأشياء والسنن والقوانين الموجهة، والمسيرة له، وتنوع الخلق فيه: من حيوان وبحار وأنهار وشمس وقمر وموجودات، ومنها الإنسان نفسه، وذلك يعني: أننا نبحث عن العلاقات بين الله (تعالى) والإنسان والكون، وكيفية حدوث الفعل والانفعال أو ما يسمى "بالتفاعل" في كل ما قصه الله (تبارك وتعالى) في القرآن المجيد، فنكتسب بذلك وعياً وقدرة نتمكن بها من تدبر القرآن وتلاوته وترتيبه، لتتعقل به أوضاعنا، وما نعيشه في مرحلتنا التي لا تعدو أن تكون حلقة من حلقات تاريخ أسرتنا البشرية الممتدة. ومدخل القيم العليا والعلاقات بين الخالق والمخلوق سوف يكونان خير رفيق لنا في الطواف في آيات القرآن المجيد. والله أعلم.

4. مدخل البحث في المناسبات. والمناسبات أو التناسب بين الآيات والسور علم دقيق وهام حاوله كثير من المتقدمين فقاربه بعضهم، وأعلن بعضهم العجز عنه، فتجاوزه إلى المداخل الأيسر.

ويقول الإمام الرازي (ت: 606 هـ): "... من تأمل لطائف نظم السور، وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته..." ويقول أيضاً: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".

ويقول القاضي أبو بكر بن العربيّ من علماء القرن الخامس: "... ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم".

ويقول برهان الدين البقاعي صاحب أشهر كتاب في الموضوع "نظم الدرر في بيان تناسب الآيات والسور": "إنَّ السورة وإن تعددت قضاياها في كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. ولا غنى لمفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية الواحدة..." يريد القضية المنطقية وهي عبارة عن جملة واحدة.

فحين نعلم إلى القراءة المتدبرة بهذا المدخل فإنَّ من الممكن التدرب عليه بأن نأخذ سورة من تلك السور التي تعددت نجومها، وتنوعت موضوعاتها، وكثرت معانيها. ثم نتبع آياتها آية بعد آية، ومجموعة بعد أخرى ثم نتفكر في بدايتها ومسيرتها وانسيابها حتى بلغت خاتمتها. ونعود من الخاتمة إلى البداية، وننظر في العلاقات بين اسمها وتسويرها لتكون سورة مستقلة، ثم علاقتها بما قبلها وما بعدها فسنكتشف شبكة من العلاقات بينها تجعلنا نشعر أنَّها نزلت حين نزلت، وكأنَّها نجم واحد، أو أنَّها نزلت مرة واحدة.

هذه المداخل هي مداخل مقترحة تمثل حصيلة معايشة للقرآن، ومحاولة للاقترب منه وليست بحال من الأحوال نهاية المداخل المطلوبة لمقاربة القرآن المجيد، وهي قابلة للإثراء والإضافة، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

* * *

مداخل قراءة الكون:

للكون مداخل للقراءة، كما كان للوحي مداخل للقراءة. ومداخل "قراءة الكون" متعددة كذلك، منها:

1- مدخل الخلق:

هذا المدخل يقتضي الإيمان التام واليقين الخالص بأنَّ الكون - كله - مخلوق لله (تعالى) عن إرادته صدر، وبكلماته تَكُون، وبتقديره تشيئاً: فصار شيئاً مذكوراً. وأَنَّهُ (سبحانه) ما خلقه إلا بالحق، وأنَّ كلَّ شيء فيه بقدر ومقدار، وتقدير محدّد، وأَنَّهُ سائر إلى غاية معيّنة، فلا مجال للقول بالمصادفة أو العبث أو العدم أو اللاغاية!! وأنَّ كلَّ شيء فيه له علة، كما أنَّ له غاية. والقيام بمهمة الاستخلاف، والوفاء بالعهد الإلهي، والقيام بحق الأمانة، والنجاح في اختبار الابتلاء، والخروج من عهدة التكليف، كل أولئك أمور يتوقف القيام بها على إدراك هذه الأمور، والوعي بها وعياً يجعل منها آيات للحق (تبارك وتعالى) موصّلة إليه، منبّهة إلى صفات الكمال التي يتصف بها، موجهة للإيمان به، وإدراك عظمتها، وفهم حسن تدبيره وحكمته وإعجاز تقديره.

والقرآن المجيد - وهو يدعونا للنظر في الخلق والطبيعة - لا يرشح نفسه مصدراً للعلم الطبيعيّ، ولكنّه يوجه إلى ذلك للأخذ بيد الإنسان للوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيّته، واليقين باتصافه بكل صفات الكمال، وتنزّهه عن كل صفات النقصان، وفي ذلك - كله - بناء لطاقت الإنسان الإدراكيّة وقابليّته العقليّة والفكريّة، واستعداداته المعرفيّة، وتحريك لسائر قوى الوعي فيه، وتأهيله للمهام الكبرى التي أوكلت إليه. وإذا كان الوحي يعينه على تحقيق التركيبة بكونها ذات أولويّة كبرى بعد التوحيد وبه ومعه، فإنَّ النظر في الخلق والطبيعة يعينه على كسب الأهليّة لتحقيق العمران، والنظر في الخلق والطبيعة، وهي مسخرة خاضعة لله (تعالى) وبسننه وقوانينه تتحرك أو يتشكّل كل شيء فيها فليس الإنسان خاضعاً لها، وليس له أن يغتر بتسخيرها له فيستكبر، ويقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: 78) أو يحسب نفسه مقهوراً لها فيشرك، أو قاهراً لها بنفسه فيلحد، ولكنّه يراها مسخرة لله خاضعة له. وأنَّ ربه وربها واحد أوكل إلى هذا الإنسان مهمة الخلافة فيها، واستثمارها وإعمارها.

ولهذا المدخل الهام مداخل فرعيّة يرشد الوحي إليها، منها:

معرفة مبدأ الخلق، وكيفية تكوين الموجودات وأهم وظائفها: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30). ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: 15 - 16) كما يربط بينه وبينها: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: 17 - 18). وهذا المدخل يؤدي -أيضاً- إلى:

كشف النظام الدقيق للكون وغائية الخلق:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: 73)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 16 - 17).

والإنسان مطالب أن يتفكر في خلق السماوات والأرض ليدرك ذلك -كله- ويكشف عما في الكون والخلق من دقة ونظام، وسنن حكمة، وغايات وعِلل ويتبين وحدانية الله (تعالى) ويبني تصوراتهِ عن الكون والحياة والإنسان انطلاقاً من ذلك. فيتمكن من تحقيق العمران. وإلا كانت الحياة الدنيا بالنسبة إليه لهوًا ولعبًا، وعبثًا يتنزه الخالق عنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: 115).

كما يكتشف الإنسان بتدبر هذا المدخل أنَّ هذا النظام الدقيق المحكم لا يعني أن الخلق خالد، أو أنه مستمر دائم لا نهاية له، بل هو محكوم بأجل مسمى، فدقة نظامه، والبدائع التي اشتمل عليها، واتساعه وعظمته لن تمنحه صفة الخلود. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم: 8).

وكونه سائرًا إلى نهاية وأجل مسمى لا يزيل عنه صفة الحق، الذي خلق به وقام عليه. ولأنَّ الإنسان جزء من الخلق وابن شرعي للطبيعة فلا ينبغي له أن يغفل عن أنَّه يجري

عليه ما يجري عليها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 56 - 57). وهم إن علموا شيئاً وهم في حالة كفر بالوحي أو انفصال عنه فإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: 7).

والتفكر في هذا المدخل وتدبره بعناية يؤدي بالإنسان كذلك إلى إدراك ذلك التلازم العجيب الذي أوجده الخالق البارئ المصور (جل شأنه، وعزّت قدرته) بين العلم والإيمان. وأنّ العلم حين يفصل عن الإيمان يكون أحياناً ضرره أكبر من نفعه : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 56).

لقد عمل القرآن المجيد على بناء أمتن وأقوى وأفضل العلاقات بين الإنسان والعالم المخلوق لله، والمسخر له لئلا يقع بينهما تناهد أو تصارع، أو علاقات مضطربة فتضيع حكم كثيرة قد لا تؤثر في تسخير الطبيعة أو الكون الخاضع لسنن لا تبدل لها، ولكنها تحرم الإنسان من تلك المشاعر السامية - في الحد الأدنى - وهي المشاعر التي تجعله يحسُّ بحبِّ واحترام بيئته، وما فيها ومن فيها فيحقق السلام النفسي والذاتي، ويحقق السلام مع كل ما حوله ويدرك قدر نعم الله التي لا تحصى عليه حين سخر له كل ما حوله، وعلمه كيف يستفيد به، ويستخلف فيه ويعمره، ويقيم الحق والعدل فيه، ويقوده في قافلة العبادة والتسبيح للذي خلق (سبحانه).

فالإنسان لا يحتاج لقهر الطبيعة والخلق، وكيف يحتاج لذلك والكلّ مسخر له بتسخير الله (تعالى)، وهو الذي مكّنه من ذلك - كلّ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: 13).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: 10)، فالإنسان مطالب باستثمار ذلك كلّ والاستفادة به، وإن هو لم يفعل فإنه يكون قد أخلّ بوظيفته في الكون، فالعمران من العبادة وأيّ جزء من

أجزاء الطبيعة يُهمل، فذلك يعني أنه ميّت أو مقتول. ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (يس: 33) ولذلك وضع الفقهاء باباً في الفقه أطلقوا عليه "إحياء الموات" أي الأراضي المهملة التي لا تزرع ولا يبنى عليها، ولا تستثمر.

وإنّ القرآن المجيد قد أقام هذه العلاقات الودّية بين الإنسان وعناصر الكون كلّها ولم يقصر ذلك على البيئة المحيطة به - وحدها - أو البيئة المباشرة، بل تعدّى ذلك إلى الشمس والقمر والنجوم ﴿... وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (نوح: 16) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: 97).

والقرآن ينبّه هذا الإنسان المستخلف المسؤول عن العمران، والتعبّد لله (تعالى) به إلى أنّ عليه أن يستعمل سائر إمكاناته الذاتية، والطاقات التي زوّده الله (تعالى) بها لبناء علاقاته بالكون بالشكل المناسب: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الرعد: 78) فالإنسان في حاجة ماسّة وضروريّة إلى هذه الأدوات والقوى. ولكي يشحذ هذه القوى، ويضاعف طاقاتها هو في حاجة إلى النظر في الأرض والكون فيكون النفع بينهما متبادلاً فالنظر والمشاهدة والتدبّر والتفكّر والتعقّل تُمكن الإنسان من حسن استثمار الكون، وبنميّ طاقاته. ونظره في الكون يعود على هذه الوسائل والأدوات بطاقات مضاعفة. وتعطيها عن ذلك يصيبها بالكسل والفتور. أو يؤدي بها إلى الانحراف.

2. مدخل العناية :

هذا المدخل من مداخل قراءة الكون لا يبعد كثيراً عن "مدخل الخلق"، وإذا كان مدخل الخلق يقودنا إلى النظر في الخلق كيف "بدأ الله الخلق"، وإدراك الغاية منه وسيروته وما سينتهي إليه: فإنّ مدخل "العناية" يؤدي بنا إلى النظر في نظام الكون الدقيق، واكتشاف بدائع الصنع الإلهي فيه، والقوانين والسنن التي لا تبدل لها،

ويوضح في الوقت نفسه الرعاية الإلهية للإنسان بهذه العناية. وهذا النوع من النظر يربّي في الإنسان العقل، ويدرّبه على النظر العقليّ في كل ما حوله، ويعلمه كيف يدرك المقاصد والكليّات والحكم والغايات من مداركها وبوسائلها، فيؤمن بربه، ويتق في نفسه. ويدرك أنّ الكون ليس مركّباً من عناصر مشتّتة، أو أجزاء منفصلة، بل يراها في ترابطها الدقيق، وانتظامها المتناسك. فذلك هو الذي يعود على الإنسان "بالرؤية الكلية" للكون والإنسان والحياة. ولقد أجهّد الفلاسفة والمدارس الفلسفيّة أنفسهم عبر التاريخ، وما يزال الكثيرون منهم يسعون إلى معرفة المنهج أو الكيفيّة التي يمكن بمقتضاها إرجاع سائر عناصر الكون إلى أصل واحد. والوصول إلى منهج أو نظام معرفيّ أو نموذج معرفيّ يمكن من تفسير الظواهر الكونيّة والطبيعيّة به بشكل عام شامل. إذ لا شك أنّ كثيراً من الظواهر الطبيعيّة ما يزال العلماء الماديّون —خاصّة— يتخبّطون في تفسيرها، ويقبّلون أفئدتهم وأبصارهم فيها، فلا تعود عليهم بالكثير. ولعل السبب الأول لذلك يكمن في عدم التفات هؤلاء العلماء الماديّين إلى ما وراء تلك الظواهر من نظام دقيق، وعناية إلهيّة فائقة، فتتّحصر أنظارهم في الظواهر الحسيّة التي تجعلهم مقيدين "بالجدل بين عناصر الطبيعة الماديّة". أمّا لطف التدبير، ووحدة نظامه فإنّه لا يُدرّك إذا لم يؤمن العالم الباحث بوجود المدبّر الواحد، وعنايته وحكمته، ومطلق قدرته، فذلك هو الذي يعصم الباحث من التيه، والوقوع في الخطأ. ويضرب الله (تبارك وتعالى) للبشريّة مثلاً بأبي الأنبياء إبراهيم —عليه السلام— حيث نظر في مجموعة من الظواهر والموجودات الكونيّة باحثاً متأملاً ليحدد موقع كل من تلك الظواهر منه من ناحية، ويحدّد لنفسه موقفاً منها يقول الله (تعالى) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 76 - 79).

فسيّدنا إبراهيم كانت لديه "إشكاليّة أو أزمة" برزت وهو يشاهد قومه يعبدون

أصنامًا لهم يصنعها أبوه، ويبيعها عليهم، فأراد لتلك الأزمة المؤرقة حلاً. توجه بالسؤال إلى أبيه "آزر" صانع الأصنام فقال له ولقومه ﴿... مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (الشعراء: 69 - 74). فلم يكن لديهم جواب شاف أو مقنع غير الحجة المفلوكة المكررة التي لا تقنع أحدًا -تقليد الآباء -: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: 74) وهنا يتجه إبراهيم -بتوفيق من الله- إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ليقوده إلى الدواء الشافي من تلك الأزمة -الإشكالية

لقد جرَّء إبراهيم سؤال الأزمة لديه إلى أجزاء عديدة أو أسئلة فرعية متعدّدة. ففي الكواكب نظر في ظاهرتي الأفول -الغياب والنقص- بعد البروغ، والإشعاع بالنور، وأدرك أنَّ الأفول والنقص والغياب لا يمكن أن يتصف الإله بشيء منها، إذ كيف يدبّر مخلوقاته وهو بهذه الصفات؟ ومن ذا الذي يقوم بالعناية بها إذا غاب؟. فكانت تلك أسئلته في ملكوت السماوات حتى إذا التفت إلى ملكوت الأرض ساءل قومه وأباه بعد توجيهه سؤاله الأساسي والخوربي: ﴿مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاعْفُ عَنِّي لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 69 - 89).

هنا وبعد أن أجهد نفسه في النظر العقلي في ملكوت السماوات والأرض ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: 75) تبرأ من آلهة أبيه وقومه -كلها- ووجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض، مائلاً عن كل ما كان متوافراً من الأديان إلى "الإسلام" فأسلم وجهه لله رب العالمين، فبلغ

بذلك توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. ومدخل العناية إن عرفه الباحثون حق المعرفة، وتبينوا معالم النظام البديع المعجز الذي يسير الله (تعالى) الكون بمقتضاه فإن ذلك سوف يوجد فيهم أقوى الدوافع للبحث الجاد المتواصل للكشف عن الكون، والبحث في الطبيعة، وبلوغ العلاقات والقوانين التي يقوم عليها النظام الكوني. والباحث المؤمن حين يعجز عن اكتشاف حلقة من حلقات ذلك النظام في ظاهرة من الظواهر فإنه لن يتهم المنهج العلمي الذي استخدمه، ولن ينفي وجود النظام لمجرد أنه لم يضع يده عليه في تلك الظاهرة، فهو يدرك أن "عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود"، ولذلك فإن الباحث المؤمن سوف يعاود البحث مرة أخرى، وثانية وثالثة، وينسب القصور إلى نفسه، أو طريقته في استعمال المنهج. ولن يلجأ إلى القول بالاحتمالية، أو المصادفة، أو نفي النظام.

3. مدخل النظر في الواقع الموضوعي الخارجي:

إنّ للأشياء وجوداً ذهنيّاً ووجوداً واقعياً، فالوجود الذهني عبارة عن تلك الصور الذهنية التي ترسمها المخيلة الإنسانية للأشياء، فإذا خرجنا بها إلى الواقع فإما أن نجده مطابقاً لما ارتسم في أذهاننا. فيصدق الواقع الخارجي "الصورة الذهنية"، فيتضح لنا آنذاك - أن تلك الصورة الذهنية تحقّقاً عينياً. ولو أنّ الواقع الخارجي لم يصادق على تلك الصورة الذهنية، فذلك يعني أنّ تلك الصورة غير دقيقة، أو هي مجرد صورة متخيّلة لا سند لها من الواقع ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: 20).

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 185) فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية في المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية، فالذي يجمع بين القراءتين لا يستغني عن الله؛ لأنه يدرك دومًا افتقاره لله (سبحانه وتعالى)، فلا يستبد، ولا يتغني علوًا في الأرض ولا فسادًا، ولا يطغى، ولا يلحد ولا يدمر الحياة والأحياء، ولا يعيث في الأرض فسادًا.

* * *

إنَّ هذه المداخل لا نطمع أن يتوصل القارئ بها المرتل المتدبّر إلى تفسير كامل للسورة، يحصي دقائقها ويتتبع نظمها وأسلوبها وما أنزلت من أجله، بل قصارى ما نتوقعه من هذه المداخل أن تفتح ذهن القارئ المتدبّر الذي جاء القرآن الكريم ليقراه بهذه المداخل إلى المعاني العامّة للسورة، بحيث تنفتح له أبوابها ونجومها ويبدأ ذهنه بالتفاعل معها والاشتباك مع تفاصيل ما ورد فيها، وبذلك يصبح أكثر قدرة على تتبّع المعاني التي اشتملت السورة عليها، وفهمها والإلمام بدقائقها، وبلوغ حالة الوعي به، والقدرة على تأويلها وتفسيرها بعد أن يكون قد أعدّ للأمر عدّته، فإذا ضربنا في ذلك مثلاً بسورتي الفاتحة والبقرة فإنّنا نجد أنّ هذه المداخل تقودنا إلى الكشف عن عمود السورة وأوتادها وما يقوم عليه بناؤها وإحكامها وتفصيلها.